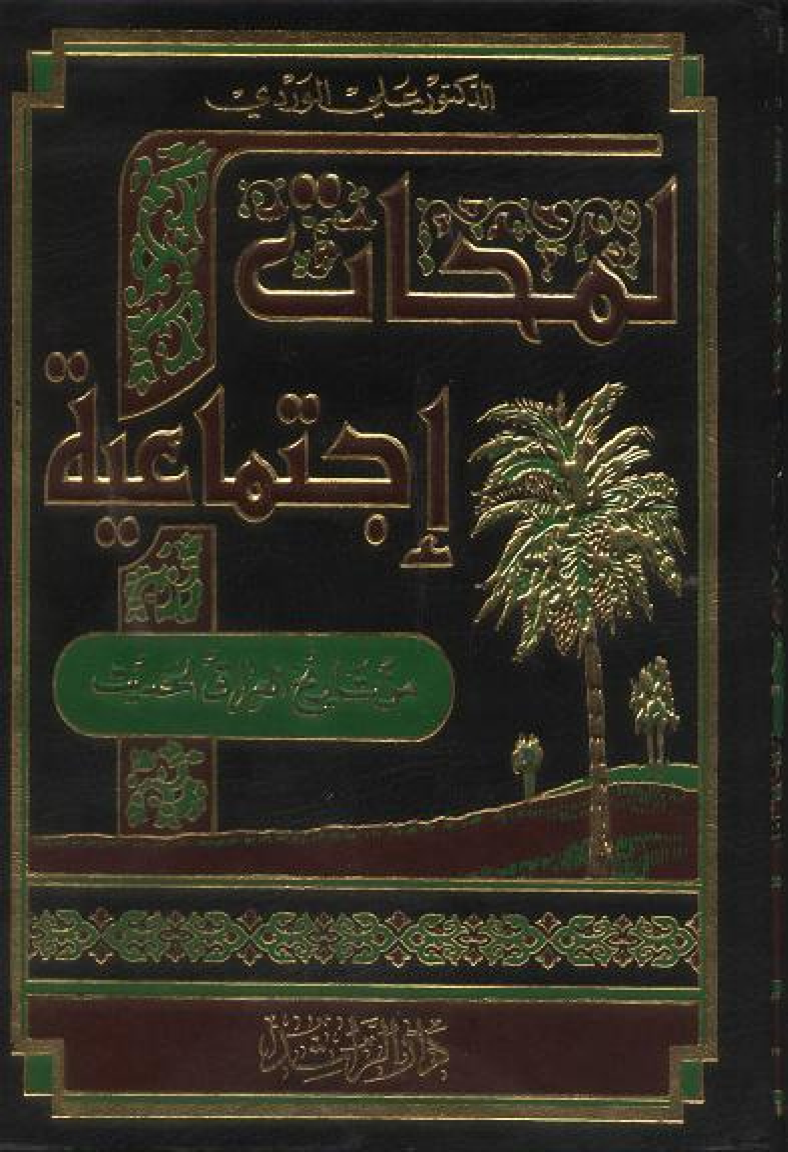

الدكتور علي الوردي
لمحات اجتماعية
من تاريخ العراق الحديث



من تاريخ العراق الحديث

هشام حيدر

الجزء الخامس

"القسم الثاني"

حول ثورة العشرين

تأليف

الدكتور علي الوردي

أستاذ علم الاجتماع

متمرس بجامعة بغداد



بيروت - لبنان





الفصل الأوّل

طالب النقيب في بغداد

كان السيّد طالب النقيب مغضوباً عليه من قبل الإنكليز في اثناء الحرب الاولىٰ - علىٰ نحو ما ذكرناه في الجزء الاول من هذا الكتاب.(١) ولما انتهت الحرب كتب السيّد طالب الى الإنكليز يرجو منهم العفو عما سلف ويتعهد لهم بأنه سيخدم المصالح الإنكليزية بكل ما في وسعه.(٢) وفي شهر تموز ١٩٢٠ استدعاه ويلسون الى بغداد علىٰ أمل ان يستفيد منه في تهدئة الوضع فيها. فوصل السيّد طالب الى بغداد في ٢٥ منه ونزل في دار عبدالقادر الخضيري الواقع علىٰ ضفة النهر قرب الباب الشرقي.

كتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٢٦ تموز تقول ما نصه:

«وصل السيّد طالب امس. وجاء بعد الظهر لرؤيتي... ان الوطنيين ينظرون إليه بعين الريبة لانهم أولاً يعتقدون بحق انه يطمح للوصول الى المنصب الذي يطمحون هم اليه، وثانياً لأنهم يخافون منه وبحق ايضاً. انه اقدر رجل في البلاد. ويجب ان لا ننسى أيضاً انه عديم الضمير تماماً، ولكن مصالحه ومصالحنا واحدة كما ذكر لي بصراحة مساء امس. ان الذي يطمح إليه السيّد طالب فعلاً في حالة نجاحه في تأليف حزب معتدل هو ان نتعهد له بالتأييد في الحصول علىٰ المنصب الأعلىٰ في البلاد.. إننا لا نستطيع ان نعطيه مثل هذا التعهد، كما إننا لانستطيع ان نفرض علىٰ الحكومة العربية عند تأسيسها رجلاً معيناً لرئاستها».(٣)

---

(١) - انظر الفصل الرابع من الجزء الرابع من هذا الكتاب.

(٢) - Atiyyah (Iraq) - Beirut 1973 - p. 323.

(٣) - Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, p.149.

كانت ثورة الفرات الأوسط يومذاك في اوج قوتها وانتشارها، وكان الوطنيون في بغداد يرقبون تطورها بلهفة ويبثون الدعاية لها ويودون المشاركة فيها علىٰ وجه من الوجوه. وجاء السيّد طالب يدعو الى ثلب الثورة والى مقاومتها وتأييد الإنكليز. فاحدثت دعوته هذه ازدياداً في توتر الوضع في بغداد.

مقابلة السويدي:

أخذ السيّد طالب يتصل بزعماء الحركة الوطنية في بغداد، يزورهم في بيوتهم يحدثهم عن قوة الإنكليز وقدرتهم علىٰ سحق الثورة في وقت قريب. وكان من بين الذين اتصل بهم يوسف السويدي، فقد زاره السيّد طالب في بيته في الكرخ في ٢٨ تموز ١٩٢٠ بصحبة ياسين الخضيري وعبدالرزاق المير. وعند خروجه من بيت السويدي ذهب الى المس بيل ليخبرها بما دار بينه وبين السويدي من احاديث مثيرة. وقد كتبت المس بيل تقريراً سرّياً بذلك، ننقل فيما يلي بعض النبذ المهمة منه:

يقول السيّد طالب: ان السويدي بدأ حديثه معه بذكر ما انجزته الحركة الوطنية ببغداد خلال ستة اشهر، وكيف نجحت في التقريب بين الشيعة والسنة حتىٰ صاروا جميعاً كأنهم اخوة يربطهم هدف واحد، وكيف تأثرت العشائر بذلك حتىٰ اعلنت الثورة المسلحة. وقال السويدي: ان الحركة الوطنية في بغداد حين نادت بالأمير عبدالله ملكاً لم تفعل ذلك إلاّ من باب الخداع، وهي في الواقع لاترغب إلاّ في السيّد طالب. ولقد خاب املها في السوريين يقصد العراقيين في سوريا لأنهم لم يبعثوا إليها من المال سوى ستة عشر ألف باون، وهذا المبلغ لايكفي للحاجات الكثيرة للحركة. وإن الحركة لاتستطيع أن تواصل دعايتها ما لم تكن مجهزة بالمال الكثير.

ثم قال السويدي موجهاً كلامه للسيد طالب: «وأنت الذي كنت رائداً في الحركة العربية نبايعك الآن قائداً لنا».

فقال له السيّد طالب: «كثير زين، انا عربي ومواطن عراقي، فاشرح لي آرائكم».

فأجابه السويدي: «لا أجانب، لا انتداب، لا تدخل من الخارج». فسأله السيّد طالب: «وما هو منهاجكم؟».

فأجاب السويدي: «ليس عندنا منهاج».

وعند هذا قال له السيّد طالب: «إذن فانتم لستم احسن من الخارجين على القانون واللصوص. فليس في مقدوركم إثارة ثورة بلا نظام، كما ليس في مقدوركم التغلب على الإنكليز من غير منهاج. إني قد رأيت على منضدة السر آرنولد ويلسون ثلاثة مناهج، واحد من اللنبي عارضاً فيه مدفعية، والثاني من القائد العام، في الهند يقول ان القوات الموجودة على الحدود الشمالية الغربية في الهند تحت تصرفه. فأين مدفعيتكم؟ وهل في إمكان العشائر محاربة الجيش البريطاني؟

فلمّا سمع السويدي هذا الكلام منّي ضرب رأسه بيده وصرخ قائلاً: آي آي! ماذا صنعت انا! وأخذ يضغط باصابعه على رأسه بحيث ظهرت آثارها على جلده بيضاء. وانتِ تعرفين لون بشرته الحمراء الداكنة. وقد واصلتُ الحديث معه أسأله عن الكبراء والمثقفين من أهل بغداد الذين يؤيدونه في حركته، فلم يجبني بشيء، واستمر يضرب جبهته كالمجنون، فإن الرجال الذين يعتمد عليهم فيما اعلم هم فؤاد الدفتري وجعفر أبوالتمن ورشدي أبوليلة، ولست ادري من هو أبوليلة هذا، ويأتي بعد هؤلاء الصدر السيّد محمد طبعاً . قلتُ له انه إذا أراد منّي الإنضمام إليه فعندي أربعة شروط:

اولاً: ان رأس الدولة يجب أن يكون عراقياً شريفاً من أفضل الأنساب والعائلات في العراق.

ثانياً: ان اللجنة يجب ان تؤلف من اولي الشرف والسمعة الحسنة.

ثالثاً: ان خطة الدعاية السياسية والدعوة للثورة يجب ان تُترك حالاً.

رابعاً: ان اشراف بغداد والأشخاص الآخرين الذين لم ينضمّوا الى حزبه يجب ان يُدعوا للاشتراك في اللجنة.

وقد حصل الإتفاق على ان يأتي محمد الصدر لرؤيتي عصر هذا اليوم. فإذا قبل بهذه الشروط فمن الممكن ان تسير الامور سيراً حسناً. وإلاّ فإني سوف اقطع علاقتي بك وبرفاقك. واني انذرك بانك إذا اصررت على اتباع هذا الطريق فسوف تجلب الخراب الى البلاد كلها. ان الاسعار سترتفع في بغداد (والواقع أنها ارتفعت فعلاً). وسوف يقوم الناس قومة واحدة واضعين اللوم على عاتقك. واني انصحك انك إذا اردت المشي في الشارع يجب ان تستصحب معك اربعة رجال يحملون المسدسات».

واصل السيّد طالب حديثه للمس بيل حيث قال ان السويدي ارتعب من كلامي هذا رعباً شديداً بحيث انه سوف لاتكون له شهوة للأكل في هذا اليوم. وقد ارتعب ياسين الخضيري كذلك بحيث صار يرتجف من شدة التأثر. ولما خرجنا من بيت السويدي قال الخضيري: «إنني كنت مخدوعاً، وكنت اظن ان السويدي يستطيع ان يحصل من سوريا على معونة عسكرية غير محدودة. والآن ماذا سوف تكون عاقبة اعماله. ان من الأفضل لي ان أذهب الى الهند».[١]

هذا كان فحوى التقرير السري الذي رفعته المس بيل الى المسؤولين. والملاحظ ان السيّد طالب كان يبالغ في حديثه للمس بيل لكي يثبت لها إخلاصه للإنكليز ومقدرته في التأثير على الوطنيين وتخويفهم. ومن الممكن القول ان السيّد طالب قد إعتاد على مثل هذه المبالغات منذ حياته الاولى في البصرة، وقد نجح بها في بعض الأحيان وظن انه سينجح مع الانكليز ايضاً. ويبدو ان المس بيل كانت أدهى من ان تنطلي عليها مبالغات السيّد طالب. فهي قد كتبت في ثنايا تقريرها الآنف الذكر عبارة تدل على أنها في ريبة من صحة ما ذكره السيّد طالب عن السويدي.

---

(١) – نقلاً عن دائرة الوثائق العامة بلندن رقم (أف. أو ٣٦٠/ ٣٥٢٣٠).

تشكيل لجنة انتخابية:

كانت الحكومة البريطانية قد أبرقت الى كوكس في طهران في ٦ حزيران ١٩٢٠ تخبره بأنه قد عُيّن مندوباً سامياً في العراق وانه يجب ان يغادر مقر عمله في طهران ويعود الى لندن بأقصر طريق للتشاور معه حول انشاء حكومة وطنية في العراق.

وفي ١٠ حزيران غادر كوكس مع زوجته طهران متوجهاً الى بغداد فوصلها في ١٤ منه، وبقي فيها يومين حيث اشترك مع ويلسون في إعداد بيان رسمي للإعلان عن تأسيس دولة مستقلة في العراق خاضعة للإنتداب البريطاني تحت رعاية عصبة الأمم، وان هذه الدولة سوف يُشرع في تشكيلها عند عودة كوكس من لندن في الخريف القادم...[١]

غادر كوكس وزوجته بغداد في ١٦ حزيران متوجهاً الى لندن عن طريق البحر. وفي ٢٠ منه أرسل ويلسون نسخاً من البيان الى زعماء الحركة الوطنية ببغداد للنظر فيه. ولكن اندلاع الثورة في الفرات الأوسط شغلهم عن البيان وعن النظر فيه.

أراد ويلسون ان يقوم بعمل يلهي الناس به خلال الأيام الأخيرة من حكمه مستفيداً من وجود السيّد طالب في بغداد، وهو ان يستدعي أعضاء مجلس المبعوثين الذين تم انتخابهم في العراق في أواخر العهد التركي لكي يؤلف منهم لجنة للنظر في انتخاب مجلس نيابي للعراق. وفي ١٢ تموز نُشر بيان في الصحف بهذا المعنى، كما أرسلت الدعوة الى الأعضاء للحضور في ٦ آب للبدء بالعمل.

حين علم زعماء الحركة الوطنية بهذا المشروع نشطوا للعمل على احباطه، فأرسلوا الى الأعضاء يدعونهم للإجتماع في بيت عبدالرحمن باشا الحيدري، ولما إنعقد الإجتماع أخذ يوسف السويدي ومحمد الصدر يحاولان إقناعهم بالإنسحاب من

---

(١) - Lady Bell (Letters of Gertrude Bell) - London 1947 - p.426.

اللجنة، غير ان الأعضاء رفضوا الاستجابة لها، وكان رأيهم ان مطاليب الأمة لا تحل إلا عن طريق مجلس تأسيسي يؤلف بالإنتخاب الحرّ، وان عدم وجود هذا المجلس سيساعد الإنكليز على المماطلة والتسويف في إجابة مطاليب الأمة. وقد انفض الإجتماع أخيراً بلا نتيجة.

يقول سليمان فيضي، وهو أحد الأعضاء الذين حضروا الاجتماع:

«وفي عصر ذلك اليوم دعاني الحاج جعفر أبوالتمن الى داره، فلما ذهبت وجدت بعض الاصدقاء، اتذكر منهم حسن رضا، وعبدالله ثنيان المحامي. فاتحني جعفر في موضوع المؤتمر، وكان متحمساً في معارضته، فأبنت له وجهة نظر المبعوثين، والتي كنت احبذها شخصياً، إذ إنني كنت أرى ان نجاح الثورة المسلحة ليس مضموناً، وانه إذا قُدّر لها الفشل فسوف ينجم عنها اوخم العواقب...».

وبعد كلام طويل خرج سليمان فيضي من دار أبوالتمن دون ان يقنع احدهما الآخر.[١] وفي صباح ٦ آب حضر الأعضاء الى مقر الإجتماع في دار المحاكم لتشكيل اللجنة الإنتخابية والبدء بالعمل، وهم: فؤاد الدفتري، فؤاد سنية، مراد سليمان، سامي سليمان، جميل صدقي الزهاوي، ساسون حسقيل، طالب النقيب، عبدالرزاق النعمة، سليمان فيضي، عبدالمجيد الشاوي، عبدالكريم السعدون، ناظم نفطجي، داود يوسفاني، حسن الحاج سعيد، عبدالوهاب القرطاس، عبدالله زهير. وحضر كذلك ويلسون والمس بيل وحاكم بريطاني اسمه نورتن، كما حضر المرزا محمد البوشهري بصفته مترجماً.

بدأ ويلسون الإجتماع بأن ألقى خطاباً بالإنكليزية ترجمه المرزا محمد الى العربية، ثم خرج ويلسون بعد ذلك. فجرى انتخاب الرئيس فنال السيّد طالب اكثرية

---

(١) - سليمان فيضي (في غمرة النضال) - بغداد ١٩٥٢ - ص٢٤٨.

الاصوات. ثم اختار الحاضرون اسماء عشرين شخصاً آخرين ليكونوا أعضاء إضافيين في اللجنة. كان اربعة منهم من زعماء الحركة الوطنية هم: محمد الصدر ويوسف السويدي وجعفر أبوالتمن وعبدالرحمن الحيدري. اما الباقون فهم: داود النقيب، فخري الجميل، عبدالجبار الخياط، عزت الكركوكلي، رشيد العمري، واصف قاسم أغا، زيد النقيب، خضير ملافرحان، خير الله، عبدالرزاق المير، محمود المعتوق النعمة، مزاحم الباجچي، ناجي شوكت، روبين سوميخ، عبدالغني كبة.

خالف عبدالرحمن الحيدري رفاقه الثلاثة وقرر الإشتراك في اللجنة الإنتخابية، اما الثلاثة فقد اصروا على محاربتها بكل وسعهم، وقرروا الدعوة الى إجتماع شعبي عام يعقد في جامع الحيدر خانة في ١٥ آب لإثارة الجماهير على اللجنة.

وهنا نفذ صبر ويلسون وقرر أن الوقت قد حان لكي يضرب ضربته. تقول المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ١٦ آب:

«ان الشرطة انذرتنا بأن اجتماعاً رهيباً سيعقد في الجامع الكبير وأن مسيرة ستتلوه في شوارع المدينة، وهذا سيؤدي بلا شك الى اضطراب الأمن وهو الهدف الذي يسعى له المتطرفون. فهم حين وجدوا أن الارض تزاح من تحت اقدامهم بتأليف حزب دستوري معتدل من النواب السابقين، وانهم لم تبق في ايديهم ورقة يلعبون بها، لجأوا الى تحريض الغوغاء. ولهذا أوعز الى الشرطة بأن تلقي القبض عليهم...

وقد تسائل اكثر الناس: لماذا لم نقم بمثل هذا الاجراء من قبل، ولكنني اعتقد ان السر ارنولد ويلسون قد تصرف بحكمة عظيمة في هذه القضيه، فهو قد انتظر حتى اصبح واضحاً انه لو سُمح للهيجان بالاستمرار لرضخت المدينة للقائمين باعمال الشغب. فإن معظم الذين يحضرون اجتماعات الجوامع هم أراذل الناس من احط نوع،

وعند هذا ضرب ويلسون ضربته لحماية الأمن العام...[١]

محاولة أخيرة:

كان من المقرر إعتقال الوطنيين في فجر ١٢ آب. ولكن ويلسون أراد ان يقوم بآخر محاولة له لإقناع الوطنيين قبل إلقاء القبض عليهم، فأرسل الى ثلاثة منهم يطلب الإجتماع بهم سراً في دار عبدالقادر الخضيري. ان ويلسون لم يذكر اسماء هؤلاء الثلاثة ولكنه يصفهم بأنهم سنيون وانهم كانوا على اتصال وثيق بزعماء الحركة الوطنية.

تم الإجتماع في منتصف الليل من مساء ١١ آب. وقد وصل ويلسون الى الدار برفقة دليل عربي يوثق به، وجلسوا جميعاً في زاوية منعزلة من سطح الدار المطل على النهر يرتشفون فناجين القهوة على ضوء الشموع. وقد حاول ويلسون في حديثه معهم تبرير التأخيرات التي حصلت خلال السنتين الأخيرتين لإقامة حكم ذاتي في العراق.

فكان جوابهم له: ان ما ذكرته صحيح ولكن هناك هوة سحيقة بيننا وبينكم. وأخذوا يشجبون مبدأ «الإنتداب» ووصفوه بأنه عبارة عن استعمار مقنّع، وقالوا بأنهم لايقبلون بأي شيء دون الإستقلال التام.

ولما وجد ويلسون انه لايستطيع إقناعهم أخذ يهددهم وينذرهم بما تؤدي إليه اعمالهم من إراقة الدماء. فأجابوه: ان ذلك سيكون ثمناً بخساً يدفعونه في سبيل الإستقلال. وقالوا ان الحرية تؤخذ ولاتُعطى وان الثورة وان اخفقت هي خير طريقة لدفع قضية الحرية الى الأمام.

أخذ ويلسون بعد هذا يضرب على وتر آخر مؤدّاه ان الإنتداب البريطاني هو

---

(١) - Lady Bell (op. Cit.) - p.402.

الذي يحول بين الأتراك وبين عودتهم الى العراق من جديد.

فرد عليه احدهم قائلاً: ان الأتراك مسلمون علىٰ أي حال وهم بالإضافة الى ذلك مستعدون لإعطاء الحكم الذاتي للعراق بموجب الميثاق الوطني الصادر في ايلول ١٩١٩. عند هذا لم يجد ويلسون وتراً آخر يضرب عليه سوى تهديدهم بالأقلية الكردية وبالعنصر الشيعي القوي في الفرات.

فكان جوابهم علىٰ هذا التهديد: ان هذين الفريقين فلاحون جهلة من السهل إبقاؤهم علىٰ وضعهم الحالي، حيث يمكن إبقاء الأكراد علىٰ وضعهم عن طريق التحاسد المتبادل بين رؤسائهم، اما الشيعة فيمكن ذلك بالطريقة نفسها وبواسطة العلماء الذين هم منسجمون مع الحركة الوطنية.

وفي الختام عاد ويلسون الى التهديد بالقوة العسكريه، فردوا عليه قائلين: ان جميع القوات البريطانية وقوادها هم الآن في ايران غير قادرين علىٰ العودة الى العراق، كما ان الشرطة والشبانة لايعتمد عليهم، وان سكة الحديد سوف تقطع حينما يصدر الأمر، وكذلك تُقطع المواصلات النهرية.

استمر الحديث علىٰ هذا المنوال ساعتين، وقد ادرك ويلسون اخيراً أن لا فائدة تُرجىٰ منه، وان ليس من الممكن حصول أي توافق أو تفاهم بينه وبينهم. ففارقهم مع محافظته علىٰ روح المجاملة معهم.

ويقول ويلسون: انه في صباح اليوم التالي تسلم تقرير الشرطة اليومي المعتاد وهو يحتوي علىٰ قائمة بالأشخاص الذين أُلقي القبض عليهم في فجر ذلك اليوم وسيقوا الى المنفىٰ، وكان من جملتهم الأشخاص الثلاثة الذين اجتمع معهم في الليلة الماضية.(١)

---

(١) – Wilson (Layalties) - London 1936 - vol. 2. p.267 - 269.

فرار البازركان وأبو التمن:

في ساعة مبكرة من صباح ١٢ آب داهمت قوات الشرطة بيوت اربعة من زعماء الحركة الوطنية ببغداد بغية القبض عليهم، وهم: احمد الشيخ داود وعلي البازركان وجعفر أبو التمن ويوسف السويدي، ولكنها لم تستطع ان تقبض إلاّ على واحد منهم فقط هو احمد الشيخ داود، اما الثلاثة الآخرون فقد تمكنوا من الفرار.

كان احمد الشيخ داود يسكن في دار تقع في شارع المتنبي الذي كان يسمى آنذاك بشارع «الاكمكخانة» أي شارع المخبز لوقوع المخبز العسكري فيه وكان يسكن في جواره سليمان فيضي.

ويحدثنا سليمان فيضي في مذكراته كيف جرى القاء القبض على الشيخ احمد فيقول ما نصه: «داهم الجنود الانكليز دار الشيخ احمد داود المجاورة لداري ـ فجراً فقيّدوه واقتادوه بملابس النوم، بعد ان نهبوا الحلي والنقود التي وصلت إليها أيديهم، ثم أبعدوه الى هنجام.

وفي اليوم التالي زارتني عقيلته ام سلمان وسلمتني امتعته وملابسه كي اتوسط بإرسالها الى منفاه، فارسلتها بدوري الى عمي الحاج طه في البصرة، فأوصلها بعد إليه».[1] ساعدت الظروف علي البازركان وجعفر أبو التمن على الفرار من بغداد دون ان يؤدي فرارهما الى الاضرار بأحد، امّا يوسف السويدي فقد كان فراره سبباً في سقوط عدد من القتلى والجرحى. وفيما يلي نذكر قصة كل منهم على التوالي.

يحدثنا علي البازركان عن قصة فراره من بيته وكان في الحيدرخانه فيقول:

بينما كنت في بيتي إذ سمعت اصوات جنود كثيرين يضربون الباب وينادون باسمي، فاطللت عليهم من الشباك وكان الظلام مخيماً، ثم اسرعت فتسلقت الجدار الى بيت

---

(١) ـ سليمان فيضي (المصدر السابق) ـ ص ٢٥٩.

الدفتري وهو جارنا، واختبأت في غرفة خالية في الطابق الثاني، ودخل الجنود الى بيتي بالقوة وأخذوا يطلقون الرصاص في البئر والبادكير وفي كل مكان يظنونني فيه. ثم احاطوا بالبيوت المجاورة، ودخلوا بيت الدفتري وطلبوا منه تفتيش البيت، وكان لايدري بوجودي فيه فوافق على طلبهم، واقتحم الجنود الغرفة التي انا فيها ولكني كنت قد دسست نفسي بين الأثاث القديم المهمل في غرفة داخلية متصلة بتلك الغرفة. وساعدني الظلام على الاختفاء، ولو انهم اشعلوا عود كبريت لرأوني ولكن الله سلّم. ومكثت في بيت الدفتري طيلة ذلك النهار، ثم ذهبت ليلاً الى بيت أحد الأصدقاء، حيث بقيت مدة الى ان جاءني عبدالمجيد كنه وهو يحمل مسدسين ومعه رجلان، فسار الى جانبي تحت جنح الظلام، وكان احد الرجلين يسير امامي والثاني خلفي، حتى اوصلوني الى شريعة السيّد سلطان علي...[1]

اما قصة جعفر أبوالتمن فهي تشبه من بعض الوجوه قصة البازركان، فهو قد هرب من بيته الواقع في محلة صبابيغ الآل إذ قفز الى بيت جيرانه آل حبه الواقع في محلة السويدان، ومن هناك انتقل سرّاً الى بيت خاله محمود الاطرقجي ولكن خاله تملّكه الخوف ولم يوافق على بقاء ابن اخته في بيته، فاضطر أبوالتمن الى الإنتقال الى بيت مهدي الخياط، فاختفى فيه حتى يوم ١٩ آب.

وفي مساء ذلك اليوم جاء إليه عبدالمجيد كنة مع اعوانه فاخرجوه بحمايتهم. وخرج هو متنكراً بملابس عربية وعقال ذي اربع لفّات، وسار الى جانبه مهدي الخياط، كما كان يسير بالقرب منه عبدالمجيد كنة واعوانه، حتى اوصلوه الى شريعة سيد سلطان علي، والتقى هناك بالبازركان.[2]

ركب أبوالتمن والبازركان ومعهما عبدالمجيد كنة في زورق، وكان صاحب الزورق

---

(١) – كمال الجبوري (عبدالمجيد كنة) ـ بغداد ١٩٥١ ـ ص٧٩ ـ ٨٠.

(٢) – نقلاً عن جعفر الخياط عن ابيه مهدي الخياط.

شهما شجاعاً فقاد زورقه مع تيار الماء نحو الجنوب، وكانت فترة منع التجوّل قد بدأت، فنودي على الزورق بالتوقف والعودة الى الشاطيء، ولكن الزورق ظل سائراً، فانهمر الرصاص عليهم من الجانبين دون ان يصيب احداً منهم لشدة الظلام، حتى وصلوا الى بستان يملكها عبدالمجيد كنه في الدورة، ومن هناك ذهب أبوالتمن والبازركان الى ملا خضير رئيس عشيرة الجبور، فأوصلهما هذا الى علوان الشلال رئيس عشيرة ألبو محيي في اليوسفية...

معركة خضر الياس:

كان يوسف السويدي يسكن في محلة تختلف في تركيبها الإجتماعي عن محلات زملائه الثلاثه، فهو كان يسكن في محلة خضر الياس التي تقع على نهر دجلة في جانب الكرخ، ومعظم سكانها من السامرائيين والتكريتيين الذين كانوا لايزالون متمسّكين بتقاليدهم العشائرية المستمّدة من البداوة. امّا زملاؤه الآخرون فكانوا يسكنون في محلات تقع في وسط المدينة وهي تضم خليطاً من السكان الذين ضعفت لديهم التقاليد العشائرية والعصبية المحلية والنخوة.(١)

الواقع ان اهل محلة خضر الياس ابدوا نشاطاً ملحوظاً في احداث رمضان الوطنية، فكانوا يحفّون بالسويدي عند خروجه من بيته يحمونه ويهتفون له، كما كانوا يحفون بالسيد محمد الصدر عند مجيئه الى بغداد على رأس وفد الكاظمية.

---

(١) – من الجدير بالذكر هنا ان بغداد، بعد ان هبط عدد سكانها من ١٥٠ ألف الى ٥٠ ألف على اثر ترادف الفيضان والطاعون عليها في عام ١٨٣١، أخذ يهاجر إليها كثير من سكان الارياف والقرى القريبة، ولهذا نشأت في اطراف المدينة محلات ذات طابع عشائري، ففي جانب الكرخ نشأت محلات الجعيفر والسوامرة والتكارتة والمشاهدة والدوريين والفلاحات والكريمات. وفي الرصافة نشأت محلات العزة والكرونة والبيات وبني سعيد والبوشبل والقرغول والخالدية والهيتاويين والاكراد والعونية والفناهرة والمعدان والبومفرج والكبيسات وغيرها

وكان اكثرهم نشاطاً في ذلك السيّد كريم العبود التكريتي الملقب بـ«ابن اخت ابليس»، فقد كان هذا الرجل يُعد «زلمة» السويدي أي رجله الذي يعتمد عليه في المهمات.

ومن الجدير بالذكر هنا ان السيّد كريم قام بعمل جريء ضد السلطة في ١١ آب أي في اليوم السابق لمحاولة القاء القبض علىٰ السويدي. وخلاصة الحادثة ان جندياً هندياً كان يمر بالمحلة في ذلك اليوم في طريقه الى مخفر الشرطة الواقع علىٰ النهر قرب مضخة الماء في الجعيفر، فوثب عليه احد مغاوير المحلة، اسمه احمد الخلف الجواد السامرائي، يريد اختطاف البندقية منه. فقاومه الجندي وكاد يتغلب عليه لو لم يسرع لنجدته السيّد كريم حيث اشهر مسدسه في وجه الجندي، فتخاذل الجندي وصاح يطلب الرحمة قائلاً: «مسلمان!» ثم هرب من المحلة تاركاً بندقيته وعتادها حيث استحوذ عليها احمد الخلف الجواد. ولم تتمكن السلطة من استعادة البندقية، ولكنها عمدت الى شنق رجلين بريئين من اهل البساتين القريبة ارهاباً للناس.

كان اهل محلة خضر الياس قد اعتادوا علىٰ عادة اكثر الناس في تلك الأيام ان يستيقظوا من نومهم فجراً لأداء صلاة الصبح، ثم يذهبون بعد تناول فطورهم الى المقاهي القريبة لشرب القهوة وتدخين النارجيلة. وفي الصباح الباكر من ١٢ آب كانت جماعة منهم جالسين علىٰ عادتهم في المقهى الواقع علىٰ سكة الترامواي في سوق الجديد، فشاهدوا نفراً من الشرطة يرأسهم ضابط بريطاني برتبة «كابتن» وهم متوجهون نحو بيت السويدي. فهب السيّد كريم وكان في المقهىٰ ساعتئذ فصاح يهيب بأهل محلته قائلاً: «ويلكم ان العسكر جايين يأخذون الأفندي»، وأخذ ينخوهم لحماية الأفندي أي السويدي والدفاع عنه.

فانبرى لتأييده في هذه النخوة رجل من أهل المحلة اسمه السيّد احمد العلي السامرائي، فهبَّ القوم يستجيبون للنخوة، واسرعوا نحو بيت السويدي، وكان

معظمهم من السامرائيين وفي مقدمتهم صبار الخلف الجواد. وكان الشرطة حينذاك قد اقتحموا بيت السويدي ودخلوه، فحاصرهم الثوار فيه، وصاروا يتبادلون النيران معهم. وكان صبّار يستعمل في قتاله نفس البندقية التي اختطفها اخوه احمد من الجندي في اليوم السابق.

جاءت الى المحلة قوة أخرى من الشرطة مؤلفة من عشرين شرطياً، وكانت مرسلة من مخفر الجعيفر لانجاد القوة الاولى فقابلها الثوار بنيران كثيفة من الأزقة وسطوح الدور، وكانت النساء يزغردن لهم تشجيعاً. وقد اضطرت القوة تجاه هذا الثبات الذي ابداه الثوار الى التراجع نحو المخفر، ثم لجأت بعدئذ الى الدور الواقعة على النهر التي كان يسكنها بعض كبار الضباط البريطانيين وتعرف باسم «القصور». فلجأ الثوار من جانبهم الى بيت «عكلة»، وهو بيت مرتفع، وصاروا يطلقون النار منه على «القصور».

أرسلت السلطة الى المحلة قوة ثالثة من الشرطة، فاشتدت المعركة بين الفريقين كان النصر فيها للشرطة، وذلك بعد ان سقط من أهل المحلة ستة قتلى واثنا عشر جريحاً.

كان أول القتلى محمد العكيلي، والثاني حسين العلي الملقّب بـ«ابن نوارة» نسبة الى أمه، والثالث السيّد عبدالرحمن السامرائي الملقب بـ«أخو نجيلة»، والرابع توفيق الناصري، والخامس صالح حيو البناء وقد قُتل عندما كان راكباً قفة في النهر وهو صهر توفيق الناصري، والسادس صالح جياد البلاّم وقد قُتل برصاصة تائهة عندما كان خارجاً من زورقه الى الشاطيء.

امّا الجرحى فكان منهم الحاج عبود مختار محلة سوق الجديد، وعلي سليمان الخوجة، وحميد دكة وكانت اصابة هذا الرجل في يده، وقد ظلت يده مشلولة من جرائها. وكان من الجرحى أيضاً عبدالرزاق الكسار وهو عم فاضل عباس المهداوي

الذي اشتهر في العهد القاسمي وكان هذا الرجل ضئيل الجسم ولكنه ابدى في المعركة شجاعة غير قليلة، وقد جُرح في يده وشوهد في اثناء المعركة رافعاً يده المجروحة وهو يصيح: «لا تقولوا انهزم».(١)

ومن الجدير بالذكر ان السويدي كان قد تمكن من الهرب منذ بداية المعركة، فقد اسرع الى بيته ثلاثة من أهل المحلة هم: عبدالحاج خضير السامرائي وغفوري الحاج محمد السامرائي وسيد علي السامرائي، وانزلوه من فوق السطح بواسطة الحبال الى بيت مجاور يسمى «بيت الجاقرلي»، ثم تسللوا به الى بيت مختار محلة ست نفيسة صالح العمر، وقد تمكن هذا الرجل بالتعاون مع بعض جيرانه ان يهرب السويدي الى بيت الحاج سعودي، وكان هو متنكراً بملابس الأعراب.

ومكث السويدي في هذا البيت بضع ساعات، ثم خرج بعد ذلك متنكراً الى شاطيء النهر حيث اركبوه زورقاً اوصلوه الى الكاظمية، وقد رافقه الى هنالك عبدالحاج خضير والسيد كريم العبود وصبار الخلف الجواد وغيرهم. وكان وصولهم الى الكاظمية قبيل الغروب، فاختفوا في بيت السيد محمد الصدر الواقع في سوق الجواهرية قرب الصحن. لم تجد الشرطة في بيت السويدي من الرجال سوى ابنه عارف، فالقوا القبض عليه، وشوهد عارف عند اخراجه من البيت واحدى عينيه متورمة مما يدل على استعمال العنف معه عند القاء القبض عليه. وقد نفي عارف بعدئذ الى جزيرة هنجام، حيث التحق فيها باحمد الشيخ داود.(٢)

---

(١) – حدثني بذلك مهدي المقلد المحامي، وهو من الذين شاركوا في المعركة مشاركة فعالة، وكان يومذاك شاباً يافعاً.

(٢) – ان هنجام جزيرة صغيرة جرداء تقع في مضيق هرمز في الخليج العربي بالقرب من بندر عباس، وتتميز برداءة المناخ وشدة الحر. وكانت في ذلك الحين قد اتخذها الإنكليز محطة للبرق والبريد ومخزناً لتموين البواخر بالفحم.

عُرفت تلك الواقعة باسم «دكة السويدي»، وصار السويدي بعدئذ يفتخر بها امام رواد مجلسه. ويروى عن (أم سلمان) زوجة الشيخ احمد الشيخ داود أنها كانت تعيّر اهل محلتها لأنهم لم يدافعوا عن زوجها كما دافع اهل خضر الياس عن السويدي، فكانت تقول لهم: «لماذا لم تكونوا رجالاً مثل اهل ذلك الصوب!».

وحدثني رجل من محلة خضر الياس فقال بأن السويدي لم يكن وفياً مع اهل محلته فيما بعد حينما تولى المناصب العالية هو واولاده. وقد قال لهم ذات مرة: «من قال لكم ان تفعلوا ذلك؟!».

ما جرى في الكاظمية:

كان أهل الكاظمية في تلك الأيام متحدين وقد اتخذوا السيّد محمد الصدر زعيماً لهم، فكانوا يحفّون به اينما توجه. وانتشرت بينهم الهوسة المعروفه: «يا محمد بس تأمر بيها».[١]

حين وصلت الى اهل الكاظمية اخبار الواقعة التي حدثت في خضر الياس في ١٢ آب استعدوا من جانبهم لحماية السيّد محمد والدفاع عن بيته لعلمهم ان السلطة لابد ان تحاول القبض عليه عاجلاً او آجلاً. فهم لايريدون ان يكونوا اقل نخوة او شهامة من أهل خضر الياس!

ومما يلفت النظر ان السلطة لم تحاول القاء القبض على السيّد محمد الصدر، وربما كان السبب في ذلك هو احترامها لأبيه السيّد حسن العالم الديني المعروف الذي كان له مقلدون كثيرون، او لعلّها خشيت ان تقع في الكاظمية وهي بلدة مقدسة مذبحة ذات عواقب معنوية غير حميدة.

---

(١) – لم يبق هذا الاتحاد في الكاظمية طويلاً إذ سرعان ما انشقوا وتباغضوا، فتابعت الاكثرية منهم آل الخالصي، والاقلية آل الصدر ـ كما سنأتي إليه بتفصيل في جزء قادم من هذا الكتاب.

وعندما وصل السويدي الى بيت السيّد محمد انبرىٰ عدد من حملة السلاح من الكاظميين للدفاع عنه، فكمن ستون منهم في البيت بينا توزع الآخرون علىٰ سطوح البيوت والعلاوي القريبة.

كان صالح حمام يومذاك معاوناً في شرطة الكاظمية، فارسل رجلاً يثق به الى السيّد محمد الصدر يطلب منه ان يسمح له بمقابلته سراً. وقد وافق السيّد محمد علىٰ ذلك واوصى اتباعه المسلحين بعدم التحرش به. وجاء صالح مصحوباً بثانية رجال من الشرطة يحملون البنادق، فاختلى بالسيد محمد في احدى غرف البيت، ويقال انه نصح السيّد محمد بأن يغادر البلدة حالاً حفظاً لمصلحته ومصلحة البلدة. وقد استجاب السيّد محمد لهذه النصيحة، وخرج هو والسويدي متنكرين تحت جنح الظلام حيث اختفيا في بيت السيّد محمد علي الشديدي في محلة ام النومي.[١]

لم يمكث السويدي في بيت الشديدي سوى يوم واحد، فقد ارسله السيّد محمد في اليوم التالي بحراسة نفر من اتباعه الى بيت الحاج حسين العليوي في التاجي، وارسله هذا بدوره الى المشاهدة. ومن هناك ذهب السويدي الى علوان الشلال في اليوسفية حيث التقى بصاحبيه علي البازركان وجعفر أبوالتمن.

اما السيّد محمد الصدر فقد مكث في بيت الشديدي ثلاثة ايام، ثم خرج منه متنكراً بملابس الاعراب، وكان في صحبته صبار السامرائي وحسن عوني الخباز ومحمد حسن الحداد وغيرهم، وساروا علىٰ ظهور الخيل الى التاجي حيث مكثوا فيها قليلاً ثم غادروها الى المشاهدة، ومنها الى الشيخ حاتم الهذال بالقرب من بلد. ثم عبروا نهر دجله الى الضفة الشرقية،[٢] وذهبوا الى دلتاوة حيث شاركوا في الثورة

---

(١) – حدثني بذلك احد المطلعين من اهل الكاظمية.

(٢) – نقلاً عن مذكرات مخطوطة للسيد هاشم الشديدي. واني اشكر السيّد هاشم على اعارتي تلك المذكرات.

التي كانت ناشبة هناك كما سنأتي إليه في الفصل القادم.

مكث السويدي وصاحباه عند علوان الشلال في اليوسفية بضعة ايام. وقد انضم إليهم هناك محمود رامز واسماعيل كنة وطه البدري وعارف حكمت وفائق منير وعبدالحميد الحريري وجميل قبطان. ويقال ان حاكم المحمودية الكابتن استن عرض على علوان شلال مبلغ خمسين الف روبية عن كل بغدادي لاجيء عنده لقاء تسليمهم اليه، وقال له ان هذه المبالغ موجودة لدى الحاج ناجي في الكرادة، ولكن علوان رفض تسليمهم. وقد تمكن علوان اخيراً من تهريبهم الى المسيب بحراسة رجال مسلحين من اتباعه. ووصلوا بعدئذ الى كربلاء سالمين.

الإرهاب في بغداد:

اصدرت الحكومة في ١٢ آب امراً بمنع التجول في بغداد وضواحيها ابتداءاً من الساعة الثانية والنصف بعد الغروب، ولكنها سمحت لمن تضطره الظروف الى الخروج ليلاً أن يحمل بيده فانوساً. وقد اصدر الحاكم العسكري في اليوم نفسه بياناً عنوانه: «منشور الى اهالي بغداد»، كان هذا نصه:

«إعتاد بعض المفسدين منذ شهر رمضان ان يعقدوا المواليد في ليالي الجمعة، ظاهراً لمقاصد دينية، ولكن الحقيقة لتهييج افكار الناس ضد الحكومة، ولبث روح الإختلاف. ولكي لاتجد الناس مجالاً لسوء الظن بأن السلطة المحتله تريد الممانعة في المذاكرة العلنية الحره، فهي اجتنبت الى الآن المداخلة في هذا الموضوع. ولكن كما تبيّن ان الحرية الممنوحة قد اساؤوا استعمالها وان المحركين يضلون العوام بضلال مبين بجساراتهم ومذاكراتهم في مجالس المولود.

فلهذا وجب علينا ان نعلن ان انعقاد المواليد ممنوع وان انعقاد الإجتماعات لمقاصد سياسية يعرض القائمين بها لأشد العقاب، إلاّ إذا كان ذلك مطابقاً للقانون العثماني في هذا الموضوع، وبإذن من حاكم بغداد العسكري والسياسي. وقد شكل مجلس عرفي

للنظر في مثل هذه الجرائم التي تقع ضد الأمن العام».

ساندرز

اميرلواء القائد المنوط بالدفاع عن بغداد

عن القائد العام للجيوش المحتلة في العراق[١]

وفي اليوم نفسه تم القاء القبض على عدد آخر من رجال الحركة الوطنية كان من بينهم: جلال بابان وحميد كتة ومحمد مصطفى الخليل وابراهيم ناجي وجعفر الشبيبي ونوري فتاح وامين المتولي. وابعدوا جميعاً الى جزيرة هنجام.

وكذلك تم القاء القبض على عدد من أهل محلة خضر الياس كانوا يعملون في البناء في دار مجيد الخوجة، فقد اتهمتهم الشرطة بانهم كانوا يطلقون النار في اثناء المعركة. فحوكموا امام محكمة عسكرية، وحكمت المحكمة على ستة منهم بالاعدام شنقاً. وهم: سلمان بن أحمد، شاكر بن محمود، حسن بن حميد، محمد بن سلمان، صالح بن محمد، احمد بن عبدالله وقد تم تنفيذ الإعدام فيهم في السجن المركزي في مساء ١٧ آب، وجيء بجثثهم موضوعة في اكياس من الجوت، فطُرحت في سوق الجديد امام المقهى.

وكانت جريدة «العراق» قد نشرت مقالاً تحت عنوان: «القاء القبض على زعماء الفئة المتطرفة»، ذكرت في مقدمته تقول: «كثرت الإشاعات بخصوص ما حدث في فجر اول امس ١٢ آب في قضية القاء القبض على زعماء الفئة المتطرفه، وقد استقرينا الحادث من مصادر وثيقة فورد ما يأتي». ثم اوردت المقال وهذا نصه:

«طالما نظر الفريق المعتدل من ابناء الأمة، منذ مدة، باستهجان الى تصرف الحزب المتطرف في بغداد. فقررت السلطة المحتلة ان الوقت قد حان لمناهضة زعماء المتطرفين اولئك الذين رسخ الاعتقاد في ان لهم علاقة بالاضطرابات الواقعة على

---

(١) - جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ١٣ آب ١٩٢٠.

الفرات، وانهم مثيروها، وهم مصدر بث الدعوة العظيمة التي غمرت القطر. وعليه في صباح ١٢ آب اوفد نفر من رجال الشرطة الى دور الرجال الآتية اسماؤهم، لإلقاء القبض عليهم، وهم: يوسف افندي السويدي والشيخ احمد داود وعلي افندي البزركان ومحمد جعفر جلبي أبوالتمن. فقُبض علىٰ الشيخ احمد داود، وبُعث الى البصرة، ولكن الثلاثة الآخرون شعروا بالخطر، فسهل لديهم الفرار. ولم يلاق الشرطة عقبة إلا خارج دار يوسف السويدي فانهم عند بلوغهم هناك فر يوسف السويدي من اعلىٰ الجدار الوراني لدار الحرم. ولم يكن رجال الشرطة قد احتاطوا لرد مقاومة يؤمل وقوعها لانقاذه، لأنه لم يكن ليخطر ببال احد ان رجلاً وضع نفسه في موضع زعيم سياسي كبير لايقوى علىٰ مجابهة أقل عارض نظراً الى تبجحه بعظمته! وعلىٰ اثر فراره أخذ رجال الشرطة ينقبون في جوانب داره بحثاً وراء اوراق مثيرة. وبينما هم كانوا في عملهم هذا جاء جمهور من الناس وحاولوا الولوج الى داخل الدار. والنفر القليل من الشرطة حوصروا وكادوا ان يلاقوا الأمرين، لو لم يلحق بنجدتهم نحو عشرين رجلاً من الشرطة كانوا مقيمين في محطة طلمبة الماء علىٰ بعد من هناك. ولدىٰ ظهورهم اطلق النار عليهم من الجميع من سطوح البنايات المجاورة.

وفي الحال قوبلوا بالمثل، واندفع الجميع الى الوراء. وحينئذ عاد الشرطة الى الساحة التي امام طلمبة الماء، وربضوا فيها وتربصوا في بيوت الضباط البريطانيين الساكنين جوار ذلك الموضع. واشتعل بين الفريقين نار لايستهان بها. وعند وصول فرقة أخرىٰ من البوليس تبدد الجمع منهزماً، واخليت المساكن التي تحصن فيها الفريق المهاجم، وقد قُبض علىٰ عدد منهم، وتأكد ان تسعة من هؤلاء اطلقوا النار علىٰ الشرطة، وسيحاكمون امام ديوان عسكري. ويُقدَّر عدد ما خسره المشاغبون ستة قتلى و١٢ جرحىٰ، وتُرك علىٰ الارض ٣ قتلىٰ، ونقل العرب الباقين. اما الشرطة فجرح واحد منهم فقط، وقد بذلوا من الجهد احسنه تجاه عدد يربو عليهم. وبعد ذلك وفد رهط (بلوك) من الجنود المشاة، وفتشت المحلة من أولها الى آخرها، فلم يُعثر علىٰ

اثر للسويدي. والشائع انه فر متنكراً بزي آخر. ولم يحدث ادنىٰ اضطراب آخر، وساد السكون التام في المدينة اليوم كله. ولاريب ان هذا العمل الذي قامت به الحكومة سيفسح مجالاً واسعاً لاولئك الرجال الذين هم آخذون في سياسة معتدلة لتحقيق امانيهم الوطنية». (١)

شنق عبدالمجيد كنة:

كان عبدالمجيد كنة من مغاوير بغداد الذين ساعدوا الحركة الوطنية مساعدة كبيرة كما اشرنا إليه من قبل وقد الف عصابة من الأعوان لهذا الغرض، وأخذ يهدد من يتعاون مع الإنكليز من وجهاء بغداد بالقتل. وقد ألقت الشرطة القبض عليه عقب وقاعة خضر الياس. ويذكر علي البازركان السبب الذي ادى الى القاء القبض عليه علىٰ النحو التالي:

كان عبدالمجيد قد أرسل في اوائل آب ١٩٢٠ مكتوباً الى يوسف السويدي يطلب منه مبلغاً من المال لسد احتياجات اعوانه. فلما وصل المكتوب الى السويدي استدعي إليه احمد الشيخ داود ومحمد الصدر وجعفر أبوالتمن وعلي البازركان للتداول في الامر. وقد اجتمع هؤلاء في بيت السويدي في ٨ آب، وبعد المداولة واتفقوا علىٰ تقديم المبلغ الى عبدالمجيد كنة، ولكنهم اختلفوا فيما يفعلون بالمكتوب الذي ارسله الى السويدي: هل يمزقونه ويرمونه في النهر ام يحتفظون به. فكان رأي أحمد الشيخ داود وعلي البازركان رميه في النهر، اما السويدي والصدر وأبوالتمن فكان رأيهم الاحتفاظ به ليكون سنداً في ايديهم حول دفع المبلغ. وقد وضع السويدي المكتوب اخيراً تحت الفراش الذي كان جالسا عليه بغية الاحتفاظ به.

ولما قامت الشرطة بالتفتيش في بيت السويدي في ١٢ مب عثرت علىٰ المكتوب

---

(١) – جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ١٤ آب ١٩٢٠.

وكان لايزال في موضعه تحت الفراش واسرعت الى القاء القبض على عبدالمجيد كنة، وحبسته في سجن السراي لتقديمه الى المحكمة العسكرية.(١)

كانت الشرطة تريد ان تعرف أعضاء العصابة التي كانت تساعد عبدالمجيد كنة في نشاطه السياسي، فدست إليه في السجن جاسوساً لها اسمه «عبود زيدان»، وصار هذا الجاسوس يتظاهر امام عبدالمجيد بالوطنية، ويدّعي انه محبوس في سبيلها، لكي يحصل من عبدالمجيد على اسماء اعوانه. يقول سامي خونده: انه حين علم بالامر تمكن بمعونة بعض الاصدقاء من ايصال الخبر الى عبدالمجيد في السجن لتحذيره من الجاسوس، وكان ذلك سببا في نجاة الكثيرين من الوطنيين.(٢)

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان عريضة قُدمت حينذاك الى ويلسون تحمل اثنين وثلاثين من علماء بغداد واعيانها يطلبون فيها التشديد في معاقبة عبدالمجيد كنة وتخليصهم منه، وقد وصفوه في العريضة بأنه يقوم بأعمال الشقاوة وتهريب الأسرى الأتراك، وهو الذي قام بحرق السيف، علاوة على تهديده لاعضاء اللجنة الإنتخابية وجميع المتعاونين مع الحكومة.(٣)

حكمت المحكمة على عبدالمجيد اخيراً بالإعدام شنقاً. وقد أُشيع في حينه ان المحكمة كانت قد حكمت عليه في اول الأمر بالسجن عشر سنوات ولكن السيّد طالب اصرّ على شنقه لأنه كان يخشى منه بعد خروجه من السجن. وقد تم تنفيذ حكم الإعدام في فجر ٢٥ ايلول. وقد نشرت جريدة «العراق» بلاغاً رسمياً عنه هذا نصه:

«حوكم عبدالمجيد كنة من أهالي بغداد في محكمة عسكرية في ١٦ ايلول بتهمة

(١) – نقلاً عن اوراق علي البازركان المخطوطة.

(٢) – كمال الجبوري (المصدر السابق) ـ ص٧٤ ـ ٧٥.

(٣) – حدثني بذلك رجل شاهد العريضة بعينه وذكر لي اسماء الموقعين عليها غير انه طلب مني عدم نشر تلك الاسماء.

ارتكابه جريمة ضد العسكرية بسعيه وراء اثارة الخواطر على جيش الاحتلال ولقد ثبت لدى المحكمة ثبوتاً بينا من المكاتيب الموقعة منه التي وجدت في بيت يوسف السويدي بأن عبدالمجيد كانت له يد قوية في تأليف عصابة من القتلة ترمي الى ارهاب وقتل كل من لايجاري المبادىء المتطرفة التي اتخذها حزبه. وقد ثبت عليه الجرم فحكمت عليه المحكمة بالاعدام شنقاً فتأيد الحكم وشُنق ليلة السبت ٢٥ ايلول ١٩٢٠».[1]

جرى لجنازة عبدالمجيد تشييع عظيم جداً، وقد اشترك فيه الشيعة واهل السنة معاً، فأخرج الشيعة في التشييع اعلام مواكبهم الحسينية، كما خرج المتصوفة بدفوفهم وهم يكبرون الله. وحمل بعض الشبان الشموع بأيديهم إشارةً الى ان الفقيد كان شاباً وهذا يوم عرسه. وفيما يلي ننقل نبذة مما ذكرته جريدة «الإستقلال» البغدادية حول التشييع:

«... حملت الجنازة من داره قبيل الظهر ومرت في الشوارع يتقدمها صفوف من اهل الدفوف والاعلام وهم يهللون ويكبرون ويتبعهم ألوف من الرجال والشبان وفي ايديهم الشموع تضيء والكل تضج ضجيجاً عالياً. ثم يأتي بعد ذلك النعش وقد رُفع على رؤوس الاصابع. ولا ابالغ إذا قلت: تحمله مئات من الأيدي والناس تتزاحم لكي تحظى بحمله ولو برهة. وقد أُلقي على الصندوق رزمة نفيسة من الحرير العال وعُلق فوق رأسه الطربوش الذي كان يلبسه في الحياة، وتبع النعش من الخلائق والاعلام اضعاف من تقدمه. والجميع خاضعة الرؤوس. ثم تأتي بعد ذلك افواج النساء زمراً وقد حثين الرماد والطين على رؤوسهن. سلك النعش طريق الفضل فالميدان فجادة السراي فالسوق، وعبر الجسر القديم الى جانب الكرخ قاصداً المقبرة

---

(١) - جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ٢٨ ايلول ١٩٢٠.

الشونيزية حيث مرقد الشيخ معروف الكرخي...».[١]

اقيمت لعبدالمجيد فواتح عديدة في مختلف محلات بغداد، ولم يكن في بغداد من اخوته الثلاثة يومذاك سوى واحد هو رشيد، اما الآخران فكان احدهما قد ابعد الى هنجام، والثاني هرب الى كربلاء. وأخذ رشيد يطوف على مجالس الفاتحة بصحبته ابن اخيه اليافع خليل كنة.

ومما يجدر ذكره ان اعوان عبدالمجيد كنة لم يسكتوا عن الثأر لرئيسهم، وفي مساء ٢٤ كانون الأول ١٩٢٠ كمنوا بالقرب من جامع مرجان لضابط شرطة يهودي اسمه سلمان ربين حية، فاطلقوا عليه النار وقتلوه. وكان المظنون ان هذا الضابط له يد في القاء القبض على عبدالمجيد وقد اهتم الإنكليز لمقتل هذا الضابط اهتماماً كبيراً، ولهذا نراهم ينشرون في جريدة «العراق» اعلاناً ثلاث مرات متتالية كان هذا نصه:

تُعطى مكافأة قدرها خمسة آلاف روبية لمن يعطي خبراً ينتج بتوقيف ومعاقبة الشخص او الأشخاص الذين اشتركوا في اغتيال المفتش البوليس سلمان روبين حية المختص ببوليس لواء بغداد الذي قُتل رمياً بالرصاص نحو الساعة السابعة عشرة ونصف (اي نصف ساعة بعد الغروب) في مساء يوم الجمعة ٢٤ كانون الأول في طريق تحت التكية بجانب ميدان مرجان بغداد. نائب مدير البوليس بغداد[٢]

استفحال السيّد طالب:

عندما ساد الارهاب في بغداد في ١٢ آب وما بعده، عم الهدوء والوجوم بين الناس، واضطر الناس الى العودة الى مبدأهم القديم الذي اعتادوا عليه في ايامهم الماضية. «انا شعلية» و«يا هي مالتي».

---

(١) – جريدة (الإستقلال) ـ في عددها الصادر في ٢٨ أيلول ١٩٢٠.

(٢) – جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٤ كانون الثاني ١٩٢١، والاعداد التالية.

وقد خلا الجو للسيد طالب حينذاك، فارتفعت مكانته واصبح الشخصية المرموقة في بغداد، وأخذ يصول ويجول فيها على نحو ما كان يفعل في البصرة قبل الحرب. ويقال انه استدعى إليه من البصرة رجاله الذي كان يستعين بهم لإرهاب خصومه. وقد وقعت في بغداد في تلك الفترة بعض حوادث القتل فظن الناس أنها من صنع رجال السيّد طالب، وازدادت بذلك مكانته ارتفاعاً!

في ٣٠ آب كتبت المس بيل تقول: «جاءني السيّد طالب بينما كنت اتناول طعام الافطار. فابتدأ الحديث بقوله انه يعتبرني اختا له وليست موظفة حكومية، وهو يريد مني نصيحة. فاصغيت إليه وبين يدي البيض والتين الأسود. فسألني هل يجب عليه ان يقبل المال منا، وهل ان ذلك سيخفض قيمته في نظرنا؟ فاجبته ان من الأفضل له ان يحصل على المال لقاء خدماته بدلاً من استقراضه من زيد او عمرو او بكر وهم الذين سوف يطالبونه به فيما بعد. انه يقوم بعمل مفيد، واوضحت له اني اخذ راتباً فلماذا لا يأخذ هو مثلي. إننا في الغالب نتساءل ما هي اللعبة الحقيقية التي يلعبها السيّد طالب، مع انه حتى الآن قد قام باللعب على الوجه المطلوب. وانا متأكدة انه نفسه يتساءل عنا مع اننا لم نلعب معه على الوجه الصحيح مثله. وما دام هو يأتي اليّ ويتكلم معي بصراحة فإن من السهل ان نحافظ على سوية التعامل معه. ولكني على أي حالة لست واثقة من أنه لايفعل ذلك مع اناس آخرين. ولهذا فإني استمر معه في ذلك على احتمال انه نافع. ومن الطريف ان اذكر بالمناسبة اننا إذا لم نمده بالمال فانه سيحصل عليه بطريقة الابتزاز وهي الطريقة التي هو خبير بها، ولكن ذلك لايجلب النفع لنا كما انه لايجلب النفع له في الأمد البعيد. انه متجه نحو القيام بدور كبير في المستقبل. والى ان يحين ذلك الوقت يجب ان نحاول ابعاده عن الشرّ».[1]

وتروي المس بيل في رسالة أخرى ان السيّد طالب تحدث مع آرثر تود مدير

---

(١) - Burgoyne (op. cit) - vol. 2, p. 160.

شركة لنج وقال له العبارة التالية: «ان ما تحتاجه البلاد هو الخبرة وانا املكها. فالطبيب يقتل مائتي مريض على الأقل لكي يتعلم مهنة الطب، وانا قد قتلت المائتين، وليس هناك شخص يعرف هذا اكثر منك». وتقول المس بيل ان المستر تود لم يستطع ان ينكر صحة ذلك.(١)

جريدة «الشرق»:

تم الاتفاق بين السيّد طالب والإنكليز على اصدار جريدة تنطق بلسان حزبه سُميت بـ«الشرق»، وقد اختير السيّد حسين افنان ليكون صاحبها ورئيس تحريرها. وهذا الرجل كان يعمل موظفاً لدى الإنكليز في دائرة الحاكم العام. وعمل قبل ذلك معاوناً لآمر معتقل الأسرى في سمربور في الهند، وهو ابن اخت عبدالبهاء رئيس طائفة البهائية.

صدر العدد الأول من جريدة «الشرق» في ٣٠ آب ١٩٢٠، وكتب السيّد حسين في هذا العدد افتتاحية طويلة كادت تملأ الصفحة الاولى منه، ننقل فيما يلي الجزء الأخير منها:

«.. نرى امامنا بلاداً عم فيها الاضطراب وكثر الويل وقد أخذنا على عاتقنا مسؤولية انشاء جريدة يومية سياسية عالمين بهول الموقف ومصير الأمور وهنا نبسط خطة جريدتنا ليعلم بها الخاص والعام. فالشرق جريدة حرة معتدلة مبدؤها خدمة البلاد وغرضها نشر الافكار الحرة والمبادىء القويمة وبث روح المسالمة ونشر الحقائق الناصعة، ولاندعي بأن الحق كله سيكون في جانبنا فيما نقوله في جميع الأحيان غير اننا سنتحراه بلا تردد ولن تأخذنا فيه لومة لائم. هذه سياسة جريدتنا بسطناها بكل ايجاز، واننا نشكر سلفا الذين يشجعوننا في عملنا ومبدئنا. والسلام».

---

(١) - Ibid - vol. 2, p. 157.

يمكن القول ان جريدة «الشرق» كانت الجريدة العربية الوحيدة في العراق التي كانت تكتب بجرأة وصراحة في تمجيد «الانتداب». كما أخذت تنشر المضابط التي ارسلها إليها بعض رؤساء العشائر في تأييد الوصاية البريطانية. ثم صارت بالاضافة الى ذلك تقوم بالدعاية للسيد طالب وترشحه لعرش العراق وتنشر عنه الامادح نظماً ونثراً(١).

كتبت الجريدة في عددها الصادر في ٧ ايلول ١٩٢٠ افتتاحية عنوانها «سياسة بريطانيا والاقوام والممالك» بدأتها بقولها: «لنا كلمة قلناها من قبل ونقولها اليوم وهي ان حكومة بريطانيا لم يتسع ملكها الى حد لاتغيب الشمس عن قطريه ولم ينضوي الى لوائها مئات الملايين من النفوس على اختلاف اجناسها ولغاتها ومذاهبها إلاّ بسياستها القويمة... ومن ينظر الى ما اسلفناه نظرة مهتد الى نتائج الأمور يعلم حق العلم ان العراق سيكون حظه كفيره حتى تعتمد بريطانيا على رجاله ويكون لها ثقة بموالاتهم لأنها لم تنو للعراق إلاّ الخير والإستقلال...».

طالب يعلن سياسته:

في ١٨ ايلول ١٩٢٠ نشرت جريدة «الشرق» كتاباً مفتوحاً موجهاً الى السيّد طالب كان مذيلاً بتوقيع (ع.ظ.) والمظنون انه علي ظريف الأعظمي، وهذا نصه:

الى اعتاب صاحب الدولة العميد طالب باشا والى رجال الأمة العراقية وزعمائها.

بعد تقديم الإحترام.

ايها العميد المعظم ان للأمة العراقية فيك آمالاً كباراً واليوم تنتظر بفارغ الصبر ثمرة تلك الآمال.

---

(١) – رفائيل بطي (الصحافة في العراق) ـ القاهرة ١٩٥٥ ـ ص ٥٤.

ايها الزعيم المطاع نريد منك ان تصلح بلادنا وتؤلف بين قلوب رجالنا وتعيد مجد اسلافنا الذين سادوا البلاد شرقاً وغرباً وأخضعوا الأمم عجماً وعرباً.

ايها العزيز قد مسّنا وبلادنا الضُر فقم بوجه من يريد بأُمتك ووطنك السوء ولاتصغ الى اقوال المغرضين، وآلف بين قلوب رجالنا وعلمائنا ووحّد كلمتهم واجعل الأمر شوري بينهم فانك انت المسؤول.

ايها الصادق الأمين انك تعلم حالة بلادنا والخطر الذي احدق بنا فقد اندرست علومنا ومُحيت فنوننا، وافقرت بلادنا واختلط الآن حابلنا بنابلنا، وتشتّت آراء كبارنا وهذا يومك فلا تخيبن آمالنا فيك.

ايها البطل الصنديد يتساءل البعض عن خطتك فاوقفنا عليها لتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد...

ايها الزعماء العظام والسادة الكرام.

لقد آن وقت التعاضد والاتفاق وزالت أيام التنافر والإفتراق واصبحت الامّة تنتظر همكم ونتائج اعمالكم.

ايها القادة انكم تعلمون حالة الأمة والبلاد وتعرفون الداء والدواء فادوا ما وجب عليكم، نريد ان تتعاضدوا وتتفاهموا، لتكن كلمتكم واحدة وغايتكم واحدة، نريد ان تنقذوا امتكم مما دهاها وتعيدوا سالف مجدها وما اندرس من علومها وفنونها، فلبوا دعوة الوطن واجيبوا داعي الأمة.

فليحي العميد وليحي الزعماء ولتحي الأمة العراقية وليحي الوطن! ع.ظ.

وفي ٢١ ايلول ١٩٢٠ نشرت الجريدة في افتتاحيتها جواب السيّد طالب على هذا الكتاب المفتوح. وفيما يلي ننقل الجواب بكامله لما فيه من تعبير واضح عن نفسيّة السيّد طالب واتجاهه السياسي:

ايها الوطني الغيور.

لقد اطلعت على كتابك المفتوح المتضمن للسؤال عن خطتي والمنشور في جريدة الشرق الغراء عدد ١٦ فسررت جداً من مشاهدتي لرجل غيور مثلك.

وبعد فإني ابدي من صميم القلب شكري لك خصوصاً، ولكل مواطني العراقيين، المحترمين على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم عموماً، على اعتمادكم عليَّ وحُسن ظنّكم بي فأقول: ان خطتي:

هي الذود عن مجد البلاد بصارم ... حمائله علم وجوهره فهم

يصول به ليث السياسة كلما ... تبادر منه العزم عاضده حزم

ان خطتي: هي حب الوطن وذويه، واستقلاله وتساميه، وكسر انوف حاسديه، وقمع دابر شانئيه، والمحافظة عليه من الأخطار، ومكائد الأشرار، وطلب رقيه آناء الليل واطراف النهار، والسعي الحثيث وراء نيل الآمال، ولو ببذل النفس فضلاً عن الأموال. ولكن بصورة سلمية، لابثورة دموية، وبشجاعة مدنية، لابحمية جاهلية، ولا اظن ان أحداً من الناس كبيراً كان او صغيراً يتمكن من ان ينكر هذه الخطة او لايعترف باتصافي بها بعد ان علم الله والناس اجمع كيفية مجازفتي بمالي في هذا السبيل، وملاعبتي بحياتي، ومخاطرتي بأهلي وذوي قرابتي، وانتباهي للأمر من قبل ان تنشب الحرب اظفارها بأفئدة المتكافحين، حين كانت سنة الغفلة آخذة بمعاقد الأجفان، ونشوة العطالة متمكنة في العراق من بني قحطان. ولولا الحرب الضروس لتوجت اعمالي إذ ذاك بالنجاح، ولكان المطلوب حاصلاً، ولما شاهدنا دونه حائلاً.

ولي الأمل الوطيد بأن يشهد كل فرد من اخواني، سورياً كان او مصرياً او عراقياً، بأني اول رجل سلك هذا المسلك المشروع، واعتمد على الحق فشرع بمصارعة الدهر، وما اكترث بمزاحمه ومصاعبه، وصبر على نوبه ومصائبه. ولم ازل كذلك حتى دبت هذه الروح في كل ابناء الأمة، واصبح الكل مطالبين بحقوقهم

المشروعة حتىٰ كادت تشرق شمس الآمال.

غير اني لما اتيت دار السلام وجدتها ويالالأسف في حالة يُرثىٰ لها. حيث رأيت فيها مسارح لأنواع القلاقل والفتن، ومهاوي لصنوف الإحن والمحن. اغراضاً شخصية فاسدة، وأموراً فوضوية كاسدة، هياجاً في الداخل، وثورات في الخارج. لا الرئيس يسمع كلامه المرؤوس، ولا التابع يمتثل أمر المتبوع. فمن جهة ينادي بطلب الإستقلال التام، ومن جهة تُنهب الاموال وتُيتم الاطفال، ومن طرف تُرام حقوق مشروعة، ومن آخر تخرق القوانين الموضوعة، فنساء بغير حق تُرمّل، واسرى حرب تُقتل، الى غير ذلك مما يحزن ذكره اللبيب ويبكي الحليم.

وما ادري كيف يطابق معوج بمعتدل؟ أم كيف يليق بقوم يطالبون بحق مشروع ان يسيئوا التصرف ويعملوا ما يعود علىٰ العباد والبلاد بالضرر الأكبر.

وقد والله كان الأجدر بنا ان نتبصر ونعتبر بما جرىٰ ولازال جارياً في بلادنا السورية من الأمور الهائلة. إذ ليس من فئة متطرفة قبضت علىٰ ازمة الحكم واضاعت الحزم إلاّ وخيم عليها الويل والدمار وعاد عليها الربح بالخسار.

جرت هذه الأمور علىٰ مرأىٰ مني ومسمع ومع ذلك لم يطرأ والحمد للّه علىٰ عزمي شيء من الفتور وما انا بهياب ولا وكل بل انا لم ازل مشمراً عن ساعد الجد والاجتهاد.

ولقد فاتحت الحكومة في امور هامة فرأيت منها تساهلاً في الأمور مع ما اصاب موظفيها من التعدي والتحامل في البلاد فلم تعارض علىٰ فكرة ارسال مندوبين الى لندن للمطالبة بحقوقنا المشروعة بشرط موافقة حكومة لندن علىٰ ذلك، وقبلت أيضاً النظر في مسألة اصدار عفو عام عن المجرمين الذين زلزلوا كيان البلاد، وقررت أيضاً تاسيس المؤتمر المطلوب، فعرضت عندئذ هذه المسائل علىٰ زعماء الحركة في بغداد فلم يعيروها اهتمامهم ولاخطوا خطوة في سبيل

التفاهم مع الحكومة دفعاً للمشاكل التي صارت حجر عثرة في سبيل رقي البلاد، بل بذلوا قصارى جهدهم في القاء الفتن واثارة القلاقل بين العشائر والقبائل برفع النظر عما يترتب على عملهم هذا من الخطر على البلاد واهلها.

فيا ايها الوطني الحر!

يؤلمني ان اقول ان بعض ابناء وطني قد ساقتهم الغايات ولم يبالوا اهبط الوطن ام عرج فحالوا دون مصالحه، وتصافحوا مع الجهال، فكدروا صفو العيش واوجدوا الحالة التي تراها.

ويا أيها الاديب المحترم!

تلك خطتي، وهذه اعمالي، ولم ازل غير آيس ولا ذا ملل وسأجاهد الجهاد الحسن لاحياء مجدنا الغابر واستقلالنا المستقبل راجياً من زعمائنا الاماجد وفحول رجالنا ان يؤازروني في الاعمال، ومن الله التوفيق وعليه الاتكال. طالب النقيب

توديع ويلسون

عندما بدأ ويلسون يتهيأ لمغادرة العراق في شهر ايلول ١٩٢٠ أقيمت لتوديعه حفلتان، اولاهما اقامها السيّد طالب، والثانية اقامها منتسبو السكك الحديدية.

اقيمت حفلة السيّد طالب في مساء ١٩ ايلول وحضرها كبار البريطانيين واعيان بغداد، والقى فيها جميل صدقي الزهاوي كلمة قُوطعت بالتصفيق مراراً، ننقل فيما يلي القسم الأعظم منها:

«نحن اليوم على مائدة عميد العراق الاكبر فخامة طالب باشا قد اجتمعنا نحتفل بوداع الرجل الكبير عميد بريطانيا العظمى دولة الحاكم الملكي العام الكولونيل السر ولسن الأفخم.

«سر ايها الحاكم الجليل على الطائر الميمون رافقتك السلامة والسرور. انك ايها

الحاكم ما كنت لأهل العراق خاصة إلاّ حارساً شفيقاً يدرأ عنها الأذى، وللعرب عامة إلاّ صديقاً يتمنى لهم السعادة...»

«وقد بدت ايها الحاكم الجليل في أيام حكمك تباشير الحكومة الوطنية في العراق وهي جمع مبعوثي العراق وتشكيل لجنة منهم تسن قانوناً لانتخاب مؤتمر للعراق عام. وتلك التي وعد الحلفاء بها وفي مقدمتهم حكومة بريطانيا العظمى، وأكّدتها انت ايها الحاكم بذاتك في منشوراتك علىٰ الأمة وبلاغاتك، وكنت قد أخذت ـ والحق ابلج وضاح ـ بمقدمات التشكيلات التي كان الشعب العراقي ينتظرها انتظار الملسوع للصباح المسفر، لولا ما حال دون انجازها من تأخير الحكومة العثمانية لتصديق معاهدة الصلح ووقوع الاضطرابات التي حدثت بالرغم من ارادتك السلمية في الاطراف بسبب سوء التفاهم مما اسف له عقلاء العراقيين في الانحاء كافة...»

«ايها الحاكم المحترم سر راشداً مهدياً واعلم بأن فراقك يعز علىٰ الذين غرست في قلوبهم حباً لايمحوه كر الأيام ومر الليالي، فاذهب عن مدينة السلام بسلام. وستسر عند سماعك ان العراقيين قد جنحوا الى السلم واخلدوا الى الوفاق كافة، وعادوا يوالون حكومة بريطانيا العظمى كما كانوا، ويحترمون يد مساعدتها، شاكرين لها شكر الأرض القاحلة للمطر الوابل. فليعش الكولونيل حضرة السر ولسن الأفخم، وليعش عميد العراق فخامة طالب باشا، ولتتحقق آمال الشعب العراقي».

وبعد ان انتهى الزهاوي من كلمته، تلاه مطران طائفة الكلدان فالقى كلمة وجيزة شكر فيها السيّد طالب وذكر مناقبه وما له من الأيادي البيضاء علىٰ الأمة، كما خاطب ويلسون بعبارات مؤثرة. ثم قام ويلسون فتكلم بالعربية قائلاً:

«ان من شنّف إذنه بترخيم البلبل ـ مشيراً الى الزهاوي ـ لا يود الاصغاء الى صوت العصفور ـ مشيراً الى نفسه ـ واني آسف علىٰ مغادرة هذه البلاد غير اني مسرور بأن اسلم زمام الامور الى السر برسي كوكس الذي هو بمقام ابي، وانا بمنزلة

ابنه. لقد كابدنا المشاق اثناء الستة اشهر الماضية، وسنستريح بجريان الأمور الحسنة. فلا توفيق إلا بالسعي، ولا يسر إلاّ بعد العسر». ثم شكر ويلسون السيّد طالب والخطباء، وجلس بين تصفيق الحاضرين...[١]

وفي مساء اليوم التالي اقيمت الحفلة الثانية في دائرة السكك الحديدية والقى فيها ويلسون كلمة طويلة سجل نصها في مذكراته وفيها حدد اسباب الثورة بعاملين: اولهما السياسة البريطانية التي شجعت الشعور الوطني في العراق دون ان ترسل أوامر محدّدة لانشاء حكومة وطنية في الوقت المناسب، والثاني زعماء المعارضة الذين وصفهم ويلسون بقلة التبصر والتعصب والفوضوية.[٢]

---

(١) – جريدة «الشرق» ـ في عددها الصادر في ٢١ ايلول ١٩٢٠.

(٢) – Wilson (op. cit.) - vol. 2, p.318 - 320.

الفصل الثاني

الثورة في ديالى

في الوقت الذي خيم الهدوء على بغداد بعد ١٢ آب ١٩٢٠ على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق ـ أخذت الثورة تنتشر في بعض مناطق العراق الأخرى كان أهمها منطقة ديالى.

من الجدير بالذكر ان منطقة ديالى كانت حينذاك ذات أهمية كبيرة بالنسبة للانكليز، لأنها تقع على الطريق بين بغداد والحدود الايرانية، وقد كانت في ايران قوة انكليزية كبيرة يجب سحبها للاستعانة بها على قمع الثورة في الفرات الأوسط، وهذا فان قيام الثورة في ديالى يحول دون وصول تلك القوة الى بغداد.

تتميز ديالى عن غيرها من مناطق العراق الأخرى بأنها قريبة جداً من بغداد، ولاسيما مركزها الاداري بعقوبة. وكان هناك خط منظم للسيارات بين بغداد وبعقوبة. ولهذا كان سكان ديالى يترددون على بغداد كثيراً، كما كان أهل بغداد يترددون على ديالى. ولما حدثت أحداث رمضان في بغداد تأثرت بها منطقة ديالى وظهرت فيها امارات التذمر والتحفز للثورة.

ومن الممكن القول ان انتصارات الثورة في الفرات الاوسط كان لها أثرها في تحفيز عشائر ديالى على الانضمام للثورة، فإن تلك الانتصارات وصلت أخبارها الى ديالى مضخمة وفيها الكثير من المبالغات عن الغنائم التي فاز بها الثوار، والأسرى الذين وقعوا في ايديهم. وقد وصلت تلك المبالغات الى ديالى عن طريق بغداد، وكان

لأهل بغداد يد في تضخيمها، فوجدت تربة خصبة لدى بعض العشائر هنالك إذ هم أرادوا أن يفوزوا بمثل الغنائم التي فاز بها ثوار الفرات الأوسط.

أشخاص لهم دورهم:

كان هناك عدة أشخاص ساهموا في بث الدعوة الثورية في منطقة ديالى، نذكر فيما يلي أهمهم:

١ ـ السيّد حبيب العيدروسي: وهو من سلالة السيّد عبدالله العيدروسي مؤسس التكية العيدروسية في بغداد، وكان ملاكاً كبيراً يسكن بعقوبة ويملك قرية «زاغنية».(١) وعندما حدثت أحداث رمضان في بغداد كان هو حلقة الاتصال بين رؤساء بعقوبة وزعماء الحركة الوطنية في بغداد.

٢ ـ محمود أفندي المتولي: وهو إنما لُقّب بهذا اللقب لأن أحد اجداده كان متولياً وناظراً لأوقاف سلمان الفارسي بأمر من السلطان العثماني. وكان هو يسكن بعقوبة وصار عضواً في مجلس الإدارة فيها سنوات متوالية.(٢) ولما جاء الاحتلال الإنكليزي كان هو من أوائل المتذمرين منه، وأخذ يحرض الناس على الثوره، وكان اعلان الثورة في بعقوبة قد تقرر في إجتماع عُقد في داره.

٣ ـ السيّد صالح الحلي: وهو من مشاهير قراء التعزية الحسينية، وقد اشرنا سابقاً الى نشاطه في الكاظمية وبغداد في شهر شعبان من عام ١٩٢٠.(٣) وعندما حل شهر رمضان استدُعي الى بعقوبة لقرائة التعزية فيها، فأخذ يُحرّض الناس على الثورة هنالك. والمعروف عنه أنه يملك مقدرة عجيبة في التأثير على العوام.(٤)

---

(١) ـ أحمد الرجيبي «تاريخ بلدية بعقوبة»، بغداد ١٩٧٤، ج٢، ص٢٩.

(٢) ـ المصدر السابق، ج٢، ص٢٧.

(٣) ـ انظر القسم الأول من هذا الجزء، الفصل الثاني عشر.

(٤) ـ جعفر الخليلي «هكذا عرفتهم»، بغداد ١٩٦٣، ج١، ص١٠٨ ـ ١٠٩.

٤ ـ الشيخ حبيب الخالصي: وهو من أسرة آل الخالصي المعروفة، وكان العالم الديني في دلتاوة وكيلاً عن الشيخ مهدي الخالصي. وعندما اندلعت الثورة في الفرات الأوسط أرسل إليه الشيخ مهدي رسائل بيد السيّد محسن العاملي لكي يوصلها الى رؤساء المنطقة يحرضهم على الثورة. وقد أوصل الشيخ حبيب تلك الرسائل الى الرؤساء بواسطة رسل يعتمد عليهم كان من بينهم السيّد زيني آل جريو.(١) وكان لتلك الرسائل أثرها في اندلاع الثورة في منطقة ديالى لان كثيراً من سكان المنطقة كانوا من المقلّدين للشيخ مهدي الخالصي.

٥ ـ حبيب الخيزران: وهو من رؤساء عشيرة العزة، وكان كثير التردد على بغداد وقد اتصل به بعض رجال الحركة الوطنية فيها وأطنبوا في ذكر الانتصارات الكبرى التي نالتها الثورة في الفرات الأوسط، وطلبوا منه اثارة عشائر ديالى لمنع الإنكليز من اعادة قواتهم الموجودة في ايران. فثارت النخوة العربية لدى حبيب الخيزران وعاد الى مقره في دلي عباس، ودعا الى داره رؤساء العشائر القريبة، ولما اجتمعوا عنده اقسموا بالقرآن على القيام بالثورة عندما يحين حينها وأن يساعد بعضهم بعضاً في سبيل ذلك.(٢)

٦ ـ محمد أبو خشيم: وكان رئيساً لفخذ من البوهيازع يطلق عليهم «الكبيشات». والمعروف عن الكبيشات أن كثيراً منهم كانوا في العهد التركي يحترفون النهب وقطع الطرق.(٣) وظلوا كذلك حتى عهد متأخر. وحين نشبت الثورة في الفرات الأوسط ووصلت أخبارها المضخمة الى أبو خشيم رغب في الانضمام اليها. ويروي

---

(١) ـ نقلاً عن أوراق الشيخ جعفر ابن الشيخ حبيب الخالصي، واني أشكره على اعارتي تلك الاوراق.

(٢) ـ فريق المزهر الفرعون «الحقائق الناصعة»، بغداد ١٩٥٢، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(٣) ـ مجلة «لغة العرب»، في عددها الصادر في ايلول ١٩١٢.

علي البازركان أن الشيخ سعيد النقشبندي، هو الذي حرض أبوخشيم على الثورة لأنه كان من تلك العشيرة.[١] وقد يصح أن نقول ان أبوخشيم قد دفعه الى الثورة حافزان: حافز الدين وحافز الدنيا. وليس هذا بالأمر النادر، إذ هو ديدن اكثر البشر!

بداية الثورة في ديالى:

كانت أولى بوادر الثورة في ديالى قد ظهرت في ٦ آب ١٩٢٠.[٢] وبعد يومين هاجمت عشيرة الكرخية دائرة المالية في مهروت التي تبعد عن محطة بعقوبة بنحو أحد عشر ميلاً. وفي اليوم التالي هاجمت الكرخية محطة القطار في «أبو هوا» التي تقع الى الشمال من محطة بعقوبة.[٣] وبذلك انقطع سير القطار بين بغداد وخانقين.[٤]

يشير الجنرال هالدين في كتابه الى انه لم تكن لديه في بغداد آنذاك سوى قوة احتياطية صغيرة بالاضافة الى الحامية المخصصة للدفاع عن العاصمة، ولم تكن الظروف تسمح بتقليص تلك الحامية إذ كان من المتوقع وقوع هجوم على بغداد من جهة الشمال علاوة على جهة الغرب. ولكنه على أي حال وجد من المهم أن يقضي على بوادر الثورة في ديالى قبل أن تستفحل. فوجّه إليها القوة الإحتياطيّة.[٥]

تحركت القوة من بغداد في ١٠ آب بقيادة الجنرال يانغ، فوصلت الى بعقوبة في اليوم التالي. وهنالك انقسمت الى رتلين: أحدهما صغير بقيادة الكولونيل وليامز كان هدفه تأديب القرى الواقعة على بعد ستة عشر ميلاً من السكة. والآخر كبير كان هدفه الوصول الى مهروت.

---

(١) – علي البازركان «الوقائع الحقيقية»، بغداد ١٩٥٤، ص ١٧٢.

(٢) – Haldane (insurrection In mesopotamia) - Edinburgh 1922 - p.152.

(٣) – فيليب آيرلاند «العراق»، ترجمة جعفر خياط، بيروت ١٩٤٩، ص٢٠٨.

(٤) – Haldane (op. Cit.) - p.152.

(٥) – Loc. Cit.

وقد نجح الرتل الصغير في مهمته فأحرق القرى المنوي تأديبها. أما الرتل الكبير الذي كان بقيادة الجنرال يانغ نفسه فقد واجه في طريقه الى مهروت صعوبة كادت تؤدي به الى كارثة، وذلك انه عند وصوله على بعد أربعة اميال من مهروت، وكانت الساعة في الثالثة والنصف صباحاً، جوبه من الخلف بنيران اطلقتها عليه مجموعة من الخيالة العشائريين، فأصيب الجنود بذعر مفاجيء، وانطلقت بغال المدفعية تخترق صفوف الرتل، وسرت عدوى الذعر الى الحيوانات الأخرى، وعمّت الفوضى في جميع الرتل تقريباً. ولم يتم تنظيم الرتل من جديد إلاّ بعد مرور ساعة. وقد فقد الرتل من جراء ذلك عدداً من خيوله. وكثيراً من المؤن والذخائر.

وفي الساعة الخامسة والنصف، عندما كان الرتل لايزال يعاني من عقابيل الحادث، هوجم مرة أخرى من قبل قوة من العشائر يُقدر عددها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ خيال. فأرسل الرتل على وجه السرعة سيارة الى محطة بعقوبة يطلب من سريتي وحدة البنادق فيها المجيء حالاً لنجدته. ثم أخذت مدافع الرتل تقصف القوة العشائرية بقنابلها وتمكنت من تفريقها. وفي الساعة الثامنة التأم الرتلان معاً حيث صارا قوة واحدة، وقد وصلت هذه القوة الى بعقوبة ظهراً. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر انسحبت القوة من بعقوبة عائدة الى بغداد. بعد أن تركت وراءها مفرزة صغيرة لحراسة الجسر والسكة.(١)

كان الحاكم السياسي في بعقوبة الميجر هايلس قد شعر بوجود خطر يهدد البلدة من العشائر المحيطة بها، وطلب من الجنرال هالدين ابقاء قسم من القوه للمحافظة على البلدة، ولكن هالدين رفض طلبه لحاجته الى القوة من أجل حماية بغداد، وأوعز الى الميجر هايلس بالإنسحاب من بعقوبة مع موظفيه والإلتحاق بالمفرزة المكلّفة بحماية الجسر.

---

(١) – Haldane (op. cit.) - P.153 - 154.

من الجدير بالذكر ان اعادة القوة الى بغداد أدت الى اختلاف في الرأي بين ويلسون وهالدين، فقد اعتبر ويلسون سحب القوة من بعقوبة غلطة عسكرية ويصفها بأنها «عملية مخزية» لأن اخلاء بعقوبة من قوة عسكرية في ذلك الوقت الحرج لابد أن يؤدي الى نتائج مشؤومة.[١]

أما هالدين فيعتذر عن ذلك بأن بغداد أهم من بعقوبة وأولى بالحماية. فهو يقول ان سكان بغداد كانوا حينذاك في حالة من الهياج بحيث يصعب السيطرة عليهم بالقوات الباقية فيها. يضاف الى ذلك ان العشائر القاطنة بجوار بغداد كانت ترنو بعين الطمع الى المخازن والمستودعات الكبيرة الواقعة على الضفة اليمنى من النهر، وكثيراً ما كانت تشن الغارات الصغيرة عليها لنهبها. ويذكر هالدين أنه عندما أرسل القوة الاحتياطية الى ديالى صار في قلق شديد لهذا السبب.

ويتطرق هالدين في هذه المناسبة الى الاحداث التي جرت في بغداد في ١٢ آب حين حاولت الشرطة القاء القبض على زعماء الحركة الوطنية فيها، فهو ينتقد الشرطة على اخفاقها، وكأنه يريد بذلك انتقاد ويلسون الذي كانت الشرطة تحت إمرته، وقال ان اجراءات الشرطة كان ضررها أكثر من نفعها. ويزعم هالدين ان كثيراً من أهل بغداد كانوا يعلمون بالخبر قبل وقوع الحادث، وهذا هو السبب الذي أدى الى مقاومة الأهالي للشرطة، والى تمكن أكثر الزعماء من الهرب، وقد ذهب هؤلاء الزعماء الى مناطق أخرى من العراق لمواصلة اشعال الثورة فيها.[٢]

النهب في بعقوبة:

ان انسحاب الجنرال يانغ بجميع قوته الى بغداد، وما أعقبه من انسحاب الحاكم

---

(١) – Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, p.282 - 283.

(٢) – Haldane (op. Cit.) - p.155.

السياسي مع موظفيه من بعقوبة، شجع العشائر القريبة كالكرخية والزكوك وبني تميم على اعلان الثورة..

وفي ١٢ آب اقتحمت عشيرة الكرخية بلدة بعقوبة، وأخذت تنهب دكاكينها وبيوتها. وقد عم النهب جميع محلات بعقوبة ماعدا تلك التي هب سكانها للدفاع عنها. وأسرع أفراد العشائر الى السراي فنهبوا ما فيه وأحدثوا فيه بعض التخريب كما أتلفوا سجلاته واضابيره.[١] وأرادوا الاستحواذ على خزانة المال ولكن رئيس البلدية حسون الخشالي استطاع أن يحمي الخزانة بالتعاون مع نفر من أعوانه، ونقلها الى بيته. وقد جاء أفراد العشائر يريدون اقتحام البيت، فدافع عنه حسون وأعوانه وردوهم خائبين.[٢]

كان طالب مشتاق من جملة الذين نُهبت أموالهم يومذاك. فقد كان لهذا الرجل دكان اعتبر في حينه أحسن وأنظف دكان في سوق بعقوبة، ولكنه عند تعيينه معلماً في الهويدر في ١٠ تشرين الثاني ١٩١٩ قرر تصفية الدكان، وكلّف بذلك أخاه أدهم. حدثني أدهم أن الدكان قد وصل في التصفية الى النصف عندما هجمت العشائر على بعقوبة، وكان مغلقاً فكسرت العشائر الاقفال ونهبت الدكان عن آخره.

تمكن رؤساء بعقوبة أخيراً من تشكيل حكومة محلية موقتة لضبط الأمن في البلدة، فاختاروا محمود أفندي المتولي رئيساً للحكومة برتبة قائمقام، وأبقوا الشيخ حسين بن نصر الله في منصب القضاء الذي كان فيه، كما ناطوا مسؤولية حفظ الأمن برجل كان ضابطاً في العهد التركي اسمه محمد أغا ابن عبدالقادر. واتخذوا دائرة البريد مقراً للحكومة، ورفعوا فوقها العلم العربي ذا الألوان الأربعة.

---

(١) - أحمد الرجيبي «المصدر السابق»، ج ٢، ص٢٦.

(٢) - حدثني بذلك جميل الخشالي.

لم تدم هذه الحكومة طويلاً كما أنها لم يكن لها سلطة فعلية لردع افراد العشائر عن النهب والتعدي. قيل إن محمد أغا الذي نيطت به مسؤولية حفظ الأمن خرج يمشي في الأسواق مع أعوانه وهو يرتدي ملابسه العسكرية القديمة ويحمل السيف، ولكنه حين عاد الى بيته وجد اللصوص قد سرقوا كل ما فيه حتى «الجفجير».(١)

أصبحت جميع القرى القريبة من بعقوبة في تلك الآونة مهددة بغزو العشائر لها، ولهذا هب أهل القرى للدفاع عن أنفسهم فحملوا أسلحتهم وصاروا يتناوبون في خفارة قراهم ليلاً ونهاراً. وقد أطلق سكان ديالى على تلك الفترة اسم «جهجهون» ومعناه الفوضى. يبدو ان بعض القرى لم توفق في حماية نفسها تجاه غزو العشائر لها، وكانت قرية «شفتة» من جملة تلك القرى، وهي قريبة من بعقوبة، فجاء إليها أفراد من العشائر فنهبوا بعض سكانها وفرضوا الاتاوة على البعض الآخر منهم. حدثني الدكتور فاضل حسين فقال: إنه كان يومذاك صبياً صغيراً يسكن مع أهله في تلك القرية، فطرق بابهم رجل من عشيرة الزكوك يطلب منهم «الخاوة» فردت عليه امه قائلة: «العزة ما ينطون خاوة»، فأدرك الرجل أن هذا البيت ينتمي الى عشيرة العزة القوية، فتركه وذهب الى بيت آخر.

ويروي الدكتور فاضل عن والده حسين أنه كان قد اشترى بعض اللوازم الضرورية لختان أولاده من أفرشة وأقمشة وأوعية، وأراد أن يحفظها من نهب العشائر فحملها الى قرية بهرز، فاعترضه رجل في الطريق ونهبها منه ولم يبق له منها شيئاً. ولما انتهت الثورة ذهب حسين الى الناهب وكان يعرفه مطالباً اياه بردّ منهوباته اليه، فكان جواب الناهب ان المنهوبات قد استُهلكت كلها، وأراه بقاياها في البيت كان منها «كيس تتن».

---

(١) - حدثني بذلك السيّد أحمد الرجيبي.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن بعض العشائر لم تنس ثاراتها القديمة في أيام الثورة. ذكر مهدي البصير: انه في الوقت الذي كانت فيه عشيرة العزة مشغولة بالثورة هاجمت عشيرة العبيد مضارب تلك العشيرة بالقرب من دلي عباس فعاثت فيها ونهبت مواشيها. وقد اضطرت العزة الى ترك الثورة والعودة الى مضاربها لتدافع عن نفسها تجاه عدوتها الغازية. ويقول البصير: ان الميجر بري حاكم سامراء هو الذي حرض عشيرة العبيد على مهاجمة العزة.[١]

الثورة في دلتاوة:

اندلعت الثورة في دلتاوة ـ وهي التي تُعرف الآن بالخالص ـ في نفس اليوم الذي اندلعت فيه في بعقوبة، أي في ١٢ آب ١٩٢٠. فعند شروق الشمس في ذلك اليوم اقتحمت البلدة من جهتها الشمالية عشيرة الكبيشات وكان في مقدمتها محمّد أبوخشيم. ولم يقع في دلتاوة ما وقع في بعقوبة من نهب وتخريب. ذلك لأن أهل البلدة هبوا للتعاون مع الكبيشات، وربما كانوا على اتفاق مسبق معهم، وقد ساد البلدة من جراء ذلك تكاتف وحماس ثوري، وعج الفضاء بالأهازيج والزغاريد وطلقات الرصاص. ثم توجه الجميع نحو السراي وأخذوا يطلقون النيران عليه من بنادقهم.

كان في داخل السراي حينذاك الكابتن لويد معاون الحاكم السياسي ومعه نفر من الموظفين البريطانيين والهنود ومجموعة من الشبانة. وقد أسرعوا الى باب السراي فأغلقوها عليهم، وبدأ الشبانة يقابلون نيران الثوار بالمثل، ولكنهم لم يثبتوا في القتال طويلاً. إذ سرعان ما فروا من السراي عن طريق البساتين التي تقع خلفه وأخذوا بنادقهم معهم غنيمة. وقد تمكن الثوار بعد قليل من تحطيم باب السراي، واقتحموه، واضطر الكابتن لويد والموظفون الذين معه الى الاستسلام الى الثوار. فحماهم

---

(١) – محمد المهدي البصير «تاريخ القضية العراقية»، بغداد ١٩٢٣، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

عبدالعزيز الهويدراوي وهو من وجهاء البلدة، وكان بيته مقابل السراي، فأنزلهم فيه.

انثال الثوار على السراي فنهبوه نهباً ذريعاً، وبعثروا أوراقه وسجلاته. وجاء الاطفال من بعد ذلك فأخذوا يجمعون الأوراق المبعثرة على الارض لكي يصنعوا منها طيارات ورقية يلهون بها.(١)

وأقبل الثوار على الخزانة الحديدية يريدون فتحها لنهب ما فيها من نقود، ووجهوا عليها نيران بنادقهم، ولكنها استعصت عليهم برهة من الزمن، ولما تمكنوا من فتحها أخيراً لم يجدوا فيها سوى مبلغ زهيد يقل عن المائة روبية، ولكنهم صاروا يتنازعون على هذا المبلغ كل منهم يريد أن يفوز منه بالنصيب الأكبر...(٢)

نادى المنادي في البلدة يدعو الأهالي لحضور حفلة رفع العلم العربي في السراي. فازدحم الأهالي على حافة الجدول الواقع أمام السراي، وصعد نفر من الشبان إلى سطح السراي فأنزلوا العلم البريطاني عنه، ورفعوا مكانه العلم العربي، وانطلقت عند ذلك الهوسات والزغاريد تحيي العلم. وقد استُدعي خطيب البلدة الملا محمد حسن لإلقاء كلمة تناسب المقام، فألقى دعاءاً حاراً لدوام هذه الحرية وتعزيزها بنصر من عنده.

وبعد هذا توجه محمد أبوخشيم الى فسحة في وسط البلدة وأعلن على الجمهور المحتشد فيها قائلاً: ان الحكم أصبح في يده وعليهم أن يعودوا الى أعمالهم الاعتيادية وأشغالهم. وقد روى لي فؤاد عباس بعض العبارات التي نطق بها أبوخشيم حينذاك وهي: «الكناس على كناستو، والنشاش على نشاشتو، والزبال على زبالتو، الله ربكم، والشيخ حبيب عالمكم، وأنا الحيكم ـ يقصد الحاكم ـ».

---

(١) – حدثني بذلك فؤاد عباس الذي كان يومذاك من جملة أولئك الأطفال.

(٢) – مجلة «المناهل»، في عددها الصادر في ٢٥ تشرين الأول ١٩٦٣.

وأعلن أبوخشيم العفو العام، ولكنه استثنى منه رجلاً واحداً اسمه «أبوالعيس»، فقد كان هذا الرجل حاجباً لدى الحاكم الانكليزي وكان أبناء العشائر يكرهونه لأنه كان يطردهم عن باب الحاكم طرداً عنيفاً، ولهذا سموه «النشاش»، ولما أعلنت الثورة أراد أبوخشيم الإنتقام منه، وصار الناس يبحثون عنه، وقد اختفى هو في حجرة مملوءة تبناً، واندس داخل التبن، وكانت زوجته تأتيه بالطعام والشراب. وظل مختفياً على هذا النحو حتى سكت الطلب عنه، فظهر للناس.[١]

وصلت عشيرة العنبكية الى دلتاوة في مساء اليوم الأول من الثورة حيث انضمت الى الثوار. فأمست البلدة في تلك الليلة كأنها في يوم حشر إذ كان الرصاص ينطلق في الهواء بكثرة بالغة، والهوسات تملأ الفضاء. وقد استضاف أهل البدة في بيوتهم جميع من جاء إليها من ابناء العشائر، كل على قدره. فقد نزل الشيوخ في بيت رئيس البلدة رشيد الفرج، بينا نزل الأفراد في بيوت الآخرين.

وبعد أيام قليلة من اندلاع الثورة في دلتاوة وصل إليها من الكاظمية الشيخ مهدي الخالصي مع حاشيته، كما وصل إليها السيّد محمد الصدر، فنزلوا جميعاً في بيت الشيخ حبيب الخالصي. وقد صار هذا البيت موئل الثوار ودار ندوتهم طيلة أيام الثورة.

ومن الجدير بالذكر ان التعاون بين أهل البلدة والكبيشات لم يدم طويلاً. فلم يهن على رؤساء البلدة أن يعلن محمد خشيم نفسه حاكماً على البلدة. أضف الى ذلك أنه أخذ يطالب رؤساء البلدة بحصته من «الميري»، أي من حصيلة الضرائب. كما أن بعض الأفراد من الكبيشات صاروا يستحوذون على ما يقع في ايديهم في البيوت التي نزلوا فيها، وبدأوا يعتدون على اليهود الساكنين في البلدة، وعلى الأسرى النازلين في

---

(١) - مجلة «المناهل»، في عددها الصادر في ٢٧ كانون الأول ١٩٦٣.

بيت عبدالعزيز الهويدراوي. وقد أعلن الشيخ مهدي الخالصي استنكاره لهذا الاعتداء لمخالفته للتعاليم الإسلامية.

طلب الشيخ مهدي من حبيب الخيزران أن يهتم بأمر الأسرى، فلبّىٰ حبيب طلب الشيخ، وأخذ الأسرىٰ الى مقره في دلي عباس، واعتنى بهم وأكرمهم اكراماً عظيماً. ويقال ان الإنكليز حفظوا له هذه المأثرة وكافأوه عليها فيما بعد.

اضطر رؤساء البلدة أخيراً الى اخراج الكيبشات منها. ثم شكّلوا حكومة محلية موقتة لحفظ الأمن فيها. فاختاروا عبدالوهاب العبلي رئيس البومفرج مديراً للشرطة، وعبدالدائم الهاتف معاوناً له. كما اختاروا بعض الأشخاص ليكونوا شرطة تحت أمرهما. وقد نجح هؤلاء في اقرار الأمن والنظام في البلدة.[١] يقول الدكتور مصطفى جواد، وكان يومذاك صبياً يسكن في دلتاوة:

«شاهدت أبيات اليهود القليلة في دلتاوة في أمن وأمان، ولا سبيل لأحد من أهل البلدة عليهم لأنهم في حماية الثوار، وذمة العرب الأحرار، وان بدرت بادرة من غيرهم عليهم كانت تُردّ بعنف واستنكار، ومع هذه المعاملة الطيّبة من الثوار لهم. فهم في أثناء احتلال الانكليز لدلتاوة بعد الثورة قد أظهروا لهم جميل الإستقبال، وكثير التشكي من الثوار والثورة، وبالغ الاشمئزاز مما كانوا فيه...».[٢]

الثورة في شهربان:

كان في شهربان ـ وهي التي تُعرف الآن بالمقدادية ـ حامية صغيرة من الشبانة يبلغ عدد أفرادها الخمسين، يسكنون في بناية تركية قديمة تسمىٰ «القشلة» تقع في طرف البلدة الشمالي. أما الجهاز الاداري في البلدة فكان مؤلفاً من ستة بريطانيين

---

(١) – مجلة «المناهل»، في عددها الصادر في ٢٥ تشرين الأول ١٩٦٣.

(٢) – مجلة «المناهل»، في عددها الصادر في ٢٧ كانون الأول ١٩٦٣.

وعشرة هنود وواحد مصري مسيحي اسمه اسكندر افندي.

بدأت الثورة في شهربان في ١٤ آب على نحو ما بدأت في دلتاوة، حيث هجمت عشيرة بني تميم برئاسة حميد الحسن على البلدة، وهب أهل البلدة للتعاون معها، وتوجهوا جميعاً نحو القشلة وأخذوا يطلقون عليها نيران بنادقهم.

لم يشأ البريطانيون في شهربان ان يستسلموا للثوار على نحو ما فعل زملاؤهم في دلتاوة، بل صمموا على القتال، فتحصنوا في القشلة وصاروا يطلقون النار منها على الثوار. أما الشبانة فقد تعاونوا مع البريطانيين في القتال في أول الأمر، غير أنهم لم يستمروا على ذلك طويلاً، وأخذوا يتسللون عبر السياج الواحد بعد الآخر، وهربوا من خلال البساتين المحيطة بالقشلة.

استمرت المعركة بضع ساعات، وانتهت عند حلول الظلام باستيلاء الثوار على القشلة، فنهبوا كل ما فيها ثم أشعلوا فيها النار. وقد قُتل في المعركة خمسة من البريطانيين، أما السادس منهم واسمه جون بيز فقد أصيب بجروح وسقط مغمى عليه، فظنوه ميتاً وتركوه، ولما أحسوا به بعد قليل يتحرك أخذوه أسيراً وأودعوه في بيت أحد رؤساء البلدة اسمه الشيخ مجيد، وهو ابن عم حميد الحسن رئيس بني تميم.

كان اسكندر افندي والهنود العشرة موجودين في القشلة أثناء المعركة غير أنهم لم يشتركوا في القتال، ولما انتهت المعركة استسلموا جميعاً الى الثوار، فأودع المسلمون منهم وهم ثمانية في بيت الشيخ مجيد، بينما أودع الهنديان الآخران وكانا مسيحيين في بيت حسن أغا زنكنه، ومعهما اسكندر أفندي.[1]

أسرع الثوار فقطعوا سكة الحديد التي تمر بالبلدة، وعندما وصل القطار القادم من كركوك الى مقربة من البلدة هجموا عليه فنهبوه. وكان في القطار اثنان من رجال

---

(١) - Zetton Buchanan (In The Hands Of The Arabs) - London.

الدين هما الحاج حمدي الاعظمي والشيخ نوري الشيرواني، وحين فتشهما الثوار وجدوا معهما أوراقاً مكتوبة باللغة الإنكليزية، فظنوهما من الجواسيس ووضعوهما في السجن. وقد تبيّن فيما بعد أنهما كانا موظفين في الأوقاف وأن الاوراق التي معهما ليست سوى كتب رسمية اعتيادية. وقد تشفّع لهما موسى أفندي المندلاوي، فأطلق سراحهما.[1]

وقع في شهربان مثلما وقع في دلتاوه من حيث ظهور الإختلاف والنزاع بين العشائر وأهل البلدة، فقد كانت العشائر تريد نهب بعض البيوت ولاسيما بيوت اليهود، فمنعها أهل البلدة من ذلك واضطروها الى الخروج من البلدة. وقد صارت العشائر بعد ذلك تعيث في البساتين المحيطة بالبلدة وتسرق التمر منها، وحصل من جراء ذلك كثير من تبادل اطلاق النار بين الفريقين. ولم يعد الصفاء بينهما إلاّ في أوائل ايلول عندما اقتربت القوات الإنكليزية من شهربان، حيث أدرك الفريقان أنهم مضطرون الى التعاون من جديد تجاه عدوهم المشترك.

في أيدي العرب:

كان من بين البريطانيين الخمسة الذين قُتلوا في القشلة مهندس يعمل في الري اسمه الكابتن بوكانان، وكانت معه زوجته واسمها «زتون». وقد تمكنت هذه المرأة أن تتسلل من القشلة على أثر مقتل زوجها، وذهبت الى بستان مجاور، واختفت تحت جنح الظلام في احدى السواقي الجافة. وظلت هناك فترة من الوقت الى أن عثر عليها ابن عيدكه الشقي المشهور، وكان من المشاركين في ثورة شهربان، فأخذها الى بيت الشيخ مجيد.

عاشت زتون في الأسر نحو ٢٦ يوماً، ولم يطلق سراحها إلاّ عندما استعادت

---

(١) - حدثني بذلك عمران بن موسى أفندي المندلاوي.

القوات الإنكليزية شهربان في ٩ ايلول كما سنأتي إليه في حينه. ولما عادت زتون الى بريطانيا فيما بعد ألّفت كتاباً وصفت فيه ما جرى عليها في حياة الأسر عنوانه: «في أيدي العرب». وفيما يلي نحاول استعراض بعض ما ورد في هذا الكتاب بإيجاز:

كان بيت الشيخ مجيد الذي أودعت فيه زتون بيتاً من الطين ومقسوماً الى قسمين أحدهما مخصص للنساء، والآخر مخصص للرجال. وهي قد أودعت في قسم النساء بينما أودع الهنود المسلمون ومعهم جون بيز في القسم الآخر. وتشكو زتون من الشيخ مجيد لأنه فيما تدعي قد أذاقها الجوع والحرمان ولم يوفّر لها اية حاجة ضرورية طلبتها، فظلت في ملابسها القذرة الملطّخة بالدماء طيلة مكوثها في البيت.

كانت زتون مصابة بجروح في جنبها، ثم اصيبت بالزحار والحمّى. وتقول ان عناية أهل البيت بها كانت قليلة جداً. ولكنها تذكر عن الذين أودعوا في بيت حسن أغا زنكنة أنهم كانوا في وضع جيد، فقد وفر لهم حسن أغا الطعام الوفير بحيث انهم كانوا يتناولون الطعام أولاً ثم يأتي أهل البيت بعدئذٍ ليأكلوا منه. وحين جاء بعض الثوار يريدون الإساءة إليهم وقف حسن أغا يمنعهم من ذلك، وقال لهم إنهم لايمكن أن يدخلوا بيته إلاّ من فوقه جثته.(١)

وتقول زتون ان نساء البلدة عندما علمن بوجودها في بيت الشيخ مجيد جئن يتفرجن عليها، وجلسن حولها مع ضجيج وضوضاء لاتحتمل، وصرن يتحسسن بأصابعهن ثيابها وشعرها وكعبها حتى بدأن بقياس ساقها، كما حاولن النظر الى أسنانها. وعند هذا نفد صبرها فدفعتهن بعيداً عنها، وأمرتهن بالخروج، ثم تذكرت عند ذلك زوجها فأخذت تبكي عليه، وقد استغربت زتون حين رأتهن يبكين معها بكاءاً شديداً ويظهرن لها حزناً حقيقياً.(٢)

---

(١) - Buchanan (op. Cit.) - p. 189.

(٢) - Ibid. , p.88.

وتذكر زتون أن رجلاً حاول التحرش بها في ساعة متأخرة من الليل، فهي كانت آنذاك مطروحة علىٰ فراشها فوق السطح، فلمحت رجلاً يعبر بهدوء من قسم الرجال متّجهاً نحوها، فهبت مذعورة صارخة، واستيقظت النساء علىٰ صراخها، وحدث ضجيج، وتبيّن أن الرجل من أهل البيت وقد اعتذر قائلاً بأنه كان يقوم بالحراسة وقد جاء الى هنا ليرى هل أن الأمور تجري علىٰ ما يرام.(١)

وفي أحد الأيام زارها الشيخ حميد الحسن، وأبدى عليها عطفاً وأوصى ابن عمه الشيخ مجيد برعايتها وتلبية طلباتها، فقال الشيخ مجيد انه قد لبى جميع ما طلبت. ولكن زتون تعلق علىٰ ذلك بقولها إنه يكذب.

وفي يوم آخر زارها الشيخ حميد الحسن ومعه عدد من الرؤساء كان من بينهم حبيب الخيزران رئيس العزة، وكان حبيب يحمل رسالة إليها من الكابتن لويد الذي كان في رعايته في دلي عباس، وهو يطلب في رسالته أن تأتي الى دلي عباس لتعيش معه في رفاهية. وقد أبدىٰ حبيب الخيزران استعداده لنقلها الى هنالك، ووافقت هي علىٰ ذلك، غير أن الشيخ مجيد سألها معترضاً: «لماذا؟ هل أنت لا تحبين البقاء هنا؟ أليست نسائي في خدمتك؟ الم نوفّر لك كل ما تحتاجين إليه من الشاي وكل شيء؟». فأجابت زتون، وكان اسكندر أفندي يترجم كلامها، بأنها لم تحصل علىٰ كل ما طلبت وأن الشيخ مجيد يعرف ذلك. وانتهت المحادثة أخيراً بخروج الرؤساء حيث تركوها باقية في مكانها.(٢)

وتحدثنا زتون في كتابها عن ما حدث ذات ليلة من ضجة كبرى في البلدة سببها أن فارساً مسرعاً جاء الى البلدة عقب غروب الشمس وهو يصرخ: «بغداد سقطت!». ولم يكد هذا النبأ ينتشر في أنحاء البلدة حتىٰ عم الضجيج فيها، وانطلق

---

(١) - Ibid., p.69.

(٢) - Ibid. , p.139.

الناس يهوسون ويطلقون الرصاص بكثرة. وأخذت النساء يتحدثن من فوق السطوح، كل واحدة تنادي على الأخرى لاخبارها بالنبأ، ثم ارتفعت زغاريد النساء في كل مكان. ووقفت زتون مع نساء البيت تنظر من فوق السطح الى ساحة قسم الرجال، فوجدتها مليئة «بالرجال وهم يدورون ويهوسون ويلوحون بخناجرهم وسيوفهم ويطلقون الرصاص في الهواء» وكانت هوستهم حسبما روته زتون هي: «بغداد سقطت، حسن حسين!».[١]

شعرت زتون بالحزن العميق لسماعها نبأ سقوط بغداد، لأنها فقدت به كل أمل بالنجاة. وهي تقول إن أخباراً أخرى أخذت تصل الى البلدة مفادها: أن الانكليز هربوا الى البصرة بعد أن ثارت العشائر كلها عليهم، وان الأتراك قادمون وقد وصلوا الى قزلرباط وسوف يصلون الى شهربان قريباً. ثم ظهرت بعدئذٍ طائرات في سماء البلدة فهتف الأهالي لها ظناً منهم أنها طائرات تركية.[٢]

في أواخر آب قرر الشيخ حميد الحسن نقل زتون من بيت الشيخ مجيد الى بناية المدرسة التي كانت يومذاك خالية من التلاميذ. وقد نُقل معها الى تلك البناية جون بيتز واسكندر افندي والهنديان المسيحيان. والظاهر أنه فعل ذلك للترفيه عنها، وقد شعرت هي فعلاً بشيء من الراحة النفسية في مسكنها الجديد، ونالت فيه مزيداً من العناية. وقد زارها فيه الشيخ حميد الحسن وقال لها:

ان عنايته بها ليس من أجل الحكومة البريطانية، فهو لايحب تلك الحكومة، بل من أجل الميجر باري لما له من فضل سابق عليه إذ هو قد عامل نساءه أي نساء الشيخ حميد معاملة حسنة. وكان الشيخ حميد يقصد بذلك الميجر باريت الذي كان حاكماً سياسياً في بعقوبة في أواخر ١٩١٧. وتقول زتون أنها لاتعرف من هو هذا

---

(١)- Ibid. , p.160.

(٢)- Ibid. , p.167.

الميجر إنما هي احبت الشيخ حميد لصراحته.[١]

لم تمض على زتون في مسكنها الجديد سوى أيام قليلة حتى بدأت الإشاعات تنتشر بين الناس عن تقدم الجيش الإنكليزي نحو البلدة. وفي ذات مساء سمعت المنادين ينادون في الطرقات يطلبون من النساء تحضير الخبز لابناء العشائر الذين سيخرجون لمحاربة الإنكليز في الصباح التالي. وتقول زتون تعليقاً على ذلك: ان العشائر وأهل البلدة عادوا الى الاتحاد من جديد، وصارت هي تسمع جعجعة الرحى من مختلف أنحاء البلدة.[٢]

معارك الآثوريين:

كان للآثوريين في عهد الإحتلال معسكر كبير يقع على الضفة اليمنى من نهر ديالى على مقربة من جسر بعقوبة، وكان يسكنه نحو أربعين الفاً من الآثوريين مع عشرة آلاف من الأرمن، وكلهم كانوا قد نزحوا من أورمية خلال الحرب. وكان المعسكر واسعاً يمتد قطره سبعة أميال تقريباً، ويشرف عليه ضابط بريطاني اسمه الكولونيل أوين.

وعندما نشبت الثورة في ديالى صار المعسكر الآثوري هدفاً لنيران الثوار من كل جانب ولاسيما من بساتين «شفته» التي تقع مقابل المعسكر على الضفة اليسرى من نهر ديالى. يقول هالدين في كتابه: ان الاطلاقات النارية ظلت تتوالى على المعسكر طيلة ثلاثة أيام فأدى ذلك الى وقوع اصابات في المرضى الراقدين في المستشفى يتراوح عددها بين الأربعين والخمسين، كما وقعت اصابات كثيرة بين حراس حظائر الحيوانات التي كانت قريبة من النهر، وبعد ثلاثة أو اربعة أيام جاء من بغداد قطار

---

(١)– Ibid. , p.164.

(٢)– Ibid. , p.207.

يحمل شحنة من البنادق وبعض الاعتدة فلما وصل على بعد أربعة أميال من المعسكر خرج عن السكة من جراء تخريب قام به الثوار، ولكن مفرزة من الخيالة أسرعت الى نجدة القطار بقيادة الكولونيل أوين، وتمكنت من الوصول إليه في الوقت المناسب، فابعدت الثوار عنه، ونقلت الشحنة الى المعسكر سالمة.(١)

صمم الآثوريون على الانتقام من الثوار، فعبرت مفرزة منهم النهر الى الضفة الأخرى، وغزت أربع قرى وغنمت منها ٢٥٠ شاة و٧٠ بقرة، وعادت بالغنيمة الى المعسكر.(٢) وكانت قرية «شفتة» من جملة القرى التي نُهبت، وقد تمكن أهل القرية من الفرار منها قبيل اجتياح الآثوريين لها، فذهب القسم الأكبر منهم الى بهرز، بينما ذهب الباقون الى قرية زهرة. وقد صار بعض هؤلاء الفارين عرضة لنهب العشائر في الطريق.

وفي ١٧ آب خرج قطار من المعسكر متجهاً الى بغداد وهو محمل بجماعة من الآثوريين ومعهم نساؤهم واطفالهم، وقد توقف القطار في طريقه عند قرية يصفها هالدين بأنها «صديقة» أي موالية للانكليز، والمظنون أنها «خان بني سعد»، فنزل إليها الآثوريون ومعهم نساؤهم واطفالهم، ونهبوا جميع ما في القرية مما يمكن حمله، ولم ينفع معهم أي جهد لمنعهم عن ذلك. ويقول هالدين: ان الآثوريين لم يكونوا يفرّقون في أثناء ذلك بين ما هو عدو وما هو غنيمة، لأنهم كانوا يريدون الإنتقام لما فعله بهم الثوار قبل ذلك.(٣)

استعادة بعقوبة وشهربان:

في ١٣ آب ١٩٢٠ وصلت الى بغداد أول نجدة عسكرية من الهند وهي مؤلفة

---

(١) - Haldane (op. Cit.) - p.156.

(٢) - Ibid. , p.156 - 157.

(٣) - Ibid. , p.157.

من جنود السيك المعروفين بالغلظة وشدة المراس. ثم أخذت النجدات تتوالى الى بغداد.

كان الجنرال هالدين في بداية أمره حائراً لا يدري هل يرسل القوات التي توافرت لديه الى ديالى أم يرسلها الى الفرات الأوسط. يقول هالدين في كتابه: ان الفرات الأوسط كان حينذاك في اشد الحاجة الى ارسال القوات إليه، وذلك لمحو آثار كارثة ٢٤ تموز، ويقصد بها كارثة الرارنجية، فإن ادراك أي نصر هناك سيكون له أثره في الجهات الأخرى. ولكن هالدين يعود فيقول: انه قرر تأجيل النظر في الفرات الأوسط وتركيز الاهتمام على ديالى، وقد اتضح له فيما بعد ان خطته هذه كانت صحيحة.(١)

استدعى هالدين إليه الجنرال كوننغهام من الحلة، لأنه كان شديد الثقة بكفائته القيادية، ووجهه على رأس رتل قوي نحو بعقوبة بغية اعادة احتلالها ثم احتلال شهربان من بعدها.

في ٢٧ آب تمكن كوننغهام من استعادة بعقوبة، ولم يجد في ذلك أية صعوبة أو مقاومة تستحق الذكر. ثم توجه من بعد ذلك نحو شهربان. كان زحف كوننغهام نحو شهربان بطيئاً لكثرة الأحراش والبساتين في الطريق، فكان يخشى أن تكون تلك الأحراش والبساتين مكامن للثوار ينقضّون منها عليه. ولم يصل كوننغهام الى مقربة من شهربان إلاّ في ٧ ايلول. وفي هدوء الليل من مساء ذلك اليوم أخذ سكان شهربان يسمعون هدير المدافع من بعيد.

وقد وصفت زتون في كتابها ما جرى في شهربان عند اقتراب القوات الإنكليزية منها، فهي تقول: إن الأهالي بدأوا يغيرون سلوكهم نحوها، فقد جاء اليها الكثيرون

---

(١) - Ibid., p.161.

منهم يسألونها عن صحتها ويعبّرون عن عطفهم عليها ويسألونها هل من حاجة تطلبها منهم لكي يلبوا طلبها. وفي عصر ٨ ايلول صار المنادون ينادون في السوق بأن العشائر قد انكسرت تجاه الزحف الإنكليزي. وشاهدت زتون بعض الاشخاص فوق المنارة وهم يشيرون باضطراب نحو الجهة التي جاءت القوات الإنكليزية منها.

وفي ٩ منه جاء الشيخ حميد الحسن الى زتون وهو في عجلة وتظهر على وجهه علامات الرعب، وأخذ يحدثها عن ضخامة القوات الإنكليزية القادمة وما يصحبها من مدافع كبيرة وطائرات وخيول وقطار مصفح، وذكر لها أنه مضطر الى الهروب، ولذا فهو يطلب منها أن تكتب له مذكرة تشهد فيها أنه لم يكن في شهربان عند اندلاع الثورة فيها وانه جاء إليها بعدئذ. فكتبت له زتون المذكرة حسب طلبه. فأخذها وخرج مسرعاً لايلوي على شيء.

ثم جاء الى زتون بعدئذٍ أشخاص آخرون، وأحاطوا بها في ضجيج، كل واحد يطلب منها أن تكتب له مذكرة تشهد فيها أنه «خوش آدمي». فكان جوابها لهم جميعاً: «ان البريطانيين عادلون»، وقد كررت عليهم هذه العبارة نحو خمسين مرة. ثم جاء إليها آخرون يطلبون منها كتابة مذكرة بأنهم هم الذين أنقذوها وأخذوها الى بيت الشيخ مجيد. وتعلق زتون على طلبهم هذا قائلة: انهم لو كانوا كلهم قد شاركوا في انقاذي حقاً لوجب أن يكون عددهم بضع مئات.

وأخذت التحيات الحارة والمجاملات تنهال عى زتون من كل جانب، وأسرع بعضهم يضع الوسائد وراء ظهرها وتحت قدميها. وسألها أحدهم ماذا تحب أن تأكل، فأجابت بلا وعي: «دجاج وخضروات»، وقد أصابتها الدهشة الشديدة بعد قليل حين وجدت طلبها قد تحقق بكل ممنونية، حيث جيء لها بالدجاج مصحوباً بالرز

والطماطة المشوية مع علبة من السكاير الإنكليزية.[١]

دخلت القوات الإنكليزية شهربان في اليوم نفسه، وذكرت زتون: ان كونتفهام جاء إليها وعرض عليها رجلاً من أهل البلدة وطلب منها أن تتفحصه لترى هل هو الذي قتل زوجها في معركة القشلة. وتقول زتون: أنها نظرت الى الرجل وتساءلت مع نفسها هل لديه زوجه وأطفال، ولكنها صممت أن تكون جامدة العاطفة تجاهه حيث تذكرت ان الثوار لم يفكروا مثل هذا التفكير حين قتلوا زوجها. وفي اليوم التالي قُتل هذا الرجل رمياً بالرصاص. وتعلق زتون علىٰ ذلك قائلة: ان هذا الرجل لم يكن من قتلة زوجها غير أن التهم التي وجهت إليه كثيرة، اما قاتل زوجها فهو من بني تميم ومازال طليقاً.[٢]

استعادة دلتاوة:

كان الإنكليز قد ركزوا جهودهم في بداية الأمر علىٰ فتح طريق ايران بغية اعادة جنودهم الذين كانوا فيها، ولهذا رأيناهم يستعيدون بعقوبة وشهربان اللتين تقعان علىٰ الطريق قبل أن يفكروا باستعادة دلتاوة.

دأب الإنكليز علىٰ قصف دلتاوة بقنابل الطائرات منذ بداية الاسبوع الثاني لاندلاع الثورة فيها، فكانت الطائرات تراود البلدة حيناً بعد حين. فتقذفها وتقذف البساتين المحيطة بها بالقنابل. وصار الاطفال والنساء والعجزة يلجأون الى الدور من ذوات الطابقين ظناً منهم أن القنابل لايمكن أن تنفذ من سقفين.[٣]

يقول الدكتور مصطفى جواد في ذكرياته عن تلك الأيام مانصه: «ولا أزال أتذكر

---

(١) - Buchanan (op. Cit.) - p. 207 - 216.

(٢) - Ibid. , p.229.

(٣) - مجلة «المناهل»، في عددها الصادر في ١ تشرين الثاني ١٩٦٣.

أننا حين تحليق الطيارات فوقنا نلتجيء الى أقوى ركن من الدار، وأصبر بناء على الدمار، فنقف تحته حتى نهاية الغارة، من تلك الآلة الفاتكة الجبارة. وكنت وأنا في عقلية الصبا، أخرج رأسي من تحت البناء، لأشاهد الطيارات كيف ترمي بقنابرها، فأرى القنابر تنفصل من الطيارات كالزوان صفراً، وكأنها طير تذرق في الجو، ثم نسمع ازيزها في نزولها وهديرها في وصولها الى الارض».(١)

حل شهر محرم في يوم ١٦ ايلول ١٩٢٠، وقد استعد أهل دلتاوة لاقامة المواكب والتعازي الحسينية كدأبهم في كل عام، ولكن الشيخ الخالصي، أوصاهم بترك ذلك لكي يركزوا جهودهم على شؤون الثورة وحدها.(٢) ويبدوا أنهم لم يسمعوا قوله إذ هم ظلوا يقيمون المواكب والتعازي على عادتهم وان كانوا قد خففوا منها من جراء قصف الطائرات.

زحفت القوات الإنكليزية لاحتلال دلتاوة في ٢٥ ايلول. ويحدثنا مصطفى جواد عن ذلك فيقول: «وفي العاشر من محرم سنة ١٣٣٩ الهجرية الموافق لليوم الخامس والعشرين من ايلول سنة ١٩٢٠، وكان ذوو الأكثرية من أهل دلتاوة مشغولين بالاحتفال الحسيني.. أرسل الإنكليز عليهم ثلاث طيارات رمتهم بالقنابر تمهيداً للهجوم، وقد ظنوا أن الأمر قصف بغير هجوم كما جرى من قبل. ثم أرسلوا جواسيس الى دلتاوة نفسها يخدعون الثوار بأنهم أسقطوا طيارة في مقاومتهم لها عند هجومهم، ووضعوا جماعة بأيديهم آلات من الخشب تُدار فتحدث أصواتاً كأصوات رشاشات الرصاص من الأسلحة النارية الحديثة، فلما برز الثوار الى موضع الاصوات كان الجيش الإنكليزي المؤلف من هنود السيخ وقليل من الإنكليز قد كمن في طريقهم وراء صفصاف الانهار، فلما أصحروا أمطروهم حاصباً من رصاص البنادق

---

(١) - مجلة «المناهل»، في عددها الصادر في ٣ كانون الثاني ١٩٦٤.

(٢) - نقلاً عن كتاب مخطوط للشيخ محمد الخالصي عنوانه: «بطل الاسلام».

والرشاشات وقنابر الشرابنيل التي تنفجر قبل وقوعها. فقتلوا منهم وجرحوا، وتفرق الباقون شذر مذر. وكان بين الهاربين السيّد محمد الصدر رحمة الله عليه، فإنه فر لايلوي علىٰ شيء. ودخل الجيش الإنكليزي دلتاوة... وكنتُ فيمن خرج لرؤية الطيارة المسقطة فلم ألق إلاّ شآبيب الرصاص فنكصت مع صبية آخرين كانوا يحبون الاطلاع وهربت معهم، وقضينا تلك الليلة في البساتين، وكانت ليلة ماطرة ذات رعد ورياح شديدة. ودخلنا دلتاوة في اليوم الثاني عصراً بعد أن سمعنا الهدوء فيها وكنّا صغاراً لانعد من حملة السلاح ولا القادرين علىٰ الكفاح، فألفينا دلتاوة خاوية عاوية قد قُتل رجالها ونُهبت أموالها وساءت جداً أحوالها...».[1]

تمكن الشيخ مهدي الخالصي من الهرب من دلتاوة قبيل استعادة الإنكليز لها. ويروي لنا عبدعلي مهدي وهو من أهل دلتاوة ما جرىٰ للخالصي عند هربه فيقول:

«ومن أروع ما يُروى عنه يوم لاذ بالفرار مع كبار الثوار الى جهات بعيدة عن خطر الإنكليز وفتكهم.. أنه لما وصل قرية السندية الواقعة علىٰ نهر دجلة وعلىٰ بعد ميلين من دلتاوة، أبىٰ مواصلة السير، وكان الإنكليز أقرب إليه من رمشة العين، ورجاه القوم اللحاق بالقافلة قبل أن يدركه العدو، فقال: «لا اقدم قدماً أو أؤخر أخرى قبل أن أستخير الله». فاستخار علىٰ مواصلة السير فظهر العكس، واستخار علىٰ البقاء بالسندية فجاءت علىٰ العكس أيضاً، فالتبس الأمر عليه واضطرب، وقال: «لأستخر علىٰ الذهاب الى الكاظمية»... وجاءت خيرته موافقة، وقال: «الى الكاظمية». فلم يوافقه أحد من الجمع لعلمهم بأنهم يسيرون الى حتفهم بأرجلهم. ولكنه أصر وقال: «لأذهب منفرداً». وهكذا اصطحب عاملين وانحدر بدجلة المنساب في طريقه الى الكاظمية. وسارت «القفة» باسم الله مجراها. وجاء

---

(١) - يوسف عزالدين «شعراء العراق في القرن العشرين»، بغداد ١٩٦٩، ج١، ص١٦٣ ـ ١٦٤.

السعدية وهي قرية علىٰ دجلة فوجد ميناءها تملؤه زوارق الإنكليز الحربية التي رافقت الحملة الفاتحة نهراً. وقال في نفسه: «قُضي الأمر». غير أنه واصل سيره دون أن يعترضه أحد، وسار حتىٰ وصل الكاظمية وهي محاطة بالعيون والرقابة الشديدة، فخرج من الميناء كالخائف المترقب، ولكنه نجا بعجب، وانعكف في داره طيلة ستة شهور لم يعلم به أحد ولم يدر به حتىٰ ولا القريب المود أو الصديق المخلص...».(١)

وكان من جملة الهاربين من دلتاوة أيضاً الشيخ حبيب الخالصي ومعه ابنه الشيخ جعفر والسيّد زيني جريو. وقد توجه هؤلاء الثلاثة الى السعدية، وهنالك خلعوا عمائمهم ولبسوا يشاميغ بدلاً عنها للتنكر، ثم عبروا دجلة بقفة، ونزلوا لدىٰ عشيرة ألبوحسان من بني تميم، ثم رحلوا بعد ذلك الى الكاظمية..(٢)

عقاب وانتقام:

مما يلفت النظر ان الإنكليز لم يعاقبوا بعقوبة علىٰ ثورتها، بل اكتفوا بفرض غرامة نقدية علىٰ اثنين من وجهائها هما: محمود أفندي المتولي والسيّد حبيب العيدروسي، فقد فرضوا علىٰ الأول منهما ٢٨ ألف روبية، وعى الثاني عشرة آلاف. ويروي مهدي البصير: ان أحد الضباط البريطانيين قصد بيت الشيخ حسين الذين كان الثوار في بعقوبة قد عينوه قاضياً فيها، فأطلق عليه الرصاص وأرداه قتيلاً.(٣)

أما شهربان فقد كان انتقام الإنكليز منها اشد، إذ هم هدموا أربعة بيوت فيها، واعتقلوا عدداً من رؤسائها كان من بينهم الشيخ مجيد الحسن، كما أعدموا رجلاً واحداً هو الذي ذكرته زتون في كتابها. وتنتقد زتون القيادة الإنكليزية علىٰ تساهلها مع شهربان إذ هي في نظر زتون لم تنتقم من تلك البلدة كما ينبغي. فإن العقوبات التي

---

(١) – مجلة «المناهل»، في عددها الصادر في ١٨ تشرين الأول ١٩٦٣.

(٢) – نقلاً عن أوراق الشيخ جعفر الخالصي.

(٣) – محمد المهدي البصير «المصدر السابق»، ص ٢٤٠.

حلت بشهربان قد اعتبرتها زتون غير كافية لبلدة قتلت خمسة بريطانيين.(١)

يمكن القول على أي حال ان انتقام الانكليز من دلتاوة كان قطيعاً يفوق انتقامهم من أية بلدة أخرى. ولانعرف السبب في ذلك، والظاهر ان الانكليز اعتبروا دلتاوة محور الثورة في منطقة ديالى كلها، أو أنها البؤرة التي انطلقت منها الثورة الى الأنحاء الاخرى من المنطقة.

أعطانا مصطفى جواد وصفاً لما جرى على دلتاوة من ويلات عند استعادة الانكليز لها، فقال: إنهم فعلوا بها جميع الافاعيل المنكرة ما عدا التعدي على الاعراض، فقد كان في الجيش الانكليزي كثير من الهنود من الطائفة المعروفة بـ«السيخ» وهم من أقسى الجنود قلوباً وأشدهم وحشية، فكانوا يكبسون الدور ويقبضون على العشرات من الرجال، فيكتفونهم مثنى مثنى ويسوقونهم الى مداخل البلدة ويعدمونهم رمياً بالرصاص. وكانوا أحياناً يسخرون من المكتوفين ويقولون لهم: «اعدوا واهربوا»، فاذا حركوا أقدامهم بسرعة أصلوهم صلية من الرصاص من خلفهم فسقطوا مضرجين بدمائهم تمج منافذ الرصاص فيهم دماً عبيطاً. وقد حدث أن أحد المكتوفين ساعده القدر على الهرب ساحباً معه الرجل المكتوف الآخر قافزاً به من جدار أحد البساتين فنجوا كلاهما، وكان ذلك من أعجب الحوادث. وصادف الجنود رجلاً من أهل تكريت قد استبضع تمراً من البلدة وخرج، فأدركوه وقتلوه نحراً بالقزمات وحطموا رأسه. وخرج شاب من آل الخاصكي من داره الى دار أخرى في أثناء دخول الجيش الانكليزي فرماه جندي برصاصة في رأسه، وسحبوا جثته وطمروها بالحجارة في أحد البساتين القريبة. ووجد الجنود في دار شيخ كبير مسدساً عتيقاً علاه الصدأ، فأخرجوا الشيخ الى البستان المجاور لداره وأقعدوه على كرسي وأوثقوا يديه به وقتلوه رمياً بالرصاص. أما الرجال الذين سلموا من الموت واعتقلوا

---

(١)- Buchanan (op. Cit) - p.234.

فكانوا يُضربون بأخامص البندقيات ضرباً مبرحاً يكاد يحطم ظهورهم وأكتافهم وأعضادهم، ثم يُسجنون في السراي القديم.

ويضيف مصطفى جواد الى ذلك قائلاً: ان الإنكليز أحرقوا دور زعماء الثورة بالقنابر، ومنها دار الشيخ حبيب الخالصي، وأخذ الجنود يسلبون النقود والذهب والفضة والأعلاق النفيسة! والأثاث اللطيف، وصاروا يحفرون الارض ويهدمون الجدران إذا ظنوا ان فيها مالاً مطموراً. وكان في صحبة الجنود شرطي عراقي اسمه رشيد سلب هو أيضاً كثيراً من أموال الناس، وكان بالاضافة الى ذلك يدل الجنود على البيوت ويخرج الرجال منها لكي يعدموهم على الطريقة المذكورة آنفاً.[١]

ومن الجدير بالذكر ان مصطفى جواد نظم في كبره قصيدة مؤلفة من ٣٥ بيتاً بعنوان: «نكبة دلتاوة وفجيعتها»، هذا مطلعها:

أليل ما لدمعك قد تجارى ومن عينيك ذا الشرر استطارا[٢]

السيّد محمد الصدر:

لابدّ لنا ونحن في صدد الحديث عن ثورة ديالى أن نتحدث عن رجلين كان لهما دور كبير فيها، هما: السيّد محمد الصدر وابراهيم بن عبدكة. ولنبدأ بالأول منهما:

كان السيّد محمد الصدر يتميز عن زملائه الملائية بكونه محارباً يحمل السلاح وهدّافاً من الطراز الأول. وهو عند مجيئه الى منطقة ديالى لم يستقر في مكان واحد بل كان يتنقل من مكان الى آخر. وقد حصل على بغل ضخم الجثة من غنائم الإنكليز سماه «مرمريس»، فكان يركبه في جولاته في المنطقة.

الواقع ان ما كان يتصف به السيّد محمد من منظر مهيب وعيون نفاذة وعمامة

---

(١) - مجلة «المناهل»، في عددها الصادر في ١٧ كانون الثاني ١٩٦٤.

(٢) - مجلة «المناهل»، في عددها الصادر في ٢٤ كانون الثاني ١٩٦٤.

سوداء كبيرة كان له أثره في نشر الدعوة الثورية في قرى ديالى. وقد انتشرت في تلك القرى اشاعات ومبالغات حول شجاعته وقوته التي لاحد لها، منها أنه يحمل في عضده عظم هدهد يقيه من تأثير الرصاص، ومنها انه قادر علىٰ اسقاط الطائرات بإيمائة من عمامته. ويُروىٰ أن سكان قرية الهويدر كانوا معتقدين اعتقاداً قوياً بصحة تلك الاشاعات، ولكن هذه العقيدة سرعان ما زالت من أذهانهم عندما جاءت إليهم الطائرات في أثناء وجوده في قريتهم فألقت عليهم بعض القنابل وقتلت عدداً من البغال والبشر.[١]

لم يقصر السيّد محمد نشاطه علىٰ منطقة ديالى وحدها، بل ذهب أيضاً الى العشائر القريبة من سامراء، وتمكن من توحيد كلمتهم وجعلهم يهاجمون سامراء كما سنأتي إليه في فصل قادم. وقد عاد السيّد محمد من بعد ذلك الى دلتاوة. ويحدثنا عبدعلي مهدي عنه عند عودته الى دلتاوة للمرة الثانية فقال ما نصه:

«وما أنسى موقفه في دار الشيخ حبيب الخالصي يوم كانت تصابحنا الطيارات فتمطرنا وابلاً من القنابل، فيخرج الى صحن الدار وبندقيته الإنكليزية بيده يقابل بها مدفع الطيارة الرشاش ويبادل القنابل بالرصاص وهو غير خائف ولا متهيب...».[٢]

وفي ٢٥ ايلول حين هاجمت القوات الإنكليزية دلتاوة بغية استعادتها فر السيّد محمد منها مع الفارين. ويذكر الشيخ جعفر الخالصي عنه أنه أخذ معه عند فراره ما تبق في البيت من المبالغ النقدية التي جُمعت لمساعدة الثوار.[٣]

ويرجح في ظني أن السيّد محمد إنما فعل ذلك لكي لاتبق المبالغ عرضة لنهب الجنود ـ والله أعلم! ـ

---

(١) ـ حدثني بذلك الدكتور فاضل حسين الانصاري.

(٢) ـ مجلة «المناهل»، في عددها الصادر في ١٨ تشرين الأول ١٩٦٣.

(٣) ـ نقلاً عن أوراق الشيخ جعفر الخالصي.

عبر السيّد محمد نهر دجلة سباحة بالقرب من بلد، والتجأ الى الشيخ حاتم الهذال رئيس بني تميم في تلك المنطقة، ثم ذهب بعدئذٍ الى الشيخ علوان الشلال في اليوسفية، ومن هناك توجه الى كربلاء...

ابن عبدكة:

يُعد ابراهيم بن عبدكة اشهر شقي عرفه المجتمع العراقي في خلال الفترة التي امتدت بين أواخر العهد التركي وتأسيس الحكومة العراقية. وهو كردي الاصل من قرية «ذيابة» القريبة من شهربان، وقد احترف الشقاوة في العهد التركي على اثر قتله رجلاً في محلة باب الشيخ ببغداد ثأراً لمقتل أخيه، والتجأ بعد ذلك الى بساتين ديالى معلناً عصيانه على الحكومة، وجمع حوله عصابة من الأشقياء من أمثاله، وصار يقطع الطريق ويقاتل رجال الدرك، حتى شاع ذكره بين الناس وصاروا يضربون به المثل. وقد عجزت الحكومة التركية عن القاء القبض عليه فوضعت مكافأة مالية لمن يأتي به حياً أو ميتاً.[١] والمعروف عنه انه كان ذا مروءة لا يعتدي على الضعفاء والفقراء والنساء، وكان ذلك من الأسباب التي دفعت الناس الى الاعجاب به ومساعدته في التخلص من مطاردة الحكومة له.

استمر ابن عبدكة في عصيانه عى الحكومة في عهد الاحتلال الإنكليزي، وعجز الإنكليز عن القاء القبض عليه كمثل ما عجز الأتراك قبلهم، وقد قتل من جنود الدرك في عهد الاحتلال أكثر مما قتل في عهد الأتراك. وحين قامت الثورة في ديالى شارك ابن عبدكة فيها مشاركة فعالة. حدثني سامي خوندة: ان ابن عبدكة كان اوّل من اقتحم بعقوبة، وذلك قبل اقتحام عشيرة الكرخية لها، فقد دخل إليها من الجهة الشمالية، ولما سمع الإنكليز الذين كانوا في بعقوبة طلقات الرصاص التي اطلقها ابن عبدكة وأعوانه فروا ملتجئين الى حامية الجسر. وحينما جاءت عشيرة الكرخية

---

(١) - عبدالكريم العلاف «بغداد القديمة»، بغداد ١٩٦٠، ص ١٤١ ـ ١٤٢.

بعدئذٍ وجدت بعقوبة خالية من السلطة... لم يبق ابن عبدكة في بعقوبة طويلاً، بل غادرها على عجل متجهاً الى شهربان، فوصلها في ١٤ آب حين كان الثوار يهاجمون القشلة، فشارك في الهجوم معهم. ثم أتيح له أن يعثر على السيّدة زتون في بستان تقع خلف القشلة، فأنقذها وأوصلها الى بيت الشيخ مجيد على نحو ما ذكرناه سابقاً. ويقال ان بعض أعوان ابن عبدكة كانوا يرغبون في اغتصاب زتون غير أنه منعهم من ذلك وأوصلها الى بيت الشيخ مجيد بكل صيانة.

جعل ابن عبدكة مقره في قرية خرنابات، وقد تعاون معه أهل القرية وحملوا أسلحتهم للدفاع عن قريتهم تجاه قوات الحكومة. وكان للقرية ثمانية أبواب قديمة فجددوا بناءها وصاروا يحرسونها ليلاً.(١)

وعندما جاء السيّد محمد الصدر الى تلك المنطقة انضم إليه ابن عبدكة مع أعوانه، وصار يتبعه في بعض جولاته. ومن الممكن القول ان إجتماع هذين الرجلين أضاف زخماً جديداً الى الثورة في ديالى، وكان له تأثير معنوي قوي على الناس فيها.

ولما استعاد الإنكليز بعقوبة وشهربان ودلتاوة ظل ابن عبدكة وأعوانه في خرنابات يقاومونهم. وقد ادرك الإنكليز ان الأمن لايمكن استتبابه في المنطقة ما لم يتم القبض على ابن عبدكة واستعادة خرنابات. ولهذا وجهوا الى خرنابات قوة كبيرة ومعها مدفع. وفي ٢٨ ايلول ١٩٢٠ أخذت القوة تقصف القرية بالقنابل، فقُتل من سكانها ٣٦ شخصاً بين رجل وامرأة. ثم دخلت القوة الى القرية واعتقلت ٣٥٠ رجلاً من سكانها، وساقتهم الى احدى أبواب القرية، وهي الباب التي سُميت بعدئذٍ بـ«باب الحصار». ثم اطلقت سراحهم بعدئذٍ.(٢)

---

(١) – رضا محسن القريشي «خرنابات». في مجلة التراث الشعبي، في العدد الاول من السنة السابعة، ص ٧٠.

(٢) – المصدر السابق، ص ٧٠.

والظاهر ان الإنكليز كانوا يبحثون عن ابن عبدكة وأعوانه، وقد تم لهم القاء القبض على بعض أعوانه، أما هو فقد تمكن من الفرار. وعلى أثر ذلك صدر في بغداد البلاغ الرسمي التالي:

«لقد حاصرنا نهار ٢٨ ايلول قرية خرنابات الواقعة على مسافة ثلاثة أميال من شمال شرقي بعقوبة، للقبض على ابن عبدكة الشقي المعروف، ولقد تمكن من الفرار، وقد قُتل ٣١ من أتباعه، وأسر ١١٩ منهم».(١)

صار ابن عبدكة عقب فراره من خرنابات يتنقل متنكراً من موضع الى آخر. وقد التجأ أخيراً الى شيخ من شيوخ المحاويل كانت له معرفة سابقة به. فآواه الشيخ عنده بضعة أشهر، الى أن تم القاء القبض عليه في حزيران ١٩٢١ كما سنأتي إليه في فصل قادم.

نهاية الثورة في ديالى:

في ٣ ايلول ١٩٢٠ اصدر الجنرال هالدين منشوراً موجهاً الى عشائر ديالى، كان هذا نصه:

الى مشايخ لواء بعقوبا وعشائرها.

نخبركم بأننا قد صممنا على ارسال العساكر الى السكة الحديدية في بعقوبا وقريتو وكنكربان لفتح خط مواصلاتنا مع ايران العجم. وكما تعرفون ان هذه الثورة قد صارت سبباً للآلام والشدائد وازهاق النفوس في نقاط عديدة من لواء بعقوبا، وقد تعطلت التجارة واصبح الناس خائفين من السفر الى أوطانهم. وقد سررت جداً حينما علمت أن بعض العشائر لم تشترك في هذه القلاقل الاخيرة. والأمل أنهم سيبذلون خصوصاً جهدهم كي لايقع هجوم على الحكومة فيما بعد، ويُقطع دابر المفسدين الذين يقطعون الطريق. ويسلبون الابرياء في قراهم.

---

(١) - جريدة «الشرق»، في عددها الصادر في ٤ تشرين الأول ١٩٢٠.

فقد صدرت الأوامر الى العساكر ان لايبادروا بقتال العشائر أو القرى أثناء سيرهم الى السكة الحديدية، ولكن يمكنكم أن تروا بأنفسكم أن الجيوش المحتشدة تتكون من رجال أقوياء يتمكنون من عقاب أي عشيرة تتجرأ على المهاجمة.

لذلك نعاهدكم بإسم الدولة البريطانية المعظمة، ونؤمن مشايخ العشائر والفخوذ الذين لم يشتركوا في القلاقل الأخيرة، فليرفعوا علماً أبيض ويحضروا حالاً بين يدي حضرة الجنرال كوننغهام رئيس الأعمال العسكرية ونائبي العسكري، ولهم حظ وبخت، وعندئذٍ تقدرون على مساعدة الجنرال المشار إليه لإعادة الأمن في لواء بعقوبا. وأما بعض الفخوذ الذين جاهروا بالعداء وارتكبوا القتل والمظالم، فلهم يوم عصيب. صدر ببغداد في ١٩ ذي الحجة ١٣٣٨ الموافق ١٣ايلول ١٩٢٠.

أ. هولدين ـ القائد العائد لجيش الاحتلال(١)

كان لهذا المنشور أثر بالغ في عشائر المنطقة حيث أخذ الكثيرون من شيوخهم يرفعون العلم الأبيض ويفدون الى الجنرال كوننغهام يعلنون خضوعهم بين يديه. وفي أوائل تشرين الأول اجتمع شيوخ العشائر في مقر كوننغهام واتفقوا معه على كتابة صك يتعهدون به أن يطيعوا الحكومة في المستقبل وأن لايثوروا عليها، وأن يقدموا التعويضات عن الأموال التي سرقوها، ولايقبلوا دخالة أحد من الثوار. وهذه هي المواد التي تعهدوا بها:

أولاً: أن لايشتركوا بعد الآن في حرب ضد الحكومة، ولايخربوا أو يسرقوا أموالاً تابعة لها.

ثانياً: أن يدفعوا جميع الرسوم المطلوبة منهم.

ثالثاً: أن يعيدوا جميع البنادق والخيل المنهوبة من الحكومة وجميع الاشياء العائدة

---

(١) ـ جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ١٦ ايلول ١٩٢٠.

لها، وجميع الأموال المسروقة التي هي في حوزتهم.

رابعاً: أن يدفعوا التعويضات التي سرقتها عشائرهم والتي لايمكن اعادتها عيناً.

خامساً: أن يدفعوا التعويضات عن الأضرار التي أصابت أملاك الحكومة والسكك الحديدية والأبنية.

سادساً: أن يساعدوا الحكومة في تشخيص الأشخاص الذين ارتكبوا الجرائم في اثناء الهيجان.

سابعاً: أن لايقبلوا دخالة أحد من الذين حرضوهم على اثارة الحرب ضد الحكومة والذين هم هاربون من الحكومة.

وقد كتب الجنرال كوننغهام في ذيل هذه المواد تعهداً مقابلاً بالنيابة عن الحكومة البريطانية يتألف من خمس مواد، هي كما يلي:

اولاً: أن لا تُتخذ الإجراءات الحربية ضد العشائر الذين اتبعوا الشروط المذكورة وعملوا بموجبها.

ثانية: أن يُحاكم الاشخاص الذين ارتكبوا الجرائم محاكمة عادلة.

ثالثاً: أن يكون تقدير التعويضات عن الاضرار والمسروقات وعقاب المجرمين بوسائل سياسية سهلة مع استثناء المسؤولين شخصياً عن قتل موظفي الحكومة.

رابعاً: أن تؤلف لجنة من ثلاثة شيوخ من العشائر، وممثل واحد عن كل بلدة، واثنين من موظفي الحكومة، لتقسيم التعويضات بين العشائر وأهل البلدان.

خامساً: أن تقبل الحكومة كل مضبطة يقدمها رؤساء المنطقة في شأن نظام الحكومة أو الضرائب أو ما أشبه، وتنظر فيها بكل امعان، ولاتعتبر الذين قدموا

المضبطة غير موالين للحكومة.[١] وقع علىٰ تلك الشروط جميع الشيوخ ما عدا واحداً منهم هو الشيخ حبيب الخيزران، فقد امتنع عن التوقيع. ويعلق مهدي البصير علىٰ ذلك قائلاً: ان امتناع الشيخ حبيب عن التوقيع لم يمنع الإنكليز من تقدير شهامته وقد عينوه حاكماً علىٰ دلتاوة بعد زمن قصير.[٢]

---

(١) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٧ تشرين الأول ١٩٢٠.

(٢) – محمد المهدي البصير «المصدر السابق»، ص٢٤٣.

الفصل الثالث

الثورة في المناطق الكردية

كان عام ١٩١٩ هو عام الثورة في المناطق الكردية، فقد قام الأكراد في ذلك العام بعدة ثورات متوالية على الإنكليز، كان أهمها ثورة الشيخ محمود الحفيد التي بدأت في السليمانية في ٢٢ أيار ١٩١٩ وشملت حلبجة وجمجمال ورانية وكويسنجق وغيرها.

وقد أعلن هذا الرجل نفسه حاكماً على كردستان كلها، وأنشأ حكومة برئاسته لها علم خاص بها وطوابع بريدية، ولكن الإنكليز عاجلوه في ١٨ حزيران فأنزلوا الهزيمة بقواته في دربند بازيان، وتمكنوا من القاء القبض عليه، ثم نفوه الى الهند...[١]

عندما اندلعت الثورة في الفرات الاوسط في عام ١٩٢٠، ثم امتدت الى المناطق الأخرى، لم يتأثر بها من مناطق الأكراد سوى المناطق القريبة من ديالى. أما المناطق الكردية الأخرى فكانت هادئة نسبياً.

ويعود سبب ذلك الى أنها كانت قد استنفدت طاقتها الثورية في السنة السابقة، ولم يبق لها من قوة الاحتمال ما تستطيع أن تواجه بها الإنكليز مواجهة فعالة.

نذكر فيما يلي أهم الأحداث التي حدثت في المناطق الكرديه في عام ١٩٢٠:

---

(١) – نترك أمر البحث في الثورات الكردية التي حدثت في عام ١٩١٩ الى اخواننا الباحثين الأكراد، فهم أقدر على ذلك منا. ونرجو المعذرة في ذلك.

الثورة في خانقين وقزلرباط:

كانت عشيرة الدلو القاطنة بالقرب من خانقين تتحفز للثورة منذ وصلتها أخبار ثورة الفرات الأوسط. فلما اندلعت الثورة في شهربان في ١٤ آب ١٩٢٠ أعلنت هي من جانبها الثورة وزحفت نحو خانقين بقيادة رئيسها كريم خسرو بك، واحتلت البلدة بدون مقاومة.

كان معاون الحاكم السياسي في خانقين يومذاك اسمه الكابتن ماسترسون، وقد اسرع الى الفرار من البلدة هو وزوجته وموظفوه، وسط إستهزاء الأهالي، والتجأوا الى المعسكر الانكليزي الذي يقع في «باوه محمود» بالقرب من محطة القطار. وكان في خانقين طبيب بريطاني لم يتمكن من الفرار مع الآخرين، وقد أدركه الثوار عندما كان يحاول ركوب سيارته للفرار بها، فأسروه.

نهب الثوار الدوائر الحكومية، وانزلوا العلم البريطاني فمزقوه، ورفعوا مكانه العلم العثماني. وعينوا خورشيد بك الذي كان رئيس جمعية المجاهدين في العهد التركي حاكماً للبلدة. ونادى المنادي في البلدة أن يكون التعامل بالنقود التركية، وأن يفتح الناس أبواب بيوتهم في الليل دون أن يخشوا السرقة. فاذا سُرقت من أحدهم روبية واحدة عُوّض عنها بمائة روبية. أما من يغلق باب بيته ليلاً فيجب أن يدفع غرامة مقدارها مائة روبية.(١)

لم تكد تصل أخبار خانقين الى العشائر القريبة من قزلرباط، وهي عربية كالجبور وربيعة وبني ويس، حتى بدأوا يتحفزون لاعلان الثورة من جانبهم. وسرعان ما زحفوا على قزلرباط واحتلوها. فاستولوا على السراي ونهبوا ما فيه كما

---

(١) – فاضل كريم «خانقين»، في جريدة «التآخي»، في عددها الصادر في ١٤ حزيران ١٩٧٣.

نهبوا الخزانة. ونصبوا صالح العنبر رئيس الجبور حاكماً للبلدة.(١)

كان حاكم قزلرباط من قبل الإنكليز رجل ايراني من آذربيجان اسمه أحمد دارا، وقد فرّ من البلدة عند هجوم العشائر عليها، ثم ذهب مع من كان معه من الشبانة الى حامية قرغان. وكانت هذه الحامية تضم مائة وثلاثين جندياً بقيادة الملازم هنتر، وقد صمدت هذه الحامية تجاه حصار العشائر لها. وظلت صامدة حتىٰ النهاية.

وفي صباح ١٦ آب خرجت من خانقين قوة من الثوار بقيادة كريم خورشيد بك، مؤلفة من مائتي خيال وعدد كبير من المشاة، لقتال القوة الإنكليزية المتحصنة في معسكر «باوة محمود». وكان قد وصلت الى هذا المعسكر منذ فترة قصيرة نجدة مؤلفة من ١٥٨ جندياً وخمسة رشاشات بقيادة الكولونيل أدواردز. فنشبت بين الفريقين معركة حامية يقول هالدين عنها أنها انتهت باندحار الثوار تاركين وراءهم ١٥ قتيلاً.(٢)

أما المصادر المحلية فتشير الى انتصار الثوار وتشيد بالشجاعة الفائقة التي أبداها كريم خورشيد بك في المعركة وكيف أنه تمكن من احتلال رابية نُصب عليها مدفع حيث تسلق إليها من الخلف فقتل المدفعي واستحوذ علىٰ المدفع.(٣)

وفي ١٨ آب تحركت من قزوين قوة انكليزية باتجاه خانقين وهي محمولة علىٰ سيارات حمل كبيرة. وقد التحقت بهذه القوة مدفعية محمولة استدعيت من كرند، كما التحق بها ٢٥٠ مقاتلاً من عشيرة السنجاب، و ٢٠٠ من خيالة كالهور. وقد نيطت قيادة هذه القوات بالكولونيل كاسكل، فوصل هذا بقواته الىٰ مقربة من خانقين في ١٩ آب دون أن يواجه أية مقاومة، فأنزل العقاب بالقرى القريبة، ثم بعث قوة صغيرة

---

(١) – نقلاً عن عمران موسى افندي المندلاوي.

(٢) – Haldane (Insurrection In Mesopotamia) - London 1922 - p.158.

(٣) – فاضل كريم، المصدر السابق.

الى خانقين فاحتلتها في ٢٠ منه. وفي مساء ٢٤ منه رُفع الحصار عن حامية قرغان. وفي ٢٧ منه استعيدت قزلرباط.

الثورة في كفري:

قام بالثورة في منطقة كفري ابراهيم خان رئيس أحد فروع عشيرة الدلو، وقد عاونه في ذلك فريق من قبيلة الجاف. ويقال ان سليمان فتاح كانت له يد في تحريك الثورة في هذه المنطقة إذ هو جاء إليها من بغداد في منتصف شهر آب وأخذ يحدث رؤساءها عن انتصارات الثوار في الفرات الأوسط وكيف ان الانكليز أصبحوا على وشك الجلاء عن العراق.[1]

في ٢٢ آب صعد ابراهيم خان مع أعوانه الى جبل «بابا شاه سوار» المطل على كفري، وأخذوا يطلقون النار منه على سراي الحكومة. فكان ذلك ايذاناً بإعلان الثورة في هذه المنطقة.

كان معاون الحاكم السياسي في كفري اسمه الكابتن سالمون، وكان يسكن فيها مع زوجته، وكان قد نصحه البعض من أهل البلدة أن يفر منها على نحو ما فعل حكام البلدان الأخرى فلم يفعل. ويقول ويلسون في مذكراته: ان الكابتن سالمون كان يعتقد بأن بقاءه في البلدة له تأثير معنوي كبير على الأهالي، وشعر بأن الواجب يقضي عليه بأن يبق فيها الى آخر لحظة ممكنة، وكان محقاً في شعوره هذا.[2]

قرر سالمون أن يخرج بنفسه الى ابراهيم خان في الجبل للتفاهم معه، فهو كان يظن أن ابراهيم خان صديقه وأنه سيقبل نصحه ويترك الثورة. غير أنه لم يكد يصل الى الثوار حتى أمسكوا به واعتقلوه. ثم هجموا على البلدة، فاحتلوا السراي ونهبوه

---

(١) - عبدالرزاق الحسني «الثورة العراقية الكبرى»، صيدا ١٩٧٢، ص ١٨٥.

(٢) - Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2. p.284.

وأنزلوا العلم البريطاني من فوقه. أما زوجة سالمون التي بقيت في البلدة فقد أوصلها نفر من الأهالي الى محطة «كنكربان» التي كانت تبعد عن كفري بنحو ثلاثين كيلومتراً، وكانت فيها حامية مؤلفة من فصيلين من الجنود الهنود مع بعض الرشاشات والمدافع.

عندما وصل خبر الثورة في كفري الى الحاكم السياسي في كركوك الميجر لونكريك أعد قوة مؤلفة من الشبانة وعدد من الطالبانيين والزنكنة، وسار بهم الى محطة «كنكربان». وبعد ما انضمت إليه حامية المحطة توجه الى كفري، واشتبك مع الثوار في معركة دامية سقط فيها عدد من القتلى والجرحى من الجانبين.

شاء القدر أن يُقتل في هذه المعركة ابن أحد رؤساء الثوار كوخه عبدالرحمن الكهريزي، فأسرع الثوار الى الكابتن سالمون الذي كان أسيراً عندهم، فقطعوا احدى يديه وقتلوه، ثأراً لمقتل ابن الكهريزي.

انتهت المعركة بانتصار لونكريك، ففرض على البلدة غرامة قدرها عشرة آلاف روبية وخمسمائة بندقية. ثم عيّن حميد الطالباني قائمقاماً للبلدة، وعاد الى كركوك.

يوجه ويلسون لوماً شديداً الى هالدين والى الحامية التي كانت موجودة في محطة «كنكربان» في أثناء الثورة، ففي رأيه ان هذه الحامية كان في مقدورها الدفاع عن البلدة تجاه العشائر الثائرة، ولكن الأوامر التي وصلتها من هالدين جعلتها تحصر اهتمامها في أمر الدفاع عن نفسها فقط، كما أن ضباط الحامية كانوا على درجة من ضيق التفكير والتصرف منعتهم من اظهار أية مبادأة مناسبة من جانبهم.[1]

التوتر في أربيل:

تأتي اربيل بعد خانقين وكفري من حيث تأثرها بالثورة في عام ١٩٢٠. والواقع

---

(١) - Idid. , p.285.

أنها لم تعلن الثورة فعلاً، غير أن التوتر فيها بلغ أشدّه بحيث أصبحت على حافة الثورة، وكان يكفي أن تنطلق فيها شرارة صغيرة لكي تندلع الثورة فيها اندلاعاً قوياً.

كان الحاكم السياسي في اربيل آنذاك هو الكابتن هي، ويعطينا هذا الحاكم في مذكراته وصفاً مسهباً للتوتر الذي كان سائداً في منطقته في خلال شهري آب وايلول من عام ١٩٢٠ نحاول فيما يلي نقل موجز لما ذكره الكابتن هي في مذكراته:

في أوائل آب حصلت محاولة لأغتيال الكابتن هي، كما حصلت محاولة أخرى لأحراق بيته. وفي ١٢ منه بينما كان هي في جولة بالقرب من راوندوز نُصب له كمين في مضيق كلي علي بك كاد يقضي عليه، وعندما عاد الى أربيل في ١٥ منه وجد البلدة مشحونة بالاشاعات المثيرة، وكان الناس في المقاهي يتحدثون عن قرب قيام ثورة في كركوك، وعن قرب عودة الأتراك الى العراق. وفي ١٦ منه ظهر في البلدة منشور خالي من التوقيع يدعو المسلمين الى الثورة على الكفار ويعلن عن اقامة حفلة للمولد النبوي في جامع كركوك قريباً وأنها سيحضرها آلاف المؤمنين الذين يحملون سلاحاً.

يقول الكابتن هي: انه في مساء ذلك اليوم الذي ظهر فيه المنشور وصلته برقية رمزية من ويلسون يصف فيها استفحال الثورة في ديالى وما جاورها، ويعدد النكسات التي حلت بالإنكليز في الاماكن الأخرى، وكيف أن الإنكليز لا يملكون القوات العسكرية الكافية، ثم ينهي ويلسون برقيته بقوله يخاطب الكابتن هي: إذا جوبهتَ بصعوبات فأننا غير قادرين على مساعدتك ولو بطائرة واحدة، وعليك ان تصطنع اية حجة ممكنة لاخلاء جميع الموظفين الذين تستطيع الاستغناء عنهم.[١]

وفي صباح ٥ ايلول اشتد التوتر في اربيل، وذلك من جراء وصول أنباء تفيد بأن عشائر السورجي والخوشناو قادمة الى البلدة لاحتلالها. وقد اضطر الكابتن هي

(١) - دبليو. آر. هي «سنتان في كردستان»، ترجمة فؤاد جميل، بغداد ١٩٧٣، ج٢، ص١٠٧.

الى ترك بيته الذي يقع في طرف البلدة ويلجأ للسكنى في الثكنة التي تقع تحت القلعة مباشرة في الجهة الغربية منها. وصار يتهيأ للهروب من البلدة في حالة اشتداد الخطر.

ومما يلفت النظر ان الكابتن هي أعلن للقوات المحلية التي كانت معه في الثكنة أنه لايمانع من انفكاك أي واحد منهم من الخدمة إذا أراد. وكان قصده من ذلك ان لايبق معه إلأ من يمكن الثقة به والاعتماد عليه منهم. ولهذا صار الكثيرون منهم يتفرقون عنه ويذهبون الى أهليهم، ولم يبق منهم معه سوى ٥٠ من الشبانة، و٢٠ من الدرك، و٣٥ من الشرطة. ويقول هي: إن هؤلاء الذين بقوا صاروا يتعرضون للإهانات من قبل الأهالي عند خروجهم الى الشارع، ولكنهم بالرغم من ذلك سلكوا سلوكاً شجاعاً ثابتاً.(١)

كان خورشيد أغا من رؤساء العشائر الموالين للانكليز. وقد أرسل صيحة الحرب «هاوار» الى جميع أتباعه في المنطقة، فجاؤوا الى البلدة بسلاحهم وكان عددهم ثلاثة آلاف. ولكن دخول مثل هذا العدد من المسلحين الى البلدة ادى الى ازدياد التوتر فيها، إذ ان شرارة صغيرة كانت كافية لالهاب الوضع بحيث يصعب على خورشيد أغا وأمثاله السيطرة عليه.

وفي ظهر ٦ ايلول حدث حادث في البلدة كاد يكون الشرارة التي تلهب الوضع فيها، هو أن أحد اتباع خورشيد أغا تشاكس في السوق مع صاحب دكان يهودي، فأخذ اليهودي يصرخ مدعياً بأنه سُرق وأن القبائل تنهب السوق نهباً. وعند هذا سرى الذعر بين الناس، وصار الرجال والنساء والأطفال يهرولون خارجين من السوق وهم يصرخون: «لقد جاءت القبائل، أنها قادمه». واسرع آمر الشبانة الكابتن ليتلديل فأمر بنفخ بوق الأنذار في الثكنة، واستعد للرمي بالرشاش المنصوب فوقها.

---

(١) - المصدر السابق، ج٢، ص١٤٢.

ولكن الذي انقذ الوضع هو حسيني ملا الذي كان آمراً للشرطة، فقد أسرع الى السوق بهراوته الغليظة فألقى القبض على اليهودي والقاه في السجن، واستطاع أن يعيد النظام الى السوق بعد أن قام بالشيء الكثير من السباب واللطم واللكم والوكز والضرب بالهراوة...[١]

وفي مساء اليوم نفسه وصلت برقية من ويلسون يقول فيها انه قادم الى أربيل بعد غد ومعه ثلاث طائرات. فأجابه الكابتن هي ببرقية قال فيها انه ربما اضطر الى مغادرة البلدة في أية لحظة، فإذا وصلت الطائرات ووجدت علماً مرفوعاً فوق السراي فمعنى ذلك انه ما زال باقياً في البلدة، أما إذا لم تجد ذلك العلم فإن من الخطر على الطائرات الهبوط الى البلدة.

وفي حوالي الساعة الثامنة من صباح ٨ ايلول وصلت الطائرات التي تحمل ويلسون وحاشيته. فرأت العلم مرفوعاً فوق السراي مما يدل على وجود الكابتن هي فيه. وعندما هبطت الطائرات الى الأرض كان في استقبالها في المطار حشد من الخيالة الاكراد، فحفّ هؤلاء بويلسون حتىٰ أوصلوه الى بيت قريب حيث تناول فيه طعام الإفطار، ثم ذهب بعد ذلك الى السراي، فجاء إليه هنالك رؤساء العشائر للسلام عليه. يقول ويلسون: انه تظاهر أمامهم بالثقة مع أنه كان أبعد ما يكون عن الشعور بها، فأثنى على جهودهم في صيانة الأمن والنظام. فرد عليه خورشيد أغا واحمد افندي رئيس البلدية حيث أعلنا عن عزمهما الأكيد على صيانة الأمن وتأييد الحكومة، ولكنهما أضافا الى ذلك قائلين: «نريد منك شيئين، أولهما: الضمان بعدم السماح للاتراك بالعودة....، والثاني: سوق قوة من الجيش في الحال الى أربيل لكي يعرف مثيرو القلاقل أن ذراع الحكومة البريطانية مازالت طويلة وقوية. فتكلم ويلسون قائلاً: ان الحكومة البريطانية سوف لاتتخلى عن الانتداب على العراق، وان

---

(١) - المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

قوة ستصل الى أربيل ولكني لا أستطيع أن أقول متىٰ تصل، فأرجو منكم أن لاتسمحوا لرجال قبائلكم بأن يقعوا فريسة لموجة الجنون التي تأثر بها العرب الشيعة في الفرات الأوسط ومناطق ديالى... ويجب أن تطمئنوا أن الوقت العصيب قد انتهى، وأن مثيري الاضطراب سرعان ما يتمرغون في الرغام مثل الثعالب وقت الفجر.(١)

ذهب ويلسون بعد هذا الى البيت القريب من المطار لتناول طعام الغداء، وكان قد وقف فوق سطحه عدد كبير من الشرطة والشبانة لحراسته مع رشاش. وبينما كان ويلسون واصحابه يتناولون الطعام وصلت ورقة الى الكابتن ليتلديل الذي كان يتناول الطعام معهم فحواها ان القبائل قادمة لغزو البلدة. فامتقع لون ليتلديل واندفع خارجاً حيث صعد الى السطح، وصعد وراءه الكابتن هي، وعند فحصهما الافق بالناظور تبيّن لهما أن القبائل القادمة لم تكن سوى قطيع من الغنم!(٢)

غادر ويلسون أربيل في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم نفسه. وقد اشتد الوضع في أربيل تأزماً بعد مغادرته. ففي الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالي شوهد حشد كبير من عشيرة الخوشناو يقتربون من البلدة، فعم الفزع فيها، واندفع الكابتن ليتلديل الى رشاشه يعده للقتال. واستعد الكابتن هي للهروب من البلدة، وأرسل قبله قافلة كبيرة من الحمير والبغال وهي تحمل الموظفين الذين تحت اخلاؤهم مع أمتعتهم.

ذهب أحمد افندي الى العشيرة القادمة للتفاهم معهم، وقد تم الاتفاق معهم أخيراً علىٰ أن يأتي رؤساؤهم لمقابلة الكابتن هي في السراي في اليوم التالي في الساعة الثانية بعد الظهر. ولما اجتمع الرؤساء بالكابتن هي صاروا يملون عليه شروطهم. يقول الكابتن هي في مذكراته: «انه كان وضعاً غريباً عجيباً، ذلك اني اعتدت طوال سنتين علىٰ اصدار الأوامر الى هؤلاء الرؤساء، فاذا الوضع الآن ينقلب علىٰ عقبيه، فهم

---

(١) - Wilson (op. Cit.) - vol: 2, p.288.

(٢) - دبليو. آر. هي «المصدر السابق»، ج٢، ص ١٥٠.

الذين يفرضون عليّ شروطاً...».[١]

كانت شروطهم اصدار العفو عن كل ما صدر منهم في الماضي، واعادة دفع مشاهراتهم التي كانوا يقبضونها سابقاً، بينما هم من جانبهم يسرّحون قواتهم ويعودون الى ديارهم ويعيدون جميع الممتلكات الحكومية الموجودة في حوزتهم. يقول الكابتن هي: «حقاً لقد كنت مكرهاً على قبول مثل هذه المقترحات وان كنت مسروراً منها كثيراً».[٢]

وفي الساعة التاسعة والنصف من صباح ١٤ ايلول وصل الى أربيل رتل قادم من كركوك، وأعقبه رتل آخر من الموصل. وعاد الهدوء بذلك الى أربيل.

---

(١) - المصدر السابق، ج٢، ص١٥٣.

(٢) - المصدر السابق، ج٢، ص١٥٤.

الفصل الرابع

ثورة زوبع

تقطن عشيرة زوبع بالقرب من خان النقطة الذي يقع في منتصف الطريق بين بغداد والفلوجة، وهي تنتمي الى شمر وقد جاءت من البادية في عهد متأخر ولهذا ظلت محافظة على قيمها البدوية الى درجة كبيرة، وكانت نخوتها: «خيال الخيل زوبعي».

كان عدد رجال العشيرة في وقت الإحتلال الإنكليزي نحو أربعة آلاف رجل، منهم نحو سبعمائة خيال، وهم مسلحون تسليحاً جيداً. وقد نشب بينهم وبين بني تميم الذين يقطنون الى الشرق منهم، بالقرب من عقرقوف، عداء ونزاع حول بعض الاراضي التي تقع الى الجنوب من جدول الصقلاوية.[١]

الشيخ ضاري:

كان الإنكليز عند احتلالهم العراق ـ كما ذكرناه من قبل ـ قد ساروا في سياستهم العشائرية على طريقة «ساندمان»، وهي اختيار شيخ واحد في كل منطقة، او عشيرة كبيرة، وتدعيمه بالمال والنفوذ، لكي يجعلوه مسؤولاً عن الامن والنظام في منطقته.[٢] ولهذا رأيناهم عقب احتلالهم بغداد في ربيع ١٩١٧ يختارون الشيخ ضاري الظاهر ليكون الرئيس المسؤول عن عشيرة زوبع كلها. وقد ورد عنه في تقرير كتبه معاون

---

(١) ـ عبدالجليل الطاهر (العشائر والسياسة)، بغداد ١٩٥٨، ص ١٨٣، ٢٠٠.

(٢) ـ انظر القسم الأول من هذا الجزء، الفصل الثاني.

الحاكم السياسي في الفلوجة ما نصه: «ان عشيرة زوبع منشقة تضم كثيراً من الفروع الصغيرة التي ورثت من العهد التركي نزعة الإستقلال بعضها عن بعض، ولهذا فاني بذلت كل جهدي لتدعيم نفوذ الشيخ ضاري».(١)

خصص الإنكليز للشيخ ضاري مرتباً شهرياً قدره ٧٥٠ روبية، واستمروا في دفع هذا المرتب له حتىٰ أوائل ١٩١٨، ثم قطعوه عنه. ولانعرف السبب الذي دفعهم الى ذلك. والمظنون أنهم وجدوا الشيخ ضاري ذا منفعة قليلة لهم. وقد أضمر ضاري لهم من جراء ذلك حنقاً شديداً.

عندما بدأت بوادر الثورة بالظهور في العراق في حزيران ١٩٢٠ شعر الإنكليز بضرورة اعادة المرتب للشيخ ضاري، ولكنهم جعلوه ٥٠٠ روبية بدلاً من ٧٥٠ روبية. والظاهر أن هذا الاجراء جاء بعد فوات الأوان إذ لم يتمكن الإنكليز به من استعادة مودتهم في قلب الشيخ ضاري.(٢)

في ٢٩ شباط ١٩٢٠ نقل الكولونيل ليجمن من لواء الموصل الى لواء الدليم. وكان هذا الرجل ـ كما اشرنا إليه سابقاً ـ فظاً سريع الغضب قليل المجاملة. فكان ذلك عاملاً اضافيا ساعد علىٰ توتر العلاقة بين الشيخ ضاري والإنكليز. يُروى أن ليجمن كان لايتردد عن اهانة ضاري في بعض الاحيان حتىٰ أنه خاطبه ذات مرة باسم «الشيخ ضارط»، وتلك اهانة لايتحملها رجل كالشيخ ضاري ذي الجذور البدوية الأصيلة.

ويُروى أيضاً أن ليجمن أولم في أحد الأيام وليمة لرؤساء عشائر منطقته كان ضاري من بينهم، ولما دعوا الى تناول الطعام اتجه ضاري نحو صدر القاعة لكي

---

(١) – Atiyyah (Iraq) - Beirut 1973 - p.350.

(٢) – Ibid. , p.351.

يجلس مع الرؤساء الكبار، فتقدم منه ليجمن وخاطبه امام الحاضرين قائلاً: «قم ليس هذا مكانك». فظهر أثر الغضب واضحاً علىٰ وجه ضاري الى الدرجة القصوى...(١)

ضاري يتحفز:

ان النصر العظيم الذي ناله ثوار الفرات الاوسط في معركة الرارنجية في ٢٤ تموز ١٩٢٠ كان له دوي هائل في مختلف أنحاء العراق كما أشرنا إليه من قبل.

وكان الثوار قد أرسلوا عقب تلك المعركة مندوباً عنهم اسمه السيّد جدوع أبوزيد الى شيوخ الفلوجة والمحمودية وهو يحمل معه فتوى الشيرازي وكتاباً من السيّد هبة الدين الشهرستاني يحثّهم علىٰ الجهاد في سبيل اللّه. فاستجاب بعض الشيوخ لهذه الدعوة كالشيخ خضير الحاج عاصي رئيس الجنابيين، والشيخ علوان الشلال رئيس البومحيي. وقد أصبحت بغداد من جراء ذلك مهددة من الجهة الغربية تهديداً مباشراً. يقول علي البازركان:

«... وقد تأثرت العشائر التي تقطن اطراف بغداد بفتوى الامام الشيرازي فأخذت تشن الهجوم تلو الهجوم علىٰ ضواحي بغداد الامر الذي جعل الانكليز ينشئون الحصون والموانع للمحافظة علىٰ المدينة، وكنت اشاهد بنفسي قنابل التنوير يطلقها الإنكليز ليلاً في اطراف المدينة للكشف عن أماكن الثوار أينما وجدوا. ولما كانت القبائل غير منظمة ولاتابعة لقيادة محكمة حازمة، لذلك أخذ الثوار ينهبون ما يصادفونه من مواشي وأموال الأهليين».(٢)

كان الشيخ ضاري من بين الشيوخ الذين وصلهم مندوب الثوار السيّد جدوع أبوزيد وقد وجده السيّد جدوع علىٰ أتم الاستعداد لإعلان الثورة علىٰ الإنكليز

---

(١) - حدثني بذلك أحد الثقات نقلاً عن الشيخ حسن السهيل الذي كان حاضراً الوليمة.

(٢) - علي البازركان «الوقائع الحقيقية»، بغداد ١٩٥٤، ص ١٩٨.

حيث قال له: «اني عربي ووطني وعراقي، وها اني أبذل كل ما لدي من نفس ونفيس في سبيل مصلحة بلادي ضد الظالمين، ولينعم العلماء واخواني الزعماء عيناً. وها أني باسم الله سأعمل وستسمعون أعمالي وترونها، تلك الاعمال التي سوف يرضاها الله وترضونها أنتم ان شاء الله».(١)

يروي سليمان بن الشيخ ضاري ان ليجمن أقام في تلك الأيام وليمة دعا إليها شيوخ المنطقة، وبعد الانتهاء من تناول الطعام تكلم ليجمن يخاطب الشيوخ ضارباً على أوتار الطائفية حيث قال لهم: انه يود الوقوف على رأيهم باعتبارهم من أهل السنة فيما يطالب به الثوار الشيعة من اقامة حكومة مستقلة. فانبرى ضاري يرد عليه قائلاً: ليس في الاسلام سنة وشيعة بل هو دين واحد وعرق واحد وكلمة واحدة. فقال ليجمن: ان الحكومة البريطانية حائرة في أمركم لاتدري هل تشكل حكومة شيعية او سنيّة، فرد عليه ضاري بأن العراق ليس فيه شيعة او سنة بل فيه علماء أعلام نرجع إليهم في أمور ديننا. فقال ليجمن: أنتم عشائر والأجدر بكم أن تكونوا مستقلين. فرد عليه ضاري: ان علماءنا حكومتنا وقد أمرنا القرآن باطاعة الله والرسول وأولي الأمر منّا، فاذا اعتديتم عليهم فاننا سننتصر لهم ونحاربكم بجانبهم.. والاولى أن تلبوا ما أرادوا...(٢)

مقتل ليجمن:

اعتادت العشائر العراقية منذ زمن بعيد أنها إذا أرادت الثورة على الحكومة بدأت بقطع الطريق على المسافرين. وقد فعل الشيخ ضاري ذلك عندما أراد اعلان الثورة على الإنكليز حيث صار يرسل نفراً من رجاله لنهب المسافرين بين بغداد وخان النقطة.

---

(١) - فريق المزهر الفرعون «الحقائق الناصعة»، بغداد ١٩٥٢، ص٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) - عبدالحميد العلوجي وعزيز جاسم الحجية «الشيخ ضاري»، بغداد ١٩٦٨، ص٥٠.

أرسل ليجمن الى ضاري يطلب مقابلته في ظهر ١٢ آب في مخفر «أبومنيصير» الواقع بالقرب من خان النقطة. وقد غادر ليجمن الرمادي في ١١ منه متوجهاً الى بغداد، وبات ليلته فيها. وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي غادر ليجمن بغداد متوجهاً نحو مخفر «أبومنيصير». يقول ويلسون في مذكراته: ان ليجمن زارني قبل مغادرته بغداد لمقابلة ضاري، وقد طلب مني السماح له بامهال ضاري وتأجيل مطالبته بتسديد بعض السلف المدفوعة له في السنة الماضية.(١)

كان ليجمن راكباً سيارته الخاصة يسوقها سائق هندي وكان في صحبته خادم له اسمه حسن. وقد وصل ليجمن الى مخفر أبومنيصير ظهراً فوجد هناك ضاري ومعه ولداه خميس وسليمان وبعض أقربائه وعبيده. فجلس ليجمن مع ضاري على دكة في مدخل المخفر، وأخذ يحدثه عما جرى في بغداد صباح ذلك اليوم من محاولة القاء القبض على يوسف السويدي واصحابه، كما حدثه عن الثورة في كربلاء. وبينما هما في الحديث جاء الى المخفر سائق سيارة اسمه «اسطة فيزان بن قرقاش»، فأخبر عن حادثة سلب وقعت بالقرب من سدة الترك، فظهرت امارات الغضب على وجه ليجمن والتفت نحو ضاري قائلاً: «هذي كلها حركاتك، وانت تعمل تشويشات في الطريق». فأخذ ضاري يعتذر له بأنه لاعلم له بهذه الأمور. وعند هذا التفت ليجمن نحو آمر الشبانة عبدالجبار الجسام الذي كان واقفاً بالقرب منه موعزاً إليه أن يتوجه مع نفر من رجاله لمطاردة اللصوص. ثم أضاف ليجمن الى ذلك طالباً من عبدالجبار أن يأخذ معه خميس بن ضاري لكي يعاونه في مطاردة اللصوص.(٢)

وعلى اثر مغادرة عبدالجبار للمخفر بصحبة خميس بن ضاري، قتل ليجمن. وقد اختلفت الروايات في كيفية مقتله اختلافاً عجيباً. وفي رأيي أن محاضر المحاكمة التي

---

(١) - Wilson (Layolties) - London 1936 - p. 292.

(٢) - عبدالجبار عباس الجسام (٣٠ سنة في الوظيفة)، بغداد ١٩٥١، ص ٢٣ ـ ٢٤.

جرت لضاري في عام ١٩٢٨ تلق شيئاً من الضوء على الحادثة. ومن يطلع على تلك المحاضر يشعر شعوراً واضحاً بأن ليجمن وجه الى ضاري اهانة لم يتحملها،[١] ولاسيما أنها جاءت بعد اهانات أخرى سابقة، ولعلها كانت لضاري كالقشة التي قصمت ظهر البعير. وعند هذا أشار ضاري الى ابنه سليمان الذي كان واقفاً بالقرب منه قائلاً: «دكوه». فاطلق سليمان النار من بندقيته على ليجمن. وعند هذا قام ضاري وأخرج سيفه من غمده وأهوى به على ليجمن يضربه على رأسه وصدره. وسمع أحد الشهود ليجمن في تلك اللحظة وهو يقول: «لا.. لا.. لا..» بينما سمعه شاهد آخر يقول: «يازي ياضاري.. يازي ياضاري..» ثم سقط ليجمن على الارض يتخبط بدمائه. وأسرع رجال ضاري بعد ذلك فقتلوا خادم ليجمن وسائق سيارته، وسلبوا كل ماكان لدى الشبانة من بنادق وخيل وملابس.

ننقل فيما يلي ماقاله ضاري نفسه في أثناء محاكمته، فهو يصور لنا وجهة نظره في الحادثة:

«كنت عند الغروب في بيتي فجاءني خيالان من الشبانة، وقالا لي: ان الكولونيل ليجمن يطلبك. فقلت: بأمره. وعند الصباح ركبت والشبانة معي، وركب أولادي خميس وسليمان واولاد أخي صليبي وصعب، وشخص آخر اسمه دحام، وبعض الخيالة من خدامنا وهم خليف وطارش وسويلم. فجئنا الى نقطة ابي منيصير، فبقى رفاقي في الخان، وانا ذهبت الى النطقه، وجلست مع عبدالجبار، ثم جاء الكولونيل بالسيارة ومعه رجلان لا أعرفهما، ثم تسالمت وجلست واياه بالمجاز على الدكة مقداراً من الزمن، ثم قام الكولونيل وكانت قد جاءت سيارة لا أعرف لمن هي، ثم قال الكولونيل لي: يا ضاري ان الدرب مدكوك فليركب خميس مع العسكر. فقلت: فليذهب. وقال لي: يمكن أن الذين دكوا الدرب هم من عشائرك. فقلت له: يا صاحب

---

(١) - انظر محاضر المحاكمة في كتاب العلوجي والحجية «المصدر السابق»، ص ٧٧ - ١١٩.

لا اعرف، من ربعي أو غيرهم، لا أدري. فقام عليَّ يسبني ويشتمني، وبصق في وجهي، واشهر عليّ المسدس، ورفسني، وكنت مريضاً في ذلك اليوم. وكنت اقول له: ترحّم عليَّ يا صاحب، أنا دخيل عليك ولكنه سحبني والقاني في الحجرة وحبسني، وغلق باب الغرفة، وبعد مدة قليلة سمعت ثلاث طلقات او أربعا، وكنت في داخل الغرفة. ثم جاء صليبي وفتح الباب، فخرجت وشاهدت الكولونيل مقتولاً...».[١]

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن حادثة السلب التي كانت السبب المباشر لمقتل ليجمن فسرها الإنكليز تفسيراً مناقضاً لما فسره بعض الكتاب العراقيين. فهؤلاء يقولون: ان حادثة السلب كانت مدبرة من قبل ليجمن نفسه لكي يتخذها ذريعة للحط من كرامة ضاري وسبباً للتنكيل به.[٢] أما الإنكليز فيقولون: ان ضاري كان مصمما من قبل على قتل ليجمن، وهو قد دبّر حادثة السلب لكي يضطر ليجمن الى ارسال الشبانة بعيداً عنه فيسهل عندئذ قتله.[٣] ومهما كان الحال فقد كان مقتل ليجمن مبعث أسف شديد للانكليز.

يقول هالدين في ذلك مايلي: «ان فقدان مثل هذا الرجل في مثل تلك الظروف كان بمثابة صدمة لكل واحد منّا، لأنه كان على جانب كبير من الشجاعة والدهاء، كما كانت له معرفة دقيقة بأهل البلاد. فهو قد اسهم في جميع معارك الحرب من معركة الشعيبة في عام ١٩١٥ حتى تسليم الموصل من قبل الأتراك في عام ١٩١٨، وقد تمكن من النجاة من الأسر في الكوت حين خرج مع الخيالة من الكوت قبل ساعات قليلة من بدء الحصار حولها».

---

(١) – العلوجي والحجية، «المصدر السابق»، ص٩٣.

(٢) – فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص٣١٠ الحاشية؛ العلوجي والحجية «المصدر السابق»، ص٤٤.

(٣) – Bray (Paladin of arabia) London 1936 - p.410 - 411.

ثم يقول هالدين: ان ثورة زوبع أدت الى عزل قواتنا الموجودة في الفلوجة والرمادي، وان كانت هذه القوات قد أمدت بالتجهيزات من قبل. وقد قام الميجر أيدي بعمل يدعو الى الاعجاب في المحافظة على الوضع هنالك. ويضيف هالدين الى ذلك قائلاً: ان مقتل ليجمن وقع في فترة كانت فيها النكسات والهزائم تتوالى على الانكليز.

وقد ذكر هالدين تلك النكسات واحدة بعد الاخرى، ثم علق عليها تعليقاً يدل على الحالة النفسية التي كانت مسيطرة عليه حيث قال:

«.. ان المصائب لا تأتي في الغالب منفردة، فإن هذه المصائب المذكورة آنفاً جاءت تتمة لكارثة رتل مانجستر - يقصد كارثة الرارنجية - التي حدثت قبل ذلك بعشرة ايام. ان توالي هذه المصائب قد يجعل الانسان يشعر بأن الآلهة لا تحارب الى جانبنا. وعلى أي حال فإن مآزق مرت بي في حياتي غير مرة مما جعلني اشعر بالثقة بأني سوف اجتاز العاصفة بسلام وذلك بالاضافة الى امكانية الضحك في بعض الاحيان على السحب السوداء التي هي فوق رأسي..».(١)

توسع الثورة:

كان لمقتل ليجمن تأثير معنوي كبير على العشائر في تلك المنطقة. يقول براي: ان خبر مقتل ليجمن انتشر بين العشائر كانتشار النار في الهشيم وصارت العشائر تقول: «راح ليجمن، انتهت الحكومة كلها». ويعلل براي ذلك بأن العشائر كانوا يتصورون ليجمن كأنه قائد القوات الانكليزية كلها، او هو ملك انكلترا، ولهذا عمدت العشائر الى اشهار سلاحها عقب مقتله وأعلنت الثورة.(٢)

---

(١) - Haldane (Insurrection In Mesopotamia) - Edinburgh 1922. p.171 - 172.

(٢) - Bray (op. Cit.) - p.408 - 409.

في اليوم التالي لمقتل ليجمن توجه ضاري على رأس جمع من عشيرته وعشيرة المصالحة المتحالفة معه نحو محطة التاجي الواقعة في شمال الكاظمية بغية اقتلاع السكة. وقد وصلوا الى هنالك عقب مغرب الشمس، وحين بدأوا عملهم فاجأهم قطار قادم من الشمال، وأخذ القطار يوجه عليهم نيران الرشاشات، ففروا منه، ولم يفقدوا في هذه الحادثة سوى حصان واحد.(١)

توجه ضاري مع رجاله بعد هذا الى الفلوجة، وكان في صحبته ضابط بغدادي هو محمود رامز، وحين وصل الى مقربة منها دعا إليه بعض رؤساء المنطقة، واجتمع بهم في بيت مشوح الجاسم من رؤساء الجميلة، وأخذ يحثهم على اعلان الثورة. يروي فريق المزهر الفرعون: ان ضاري ذكر لهم انه اصبح يقلد علماء الدين الأجلاء وأنهم هم الذين أمروه بالثورة، ثم أخرج الكتب التي وصلته من كربلاء واوعز الى كاتبه أن يقرأها عليهم، وعند الانتهاء من قراءتها قال ضاري لهم: «وأزيدكم علماً ويقيناً أني تابع خطى عبدالواحد الحاج سكر والسيّد نور الياسري، وإنني مسلم وانتم مسلمون فهلموا وقوموا لنقاوم اعداء الدين والبلاد». وعند هذا أعلن عدد من الرؤساء الحاضرين التعاون معه في الثورة وقام محمود رامز فحلفهم بالقرآن على ذلك.(٢)

لانعرف مبلغ ما في هذه الرواية من الصحة ولكن الذي نعرفه أن بعض العشائر في تلك المنطقة أعلنوا الثورة تضامناً مع الشيخ ضاري. وفي ١٥ آب بينما كانت أربع بواخر تسير في الفرات بالقرب من الرمادي متجهة نحو الفلوجة هاجمتها جماعة من العشائر من ضفة النهر اليسرى حيث اطلقت عليها نيران بنادقها، وظلت تطاردها حتى جنحت اثنتان من البواخر في الطين، ثم جنحت الاخريان في الطين أيضاً بعد مسافة قصيرة. وقد انثال أفراد العشائر على البواخر فنهبوها ثم اشعلوا النار فيها غير

(١) - فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص٣١١.

(٢) - المصدر السابق، ص٣١١ - ٣١٣.

أنهم لم يمسوا رجالها بأذى.

لاحاجة بنا الى القول ان هذه الحادثة كانت عاملاً اضافياً في تشجيع العشائر المترددة على الانضمام الى الثورة. يقول هالدين: ان تلك البواخر أمكن استرجاعها بعدئذ غير أنها على الرغم من ذلك أصبحت مادة دسمة للدعاية ضد الانكليز بين الذين لايعرفون الحقيقة جيداً. فقد شاع بين هؤلاء ان الاسطول البريطاني أصبح في خبر كان.[1]

الهزيمة بعد النصر:

في الوقت الذي انتشرت فيه الثورة بين عشائر الفلوجة كانت هناك عشائر ثائرة أخرى قد انحدرت من الفرات الأعلى ووصلت الى مقربة من هيت ـ كما سنأتي إليه في فصل قادم ـ ولقد كان من المحتمل التقاء هاتين المجموعتين من العشائر في الرمادي، وسقوط تلك البلدة في ايدي الثوار، ولكن الذي وقف حائلاً دون ذلك هو الشيخ علي السليمان رئيس الدليم.

يروى ان عليّ السليمان كتب الى ضاري يقول له مامعناه: اني وعشائري لا اشترك معك في الثورة على الانكليز مطلقاً مهما كلفني الأمر، واني انذرك لمدة أربع وعشرين ساعة أن تخرج من ديار الدليم وتسحب عشائرك، وان كنت تريد أن تحارب الانكليز فيمكنك أن تذهب الى بغداد وتحاربهم هناك، وإلا فانا أنازلك الحرب واكون خصمك بعد انتهاء مدة الانذار هذه. فاضطر ضاري تجاه هذا الانذار أن يعود الى أراضيه في خان النقطة.[2]

أعد الجنرال هالدين رتلاً قوياً لفتح الطريق بين بغداد والفلوجة بقيادة الجنرال

---

(١) - Haldane (op. Cit.) - p. 143 - 144.

(٢) - فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص ٣١١ ـ ٣١٣.

ساندرز وقد تحرك الرتل من بغداد في ٣ ايلول ١٩٢٠، ولقي الرتل في طريقه مقاومة متصلة من العشائر، غير ان العشائر لم تكن تصمد تجاه قصف المدافع. وقد وصل الى خان النقطة في ٢٠ منه. وفي اليوم التالي هدمت قلعة ضاري وسويت مع الارض، ثم قطع الماء عن أراضيه. ثم واصل الرتل زحفه حتىٰ وصل الى الفلوجة في ٢٤ منه.(١)

أدرك ضاري أن ليس في مقدوره محاربة جيش منظم لديه المدافع والطائرات فجمع أتباعه وقال لهم: «ان هذا هو أمر من اللّه الذي أراده، وهو مقدر محتوم علينا، واني أوصيكم أن تكونوا رجالاً صابرين علىٰ البلوى وعلىٰ مايصيبكم، واتفقوا ولاتتفرقوا».(٢)

أرسل ضاري ولده خميس مع القسم الأكبر من عشيرته الى نواحي نصيبين داخل الحدود التركية، اما هو فتوجه مع الباقين من رجاله الى جبهة الوند التي كانت بعض عشائر الفرات تقاتل فيها. ومن الطرائف التي تروى في هذا الشأن أن ضاري عندما كان جالساً في خيمة السيّد محسن أبوطبيخ مع بعض قادة الثورة دخل عليهم مرزوق العواد وقال: انه حلف يميناً بالطلاق أن يقبل اليد التي قتلت ليجمن، ثم طلب من ضاري مد يده لتقبيلها. ولكن ضاري رفض مدّ يده فقال مرزوق: «إذن فامرأتي طالق وهي أم لأطفال وسيكون الحاضرون شهوداً علىٰ هذا الطلاق». وعند هذا وجد ضاري نفسه مضطراً الى مدّ يده.(٣)

غادر ضاري جبهة الوند الى كربلاء حيث حضر تنصيب السيّد محسن أبوطبيخ لمتصرفية كربلاء في ٦ تشرين الأول ١٩٢٠، ولكنه لم يبق في كربلاء طويلاً إذ هو

---

(١) - Haldane (op. Cit.) - p.174.

(٢) - فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص ٣١٥.

(٣) - العلوجي والحجية «المصدر السابق»، ص ٦٥ ـ ٦٦.

غادرها مع الآخرين عندما اقتربت منها القوات الإنكليزية. فذهب الى النجف ومنها خرج الى البادية وصار يتنقل بين القبائل حتىٰ وصل به المطاف أخيراً الى نصيبين حيث التحق بعشيرته. وظل هناك حتىٰ عام ١٩٢٧ عندما القي القبض عليه.

الفصل الخامس

الثورة في المنتفق

كان لواء المنتفق ـ الذي يسمى الآن بمحافظة ذي قار ـ يضم عشائر كثيرة وقوية قُدّر عدد حملة البنادق فيها بنحو عشرين ألف رجل، ولكن مشكلتهم انهم كانوا متفرقين متنازعين، وقد وصفهم خيون العبيد، وهو احد رؤسائهم، بقوله:

«انهم قد انهكهم النزاع المستمر بينهم وبين آل سعدون، وبينهم وبين الحكومة العثمانية، وبينهم وبين الإنكليز... وقد تمكنت الحزازات منهم بسبب اغواء آل سعدون والعثمانيين لبعضهم واستعمالهم لمحاربة البعض الآخر، وبسبب الحسد الشائع لأن كل حركة تفوز بها جهة تغبطها الجهة الثانية وتعمل المنكرات لتجر الفوز كله او بعضه الى نفسها، حتىٰ شاعت الفوضىٰ وفرقت القوم ثاراتهم وحزازاتهم...».[1]

كان دعاة الثورة في المنتفق كثيرين، كالشيخ عبدالحسين مطر وعبدالكريم السبتي في الناصرية، والحاج علي الدبوس وآل حيدر في سوق الشيوخ، والسيّد عبدالمهدي المنتفجي وآل الشعرباف وآل الخنلي وآل الطحان في الشطرة، والشيخ حسن دخيل في قلعة سكر. وكان السيّد عبدالمهدي بوجه خاص قد بذل نشاطاً ملحوظاً في الدعوة الى الثورة. ولكن جهود هؤلاء لم تنتج سوى نتائج محدودة.

---

(١) ـ فراتي «علىٰ هامش الثورة العراقية الكبرىٰ»، بغداد ١٩٥٢، ص ٢٢ ـ ٢٣.

رسائل الشيرازي والاصفهاني:

كان المرزا محمد تقي الشيرازي في كربلاء يعرف ما بين عشائر المنتفق من نزاع وتنافس، فوجه الى شيوخهم رسائل يدعوهم الى الاتحاد والاتفاق. ننقل فيما يلي نموذجاً من تلك الرسائل وهي التي وجهها الى الشيخ موحان الخير الله رئيس عشيرة الحميد.

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرت الاكرم الشيخ موحان الخير الله المحترم

بعد السلام عليك وعلى كافة اخواننا المسلمين الحافين بك والمنسوبين إليك. ولايخفى لديكم ان جميع المسلمين اخوان تجمعهم كلمة الاسلام وراية القرآن والنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وصحبه. فالواجب علينا جميعاً الإتفاق والاتحاد والتواصل والوداد وترك الخلاف والسعي في كل مايوجب الائتلاف وتوحيد الكلمة وجمع شتات الأمة والتعاون على البر والتقوى والتوافق في كل مايُرضي الله تعالى. فانكم ان كنتم كذلك جمعتم بين خير الدنيا والآخرة ونلتم الدرجة العليا والشرف الدائم والذكر الخالد. وإلاّ كنتم ممن خسر الدنيا والآخرة ولبس ثوب الذل والهوان مدى الزمان وذلك هو الخسران المبين. وقاكم الله ذلك وجميع المسلمين ووفقكم لما فيه صلاح اموركم وإصلاح شؤونكم ودفع كيد الحاسدين عنكم. فانكم ان تنصروا الله بالطاعة ينصركم. انه قوي عزيز. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

٣ رجب ١٣٣٨ ـ محمد تقي الحائري الشيرازي.[١]

ولما تولى المرجعية الدينية الشيخ فتح الله الاصفهاني في النجف عقب وفاة الشيرازي كتب الى وكيله في الناصرية الشيخ عبدالحسين مطر الرسالة التالية:

---

(١) ـ فريق المزهر الفرعون «الحقائق الناصعة»، بغداد ١٩٥٢، ص٣٣٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

جناب العالم العامل الاعز الشيخ عبدالحسين مطر المحترم ادام الباري توفيقه.

السلام عليك ورحمة الله وبركاته. اما بعد فإني اعلم انك صاحب الراية الذي لايحابي احداً ولاينكل ابداً وماكان تأخير كتابي لك إلاّ لأعذاري اكثر من ناحيتكم. اما اليوم فلا عذر لي ولك ولا لهم والأمر اوضح من ان يستراب فيه تسعى اولاً بتوثيق الارتباط بين مشائخ العشائر وتضم إليك سائر اخوانك من اهل العلم المتعلقين بالعشائر ازراً لك وعونا. تجمع كلمة الرؤساء والمرؤسين تنصحهم وتحثهم وترغبهم «وانت محاذر غير آمن» لأنهم كما تعلم قد ملئت بطونهم وأكثرهم يؤثر الدنيا علىٰ الدين.

لا شك انك تبدأ بمن في جوار البلدة وترضيهم وبمن كانوا عوناً للإسلام من قبل اليوم وهم اصحاب الحمل الثقيل والوقائع المشهورة. يصل اليك لفا كتاب عمومي وهو بخط يدي تقرؤه علىٰ من تثق به من الرؤساء، وعلىٰ جميع اهل العلم المرتبطين بهم لتتعاونوا وتتفقوا وتتساعدوا وتحفظ الكتاب عندك وتحافظ عليه. راجع السيّد هادي مكوطر بالسماوة واربط فيما بينك وبينه، وكلما تتمكن عليه من مال من الحقوق الراجعة الى الحاكم الشرعي ترسلها لنا لأننا في اشد حاجة وليس عندنا شيء، والأمر الذي قام به المجاهدون أمر كبير لايسعه ماعندنا فلهذا أرىٰ الاعانة من الامور المحتومة.

كلما تحتاجه من كتاب مخصوص الى الرؤساء عرفني عنه بسرعة فليس اليوم يوم حذر واتقاء، وكذا كلما يلزمك ويهمك ماعدا المال فانا في حاجة شديدة اليه. أما قريبك ورحمك من أهل البلدة وغيره من اصحابك من التجار تبلغهم أن اليوم هو اليوم الذي يكون فيه دفع الحقوق فيه من أهم الفروض اللازمة واكمل القربات المحتومة. أقول هذا مع علمي بأن الناس لاخير فيهم إذا مسّ الدين دنياهم. وأسأل

اللّه لي ولك ولهم التوفيق لما فيه صلاح الدنيا والدين بمحمد وآله الطاهرين.

١٠ ذي الحجة سنة ١٣٣٨ ـ الجاني شيخ الشريعة الاصفهاني

وقد كتب الاصفهاني في ذيل هذه الرسالة استدراكاً هذا نصه:

«وقد اجريت على طلبة النجف وضعفائه الخبز الذي كان جارياً لهم من قبل فعاوني بكل ماتقدر على هذا الامر الذي لايمكن حفظ الحوزة العلمية إلاّ به وارجو الفرج ان شاء اللّه ـ الختم».

وفيما يلي ننقل نص الرسالة التي كتبها الشيخ فتح اللّه الاصفهاني بخط يده، وطلب من الشيخ عبدالحسين مطر قراءتها على من يثق به من شيوخ العشائر ورجال الدين:

بسم اللّه الرحمن الرحيم

بعد السلام على كافة اخواننا المؤمنين القائمين بحرب اعداء الدين ونصرة اخوانهم المبتلين والدعاء لهم بالتأييد والنصر والغلبة ان شاء اللّه.

ان مبدأ هذه الحرب مطالبة العراقيين بحقوقهم المشروعة واستنجاز مواعدتهم الحكومة البريطانية سالكين للطرق السلمية. فقابلتهم الحكومة بالضغط والغلظة والإهانة وتبعيد الإجلاء فانجر الى الحرب الحاضرة دفاعاً عن أنفسهم وأعراضهم بعد ما علموا أن الصبر على افاعيل الحكومة ونواياها فوق الطاقة.. فبعد أن وقع ماوقع وصار ماصار وجب على كل مسلم دفع الشر والضرر عن نفسه وعن اخوانه على حسب قدرته بوجاهته أو بلسانه أو بخطه أو بماله أو بنفسه وحرم التقاعد عن نصرتهم.

فهل يخفى على عاقل أن الملقى في البحر المشرف على الهلاك والغرق يجب انقاذه ولو بالقاء حبل او غيره. ولا يمكن اليوم معاونة المبتلين إلاّ بالاتفاق والاتحاد

والتعاضد فإياكم ثم إياكم والقعود والتخاذل والدعة وحب الراحة فتندمون حيث لاينفعكم الندم. وأبلغكم معاشر الجعفرية اتماماً للحجة قول امام المذهب سيدنا ومولانا جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في الخبر المعتبر المروي في الكافي عنه عن ابيه عن آبائه عليهم السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من سمع رجلاً ينادي ياللمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم». وهؤلاء اخوانكم ينادونكم ويستغيثون بكم. اسأل الله تعالى لي ولكم حسن العاقبة والتوفيق لما فيه خير الدنيا والآخرة ان شاء الله تعالى. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الجاني شيخ الشريعة الاصفهاني - (الختم)[١]

لانعرف مبلغ تأثير هذه الرسائل على عشائر المنتفق، والمظنون أنها لم تؤثر فيهم إلّا قليلاً، لأن الناس ـ كما وصفهم الاصفهاني في رسالته ـ لاخير فيهم إذا مس الدين دنياهم!

الشطرة والكابتن توماس:

كانت الشطرة أهم بلدة في المنتفق بعد الناصرية، ولعلها كانت اهم من الناصرية من حيث قوتها العشائرية. وقد اختير لها في تلك الأيام معاون حاكم سياسي قدير يتقن العربية اسمه الكابتن برترام توماس، وهو الذي اشتهر فيما بعد برحلته في الجزيرة العربية.

كان الكابتن توماس يعمل في الشطرة سابقاً حيث نقل إليها من سوق الشيوخ في ٦ شباط ١٩١٩، ومكث فيها سنة واحدة، ثم نقل الى بغداد. وحين توتر الوضع في الفرات الأوسط خشي ويلسون ان ينتقل التوتر الى الشطرة لما كان بينها وبين النجف من صلات قوية، فأرسل إليها الكابتن توماس إذ اعتبره الرجل المناسب لها في تلك

---

(١) - آل مطر «ذكرى علمين من آل مطر»، النجف ١٩٥٧، ص٢٦ ـ ٢٨.

الظروف. اشار الكابتن توماس في مذكراته الى ما كان للشطرة من أهمية كبيرة حيث قال ان نشوب ثورة في الشطرة يؤدي في اكثر الاحتمال الى انتشارها الى عشائر دجلة، وبهذا ينقطع طريق المواصلات بين البصرة وبغداد وهو الطريق الوحيد الذي تصل به الامدادات القادمة من الهند. ولهذا أخذ الكابتن توماس يسعى بكل جهده لمنع اندلاع الثورة في الشطرة.

كان في الشطرة رجل وصفه الكابتن توماس بأن في مقدوره ان يوقد الثورة او ان يمنع من ايقادها، هو خيون العبيد رئيس عشيرة العبودة. ويقول توماس: ان العلاقة بينه وبين خيون كانت فيما مضى غير حسنة، غير أنه صار الآن يبحث عن طريقة يمكن بها اجتذاب خيون إليه وتحسين العلاقة معه. وقد واتته الفرصة ذات مساء حين جاء إليه خيون يطلب منه اجازة مرور الى الناصرية والبصرة لأنه كان يريد الذهاب الى الحج، فاخذ توماس يفكر في حيلة يتمكن بها من منع خيون من الذهاب الى الحج ومن اكتساب صداقته في آن واحد، فقال له متظاهراً بالنصح له: ان اوامر الحكومة قد صدرت بالقاء القبض عليه عند مروره بالناصرية او البصرة، كما ان زورقاً حربياً أرسل من بغداد من اجل القبض عليه وهو واقف في النهر قريباً. فسأل خيون: «ولماذا تخبرني بذلك؟». فأجابه توماس: «لأني اريد مصلحتك كما اني اريد مكافأة على ذلك هو ان اكتسب صداقتك، فاننا في ظروف مضطربة، ومنطقة الغراف يجب ان تبقى مواليه للحكومة».

يقول توماس: ان خيون شعر بالامتنان مني، لأنه وجد نفسه في خطر الاعتقال من قبل الحكومة وانه لايملك منقذاً أو عوناً له سواي. فالتفت نحوي يخاطبني بلهجة تنم عن الشكر قائلاً: «صاحب، كنا قبل هذا نتعارض في الرغبات غالباً، ومنذ هذه الليلة نحن اصدقاء، فلا تخش شيئاً من الغراف».[١]

---

(١) - Thomas (Alarms and Excursions In Arabia) • London 1931 • p.96.

الثورة في قلعة سكر:

يمكن القول ان قلعة سكر كانت أول بلدة في منطقة المنتفق ظهرت فيها بوادر التحفز للثورة عى الانكليز، وذلك في منتصف شهر تموز ١٩٢٠. ففي ذلك الحين قطعت العشائر خطوط التلفون الممتدة بين الشطرة وقلعة سكر. وفي أواخر ذلك الشهر بينا كان الكابتن كراوفورد ـ وهو معاون الحاكم السياسي في قلعة سكر ـ عائداً الى البلدة من جولة قام بها مع اعوان له، كمن له في الطريق ستة رجال واطلقوا عليه النار، غير انه نجا بأعجوبة ولم يصب منهم سوى حصانين.(١)

طلب كراوفورد من بغداد ارسال طائرات للقيام بتظاهرة جوية في سماء قلعة سكر بغية ارهاب الاهالي، فوصلته طائرتان، ولكن احداهما اصابها عطل فارتطمت في الارض. فأدى هذا الحادث الى عكس النتيجة التي ارادها كراوفورد، إذ صار الأهالي يستهينون بالانكليز وبقوتهم، واعتبروا سقوط الطائرة معجزة ربانية. فاضطر كراوفورد الى طلب طائرات اخرى، وابرقت قيادة الناصرية الى بغداد تقول: «إذا عجزتم عن ارسال طائرات الى قلعة سكر فاننا مضطرون الى اخلائها، وإذا سقطت قلعة سكر بأيدي الثوار فاننا مضطرون الى اخلاء الشطرة ايضاً». فأجابت بغداد تعتذر عن تلبية الطلب حيث قالت ان الموجود لديها من الطائرات خمس فقط، وهم محتاجون إليها في أماكن اخرى.(٢)

تقرر اخيراً ارسال طائرة الى قعلة سكر لنقل كراوفورد الى الناصرية. وقد وصلت الطائرة في ١٢ آب، فنقلته الى الناصرية بسلام. وعند هذا انثال الاهالي مع العشائر على السراي فنهبوه كما نهبوا دار كراوفورد، واستحوذوا على اسلحة الشبانة، ثم انزلوا العلم البريطاني من فوق السراي.

---

(١) - Ibid. , p.102.

(٢) - Ibid. , p.104.

وعلىٰ اثر ذلك اجتمع عدد من الرؤساء في موضع يسمى «المصيفي» وكتبوا ميثاقاً للثورة يتضمن المواد التالية:

أولاً: المطالبة باستقلال العراق استقلالاً تاماً ناجزاً وانتخاب الأمير عبدالله ملكاً عليه.

ثانياً: المحافظة علىٰ المؤسسات الحكومية المفيدة كالمستشفيات والجسور والأنتفاع بها عند الحاجة.

ثالثاً: اتباع ما يأمر به العلماء المجتهدون.

رابعاً: ان تتعهد كل قبيلة بمحافظة الطريق الذي يخترق حدودها وان تضمن ارواح المسافرين فيها واموالهم.

خامساً: تأليف هيئة محلية في كل بلد يحتله الثوار تكون مهمتها المحافظة علىٰ الأمن والسهر علىٰ ارواح العاملين.[١]

وبعد ان وقع الرؤساء علىٰ هذا الميثاق الذي سُميّ بميثاق «المصيفي»، تحركوا نحو الشطرة بصحبة مائتي خيال من أتباعهم بغية اثارة لهل الشطرة وعشائرها.

التوتر في الشطرة:

يقول الكابتن توماس في مذكراته: ان موقفه بعد اخلاء قلعة سكر اصبح يائساً الى ابعد الحدود، فقد جاء هذا الحادث بعد تردي الوضع في الفرات الاوسط، وصارت الأخبار المثيرة تأتي الى الشطرة من الفرات فتبعث في اهلها التلهف والحماس.[٢]

ازداد الوضع في الشطرة توتراً عندما وصل إليها الرؤساء الذين وقعوا علىٰ ميثاق «المصيفي» وفي مقدمتهم السيّد عبدالمهدي وموحان الخير الله، وكان في نيتهم التعاون

---

(١) – عبدالرزاق الحسني «الثورة العراقية الكبرىٰ»، صيدا ١٩٧٢، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) – Thomas (op. Cit.) - p.107.

مع عشائر الشطرة في الزحف على الناصرية، وكادوا ينجحون في ذلك لو لم يقف في طريقهم خيون العبيد حيث استطاع ان يثبط همهم مما جعلهم ينسحبون من الشطرة ويعودون الى مواطنهم.

يروي عبدالله الفياض انه سأل موحان الخير الله عن السبب الذي جعلهم ينسحبون من الشطرة، فأجابه موحان: ان خيون العبيد لم يكن مؤيدا لنا في فكرة الثورة، وعندما طلبنا منه ان يتحد معنا لمهاجمة قاعدة الإنكليز في الناصرية اعتذر عن ذلك. ثم قال موحان: «.. لم نستطع ان نتعدى الشطرة ـ مركز الشيخ خيون ـ ونهاجم الإنكليز خوفاً على مؤخرتنا من جهة، ومن جهة اخرى فإن مراكز تموينا ستكون بعيدة ولانعرف بالضبط موقف عشائر العبودة في حالة انكسارنا امام الإنكليز».[١]

لم يهدأ الوضع في الشطرة بعد انسحاب الرؤساء عنها ولعله ازداد توتراً من جراء النشاء الذي ابداه رجال الدين فيها في الحث على الجهاد واعلان الثورة. فلقد صارت اصوات الطلقات تسمع في البلدة ليلاً ونهاراً، كما اصبح الشارع الرئيسي المحاذي للنهر ـ والذي كان فيه بيت الكابتن توماس ـ يعج بالمظاهرات الصاخبة في كل يوم.

كانت العشائر قد قطعت خطوط البرق التي تربط الشطرة بالناصرية في ١٥ آب، فاضطر الكابتن توماس الى استخدام السعاة للاتصال بالناصرية. وكان لدى توماس ثلاثون رجلاً من الشبانة، غير ان التململ أخذ ينتشر بينهم. وفي الثلث الأخير من شهر آب هرب عشرة منهم وأخذوا معهم كل مالديهم من أسلحة وأعتدة وملابس. فعمد توماس أخيراً الى تجريد الباقين من اسلحتهم، ووضعهم تحت إمرة خيون، كما جعل خيون مسؤولاً عن الامن في البلدة.[٢]

---

(١) ـ عبدالله فياض «الثورة العراقية الكبرى»، بغداد ١٩٧٤، ص٣٢٨.

(٢) ـ Thomas (op. Cit.) - p.109.

استدعى توماس إليه من الناصرية ضابطاً اسمه الكابتن هول لمساعدته في هذه المحنة، فجاء هذا الضابط وهو يحمل معه قنابل يدوية موضوعة في صناديق بيرة. وعند وصوله الى الشطرة اخرج القنابل من صناديقها فوضع قسماً منها تحت سريره، والقسم الآخر تحت سرير توماس، تحسباً لما يقع من طوارىء في اثناء الليل.

يقول توماس في مذكراته: ان خيون كان في تلك المحنة مستشاره وصديقه، وكان يطمئنه بقوله: انه مادام باقياً في الشطرة فإن الجميع سيحترمون شخصه ويحترمون العلم.[1] ومن الجدير بالذكر ان هناك رجلاً آخر من أهل الشطرة ساعده في تلك المحنة اسمه الحاج الماس، فقد كان الرجل يأتي الى توماس في كل يوم لينقل إليه اخبار البلدة واسماء المهيجين ونشاطاتهم في إثارة الناس، ولكن توماس كان لايعتمد على «اخباريات» هذا الرجل كثيراً، فهو يصفها في مذكراته بأنها ليست كلها صحيحة ذلك لأن الحاج الماس كان يستهدف منها بعث السرور في قلبه، ولهذا وجب شطب القسم الكبير منها.[2]

انسحاب توماس:

وصل التوتر في الشطرة قمته في ٢٥ آب حين وصل إليها العالم الديني الشيخ محمود الخليلي مرسلاً من الشيخ فتح اللّه الاصفهاني في النجف، فقد خرج أهل البلدة كلهم لاستقباله، كما خرجت مظاهرة كبيرة تحمل الرايات امام بيت الكابتن توماس تحدياً له. ولما دخل الخليلي البلدة عج الفضاء بطلقات البنادق احتفاءاً بقدومه. وقد أدرك توماس عندئذ ان من الخطر عليه ان يبقى في الشطرة مدة اطول، فأرسل رسولاً سرّياً الى الناصرية يطلب منها ارسال طائرات لتقله هو والكابتن هول. فعاد الرسول من الناصرية يقول ان طائرتين ستصلان إليه في صباح ٢٧ آب.

---

(١) – Loc. cit.

(٢) – Ibid. , p.106.

وفي صباح اليوم المعين أرسل توماس الى خيون يستدعيه اليه، فلما جاء، قال له توماس انه يودع حكم البلدة اليه، ثم أخذ يشكره على ولائه الثابت للحكومة. واكد له ان اهل الشطرة سيحمدون له موقفه هذا فيما بعد لأنه انقذ البلدة من انتقام الجيش الإنكليزي الذي سيأتي قريباً.

وحين سمع توماس ازيز الطائرتين في الجو تحرك من بيته هو ورفيقه هول يحف بهما خيون مع نفر من الرؤساء الموالين له. فعبر الجميع نهر الغراف مشياً، لأنه كان في ذلك الحين جافاً، ثم ساروا متجهين نحو مطار البلدة الذي كان على بعد نصف ميل عنها، وكانت الجماهير تسير على مقربة منهم، على الجانبين وفي الخلف، ولم يجرأ احد منهم ان يقوم بأي عمل عدائي خوفاً من خيون.

لم يكن المطار يومذاك سوى فسحة منبسطة من الأرض. ولما وصلوا إليه ارتأى توماس ان من المستحسن ان لايستعجل في ركوب الطائرة لكي يظهر للناس انه غير خائف من شيء، وصار يتحدث الى الرؤساء بشيء من الدعابة، وألقى عليهم كلمة موجزة قال فيها انه سيعود إليهم حاكماً بعد قليل عندما يعاد الأمن والنظام الى البلدة، وانه يسلم الآن مقاليد الحكم الى الشيخ خيون. ثم صافح الجميع وركب هو ورفيقه الطائرتين متجهين نحو الناصرية...[١]

حدثني احد الذين شهدوا الحادثة من أهل الشطرة: أن الشيخ محمود الخليلي أرسل الى خيون رجلاً اسمه عبدالخالق الطحان ليخبره بأنه يجب أن يلقي القبض على الكابتن توماس قبل طيرانه، وانه إذا لم يفعل ذلك فإن زوجته «كشيمرة» ستكون طالقاً. وقد وصل الرجل الى المطار قبيل ركوب توماس الطائرة، وصاح ينادي خيون على مشهد من الناس: «ياخيون، يقول شيخ محمود كشيمرة طالق إذا تركت الحاكم

---

(١) - Ibid., p.110 - 111.

ينهزم». فلما سمع خيون ذلك صرخ في الرجل منتهراً: «ولّي، العن أبوك وأبوشيخ محمود!». لم يكد توماس يغادر الشطرة حتىٰ أسرع أفراد العشائر الى السراي وبيت الحاكم وأخذوا ينهبونها نهباً. ولوحظ ان خيون لم يمنعهم من ذلك، بل تركهم يفعلون ما يشاؤون.

ومن الطريف ان تنقل هنا ما نظمه احد الشعراء الشعبيين في هجاء خيون لامتناعه عن الجهاد، حيث قال:

يا خيّون شنهو المانعك لليوم — تندلّه فرض مثل الصّلا والصوم
اظن ابليس غشك بالطمع والنوم — سو جنّة عاد اسكن بيها
ظل خيون جاعد شنهو معطله — يكنز للدنيا ودينه مبطله
كصور يريد فضة يو ذهب حطله — يكنزه وبيه يجوونه[١]

حول علي الشرقي:

حمد الانكليز للشيخ خيون العبيد وقوفه الى جانبهم في أثناء الثورة، وقدروه علىٰ ذلك تقديراً كبيراً. وقد اشار الى ذلك الجنرال هالدين في كتابه حيث قال يصف خيون بأنه كان ذا خدمات طيبة للانكليز إذ هو حال دون امتداد الثورة الى الحيّ.[٢]

وقال هالدين في موضع آخر من كتابه مانصه:

«عندما اضطر معاون الحاكم السياسي في الشطرة، الكابتن بي. أس. توماس، الى مغادرة مركزه في ٢٧ آب عهد بمهام الحكم الى هذا الرجل - يقصد خيون - الذي يستحق كل تقدير لعمله الجيّد مع تلك العشائر التي كان له نفوذ عظيم عليها، خاصة حول الشطرة والى الجنوب منها. ان خيون كان شديد الثقة بالكابتن توماس، وقد

---

(١) - عبدالله فياض «المصدر السابق»، ص٢٥٩ - ٢٦٠.

(٢) - Haldane (Insurrection In Mesopotamia) -Edinburgh 1922, p.290.

التقيت به فيما بعد مرتين. وظهر لي انه كان فوق سن الثلاثين قليلاً، له مظهر أخاذ الى حد ما، قوياً، قليل الكلام، وليس لديه استعداد للانبساط. انه أبدى متانة خلقية عظيمة في أثناء الثورة، إذ هو رفض الاصغاء الى دعوة الانضمام الى الجهاد، وظل متمسكاً بالصداقة، وابقى اتباعه هادئين...».[١]

اختلفت الاقوال في السبب الذي حدا بخيون الى اتخاذ هذا الموقف الموالي للانكليز. وقد اتفق اثنان من مؤرخي الثورة ـ هما فريق المزهر الفرعون[٢] وعبدالله الفياض[٣] ـ على ان الشيخ علي الشرقي كانت له يد في ذلك لأنه كان صديقاً مقرباً لخيون ومستشاره. ويروي عبدالله الفياض في ذلك رواية خلاصتها: ان الشيخ عبيد الخنفر من رؤساء بني ركاب قال في مجلس خيون في الشطرة امام الحاضرين يخاطب الشيخ علي الشرقي: «اني اتهمك في تعطيل حركة الجهاد ضد الانكليز واني ساشكوك ان شاء الله عند الامام الشيخ محمد تقي الشيرازي».[٤]

ويعزو بعض الرواة عمل الشرقي الى التباغض الذي كان قائماً بينه وبين السيّد عبدالمهدي، وقد بدأ هذا التباغض في عام ١٩١٥ عقب معركة الشعيبة، وكان سببه ان الشرقي كان جالسا في مجلس السيّد حسن والد السيّد عبدالمهدي في قرية «أبوهاون»، وكان معه ابن عمه الشيخ حسين، فجاء احد الاعراب وهو يحمل بندقية كان قد اختطفها من أحد الجنود، فاهداها الى السيّد عيسى ابن عم السيّد عبدالمهدي. وأخذ السيّد عيسى يداعب الشيخ حسين بالبندقية، فانطلقت منها عن طريق الخطأ رصاصة خرقت صدر الشيخ حسين وقتلته حالاً. وعند هذا قام علي الشرقي وأخذ

---

(١) - Ibid. , p.220.

(٢) - فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص - ٣٤ ـ ٣٤٥.

(٣) - عبدالله فياض «المصدر السابق»، ص٣٣٩.

(٤) - المصدر السابق، ص٣٣٩.

جثة ابن عمه القتيل ونقلها بين صفوف العشائر الى الشطرة ومن هناك شيعت الى النجف.[١]

وهنا يجب ان نذكر ان الشيخ علي الشرقي ينكر انكاراً تاماً أيَّ تأثير له على خيون في شأن وقوفه ضد الثورة، كما ينفي ان يكون قتل ابن عمه سبباً في ذلك. فهو يقول: ان الحادث وقع قبل الثورة بخمس سنوات، وانه وقع خطأ، ولكن الشرقي يعترف في الوقت نفسه بأن العلاقة قد انقطعت بينه وبين السيّد حسن والد السيّد عبدالمهدي منذ ذلك الحين ـ لا بسبب القتل ولكن بسبب التقصير في بعض التقاليد والآداب.[٢]

مذكرة توماس:

لكي يطلع القاريء على مختلف اوجه النظر حول موقف خيون انقل فيما يلي الشطر الأكبر من المذكرة التي ارسلها الكابتن توماس الى بغداد عقب وصوله الى الناصرية بالطائرة في ٢٧ آب. فهو يعطينا في مذكرته هذه تحليلاً دقيقاً لموقف خيّون بوجه خاص، ووضع الشطرة بوجه عام. فهو يقول:

«ان سقوط قلعة سكر في ١٢ آب كان له تأثير سيء ومباشر على الوضع في الغراف الأسفل. ففي خلال ثلاثة او اربعة أيام سارت الأمور في طريقها المعتاد. وفي خلال ذلك ارسلتُ الى بعض الشيوخ الكبار في منطقة قلعة سكر أستدعيهم للمباحثة حول الوضع الحالي. فجاء الى الشطرة هؤلاء الشيوخ ومعهم شيوخ آخرون اقل شأناً منهم من بني ركاب والحميّد، يصحبهم نحو مائة من الاتباع. وقد ظننت خطأً أن مجيئهم يدل على اتجاه موالي للحكومة. ثم تبيّن لي بعد أيام قليلة أنهم جاءوا

---

(١) - فراتي «المصدر السابق»، ص٣١.

(٢) - المصدر السابق، ص٣٦.

الى الشطرة بدعوة من السيّد عبدالمهدي بن السيّد حسن لغرض آخر، فلقد كانوا عازمين على القيام بعمل موحد بالتعاون مع عشائر الشطرة ضد الحكومة. ان السيّد عبدالمهدي والشيخ موحان الخير الله كانا الروح المحركة وراء ذلك، وقد نجحا في الحصول على تأييد مدعوم باليمين من عشائر قلعة سكر.

وكانت فكرتهم أن يزحفوا على الناصرية ويطردوا الإنكليز منها. وكان النجاح مؤكداً لهم لأن حامية الناصرية في ذلك الوقت كانت مؤلفة من سرية او سريتين من المشاة المحليين فقط. ان خيون انتقد خطتهم انتقاداً مصحوباً بمدح واهي. وقد وعدهم بالتأييد عند سقوط الناصرية. وأدى عمل خيون هذا الى اتخاذ عشائر الشطرة موقف الحياد، وفشلت المؤامرة آنذاك (١٤ آب).

«لم اكن في ذلك الوقت عالماً بالمؤامرة. وفي الواقع اني كنت اتخيل امكانية القيام بحركة لاستعادة قلعة سكر عن طريق مائة من الاصدقاء المحليين.. وكان شيوخ الشطرة يزورونني بانتظام ويؤكدون لي ولاءهم. ولكن بلدة الشطرة، من الجهة الاخرى، كانت معادية لنا منذ البداية. وقد أرسل احد تجار البلدة، محمد بك، عقب سقوط قلعة سكر مباشرة، رسلاً الى اثنين من شيوخ خفاجة هما: عباس الطعمة وكاظم الفرهاد يخبرهما، بأن الحكومة لم يبق لها اثر في العراق، وان الشطرة يسيطر عليها خيون. فأسرع هذا الشيخان الى قلع اعمدة التلغراف على مسافة خمسة أميال، وهدم القناطر الواقعة في طريق الناصرية. وبذا انقطعت المواصلات بين الشطرة والناصرية في ١٥ آب، ولم يكن في الامكان إصلاحها لوجود بعض العصابات المعادية هنالك. وقد تعهد خيون بايصال البريد الى الناصرية، وقام بذلك حتى النهاية، وانتقل التذمر الى الشبانة والشرطة الذين صاروا يرهنون بنادقهم ثقة منهم بسقوط الحكومة ـ وكان سعر البندقية في السوق المحلية ٣٠ باوناً ـ وهرب عشرة منهم بكل مامعهم. ولهذا عمدت الى تجريد الباقين من السلاح، وجعلت خيون

مسؤولاً عن الأمن والنظام في البلدة.

في حوالي ٢١ آب علمت بمؤامرة السيّد عبدالمهدي، ولهذا تركت فكرة التحرك نحو قلعة سكر لإعادة احتلالها... وعندما أخليت الخضر كان ذلك عاملاً جديداً في زيادة الحماس في الشطرة. وأخذ مائتان من الصبيان والشبان يتجمعون يومياً امام بيتي ودائرتي. وحمل افراد العشائر كلهم السلاح. وصار رجال الدين يتجولون بين الناس يحثونهم على الجهاد. وكانت طلقات الرصاص من الأمور الإعتيادية طيلة الليل وفي داخل البلدة وخارجها. وبالإختصار اني فقدت كل سلطة وأصبحت في الواقع حبيس بيتي. وكان خيون آنذاك مستشاري الدائم، وقد اخبرني بأني مادمت باقياً في الشطرة فإن العلم البريطاني يبقى محترماً وان العشائر سوف لاتزحف نحو الناصرية. فارتأيت أن أبقى في الشطرة قليلاً.

«في ٢٥ آب وصلت الأزمة الى القمة عندما وصل الى الشطرة عالم كبير من النجف هو المرزا محمد، ابن المرجع الديني السابق المرزا محمد حسن. وكان هذا الرجل يتنقل في منطقة الغراف يدعو الناس الى الجهاد... وبدأ شيوخ قلعة سكر يتوافدون الى الشطرة لغير سبب ظاهر. وصار الناس يتحدثون في دواوين الشطرة عني وعن صاحبي هول بأننا امسينا اسيرين عند خيون. وعند هذا شعرت بأن الموقف اصبح اشد حرارة مما يمكن تحمله، فطلبت الطائرات من الناصرية.

«قبل مغادرتي الشطرة استدعيت خيون وبحثت الموقف معه. وكان الرجل معقولاً تماماً: فقد صرح لي بأن ولاءه الثابت في الماضي لاغبار عليه، ولكنه اوضح في الوقت نفسه أنه اصبح الآن في مأزق، فهو اما ان يغرق او ينجو: فاذا ثار اهل العراق كلهم علينا اضطر هو من جانبه ان يثور معهم طوعاً أو كرهاً. ان خيون استطاع بلاشك أن يقف ضد التيار حتى الآن. اما الآن فالأمر يتوقف على الوضع العام. فاذا سعد حظنا في خلال الأيام القليلة القادمة، واستطعنا ان نستعيد بعض المواقع التي

خسرناها، فإن خيّون فيما اعتقد سوف يتشجع ويبق موالياً لقضيتنا. أما إذا أخفقنا فليس من المعقول ان نتوقع منه تحمل غضب الإسلام ـ وهو رجل متدين ـ فيبق مؤيداً لقضية يعرف أن مستقبلها مشكوك فيه. ان الحكومة مدينة لخيّون لمحافظته على امن الغراف حتى الآن. واني اعتقد شخصياً أن ارتداد خيّون الآن ليس عملاً خيانياً. وفي الوقت نفسه ليس هناك داعي لليأس من موقف خيّون...».[١]

الثورة في سوق الشيوخ:

كانت سوق الشيوخ تتحفز للثورة منذ زمن غير قصير، فقد وصل إليها عبدالكريم السبتي وهو من وجهاء الناصرية المشتغلين في القضية الوطنية. فاتصل بالحاج علي الديوس الذي كان من رؤساء السوق المتنفذين وأخذ يستحثه على المساهمة في الثورة.[٢]

ثم وصل الى السوق بعدئذ عالم الناصرية الشيخ عبدالحسين مطر وهو يحمل رسالة الاصفهاني الموجهة الى رؤساء العشائر يحثهم فيها على الجهاد، فنزل في ضيافة الشيخ محمد حسن حيدر، وصار الرجلان يتعاونان في حث الناس على اعلان الثورة.[٣]

في ٢٧ آب ١٩٢٠ زار السوق حاكم الناصرية السياسي الميجر ديجبرن. وكانت له معرفة سابقة برؤسائها لأنه كان معاون حاكم سياسي فيها في عام ١٩١٨.[٤] فاجتمع برؤسائها محاولاً إقناعهم بعدم انضمامهم الى الثورة. وعندما عاد الى الناصرية كتب الى ويلسون في بغداد مذكرة حول الوضع في السوق بوجه خاص، وفي منطقة

---

(١) - عن دائرة الوثائق العامة بلندن، رقم (أف. أو. ٣٧١ـ ٥٢٣١).

(٢) - حدثني بذلك احد المطلعين من أهل المنطقة.

(٣) - آل مطر «المصدر السابق»، ص٢٨.

(٤) - Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, p.371.

المنتفق بوجه عام. ننقل فيما يلي جزءاً من تلك المذكرة:

«بناء على طلب ملح من معاون الحاكم السياسي في سوق الشيوخ قمت بزيارة البلدة بالأمس. وعقدت مجلساً حضره كل الشيوخ الكبار. وظهر لي ان كل واحد منهم كان موالياً لنا في نياته ومقاصده، ولكن هناك عشائر قليلة تضم عناصر معادية للقانون وطموحها الوحيد ان تعود الى الفوضى. فتعزل شيوخها، وتتحكم هي بقانونها الخاص، ان الموقف ليس خطيراً، وهو ليس سوى نتيجة للاضطرابات القائمة في المناطق الأخرى. فعندما كانت الثورة محصورة في منطقة الديوانية، كان في الامكان ضبط العشائر هنا بسهولة، ولكن الحركات المعادية ظلت ناشبة هناك طيلة شهرين تقريباً، وقد بدأت تقترب منّا شيئاً فشيئاً. وان اخلاء الشطرة مؤخراً كان عاملاً في زيادة الاضطراب..»

«وكما ذكرت سابقاً ان الموقف كله متوقف على الشيخ خيّون. ان معالجة الكابتن توماس لهذا الشيخ قد انقذت الموقف حتى الآن. وان معظم الذين تحدثت معهم في شؤون المنتفق يرون ان العشائر سوف لاتنضم الى حركة الجهاد، ولكن عشائر الغراف لو ارادت التحشد على الناصرية فإن الناصرية، والسوق أيضاً سوف تنظم بعواطفها الى الحركة...»

«مهما كان الموقف حرجاً فإني مازلت واثقاً ان المنتفق من الممكن انقاذه إذا ظل خيّون متماسكاً. فلو ان هذا الرجل تغلب عليه المتعصبون فإني اخشى ان يكون اخلاء الناصرية مستحيلاً. وفي رأيي ان حاميتي الناصرية والسماوة لو جهزتا بما فيه الكفاية من الطعام والعتاد لكان في مقدورهما الثبات تجاه العشائر الى النهاية، وذلك لسببين: اولهما نقص العتاد لدى العشائر، والثاني نقص الشعير».

«ان تقوية حامية الناصرية سوف تكون عاملاً اقوى في منع الثورة من الرشوة مهما كانت كبيرة. ان حركة الجهاد لايمكن قتلها إلاّ عن طريق القوة. اما الرشوات في

مثل هذه الظروف فمن الممكن ان تكون عاملاً مساعداً لملء خزانة عدو متوقع. وفي خلال ذلك نحن مستمرون في المغازلة مع خيّون».(١) ان التفاؤل الذي ابداه الميجر ديجبرن في مذكرته لم يدم طويلاً، ولاسيّما فيما يخص سوق الشيوخ. يقول هالدين:

«.. ان الوضع في السوق أخذ يسوء تدريجياً، وانتشرت فيه حركة الجهاد، وبدأت العشائر تفكر بأن يد الله ضد البريطانيين، وصار افراد الشرطة يفرون، ففي ١ ايلول لم يبق منهم سوى رجل واحد هو الذي يحرس السجناء.

وادرك معاون الحاكم السياسي الكابتن بلاتس ان محاولة السيطرة على الوضع اصبحت مستحيلة، وفي ظهر ذلك اليوم، في الوقت الذي يتناول العرب فيه غداءهم، ركب بلاتس ومن معه من البريطانيين باخرة حربية كانت راسية هنالك منذ أيام قليلة عندما ظهرت بوادر الاضطراب. وسارت الباخرة بهم نحو الناصرية فوصلوها بسلام».(٢)

لم يحصل في سوق الشيوخ ما حصل في غيرها من حيث نهب دور الحكومة او تخريبها. فقد تمكن الشيخ محمد حسن حيدر من المحافظة على اموال الحكومة وسجلاتها وقد حمد الإنكليز له عمله هذا فيما بعد. كانت في هور الحمار حينذاك كراكة تعمل لفتح طريق للبواخر فيه، وقد حاول الثوار الاستيلاء عليها.

وفي ٤ ايلول خرجت من الناصرية باخرتان حربيتان لمساعدة الكراكة وحراستها، ولما وصلت الباخرتان الى مقربة من الهور جنوب سوق الشيوخ اطلق الثوار عليهما نيران بنادقهم، فأطلقت الباخرتان عليهم نيران رشاشاتها وقنابل مدافعها. واستمرت المعركة ساعة ونصف ساعة. يقول هالدين:

---

(١) – عن دائرة الوثائق العامة بلندن، رقم (اف. أو. ٣٧١ – ٥٢٣١).

(٢) – Haldane (op. cit.) - p.295 - 296.

ان نوتية الباخرتين لم يصبهم أي أذىٰ لما كانت عليه الباخرتان من التحصين الجيد، بينما اصيب الثوار بخسائر فادحة.[١] هذا ولكن جريدة «الإستقلال» التي كانت تصدر في النجف ذكرت ان الثوار قتلوا من ركاب الباخرتين قائداً برتبة ميجر واربعة جنود.[٢]

حول الناصرية:

كانت في الناصرية حامية صغيرة مؤلفة من ثلاثة فصائل من الجنود الهنود مع مائتي رجل من الشبانة والشرطة.[٣] ولقد كان في مقدور العشائر مهاجمة الناصرية والاستيلاء عليها بسهولة لضعف حاميتها، ولكنها لم تفعل ذلك لما كان بينها من تخاذل.

بذل العالم الديني الشيخ عبدالحسين مطر جهوداً كثيرة لجمع شمل العشائر وحثهم علىٰ مهاجمة الناصرية، فكان يتنقل بنفسه بين العشائر. ولكن جهوده لم تنتج سوى نتائج محدودة.

يعطينا الشيخ ابراهيم اليوسف من رؤساء بني ركاب وصفاً لحالة عشائر المنتفق حينذاك، فيقول: ان مايقارب الثلاثة آلاف مجاهد من بني ركاب عسكروا حول الشطرة لمدة اسبوع انتظاراً لالتحاق الشيخ خيّون وعشائره بحركة الجهاد، ولما ظهر انه لاينوي السفر توجه المجاهدون نحو الناصرية بينما عادت عشائر موحان الخير اللّه الى الرفاعي. وقد واصل المجاهدون سيرهم حتىٰ عسكروا في المناطق المجاورة للناصرية. وبالرغم من ان عشائر الزيرج والحسينات لم تكن جادة في قتال الإنكليز فانها لم تعرقل جهود المجاهدين، فسمحت لهم بالاختباء في مزارعها واطعام حيواناتها

---

(١) - Ibid., p.296.

(٢) - جريدة «الإستقلال» النجفية، في عددها الصادر في ٣ تشرين الأول ١٩٢٠.

(٣) - Thomas (op. cit.) - p.99.

من حقول الذرة التي كانت على وشك النضوج آنذاك. وبقينا هناك حوالي ستة اسابيع نهاجم القوات الإنكليزية المعسكرة بجوار الناصرية في الليل غالباً، إذ ان الطائرات كانت تشل حركتنا في النهار، ولم نستطع الدخول الى مدينة الناصرية لأن الشيخ عجيل التويلي وجماعته من رؤساء الحسينات والزيرج حذرونا من ذلك بحجة الخوف على اضطراب الأمن في المدينة. وقد ذكر ابراهيم اليوسف اسماء ثلاثة من رؤساء بني ركاب هم مرزوق الروع ومحمد الصالح وعبيد الخنفر، فوصفهم بأنهم كانوا من أكثر الناس تحمساً للجهاد، وقد قتل اثنان منهم في اثناء ذلك هما مرزوق وعبيد.(١)

استمر الوضع حول الناصرية على هذه الشاكلة حتى تشرين الثاني ١٩٢٠. وفي ١١ منه نشرت جريدة «العراق» بلاغاً رسمياً يتضمن الفقرة التالية حول عشائر المنتفق:

«.. كتب موحان الخير الله يطلب المجيء الى الناصرية. وأخذ معسكر العالم ـ يقصد الشيخ عبدالحسين مطر ـ في بطنيجة بالتشتت في ٤ تشرين الثاني، ولم يبق هناك سوى مائة رجل، على أن العالم لم يزل هناك مع الخيم. والمظنون ان البقية منهم ستتفرق بعد بضعة ايام... ان القتال الجاري بين قبائل بني خيكان وآل حسن هو المانع الوحيد للشيخ حمودة بن مزعل والشيخ فارس الياسر وغيرهما من كبار الشيوخ من المجيء الينا في الناصرية. وقد عرض المفاوضة على ممثلنا في سوق الشيوخ في ٥ تشرين الثاني شيوخ الجرة. وقد كان هؤلاء انشط من غيرهم في هذا اللواء. والحاكم السياسي في اتصال مع جميع شيوخ المنتفق. ويستدل من الرسائل التي وافت مؤخراً أنه حدث تبدل حسن في موقف القبائل العام».

---

(١) ـ عبدالله فياض «المصدر السابق»، ص ٣٤٠.

وفي ٢٠ تشرين الثاني نشرت جريدة «العراق» بلاغاً رسمياً آخر كان هذا نصه:

«شعر الحاكم السياسي في الناصرية في ١٧ تشرين الثاني ان الموقف في المنتفق أخذ يتحسن. وقد جاء الينا اربعة شيوخ من البوسعيد في الغراف. وقد كتب لنا موحان خير الله يقول انه ينتظر ان يسود الأمن في الطريق ليأتي إلينا. وفاتحنا بالمفاوضة ثلاثة آخرون من كبار الشيوخ، وقد رفعت جميع خيم قلعة سكر التي كانت ضاربة في الشطرة، وعاد رجال القبائل الى قراهم، وقد تفرقت أيضاً مضارب سوق الشيوخ التي كانت قرب السكة. والزعماء الآن في المدينة يتفاوضون مع الحكومة».

الفصل السادس

أحداث متفرقة

تحدثنا في الفصول السابقة عن المناطق التي امتدت إليها ثورة العشرين بالاضافة الى الفرات الاوسط، وهي: ديالى وكردستان والفلوجة والمحمودية والمنتفق. والواقع ان الثورة لم تقتصر على هذه المناطق، بل هي امتدت الى مناطق أخرى بشكل مباشر او غير مباشر. وسنحاول في هذا الفصل ذكر ما جرى في تلك المناطق لكي تكون لدى القاريء صورة شاملة عن ثورة العشرين بقدر الامكان.

حادثة شفاثة:

تقع شفاثة على بعد ٥٨ كيلومتراً من كربلاء غرباً، وكانت هناك صلات وثيقة بينها وبين كربلاء، فلما وصل إليها خبر اعلان الثورة في كربلاء في ٢٧ تموز تحفّز أهلها للاقتداء بأهل كربلاء.

كان حاكم البلدة في تلك الآونة رجل من أهلها اسمه حسين محمد رفيع، وكان أهل البلدة يطلقون عليه لقب «وكيل الحكومة». وفي ٢٩ تموز ـ أي بعد يومين من اعلان الثورة في كربلاء ـ وصلت الى هذا الرجل رسالة من الكولونيل ليجمن في الرمادي فحواها: «ان ليجمن يخبر وكيل الحكومة في شفاثا عن تحرّك عشائر الديوانية والشامية وبعض أهالي بغداد وبعض معتمدي الأتراك، ويطلب منه أن يقول لأهالي شفاثا: ابقوا مستريحين تكسبوا المنافع لأنكم ضعفاء لاتملكون القوة لمقاومة الحكومة، وان الحكومة طلبت قوة من الهند ومتى ما تصل القوة وسط العشائر

ستحدث تغيرات وتبديلات. ويأمر الوكيل الاتصال به ومراجعته الى الرمادي بدل كربلاء، ويخبره بأنه سيصل الى شفاثا بعد مرور ثلاثة أيام كما يطلب منه أن يقرأ رسالته هذه على رؤساء العشائر للعلم».[١]

حين وصلت رسالة ليجمن الى حسين كان بعض رؤساء شفاثة مجتمعين في قرية الحساوية عند رئيسها روكان الحاج فيصل. فذهب حسين إليهم وقدم الرسالة الى احدهم ليقرأها عليهم. ولما انتهى القاريء من قراءتها قال الحاج فيصل: «حقاً إننا لانستطيع مقاومة الحكومة البريطانية ولكننا نخشى اجماع عشائر شفاثا على الثورة ضد الإنكليز ونحن لانتحمل مغبة الشذوذ». فأخذ حسين محمد رفيع يكلمهم محاولاً إقناعهم بالتزام جانب الهدوء، وذكر لهم أنه سيذهب الى العشائر الأخرى بقية اقناعها.

وعلى أثر ذلك كتب حسين رسالة الى ليجمن في الرمادي قال فيها: «ذهبت الى الشيخ روكان الحاج فيصل ووجدت رؤساء القصور - يقصد رؤساء القرى - مجتمعين عنده، وقرأت الرسالة عليهم وأخذت منهم عهداً بالإنتظار ثلاثة أيام لحين وصولكم، والآن أخبركم أن في مجيئكم الى شفاثا خطراً حيث الجهّال أكثر من العقّال ولم يبق في كربلاء والهندية حكومة، والناس في حيص بيص وأنا لا أحبذ مجيئكم والسلام».[٢]

وصلت هذه الرسالة الى معاون ليجمن في الرمادي ولكن هذا نسي تسليمها إليه. وفي ٣١ تموز أعلنت الثورة في شفاثه، وهجم الثوار على السراي فاستولوا عليه، ثم وضعوا خطة لإغتيال ليجمن عند وصوله الى البلدة. وفي اليوم التالي وصل ليجمن الى البلدة بسيارته وهو لايدري ماذا دبّر أهل البلدة له، وكان معه خادمه حسن.

---

(١) - طالب علي الشرقي «عين التمر»، النجف ١٩٦٩، ص١٨١.

(٢) - المصدر السابق، ص١٨٢.

يقول ليجمن في رسالة له كتبها بعد الحادثة بخمسة أيام ما يلي:

«ذهبت الى هناك، وحين توجهت نحو باب القلعة وجدتها محتلة من قبل الاعداء. انهم فوجئوا كما فوجئت أنا. وقد أعطوني وقتاً لكي استدير... وكان عليّ أن أسير فوق سدة ضيقة، ولكني وجدت عليها حماراً واقفاً لا يريد أن يتزحزح من مكانه، فصدمته بسيارتي وسرت فوقه... وانهال الرصاص عليّ من ورائي. وإني آمل انهم سيتأسفون لاطلاقهم النار عليّ. كان حسن ممتازاً حيث قابلهم بنار كثيفة من السيارة...».[1]

وفي اليوم التالي جاءت طائرات انكليزية الى شفاثة فألقت عليها عدداً من القنابل.[2] وقد استسلمت شفاثة للانكليز على أثر استسلام كربلاء لهم في ٢٠ تشرين الأول ١٩٢٠. ومن حسن حظ شفاثة أن ليجمن قُتل في ١٢ آب، ولو نه كان قدبقي حيّاً لانتقم منها انتقاماً فظيعاً كما أشار إليه في رسالته.

حادثة مندلي:

تقع مندلي قريباً من الحدود الايرانية، وتبعد عن شهربان بنحو ستين كيلو متراً، وتقطن بالقرب منها عشائر عربية كساعدة والبوجواري والحامد والعساف.

عندما اندلعت الثورة في شهربان في ١٤ آب ١٩٢٠ تحفزت العشائر القريبة من مندلي لمهاجمتها ونهب ما فيها من أموال حكومية واسلحة. فلمّا علم أهل مندلي بذلك صمموا على الدفاع عن بلدتهم، فأعدوا أسلحتهم، وصاروا يحرسون مداخل البلدة خشية أن تباغتهم العشائر منها. والظاهر أن ذلك شجعهم على أن يعلنوا الثورة على الحكومة ويستولوا على السراي.

---

(١) - Bray (Paladin of Arabia) - London 1936 - p.392.

(٢) - طالب علي الشرقي «المصدر السابق»، ص١٨٣.

كان حاكم البلدة حينذاك هندياً مسلماً اسمه «علي شاه». وفي صباح ١٥ آب بينما كان هذا الحاكم في دائرته في السراي على عادته في كل يوم شاهد جماهير البلدة وفي مقدمتهم رؤساؤهم يحيطون بالسراي ويطلبون منه اعتزال السلطة وتسليم الأمر اليهم. فأجابهم الحاكم قائلاً: «اني مسلم وغريب ولي عليكم حق الدخالة». وأشار الى أحد الرؤساء وهو موسى أفندي، وكانت له علاقة حسنة به، وقال انه دخيل عليه. فرد عليه موسى أفندي قائلاً: «إذا قبل الجماعة كلهم بهذه الدخالة فأنا أقبل بها». فصاح رؤساء البلدة: «انهم قابلون بهذه الدخالة». وعندئذٍ أخذه موسى أفندي الى داره بكل احترام ووضع له حرساً من أقاربه لحمايته.

أرسل الرؤساء من ينزل العلم البريطاني من فوق السراي، ورفعوا مكانه العلم العثماني، وتسلموا محتويات الخزانه. ثم اجتمعوا في السراي لتشكيل حكومة موقتة من بينهم لادارة البلدة. فاختاروا السيّد صالح أغا النقيب رئيساً للحكومة، وعبداللّه أفندي المعروف البياتي نائباً للرئيس، كما اختاروا اعضاءاً للحكومة: موسى أفندي والحاج صالح بك والسيّد الياس النقيب وعبدالوهاب الحاج محمد وعبدالكريم الجلبي الشكرّ وحسين أغا وأحمد أغا لطوف ويوسف عباوي وحين مسلم أغا العلي الهي.

نجحت هذه الحكومة في اقرار الأمن والنظام في البلدة. فقد عينت لكل محلة من محلاتها الست ضابطاً مسؤولاً عن حراستها، كما عينت ضابطاً عاماً للبلدة كلها هو السيّد عزالدين النقيب. ولم يقع طيلة الفترة التي حكمت فيها البلدة ما يعكر صفو الأمن سوى حوادث بسيطة، منها: أن عشيرة البوجواري نهبت عدداً من الحيوانات تعود لبعض أهالي مندلي، فوجهت الحكومة المؤقتة عزالدين النقيب على رأس عشرة من الخيالة المسلحين لاستعادة الحيوانات، واستطاع هؤلاء استعادتها بسهولة وانتهى الحادث بسلام.

كان في مندلي يومذاك نحو ١٥٠ يهودياً، وقد عاش هؤلاء في ظل الحكومة

الموقتة بطمأنينة، فلم يعتد عليهم أحد. وفي أوائل ايلول وصل الى مندلي رجل بدوي يدعى «أبوطبر» وهو يحمل رسائل الى الحكومة الموقتة من بعض رؤساء الثورة في ديالى، وأخذ هذا الرجل يتغلغل بين الأهالي يدعوهم الى نهب أموال اليهود وانتهاك حرماتهم ولكنه لم ينجح في دعوته، لأن الحكومة المؤقتة انبرت للدفاع عن اليهود والمحافظة على أموالهم وارواحهم وأعراضهم. وخرج منادي الحكومة ينادي في الطرقات يطلب من الأهالي أن يحافظوا على اليهود باعتبارهم داخلين في ذمة المسلمين، وان يراعوا سمعة البلدة، ويتركوا الضغائن والعداوات. «لئلاً يشمت بنا الأعداء».

ظلت حكومة مندلي قائمة حتى بعد استعادة الإنكليز لخانقين وشهربان، فقد تركها الإنكليز ولم يتعرضوا لها لانشغالهم بأمور أخرى أهم منها، غير أنهم أرسلوا إليها رسولاً يطلبون منها اطلاق سراح الحاكم المعتقل علي شاه. فاستجابت حكومة مندلي لهذا الطلب، وأرسلت الحاكم مع عائلته بحماية حرس خاص الى عشيرة الدلو، وقد اوصلته هذه العشيرة الى النفطخانة سالماً.

وصلت الى مندلي في أواخر تشرين الأول نسخة من جريدة «العراق» وفيها نبأ تشكيل الوزارة النقيبية في بغداد. وقد فرحت الحكومة المؤقتة بهذا النبأ كما فرح الأهالي، فقد اعتقدوا أن الثورة نالت مقصدها وهو الإستقلال. وكان من أسباب فرحهم أيضاً دخول السيّد طالب النقيب في الوزارة النقيبية وزيراً للداخلية. فقد كانت أسرة النقيب في مندلي تعتبر أسرة السيّد طالب مرتبطة معها بنسب واحد هو السيّد أحمد الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية المعروفة.

أوعزت الحكومة المؤقتة بإعلان الأفراح في مندلي، وانطلقت الطبول تدق في البلدة، والموسيقى تعزف، كما أخذ الأهالي يهزجون ويهوسون، وصار بعض الشبان يقومون بدبكاتهم الشعبية أمام السراي.

لم تدم فرحة البلدة طويلاً، ففي أوائل تشرين الثاني ١٩٢٠ قدمت قوة انكليزية الى البلدة ومعها بعض الطائرات. فاستسلمت الحكومة المؤقتة للانكليز بهدوء. وقد هدم الانكليز دار اثنين من رؤساء البلدة، كما فرضوا غرامة على البلدة تتكون من ٤٥٥٠ ليرة و ٣٠٠٠ بندقية مع مائة خرطوشة لكل بندقية. وقد استثني موسى أفندي من دفع الغرامة لما قام به من حماية للحاكم الهندي علي شاه.[١]

قتال الأخوة في الحيّ:

تقع بلدة الحي على نهر الغراف بين قلعة سكر والكوت، وكان الانكليز يخشون أن تمتد الثورة الى عشائر الحيّ، وبذلك يصل الخطر الى نهر دجلة الذي هو طريق امدادهم من الهند. وقد حمد الانكليز موقف الشيخ خيّون العبيد في الشطرة لأنه حال دون امتداد الثورة الى عشائر الحيّ - كما أشرنا إليه من قبل - كما حمدوا موقف الشيخ محمد الصيهود رئيس عشيرة ربيعة في الكوت لأنه قام بدور مهم في هذا السبيل أيضاً.

تقطن حول بلدة الحيّ عشيرة المياح وهي تنتمي الى ربيعة، وكان يرأسها في أيام الثورة ثلاثة أخوة هم: عبدالله وعبدالمحسن وبلاسم أولاد محمد الياسين. وكان الود بين هؤلاء الاخوة مفقوداً، إذ كانوا يتنافسون على الرئاسة العامة للعشيرة. وقد أدى هذا التنافس بعبد الله الى أن يقتل أخاه عبدالمحسن في شهر ايلول ١٩٢٠.

حدث القتل ذات مساء عندما كان عبدالله يتناول عشاءه مع شيء من الخمرة على سطح بيته في الحيّ، فجاء إليه أخوه عبدالمحسن يزوره بصحبة صديقه صالح شكارة. ولما اراد عبدالمحسن الخروج عند انتهاء الزيارة، وهم بنزول الدرج، ناداه عبدالله ثم اطلق عليه رصاصة من مسدسه، ثم اقترب منه وأطلق عليه رصاصات

---

(١) - اعتمدت في هذه المعلومات على كتاب مخطوط لعمران موسى أفندي عنوانه «مندلي عبر العصور»، واني اشكره على اعارته هذا الكتاب لي.

أخرى وقذف به من فوق السطح. وكان عبدالله يريد قتل صالح شكارة أيضاً، ونادى اتباعه يأمرهم بأن يلحقوا به لقتله، ولكن صالح استطاع أن ينجو بنفسه حيث فرّ من خلال الازقّة تحت جنح الظلام.(١)

أثارت هذه الحادثة نزاعاً شديداً في عشيرة المياح، فقد هبّ الأخ الثالث بلاسم محمد الياسين لقتال عبدالله، وجرت بين أتباع الاخوين معارك ضارية. والظاهر ان الإنكليز استبشروا بهذا النزاع لأنه أشغل العشيرة عن التفكير في الانضمام الى الثورة. وقد أشار الى ذلك البيان الرسمي الذي نشرته جريدة «الشرق» حيث قال: «الحرب قائمة بين عشائر الحيّ بشدة، فيتعذر عليها القيام ضد الحكومة بصورة منتظمة».(٢)

كان الإنكليز يظنون ان عبدالله من المناوئين لهم، وأنه إنما قتل أخاه عبدالمحسن لأنه كان من الموالين لهم. وقد أشار الى ذلك بوضوح البيان الرسمي الصادر في ٢٢ ايلول، وهذا نصه:

«احتدم القتال في منطقة الحيّ بين العشائر، فهاجم عبدالله محسناً من قبيلة المياح فقتله، ويقال ان سبب قتله هو عدم موافقته علىٰ طلب عبدالله للقيام ضد الحكومة، ومن ثم أراد عبدالله محاصرة الحيّ فحوصر هو في بيته، فلجأ الى الفرار الى البساتين. وقد قهر رجال بلاسم رجال عبدالله وقتلوا منهم ستين رجلاً وغنموا منهم عدداً من البنادق الإنكليزية. وقد استنجد عبدالله بمحان ـ يقصد موحان الخير الله ـ ويظن أنهما اتفقا اولاً علىٰ القيام في وجه الحكومة. توجه حاكم سياسي الكوت الى الحيّ. ولم تنل الحركة انتشاراً. وختيّون يستخدم نفوذه علىٰ عبدالله».(٣)

من الجدير بالذكر ان النزاع بين بلاسم وعبدالله ظل قائماً مدة غير قصيرة بعد

---

(١) - حدثني بذلك شخص نقلاً عن رجل كان حاضراً حادثة القتل.

(٢) - جريدة «الشرق»، في عددها الصادر في ٢٠ ايلول ١٩٢٠.

(٣) - جريدة «الشرق»، في عددها الصادر في ٢٧ ايلول ١٩٢٠.

انتهاء الثورة. فقد ذكرت جريدة «العراق» في ١٤ شباط ١٩٢١ تقول: ان الشيخ محمد الصيهود غادر بغداد متوجهاً الى الكوت بناءاً على طلب من الحاكم السياسي فيها وذلك لكي يساعد في حل قضية عبدالله الياسين.

يبدو ان الشيخ محمد الصيهود تمكن من اقناع عبدالله وجلبه الى الطاعة. فقد أصبح عبدالله فيما بعد من الموالين للحكومة، ثم صار اخيراً هو وأخوه بلاسم أكبر الإقطاعيين في منطقة الحي.(١)

حصار سامراء:

في ٢٨ آب ١٩٢٠ تعرضت بلدة سامراء لهجوم عام شارك فيه الكثير من العشائر القريبة. ويقال ان السيد محمد الصدر كان يقود الهجوم بنفسه.(٢)

كانت سامراء محاطة بسور متين، وكان فيها بالاضافة الى حاكمها السياسي الميجر بري ضابط بريطاني برتبة ملازم وثلاثة عشر جندياً بريطانياً مع عدد من السواق الهنود قد وصلوا إليها من كركوك بسياراتهم مؤخراً.(٣)

صمم رؤساء سامراء على حماية الميجر بري والذين معه باعتبار أنهم في «دخالتهم» وأن الواجب يقضي بحمايتهم حسب قواعد الدخالة العربية. ولم تتمكن العشائر الثائرة من اقتحام البلدة لمتانة سورها، فاكتفت بتشديد الحصار عليها، ومنعوا عنها الطعام والماء، وقد عانى سكان البلدة من جراء ذلك كثيراً من الضيق.

جرت مفاوضات بين الثوار ورؤساء سامراء. ننقل فيما يلي وصفاً لتلك المفاوضات كتبه شويش بن عبدالحميد السلام رئيس الجبور، فقد كان والده من

---

(١) – محمد علي الصوري «الاقطاع في لواء الكوت»، بغداد ١٩٥٨، ص٣٦ ـ ٣٨.

(٢) – فيليب ايرلاند «العراق»، ترجمة جعفر خياط، بيروت ١٩٤٩، ص٢٠٨ و٢١٠.

(٣) – Haldane (Insurrection In Mesopotamia) - Edinburgh 1922 - p.234.

المشاركين في حصار سامراء. وهذا نصه:

«قامت عشيرة الجبور بالثورة الوطنية مشاركة في ذلك أبناء الوطن العزيز عندما اشتعلت نيران الثورة في الفرات الاوسط بالرميثة والرارنجية، واتصلت بعد ذلك الى لواء ديالى، وعرج الينا سماحة السيّد محمد الصدر لتنظيم الثورة في قضاء سامراء... وقد كان معنا من العشائر المجاورة في الجانب الأيسر من نهر دجلة عشيرة خزرج والبوجواري والبوفراج والبو أسود والبوباز. وكان اتصالنا بالجميع بواسطة السيّد محمد الصدر الذي كان المنظم للحركة في تلك المنطقة من جهة، والمتصل برجال الثورة في الفرات الاوسط وبغداد من الجهة الاخرى...

وبعد أن حاصرنا سامراء اربع وعشرين ساعة طالبين منهم تسليم الميجر بري وضابط الشرطة الإنكليزيين مع الاسلحة، وبعد أن رأى رؤساء السامرائيين أن لا مفر من ذلك، طلبوا المفاوضة مع رؤساء الثوار. فذهب لذلك والدي عبدالحميد السلام، وحسين المطر رئيس عشيرة ألبو أسود، وعلوان المحمد المصطفى رئيس عشيرة البوفراج، واربعة آخرين لا أتخطر أسماءهم. وطلب السامرائيون منهم أن يبقوا هؤلاء الإنكليز أسرى في سامراء حيث أنهم أصبحوا دخلاء وانتا منكم وأنتم منا، وارتاحوا من هذه الجهة، واتجهوا الى مكان آخر. فاتجهنا بعد المفاوضة... الى الجانب الأيمن للاتصال بعشائر المجمع وبني تميم والبو عباس الذين حاصروا القطار في اسطبلات، والاتصال بسماحة الصدر. وبعد ذلك انسحب الإنكليز الى بغداد متسترين بظلام الليل...».[١]

دام الحصار حول سامراء نحو ثمانية أيام كما حدثني به أحد السامرائيين. وكان من بين المشاركين في الحصار محمد أبوخشيم مع أتباعه من الكبيشات، وقد علم هذا

---

(١) ـ فريق المزهر الفرعون «الحقائق الناصعة»، بغداد ١٩٥٢، ص ٥٨٥ ـ ٥٨٦.

الرجل أن الشيخ عليّ الكريّم رئيس البوعيسى من الموالين للانكليز فقرر أن يباغته بهجوم عليه من ورائه ونهبه.

كان الشيخ عليّ الكريّم يسكن مع عشيرته في قرية مكيشيفة التي تقع على ضفة دجلة اليمنى الى الشمال من سامراء. فقرر أبوخشيم أن يعبر دجلة بالقرب من قرية الدور لكي يتسنى له مهاجمة مكيشيفة من شمالها، ولهذا اتجه مع أتباعه نحو الدور، ولما اقترب منها ظن أهلها أنه قادم لغزوهم، فخرجوا للدفاع عن قريتهم بسلاحهم بقيادة رئيسهم السيّد أسعد الطه. فأرسل إليهم أبوخشيم يقول لهم بأنه قادم لغزو علي الكريّم وليس لغزوهم. فرد عليه أسعد الطه قائلاً: ان الذي يتعدىٰ بابن كريّم يتعشى بنا، ولهذا فنحن نمنعك من العبور من ناحيتنا. وعندما يئس أبوخشيم من نيل مرامه من أهل الدور طلب منهم خبزاً لاطعام أتباعه لأنهم جياع. فبعث إليه أهل الدور ثلاثة حمير محملة خبزاً. فأخذ أبوخشيم الخبز كما استحوذ على الحمير ايضاً.[١]

تمكن الإنكليز أخيراً من فك الحصار عن سامراء، ففي ٣٠ آب وصلت الى محطة سامراء من الشرقاط مفرزة تعدادها مائة وعشرون جندياً ومعهم رشاشان، بقيادة الكولونيل ماكوسلاند. ثم ظهرت في الجو طائرتان قادمتان من بغداد، وأخذتا تلقيان القنابل على العشائر المحدقة بسامراء وتصلياتها بنيران الرشاشات، فلاذت العشائر بالفرار.[٢]

بين راوة وعانة:

ان راوة وعانة بلدتان متقابلتان يفصل بينهما نهر الفرات، وكان بينهما عداء قديم كما هو ديدن كل بلدتين متقاربتين في تلك العهود. ولما وقعت أحداث دير الزور في

---

(١) – حدثني بذلك عبدالمحسن الدوري المحامي نقلاً عن عمه السيّد أسعد الطه.

(٢) – Haldane (op.cit.) - p.234.

فترة الاحتلال ـ على نحو ما ذكرناه سابقاً ـ اشتد العداء بين البلدتين حيث أصبحت راوة موئلا للحركات المناوئة للانكليز، بينما كانت عانة مقراً للسلطة الإنكليزية وفيها نحو أربعمائة مسلح من الدليم من اتباع علي السليمان مع قوة من الشبانة برئاسة مطلب عطية من محلة حقون.

كان عبدالرزاق منير قد عين قائمقاماً لبلدة البوكمال في ١١ أيار ١٩٢٠ من قبل الحكومة العربية في سوريا. ولما سقطت تلك الحكومة على يد الفرنسيين في ٢٥ تموز أعلن عبدالرزاق انفصاله عن سوريا حيث قال: «ان العراقيين هم الذين استولوا على البوكمال، وأنها تابعة للعراق وليس لسوريا».[١] ومنذ ذلك الحين أخذ عبدالرزاق يعد العدة للاستيلاء على عانة واخراج الإنكليز منها بالتعاون مع الراويين وبعض العشائر الموالية كالعقيدات والبونمر والجغايفة.

أرسل عبدالرزاق منير السيّد حسان الراوي للتفاهم مع الراويين لهذا الغرض، كما أرسل الضابط حامد المدفعي الى مشرف الدندل رئيس العقيدات. وفي اوائل شهر آب تم اعداد الخطة للاستيلاء على عانة، فخرجت من البوكمال مفرزة قوية من الجنود النظاميين كان فيها كامل شبيب آمراً للرشاشات، وعبدالله سلامي آمراً للخيّالة، كما كانت تضم فهد البطيخ ومشرف الدندل مع اتباعه. وقد توجهت هذه المفرزة نحو عانة من جهة الشامية. اما من جهة الجزيرة فقد توجهت نحو عانة قوة مؤلفة من الراويين، ومن ألبونمر الذين كانوا برئاسة نجرس الكعود، وكانت بقيادة منصور ظافر الطرابلسي ويعاونه ضابطان عراقيان هما: عبدالحميد القشطيني وشريف الفضلي.

وفي ١٣ آب ١٩٢٠ اقتحمت قوات الثوار بلدة عانة. وكان اول داخل إليها

---

(١) ـ تحسين العسكري «الثورة العربية الكبرى»، النجف ١٩٣٨، ج ٢، ص ١٥٢.

منصور الطرابلسي مع رجاله. فقابلهم رجال عفتان الشرجي بنيران البنادق وكانوا متحصنين في احدى الدور في محلة دلي علي. ولكن رجال منصور رموهم بالقنابل اليدوية مما أدى الى فرارهم.[١]

استمرت المعركة وقتاً غير قصير وكان النصر فيها حليف الثوار المهاجمين. وكان من عوامل انتصارهم شبوب النار في السراي، فقد كان في ارض السراي وفي جواره قنابل مدفونة منذ العهد التركي، ولما اقتربت النار من تلك القنابل انفجرت مرة واحدة، فأحدثت دوياً هائلاً وأخذت شظاياها تتطاير في الفضاء بشكل أرعب الإنكليز واتباعهم، فتركوا البلدة هاربين لايلوون علىٰ شيء.

أرسل الثوار مفرزة من الجنود الى قلعة راوة الواقعة علىٰ شاطيء النهر تجاه عانة. فاستولوا عليها، وأسروا ثلاثين رجلاً من الدليم كانوا فيها، فأودعوهم في جامع راوة الكبير فترة من الزمن ثم أطلقوا سراحهم.

وبعد ان تمت سيطرة الثوار علىٰ عانة عينوا نجرس الكعود قائمقاماً عليها، ومحمد الفتيان الراوي معاوناً له، كما اسندوا القيادة العامة الى حامد المدفعي. ثم نصب الثوار أحد المدفعين الذين جاؤوا بهما من البوكمال علىٰ تل بالقرب من قلعة راوة يسمى «قبة السور»، وعينوا مفرزة من الجنود مع آمر لهم لحماية المدفع وتحضيره لقصف عانة عند اللزوم. وقد ظل هذا المدفع منصوباً في مكانه، وتعهد رؤساء راوة بنفقات الجنود المخصصين له مدة تزيد علىٰ السنة.[٢] وقد قصفوا به عانة في آذار ١٩٢١ كما سنأتي إليه في فصل قادم.

أعد الثوار قوة لمطاردة الإنكليز جنوباً، وزحفت القوة بمحاذاة الفرات بقيادة

---

(١) - المصدر السابق، ج ٢، ص ١٥٣.

(٢) - نقلاً عن كتاب مخطوط للسيد جمال الراوي عنوانه «تاريخ راوة» واني اشكره علىٰ اعارته اياي هذا الكتاب.

منصور الطرابلسي، فاستولت على حديثة وآلوس من غير مقاومة، واستمرت في الزحف حتى وصلت الى السهيلية التي تقع على مقربة من هيت، وهناك كان الإنكليز متحصنين في خطوط دفاعية قوية، فتوقفت القوة عند ذلك عن الزحف.(١)

كتب عبدالرزاق منير الى ولده فائق رسالة يصف فيها انتصار الثوار في تلك المناطق جاء فيها ما يلي:

«دخلنا عانة حرباً وكان المحارب علي السليمان رئيس الدليم الذي تعهد للانكليز بحفظ المناطق الكائنة بين القائم والفلوجة، فخرج العدو ـ ولله الحمد ـ من عانة وحديثة وهيت مذموماً مدحوراً، وأحاطت العشائر الناهضة في بقية السيوف من الاعداء. وكما تفيد الانباء ان العشائر يضايقونهم كل ليلة وقد قطعوا الارزاق عنهم. والأمل الى حين وصول كتابي هذا أو قبل وصوله اليكم ستأتيكم الاخبار بمحو قوات العدو وأسرها. وتقدم زاحفاً لمهاجمة الرمادي قائد مقدمة الجيش حضرة منصور بك الطرابلسي، وتبعه المجاهدون بقيادة نجرس الكعود وعفتان الشرقي والشيخ مشرف وشيخ الأذناب تركي الفارس من مشايخ شمر الجزيرة. وبالختام أقبل أيدي فضيلة المجتهدين. ٦ ذي الحجة ١٣٣٨ ـ عبدالرزاق منير.(٢)

اتهام ودفاع:

حصل في عانة عند استيلاء الثوار عليها شيء من النهب والقتل، وقد استغلت الدعاية الإنكليزية ذلك لتشويه سمعة الثورة وثلب الثوار. ففي ٢ ايلول ١٩٢٠ نشرت جريدة «العراق» بياناً رسمياً تتهم فيه الشيخ محسن الراوي، وهو عالم راوة الديني، بأنه هو الذي دبّر نهب عانة. وهذا نصه:

---

(١) – تحسين العسكري (المصدر السابق)، ج ٢، ص ١٥٥.

(٢) – محمد علي كمال الدين «معلومات ومشاهدات»، بغداد ١٩٧١، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

«جمع الشيخ محسن الراوي البدو والراويين في بيته، واتفق معهم علىٰ نهب عانة، ولما دخلوها نهبوا محلة (حقون) التي كان يقطنها الشبانة وقتلوا مدير المال وكاتبه وقسماً من الشبانة».(١)

وبعد عشرين يوماً نشرت جريدة «العراق» البيان التالي بعنوان «الراويون في عانة: «وصلت إلينا الأخبار الصحيحة عن نهب الراويين لعانة. فقد كان منذ زمن طويل يرتاب في أن لسكان راوة علاقات شديدة بالعشائر المعادية. وقد نقل كثيراً أن بيت الشيخ محسن الراوي أضحى ملتقى الإجتماع لشيوخ عقيدات وجغيفة والشيخ نجرس بن قعود من عشيرة الدليم وغيرهم. فمن هذا المركز قد صدر الامر بالهجوم علىٰ عانة، بعد أن غادرها أفخاذ الدليم الموالين لنا والمنضوين الى راية الشيخ علي بن سليمان. وقد وجّه الأمر خاصة بنهب محلة (حقون) التي منها تألفت طائفة الشبانة في حكم البريطانيين، والمحلتين العائدتين الى اليهود في تلك المدينة. وعدد الغائرين كان ٢٠٠٠ رجل نصفهم من الراويين ونصفهم من البدو. وقد أخربت محلة حقون وقتل مدير المال ومطلب أفندي مع يوسف أفندي أحد كتاب المالية. وقتل أيضاً محمود أحد اغنياء محلة الخطباء، وابنه وعبدالسلام من محلة دلة علي. ولم يكن هناك من داع لهذه الجرائم سوى الرغبة في سفك الدماء. والمحلات التي نُهبت ست، فيها المحلتان اليهوديتان. أما الصبيان والنساء فلعجزهم من الهرب قد وقعوا في أيدي الغزات فسلبوا منهم الثياب والحلي، ونهبوا البيوت وأحرقوها، وتركوا هؤلاء المساكين دون وسيلة للعيشة. وقد نقل الراويون من عانة بالقوارب شيئاً كثيراً من الغنائم».(٢)

وبعد مرور بضعة عشر يوماً علىٰ نشر هذا البيان نشرت جريدة «العراق» خبراً تصحح به ما ورد قبلئذ عن الشيخ محسن الراوي حيث قالت ما نصه: «وافتنا أنباء

---

(١) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢ ايلول ١٩٢٠.

(٢) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٣ ايلول ١٩٢٠.

أخرى من عانة، وهي تؤيد الأخبار السابقة التي وردت الينا ونشرناها عن سلوك الراويين في نهب تلك البلدة. بيد انه يتبين منها ان الشيخ محسن الراوي ذهب إليها في اليوم التالي لوقوع ذلك الاضطراب، وسعى لمنع حدوث الاعتداء الذي كان يقع فيه».[١]

لم تسكت صحافةالثوار عن هذه الدعايةالإنكليزية بل ردت عليها وحاولت تفنيدها. فقد نشرت جريدة «الإستقلال» النجفية حول حادثة عانة ما نصه:

«والحقيقة هي أن منصور بك ـ تقصد منصور ظافر الطرابلسي ـ لما قرب من عانة مع الجنود العربية اخطر نائب علي السليمان الذي كان قد أخذ علىٰ عاتقه الدفاع عن عانة، وعرض عليه التسليم او ترك المدينة، ولما لم يلتفت إليه وأصر علىٰ البقاء في البلدة حاسباً انه يستطيع الدفاع عنها داهمة منصور بك برجاله ودخلوا المدينة بعد قتال شديد ساعد فيه سكان محلة «حقون» الشبانة الذين كانوا متحصنين هناك ورجال علي السليمان، فنهبت الجنود العربية تلك المحلة وقتلت رجالها عقاباً علىٰ عملهم هذا الذي يُسوّد صحيفة تاريخ العراق. وهل جزاء من يساعد الاجنبي علىٰ الوطني إلاّ القتل».[٢]

ونقل محمد علي كمال الدين في كتابه وصفاً لحادثة عانة، نقلاً عن ضابط عربي كان قد وصل من البوكمال الى الفرات الاوسط، علىٰ النحو التالي:

«زحفت مقدمة جيشنا في العشرة الأخيرة من ذي القعدة وهي مكونة من خمسمائة فارس سواري بقيادة منصور بك الطرابلسي مع الف من مجاهدي العربان المنظمة، يصحبهم مدفعان ضخمان و١٦ رشاشة ومعها دخيرة كاملة. ولما بلغت هذه

---

(١) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٩ تشرين الاول ١٩٢٠.

(٢) – جريدة «الإستقلال» النجفية، في عددها الصادر في ٥ تشرين الأول ١٩٢٠.

القوة الى عانة أخطر القائد منصور بك المسؤولين في عانة، ولاسيما علي السليمان الذي تعهد للحكومة المحتلة بتأييدها تأييداً تاماً ودفع الجيش العربي الزاحف. وقد وجه منصور بك الانذار الى علي السليمان باخلاء مدينة عانة وقلعة راوة وينسحب منها وإلاّ فستقع عليه مسؤولية سفك الدماء. فأصر علي السليمان وجماعته المؤيدين له من قبائل الدليم على عدم الخروج من عانة والتشبث بالقتال. وكان لعلي السليمان وكيل في عانة ـ يقصد عفتان الشرجي رئيس البومحل من الدليم ـ ومعه ٤٠٠ نفر من المحاربين أغلبهم من الدليم واقلهم من محلة حقون الواقعة على الطرف الغربي من عانة. ولما رأى الجيش العربي تصميم الدليم وأهل حقون على الحرب، ولم تنفع معهم النصيحة لحفظ دماء الابرياء من أهل البلد، قرر الهجوم على عانة، فدخلها عنوة في ٢٨ ذي القعدة، بعد أن قتل الكثير من خونة الدليم وبعض أهل عانة الماثلين لهم. ثم صادروا أموالهم وجعلوها غنيمة للمحاربين».(١)

ونقل محمد علي كمال الدين وصفاً آخر للحادثة عن ضابط آخر اسمه «أشرف افندي»، وهذا نصه:

«لما دخلت عانة وجدت اربعمائة نفر من عشيرة الدليم التابعة الى علي السليمان البكر مرابطين في غربي عانة، ومستحضرين للقوة المجاهدة الواردة من جهة ألبوكمال، وكذلك اربعمائة نفر آخرين محتشدين في القلعة التي شرقي راوة التي بناها المرحوم مدحت باشا. وكان علي السليمان متعهد لهم بارسال الذخائر الحربية والاكرامات إذا بيضوا وجهه عند الانكليز. عسى الله أن يسوّد وجهه! ولما تقدم قائد الخيالة «منصور بك» الى قرب عانة، أخطر وكيل علي السليمان في عانة بأنه أما أن يتحد مع المجاهدين أو يخلي عانة وقلعة راوة، وينسحب منها، وإلاّ تكون المسؤولية من سفك الدماء على عاتق علي السليمان. فأخبر الوكيل موكله. فكان جوابهم الى منصور بك السكوت

---

(١) - محمد علي كمال الدين «المصدر السابق»، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

والإعراض. فدخلت القوة المجاهدة الى عانة عنوة، وقتلت القسم الأعظم من خونة الدليم يوم ٢٨ ذي القعدة (سنة ١٣٣٨). ولما تحداها الى الطرف الغربي من عانة وغيره مع الدليم، واستحكم داخل البلدة، ليدافعوا دفاع المستميت، وأطلق العرب مقداراً من الرصاص عند الهجوم. ونهب العرب المهاجمون بلدة عانة لتكون عبرة لغير بلدة، وقتلوا رئيسها حتىٰ لاتقابلها البلدان بأعمال كهذه. أما القلعة... لكونها محكمة ذهب إليها منصور بك مع الخيالة، وأحاط بها من كل جانب، وأخذ يلقي عليهم المتفجرات (بام)، فاضطرت الحامية الى التسليم من دون أن يقتل أحد، فأخذوا أسلحتهم بتمامها وقالوا لهم: إذهبوا الى من بعثكم ولو أردنا قتلكم لقتلناكم. وبالحال عينوا القائمقام في عانة، ونظموا الحرس الوطني فيها وفي راوة علىٰ أحسن ترتيب، وأمنوا الطرق، وعادت الأمور الى مجاريها.

«وبعد ذلك تقدم الفيلق المجاهد نحو بلدة هيت، وكان علي السليمان البكر أيضاً مرابطاً في هيت، فبعث له قائد الخيالة اخطاراً فحواه: إذا أسلمت فابرز لنا اسلامك، وان بقيت علىٰ كفرك فاحضر للدفاع عن هيت، فإن الحق لا يخشى من استندت عليه. فلم يرد جواباً. وبعد حين هجمت القوة الاسلامية علىٰ هيت فاحتلتها، وانهزم علي السليمان الى الرمادي يوم ٩ ذي الحجة. وبعد تنظيم داخلية هيت وخارجها، وتعيين مدير الى بلدة كبيسة التي تقع جنوب هيت، تحركت القوى نحو الرمادي، وخيمت بين الرمادي وهيت. فبعث منصور بك الى علي السليمان اخطاراً ثالثاً عرفه به أنه الاخطار النهائي الذي لايرجى العفو بعده، فلم يجبه، بل جلب شيوخ الدليم المتحدين معه وقال لهم: كل من يأتي لي برأس منصور بك فله عشرة آلاف روبية اكرامية. فقالوا له: نعم. وقاموا من عنده وهم يلعنونه علىٰ عدم ايمانه، واضمروا له المكيدة. ثم ذهبوا الى منصور بك واخبروه بكلام علي السليمان فأجابهم بالآتي: اني ما جئت لأن أعيش، أنا جئت قاصداً الموت، وكلما يمكنكم من الاطاعة له اعملوا والأيام بيننا تقضي. فبكوا من شدة غيرتهم الإسلامية. وذهبوا الى الرمادي، فأحسّ

بهم علي السليمان والإنكليز الذين في بلد الرمادي وعرفوا أنه بدأت الروابط بينهم وبين القوة الزاحفة، فحبسهم علي السليمان من المغرب الى الصباح. ولكن ليقضي الله أمراً. وعلى اثر حبسهم قامت قبائلهم بالمظاهرات ضد علي السليمان، فرأى الإنكليز اتساع الخوف عليهم فأطلقهم. وبعد خروجهم من السجن جمعوا القوة العائدة لهم، وضربوا بها الرمادي، وحاربوا الإنكليز شر محاربة. وبما أنه لم يبق مع علي السليمان إلاّ خواص عشيرته «آل أبي عساف» فقد صار رأي الدليم ان يمحو القوة المحاصرة الإنكليزية... أما القوة المتقدمة العربية فهي مركبة من خمسمائة سواري بقيادة منصور بك مع ١٥٠٠ مجاهد من العربان المنظمة، و١٨٠٠ من العسكر الذين يدعون بأنهم بلشفيك لايتبعون دولة ومقصدهم اعانة المجاهدين، مع ١٦ رشاشة بذخائرها التامة ومدفعين ضخمين...».(١)

(١) - المصدر السابق، ص ٢٧٩.

الفصل السابع

نهاية الثورة

في ٢٦ آب ١٩٢٠ أبرق تشرتشل من لندن الى الجنرال هالدين في بغداد يقول: «اغتنم هذه الفرصة لكي أرسل اليك تمنياتي الطيبة المخلصة لنجاحك في المهمة الشاقة التي تقوم بها. ان الوزارة قررت ان الثورة يجب أن يُقضى عليها بصورة تامة. واني سوف أبذل جهدي لتلبية جميع طلباتك». وأضاف تشرتشل الى ذلك قائلاً بأن القوات وأسراب الطائرات هي الآن في طريقها الى ما بين النهرين، ثم ختم برقيته متسائلاً هل هناك حاجات أخرى، فهو مستعد لتلبيتها بقدر الامكان.[١]

دعاية بارعة:

في الوقت الذي كانت فيه النجدات العسكرية تتوالىٰ الى العراق انتشرت بين الناس دعاية مكثفة مؤداها ان بريطانيا استجابت لمطاليب الثورة وأنها ستؤسس في العراق قريباً دولة عربية وطنية. وأخذ الشيوخ الموالون والعملاء والجواسيس يعملون علىٰ ترويج هذه الدعاية بكل وسيلة ممكنة.

ففي ٢١ أيلول ١٩٢٠ نشرت جريدة «العراق» بياناً من الحكومة البريطانية تعلن فيه تعيين كوكس مندوباً سامياً للعراق وأنه سيصل الى العراق قريباً ويعمل لتأسيس حكومة عربية فيه. وفي ١ تشرين الأول وصل كوكس الى البصرة وصار

---

(١) - Haldane (Insurrection In Mesopotamia) - Edinburgh 1922 - p.215.

يتصل برؤساء العشائر القريبة ليباحثهم في موضوع تأسيس الحكومة المنشودة. وفي اليوم نفسه صدر في النجف العدد الاول من جريدة «الإستقلال» وهو يتضمن افتتاحية طويلة تبشّر الناس بقرب عودة كوكس الى العراق وتصفه بالدهاء والحنكة السياسية، وتشير الى ظهور بوادر في سياسته تدل على حسن العاقبة.

وفي ٤ منه كتبت جريدة «الشرق» لصاحبها حسين افنان افتتاحية بعنوان «قدوم مهم» ورد فيها ما يلي:

«لاشك أن قدوم السر برسي كوكس مندوب الحكومة البريطانية السامي هو قدوم مهم يبدو به فجر الأمل فيشق ظلام اليأس... وينجلي صبح السعادة والسلام... ولايخفى أن الحكومة البريطانية ذات الحول والطول يمكنها أن تمحق الحركة العراقية بقوتها العظيمة كما فعل غيرها في الأقطار السائرة لكنه يعز عليها وهي الحكومة الوحيدة العريقة في الحرية الفكرية والتربية الإستقلالية والحائزة لقصب السبق في ميادين التمدن والعمران والثابتة في عهودها ووعودها الناطقة بتحرير الشعوب أن تستبدل اللين بالشدة والحلم بالغضب. والخلاصة أن أكبر ظننا هو أن السر برسي كوكس قد وافى العراق بأسرار سياسية تسر الجميع وتذهب الحزن حيث لم يبق في القوس منزع والصبر متسع، حقق الله الآمال لأنه محوّل الأحوال».[1]

وفي ١١ منه وصل كوكس الى بغداد وألقى كلمة على مستقبليه في محطة القطار قال فيها ان حكومته أرسلته للتفاهم مع العراقيين من أجل تأسيس الحكومة العربية، وأشار الى أن الثورة ما زالت قائمة وهو إذن لايستطيع البدء بالعمل، ولكنه على أي حال حاضر للعمل عندما تحين الفرصة.[2]

---

(١) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٤ تشرين الأول ١٩٢٠.

(٢) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ١٢ تشرين الأول ١٩٢٠.

وبعد خمسة عشر يوماً من وصول كوكس الى بغداد نشرت جريدة «العراق» بياناً عاماً بعنوان «منشور عام الى طوائف العراق وعشائره» كان هذا نصه:

«ان فخامة نائب الملك السير برسي كوكس يعلن لجميع أفراد العشائر وطوائف العراق ان حكومة بريطانيا العظمى انتدبته ليعود الى العراق لتنفيذ مقاصد الحكومة الثابتة بمساعدة رؤساء الأمة وتشكيل حكومة وطنية في العراق بنظارة حكومة بريطانيا، ولقد يصعب جداً علىٰ فخامته تنفيذ منويات الحكومة البريطانية ما دامت بعض أقسام العشائر والطوائف في العراق تعادي الحكومة. ويظن أن الاحوال الحاضرة نتجت عن الشكوك الواهية التي تخامر أفكار بعض طبقات الأمة في نوايا الحكومة البريطانية. ويعتقد فخامته بتوصله لازالة كل شك أو ريبة خامرت أفكار الذين قابلوه حتىٰ الآن، ولا يعلم فخامته غرض العشائر الذين يشغلون أنفسهم بالحرب. فاذا كان هناك سوء مفهومية يمكن ازالتها فيسر فخامته أن يبلغ العشائر ذلك إليه بواسطة أقرب حاكم سياسي إليهم».[1]

وقد طبع هذا البيان بنسخ كثيرة وألقي بالطائرات علىٰ مختلف المناطق التي كانت الثورة قائمة فيها.

وبينا كانت هذه الدعاية تأخذ مجراها بين الناس كانت هناك دعاية أخرىٰ تصاحبها مؤداها ان الثورة إنما اندلعت في العراق من جراء أغلاط ويلسون وطيشه، وان كوكس سيسعى جاهداً لرتق الفتق وتصحيح تلك الاغلاط بحكمته، إذ هو رجل يحب العرب ويحبه العرب، وله قلب طيّب يميل الى الحق. وقد انطلت هذه الدعاية علىٰ الكثيرين من الناس وكان لها أثرها البالغ في تخدير الثوار، أو في شق صفوفهم علىٰ أقل تقدير.

---

(١) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٦ تشرين الأول ١٩٢٠.

يمكن القول ان الإنكليز أرادوا ان يجعلوا من ويلسون «كبش الفداء» لسياستهم في العراق، وصارت الدعاية تُطنب في ذكر مثالبه. وقد سكت ويلسون تجاه ذلك حرصاً علىٰ مصلحة بلاده، ولكنه كان واثقاً من أنها كانت سياسة خاطئة ستؤدي الى اوخم العواقب في الأمد البعيد.

في ١١ تشرين الاول ـ وهو اليوم الذي وصل فيه كوكس الى بغداد ـ كتب السيّد هبة الدين الشهرستاني من كربلاء رسالة الى كوكس يعرب فيها عن أمله العظيم فيه ويضع مسؤولية الثورة كلها علىٰ عاتق ويلسون. ننقل فيما يلي نص الرسالة ليطلع القاريء به علىٰ الجو الفكري الذي كان سائداً في العراق آنذاك:

حضرة ذي الفخامة السير برسي كوكس المعظم عمت عطوفته.

بعد تقديم الاحترام التام والثناء المستدام، فاننا نأمل من هذا المقدم السعيد أن يكون مقدم السعادة للأمة العراقية الشريفة. فنظراً الى أن الحقائق يجب أن لا تخفى علىٰ وزير معتمد عليه مثل فخامتكم، فلذلك نقدم اليكم بيان نبذة مهمة مما هي عليه هذه الأمة بياناً منزّهاً من كل شائبة وريب، وهي أن الأمة العراقية المعروفة باعتدال اخلاقها وشديد رغبتها الى السلم والسكون قد تحملت أثناء حاكمية جناب ولسن من أمرائه أقسام القساوة وضروب الضرائب، وهي مع ذلك لم تخرج عن الطاعة ساعة، حتىٰ هدأت حرب الغرب واستقرت الهدنة العامة علىٰ مباديء الرئيس ولسن وأعلن اركان الصلح والسلم: أن أبواب الحروب لايسدها غير تحرير الشعوب، وتقدمت انكلترا وفرنسا بمواعيدها الرسمية المعروفة في تحرير العراق واستفتاء أهله عن رغباتهم في مصير حكمهم وشكله، فأجابوا مراراً وأعلنوا جهاراً أنهم يريدون استقلالهم في الحكم الذاتي من دون تدخل الأجنبي، ولا غرو فقد شاهدوا أمماً صغيرة الكيان حقيرة الشأن طالبت بحقوقها المشروعة ففازت باستقلالها وتأمين استقبالها. وان انكلترا المفخمة كفيرها وافقتهم في تحريرها. وضمنت حفظ استقلالهم، ومن ذلك

نهضة العراق الجديدة، بأن لا تتأخر عن صف الشعوب الصغيرة، فالتمست من الحكومة المحتلة انجاز الوعود، وتظاهرت كبقية الأقوام بمطالبة حقوقها الدولية المشروعة مظاهرة ادبية قانونية سلميّة. غير أن الحاكم ولسن قد استقبلها بالقسر والقساوة والاضطهاد وهتك احترام كربلاء وغيرها. كما هتك مقام الرئاسة الروحانية، وساق بقوته العسكرية جماعة من العلماء والرؤساء بالاهانة حينما لم يظهروا عليه عصياناً، وفيهم أكبر أنجال حضرة آية الله العظمى الميرزا الشيرازي قدس سره، دون أن يحاكموا بذنب لهم سوى طلبهم حقوق الشعب، تلك الحقوق المشروعة التي بنى عليها ساسة الحلفاء صروح الهدنة والصلح العام، وتعاقبت عليها مواعيدهم الرسمية، ثم لم يقنع حضرة الحاكم ولسن بكل ذلك حتى أرسل عسكراً على الحاج محيف وغيره من الصلحاء الأكابر، فساق وقتل، وحرّق وفرّق، فثارت العشائر للدفاع عن النفس والنفيس، فأمرنا حضرة آية الله العظمى الشيرازي طاب ثراه في أواخر شوال الماضي ان نسافر بمثابة سفراء من ناحية كربلاء المقدسة الى بغداد للمفاوضة مع حاكمها في الاتفاق على صورة مشروعة تحفظ الحقوق وتحقن الدماء، غير أن الحاكم مع الأسف خيّب آمالنا السلميّة وأبى الى الشدّة والإنتقام. فرجعنا باليأس، ثم لم نسمع عند حضرة الحاكم حرفاً من شواهد حب السلم والمفاوضة إلاّ بعد ما عرض عساكره على القتل والعسر والحصار، وأضر دولته الفخيمة أكثر من غيرها. فلو أردنا سرد وقائعه وفضائعه اشغلنا أوقاتكم الشريفة لكنا نؤخرها الى وقت اللزوم، وإنما جرى القلم بهذه النبذة ليحيط علمكم السامي بما نحن فيه.

في ٢٧ محرم الحرام ١٣٣٩

سيّد محمد علي هبة الدين الشهرستاني[1]

---

(١) – فريق المزهر الفرعون «الحقائق الناصعة»، بغداد ١٩٥٢، ص ٤١٢ – ٤١٣.

سقوط طويريج:

أعد هالدين في الحلة قوة كبيرة بقيادة الجنرال ليزلي، وكانت هذه القوة مؤلفة من لوائين هما: اللواء الثالث والخمسين بقيادة البريغادير ساندرز، واللواء الخامس والخمسين بقيادة الكولونيل ووكر. وفي ٦ تشرين الأول ١٩٢٠ خرجت القوة كلها من الحلة متجهة نحو الجنوب. ولم تلق في يومها الاول سوى مقاومة قليلة. يقول هالدين:

«في اليوم السادس من الشهر لم تلق القوات لدىٰ خروجها من الحلة سوى مقاومة قليلة. والظاهر ان الثوار أخذوا علىٰ حين غرة، ولكن في اليوم السابع تجمع عدد كبير من العشائريين من الأماكن المجاورة، وكانوا واثقين أنهم قادرون علىٰ منع وصولنا الى الكوفة. إنهم كانوا مسيطرين علىٰ عدد كبير من القنوات القديمة والجديدة المتفرعة من النهر جنوب الحلة. وبينما كانت أرتال المشاة تتقدم علىٰ ضفتي النهر، أخذ المهندسون والطلائعيون يشيّدون المعاقل وينصبون الاسلاك الشائكة. وكانت مقاومة الثوار في البداية عنيدة، وظلوا صامدين في مواقعهم القويّة حتىٰ وصل المشاة الى مقربة منهم... وعندما دنت القوات منهم، مصحوبة بالمدفعية، ضعف دفاع الثوار. وبعد صدام دام ثلاثة ساعات ونصف استولت القوات علىٰ الموقع الذي صمد فيه الثوار. وحينما انسحب الثوار الذين كان عددهم نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة صاروا هدفاً ممتازاً للمدافع ونيران البنادق والرشاشات. أما خسائرنا فبلغت ثمانية عشر من القتلى وثمانية وستين من الجرحى».(١)

لم تتقدم القوة الإنكليزية حتىٰ يوم ١٢ تشرين الأول سوى ميلين أو ثلاثة. وفي ذلك اليوم انقسمت القوة الى رتلين، رتل اللواء الثالث والخمسين وقد اتجه نحو

---

(١) - Haldane (op. cit) - p.182 - 184.

طويريج، ورتل اللواء الخامس والخمسين وقد اتجه نحو الكفل.

كان آل فتلة وبنوحسن قد نيط بهم الدفاع عن طويريج، وكان بين هاتين العشيرتين مناوبة للدفاع عن البلدة. وفي ١١ تشرين الاول كانت النوبة على بني حسن، ولكن نزاعاً نشب بين افراد العشيرة ألهاهم عن الدفاع. فكتب علي العفصان ـ الذي كان الثوار قد عينوه قائمقاماً لطويريج الى عبدالواحد الحاج سكر يطلب منه المجيء فوراً الى طويريج لفض النزاع. فأسرع إليها عبدالواحد، وكان يومذاك في جبهة الوند، ولكنه وصل متأخراً إذ كان الرتل الإنكليزي قد وصل حينذاك الى مشارف البلدة.[1]

لم يكن في طويريج من المحاربين سوى عبدالواحد وثلاثين خيالاً من أتباعه. وقد قام عبدالواحد بمحاولة لاحراق جسر البلدة بمساعدة عبدالمحسن من رؤساء بني حسن، حيث سكب صفيحة من النفط على الجانب الأيمن من الجسر وأوقد فيه النار، غير أن الوقت لم يكن كافياً إذ أسرع بعض الجنود، وكانوا قد وصلوا تواً الى الجانب الأيسر من الجسر، فأطفأوا النار. وتمكن عبدالواحد من النجاة في اللحظة الاخيرة بعد أن فقد من أتباعه خمسة رجال.[2]

وقد أشار الى هذه الحادثة هالدين في كتابه حيث قال: «ان العشائر ثبتت في طويريج مرة أخرى، وأشعلوا النار في جسر القوارب، غير أن سرية الاستحكام ووحدة راجبوت رقم ١٣ اندفعوا الى الأمام واطفأوا النار، واحتلوا البلدة».[3]

كان حميد خان حينذاك معتقلاً في احدى الدور في طويريج. وهو يروي أنه سمع قبل دخول القوات الإنكليزية الى البلدة بساعتين أصوات هوسات ودبكات كثيرة

---

(١) ـ فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص ٤١٧ ـ ٤١٨.

(٢) ـ المصدر السابق، ص ٤١٩ ـ ٤٢٠.

(٣) ـ Haldane (op. cit) - p.185.

تعم البلدة. فسأل حارسه عن سبب ذلك، فأجابه الحارس: ان أخباراً وصلت الى طويريج مفادها ان الجيوش التركية قد احتلت المحمودية، وان الجيوش الشريفية تتقدم من الرمادي.[١]

دخلت القوات الإنكليزية طويريج في عصر ١٢ تشرين الأول، وكانت الطائرات تساندها وصارت تقصف جموع الثوار عند انسحابهم باتجاه كربلاء. ويقول هالدين: ان خسائر الثوار تُقدَّر بمائتين، أما خسائر الإنكليز فهي غير كثيرة.[٢]

وأخذت القوات الإنكليزية بعد ذلك تحرق القرى القريبة، وتنهب ما فيها، وتوجه نيران الرشاشات على من تجده في القرى من البشر. واضطر الكثير من أهل القرى الى الفرار من قراهم، وهم يحملون ما تيسّر حمله. وساروا يتصارخون لا يدرون أين يتوجهون.

استسلام كربلاء:

عند سقوط طويريج في ايدي الإنكليز ظهرت في كربلاء حركة قوية تريد الاستسلام للانكليز وتجنيب البلدة ويلات الحرب. وكان على رأس هذه الحركة الشيخ فخري كمونة. وقد تمكن هو وأتباعه أن يسيطروا على البلدة ويفرضوا ارادتهم فيها. واضطر رجال الثورة الذين كانوا في كربلاء الى الخروج منها على وجه السرعة، وكان من بينهم البغداديون الذين كانوا لاجئين إليها وهم:

جعفر أبو التمن ويوسف السويدي وعلي البازركان ومحمود رامز وعارف حكمت وفائق منير وجميل قبطان وطه البدري، ويحدثنا علي البازركان عما جرى لهم عند خروجهم من كربلاء فيقول ما نصه:

---

(١) - Loc. cit.

(٢) - Loc. cit.

«جاءنا نبأ سقوط قصبة طويريج ونحن في كربلاء... وقد راجت اشاعات عديدة في كربلاء... منها ان الإنكليز قد أمروا فخري كمونة بالقاء القبض علينا ـ نحن البغداديين ـ وتسليمنا لهم. وعلى أثر الإشاعة الأخيرة أخذنا نتحرى وسائط نقلنا من كربلاء، فلم نجد سوى البغال التي كانت تُستخدم لجر العربات بين كربلاء والنجف، فاتخذناها وكانت تعود للحاج كاظم أبوالتمن. وهكذا غادرنا قصبة كربلاء وقت العشاء مخافة أن يلقي القبض علينا فخري كمونة. فشاهدنا في الطريق مهاجري طويريج اثر احتلال الإنكليز لها، وكان منظرهم من المناظر المؤلمة، فقد امتزج عويل الاطفال وصراخ النساء وصياح الحيوانات المختلفة. فلم نصل الى خان الحماد وهو في منتصف الطريق بين كربلاء والنجف إلاّ ونحن على أتعس حالة، لأننا ذقنا الأمرّين من البغال التي كانت تنفر وتجمح فتلقي براكبها تحتها لغير سبب. ولما ارتفعت الشمس وغادرنا الخان المذكور حلقت فوقنا الطائرات الإنكليزية فألقت علينا وابلاً (دسماً) من القنابل. وحينئذٍ اشتدت أزمتنا بين نفسية بغالنا وبين دوي القنابل المتفجرة بيننا. ولا أريد أن أطيل على القاريء فقد تركتنا الطائرات حين وصلنا الى خان المصلى قرب النجف الأشرف وكنا في حالة لانحسد عليها ما عدا السيّد يوسف السويدي الذي كان ممتطياً صهوة فرس له مريح».[1] تألف في كربلاء وفد للذهاب الى الإنكليز وعرض تسليم البلدة اليهم. وقد وصل هذا الوفد الى طويريج في ١٧ تشرين الأول، وقابلوا القائد الإنكليزي ساندرز، فأوعز هذا القائد إليهم أن يذهبوا الى بغداد لمقابلة كوكس. فسافروا الى بغداد وحين قابلوا كوكس قدم لهم خمسة شروط هي:

أولاً: تسليم سبعة عشر شخصاً للحكومة البريطانية في مدة لاتتجاوز أربع وعشرين ساعة لتقديهم الى المحاكمة لوجود أسباب تبعث الى الاعتقاد بأنهم مجرمون.

---

(١) ـ علي البازركان «الوقائع الحقيقية»، بغداد ١٩٥٤، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

ثانياً: تسليم أربعة آلاف بندقية ومائة خرطوشة مع كل بندقية، على أن يكون نصف البنادق من الطراز الحديث، والنصف الآخر صالحاً للاستعمال. وإذا تعذر ذلك وجب دفع غرامة مقدارها عشرون ليرة عثمانية عن كل بندقية حديثة، وعشر ليرات عثمانية عن كل بندقية صالحة للاستعمال، وروبية واحدة عن كل خرطوشة.

ثالثاً: اعادة جميع الأموال العائدة للحكومة، ودفع تعويض عن الخسائر التي أصابتها، وسيجري تقدير مقدار التعويض في فرصة أخرى.

رابعاً: الطاعة لأوامر الحكومة.

خامساً: عدم قبول من يلتجيء الى كربلاء من الفارين من وجه العدالة. وفي حالة عدم تنفيذ الشرطين الاول والثاني في المدة المعينة، وعدم تقديم سبب معقول لذلك، ستكون السلطة العسكرية مفوضة باتخاذ الإجراءات اللازمة لتنفيذها.(١)

وهذه أسماء الاشخاص السبعة عشر المطلوبين حسب الشرط الاول: محسن أبوطبيخ، سماوي الجلوب، مرزوق العواد، عمران الحاج سعدون، رشيد المسرهد، هبة الدين الشهرستاني، محمد الخالصي، أبوالقاسم الكاشاني، محمد الكشميري، حسين القزويني، أحمد الخراساني، عبدالوهاب الوهاب، حسين الددة، عبدالجليل العواد، عبدالرحمن العواد، طليفح الحسون، محمد حسن أبوالمحاسن.

قام الشيخ فخري كمونة ورجاله بتنفيذ شروط الاستسلام. وقسم دفع البنادق أو الغرامة على أهل البلدة والعشائر التابعة لها، فمن يمتنع منهم عن الدفع يوضع الحجز على داره أو أملاكه. ويقال ان الحجز وضع على ١٢ داراً، و٣٧ بستاناً، و١٤ دكاناً، وعلوتين، وثلاث مقاطعات زراعية، وخان واحد. ولم يرفع الحجز عنها إلاّ بعد أن دفع أصحابها ما فُرض عليهم، وكان مجموع ما دفع ٩٤ ألف ليرة عثمانية.(٢)

---

(١) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٢ تشرين الأول ١٩٢٠.

(٢) – فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص٤٢٧.

وكذلك قام فخري كمونة بتفتيش كثير من البيوت بحثاً عن الاشخاص المطلوبين، واستحوذ علىٰ الأوراق والوثائق التي وجدها في بيوتهم. وقد تمكن من القاء القبض علىٰ عشرة منهم، وسلمهم الى الحكومة. أما الباقون فقد تمكنوا من النجاة بطرق شتى. وفيما يلي نذكر قصة أحدهم، وهو الشيخ محمد الخالصي، كما وردت في مذكراته، حيث يقول ما نصه:

«... واصل الإنكليز الهجوم وتقربوا الى كربلاء فخرجنا ليلاً قاصدين النجف لنلتحق بمن فيها، فصادفنا عدة من الاعراب ظننا أنهم من الإنكليز وظنونا كذلك فتبادلنا اطلاق الرصاص ساعة تحت ظلام الليل، فكبا بي فرسي وسقطت علىٰ بندقيتي حتىٰ آلمتني كثيراً بحيث لم أطق القيام وتفرق من كان معي كل علىٰ وجهه.. فلم أشعر إلاّ ورجل من الاعراب واقف علىٰ رأسي فعرفني ونقلني علىٰ حمار له الى الحر. وأحاط الإنكليز وأتباعهم بأراضي الحر فاضطررت الى المضي الى كربلاء متستراً بظلام الليل، ووردت دار السيّد حسين القزويني حفيد صاحب الضوابط وكانت متصلة بصحن الحسين عليه السلام، فاختفيت فيها. وبعد أيام هجم الإنكليز علىٰ تلك الدار وأخذوا السيّد حسين وولده بتهمة اشتراكهما في الحرب، وجاؤوا اليّ ورأوني فلم يعرفوني ببركة الحسين عليه السلام، وتركوني في تلك الدار مع طفلة للسيد حسين لم تتجاوز أربع سنين وخادمتين له لا غير. وعند الصباح جاء أقارب السيّد حسين ليتسلموا الدار بمن فيها وما فيها وكانوا من أتباع الإنكليز فخشيت أنهم إذا رأوني يخبرون الإنكليز فأوعزت الى الخادمة أن لا تفتح باب الدار، وكانوا يلحون عليها فتمتنع الى أن ورد السيّد شمس الدين ابن السيّد حسين وكان قد أطلقه الإنكليز لصغر سنه، فدفع أقرباءه عن الدار. وبعد سويعات هجم الإنكليز يفتشون عن السلاح والأوراق في تلك الدار فاختفيت منهم في السرداب وحيث كان مظلماً لم يروني فيه. وبقيت في تلك الدار خمسة واربعين يوماً... وكان يقلقني في تلك الدار عجوزان كانتا متشاكستين تكثران النزاع، فاذا اشتد بينهما الخصام كانت تهدد كل

منهما صاحبتها بأنها تخبر الإنكليز بأن صاحبتها أجارتني... فكنت أصلح بينهما دائماً، وهذا كان جل عملي تلك المدة... وبعد خمسة وأربعين يوماً ارتفع الحصار عن كربلاء وصار الزوار يذهبون ويجيئون فخرجت من كربلاء ليلاً مندمجاً في زمرة طائفة من أهل يزد الى الكاظمية، ولم يعرفني أحد...».(١)

سقوط الكوفة:

ان سقوط طويريج كان بداية لانهيار عزيمة الثوار. فانسحبوا من جبهة الوند، وتفرقت العشائر فعاد فريق منهم الى ديارهم، وانسحب آخرون نحو الكفل بغية الدفاع عنها بقدر الامكان.

ان اللواء الخامس والخمسين الذي زحف باتجاه الكفل بقيادة الكولونيل ووكر وصل الى قناة الحميسانية في ١٢ تشرين الاول، وكان هناك جمع من الثوار يبلغ عددهم الألفين حسب تقدير هالدين. وقد ثبت هؤلاء في القتال غير أن القوات الإنكليزية زحزحتهم عن مواقعهم بمساعدة المدفعية والخيالة العاملة على جناحيها.(٢)

وعندما وصلت القوات الإنكليزية الى مقربة من الكفل وجدت قوة من الثوار يبلغ عددهم الستمائة، ولم تجد القوات صعوبة في تفريق شملهم. وقد واجهت القوات الإنكليزية بعد ذلك مشكلة هي أن نهر الفرات في الكفل كان أعرض مما ورد عنه في التقارير، فاضطرت القوات في ١٥ تشرين الاول الى طلب المواد اللازمة لبناء الجسر المناسب من الحلة. فوصلت المواد في الثانية والنصف من بعد ظهر اليوم نفسه. وتم نصب الجسر في الساعة الخامسة. وفي التاسعة والنصف من صباح اليوم التالي عبرت

---

(١) – نقلاً عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة.

(٢) – Haldane (op. cit) - p. 186.

القوات الجسر، ثم بدأت الزحف حالاً باتجاه الكوفة.

وصلت القوات الإنكليزية الى الأطراف الشمالية من الكوفة في الساعة الثامنة من صباح ١٧ منه. وكان هناك حشد من الثوار قدّرته المصادر الإنكليزية بنحو ٢٥٠٠ رجل.(١) وكانوا صامدين في مواقعهم. فقامت قوة من الخيالة الإنكليزية بحركة التفاف واسعة نحو الغرب باتجاه الطريق الممتد بين النجف والكوفة، ثم هاجمت الثوار بالسيوف فقتلت سبعة وعشرين رجلاً منهم، كما أصابت عدداً آخر منهم بنيران الرشاشات.(٢)

أبدى سلمان العبطان من رؤساء الخزاعل بطولة فائقة في تلك الموقعة، فهو حين شاهد الثوار على وشك الإنسحاب من المعركة جرّد سيفه وأخذ يضرب به أعواد الرايات، كما صار يوجه الكلمات القارصة الى الثوار بغية اثارة النخوة فيهم.(٣) فلم يؤثر ذلك فيهم كثيرا لأن النخوة مهما كانت قوية لايمكن أن تصمد تجاه نيران الرشاشات وقصف الطائرات.

دخلت القوات الإنكليزية الكوفة في التاسعة والنصف من صباح اليوم نفسه، وكانت الطائرات تطير فوقها على مستوى منخفض. فاطلق سراح الحامية التي كانت محصورة في الخانات الواقعة على النهر، بعد حصار استمر ٨٩ يوماً. وفي ٢٠ منه استعيد المدفع الذي كان الثوار قد غنموه في واقعة الرارنجية ثم استعملوه في قصف حامية الكوفة.(٤)

---

(١) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢١ تشرين الأول ١٩٢٠.

(٢) - Haldane (op. cit) - p.187.

(٣) - عبد الشهيد الياسري «البطولة في ثورة العشرين»، النجف ١٩٦٦، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٤) - Haldane (op. cit) - p.192.

استسلام النجف:

في ١٨ تشرين الاول ١٩٢٠ وصل الى مقر الكولونيل ووكر في الكوفة وفد من النجف، وذكر الوفد أنهم يسلّمون بلا قيد ولاشرط، كما أنهم مستعدون لقبول ما تفرضه عليهم الحكومة من الشروط التي تراها ملائمة للمصلحة.(١)

كان أول شروط القائد الإنكليزي عليهم هو تسليم الأسرى الذين كانوا معتقلين في خان الشيلان في النجف. فجرى تسليمهم في صباح اليوم التالي، ونشرت العراق بياناً رسمياً هذا نصه:

«جيء أمس من النجف بـ ٧٩ أسير بريطاني و ٨٨ أسير حرب هندي، وأنزلوا في معسكر الألاي الـ ٥٥ في الكوفة، والظاهر ان صحتهم جيدة، وقد عوملوا معاملة حسنى، وفي الأخص معاملة النجفيين لهم».(٢)

لم يشأ الإنكليز أن يعلنوا شروطهم الأخرى على النجف في ذلك الوقت لأن قواتهم كانت مشغولة في قتال العشائر، ولهذا أجلوا اعلان الشروط الى ما بعد انتهاء القتال في تلك المنطقة. وبعد مرور عشرين يوماً تقريباً شَعَر الإنكليز أن في مقدورهم حشد قوات كافية لارهاب النجف، وقد وصف هالدين في كتابه كثرة القوات التي حشدها تجاه النجف في الجهة الشرقية منها، وذكر كذلك أنه وضع عدداً من المدافع تجاهها وأعد عشر طائرات للتحليق فوقها في اليوم المعين لتقديم الشروط إليها.(٣)

استُدعي عدد من علماء النجف ورؤسائها ووجهائها للحضور الى دار الحكومة الواقعة خارج السور في الساعة العاشرة من صباح ١٦ تشرين الثاني ١٩٢٠. وحين

---

(١) – جعفر محبوبة «ماضي النجف وحاضرها»، النجف ١٩٥٨، ج ١، ص ٣٧٣.

(٢) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٢ تشرين الأول ١٩٢٠.

(٣) – Haldane (op. cit) - p. 264.

اجتمعوا في ساحة الدار قام أحد الموظفين فتلا عليهم الشروط التي فُرضت على النجف. وقد وقف الرؤساء والوجهاء عند تلاوة الشروط، أما العلماء فظلوا جالسين. وكان من جملة تلك الشروط: دفع ١٢٧٦ بندقية حديثة الصنع، و١٤٢٩ بندقية صالحة للاستعمال، و٨ رشاشات من طراز لويس و٢ من طراز هوجكس، مع ٢٠٠ ألف خرطوشة. وكذلك تسليم خمسة أشخاص هم: محسن شلاش وجواد الجواهري ومحمد رضا الصافي وعزيز الله الاسترآبادي وحسن الاصفهاني.

وعلى أثر ذلك دخلت قوة إنكليزية الى النجف، فأغلقت أبواب السور، ومنعت الدخول والخروج من البلدة إلاّ بإذن من السلطة. واستمر ذلك ٢٤ يوماً عانى سكان النجف فيها شيئاً غير قليل من الجوع والعطش. وقد سمح لبعض السقائين أخيراً بنقل الماء الى البلدة فبيعت القربة الواحدة من الماء بثلاث روبيات مع العلم أنها كانت في الأيام الاعتيادية تباع بخمسة فلوس.[1] ومن الجدير بالذكر ان هذا هو ثاني حصار تعانيه النجف بعد الحصار الذي عانته في ربيع ١٩١٨ على أثر ثورتها المشهورة التي سنأتي الى ذكرها بالتفصيل في أحد ملاحق هذا الجزء.

هدمت السلطة في النجف أربع دور هي دور السيّد نور الياسري وعبدالواحد الحاج سكر وعبادي الحسين في محلة البراق، ودار مرزوق العواد في محلة المشراق. وكادت تهدم داراً خامسة هي دار السيّد علوان الياسري في محلة العمارة غير أن السيّد عبدالجواد الياسري، وهو أخو السيّد علوان، ادعى ان الدار تعود له، فتركتها السلطة له.

وخرج منادي البلدية الحاج حسين شيش ينادي في الأسواق والطرقات معلناً أن من لديه شيء من أموال الحكومة يجب أن يسلمه إليها حالاً، وإلاّ حلّت به العقوبة

---

(١) - جعفر محبوبة «المصدر السابق»، ج١، ص ٣٧٤.

الشديدة. فانتشر الرعب بين الناس وصاروا يرمون الغنائم التي في حوزتهم في الطرقات. حدثني جعفر الخليلي: انه كانت لديه مسطرة نحاسية وآلة تصوير من طراز «كوداك»، وهما من غنائم معركة الرارنجية اهداهما إليه أحد ابناء الشيوخ. وقد اضطر الخليلي أن يرمي المسطرة في البئر. أما آلة التصوير فقد أخفاها في موضع أمين بعد أن حك اسم الضابط المكتوب عليها. وقد أخرجها الخليلي بعد مدة وظل محتفظاً بها، وشاهدها عنده كاتب هذه السطور، ثم اقتنتها مؤخراً دار الوثائق العراقية.

تولى السيّد مهدي السيّد سلمان رئيس محلة الحويش تنفيذ الشروط وجمع الغرامة المفروضة على النجف، وكان قد تولى ذلك قبلئذ عقب ثورة النجف. فكان يرسل الى مياسير النجف واحداً بعد الآخر يستدعيهم إليه في داره، فاذا دخل الرجل منهم الى الدار وجد السيّد مهدي جالساً في ساحة الدار يحف به أعوانه وجلاوزته، فيعلن السيّد مهدي للرجل أنه يجب أن يدفع حصته من الغرامة، ويحدد الحصة بمبلغ من المال حسب مقدرة الرجل المالية كما يتراءى للسيد مهدي وأعوانه، وتلعب الأهواء والاحقاد والشفاعات دوراً كبيراً في هذا الشأن طبعاً. والرجل قد يحتج أو يعترض، ولكنه مضطر أن يدفع. أما إذا امتنع عن الدفع فإن الجلاوزة يقذفون به الى السرداب، وهو لايمكن أن يخرج من السرداب إلاّ إذا دفع ما فُرض عليه.

انهيار العزائم:

ان سقوط الكوفة في ١٧ تشرين الاول، ثم استسلام النجف في اليوم التالي، كان لها تأثير بالغ في انهيار عزائم الثوار. فقد عاد الكثير من افراد العشائر الى ديارهم، ولم يثبت منهم سوى عدد قليل اتخذوا لهم مواقع في أبوصخير، وكان في مقدمتهم نور الياسري وعبدالواحد الحاج سكر وعلوان الياسري ومحسن أبوطبيخ وشعلان الجبر وعبدزيد وعلي المزعل وجبار أبوخليل.

لم تشأ القيادة الإنكليزية الزحف خلال منطقتي المشخاب والشامية لما تميزت به

هاتان المنطقتان من كثافة الاشجار والأدغال وتشعب قنوات الري، ولهذا عمدت الى قصفها بالطائرات قصفاً مركزاً. وقد نالت أبوصخير وأم البعرور من ذلك القصف النصيب الاكبر.

كان قصف الطائرات علىٰ منطقة أبوصخير بالغ الشدة، وقد استمر ستة أيام. وهذا نص البيان الرسمي الصادر في هذا الشأن: «هجمت الطيارات علىٰ أبوصخير وعلىٰ الحيرة في ٢٣ تشرين الاول، وقذفت عليها طنين ونصف من القنابل ففتكت بها».(١)

ومما يذكر أن سكان أم البعرور كانوا قبل هذا قد اعتادوا علىٰ رؤية الطائرات تحلق فوق بلدتهم دون أن يصيبهم منها أي أذى، فكانوا يخرجون للتفرج عليها كلما سمعوا أزيزها. ولكنهم فوجئوا أخيراً بالقنابل تسقط عليهم، فانهدم بها جانب من السوق وبعض الدور كما أصيب عدد غير قليل من السكان. وظلت الطائرات تواصل القصف ثلاثة ايام. فاجتمع وجهاء البلدة مع بعض رؤساء العشائر القريبة وقرروا عرض «الدخالة» علىٰ الإنكليز، واختاروا لذلك يهودياً من سكان البلدة يعرف اللغة الإنكليزية اسمه «منشي الياهو». وذهب هذا اليهودي بصحبة سلمان العبطان الى الكوفة، وقابلا القائد البريطاني بحضور حميد خان، فأرسل القائد أحد ضباطه الى أم البعرور، وتم بذلك استسلامها.(٢)

صدر بيان رسمي يذكر أسماء الشيوخ الذين سلّموا بدون شرط الى القائد الإنكليزي في الكوفة في ١ تشرين الثاني، وهم: حمود البدن وجاسم الجياد من الحميدات، وجاسم الصعب ومحمد الفليح وحبيب السيّد وادي من العوابد، ومحسن الحاج عبود من بني حسن. وقد ذكر البيان أيضاً أسماء الشيوخ الذين سلّموا في اليوم

---

(١) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٦ تشرين الأول ١٩٢٠.

(٢) - محمد علي كمال الدين «معلومات ومشاهدات»، بغداد ١٩٧١، ص ١١٧ ـ ١١٨.

التالي، وهم: كاظم السيّد نور الياسري، وجعفر أبوطبيخ، وجبار الصالح وحمزة العفريت من العوابد، وعباس العلوان من الكرد، وسلمان الظاهر ومحمد العبطان وسلمان العبطان من الخزاعل، ومراد الخليل من الجبور.[١]

وفي ٥ منه صدر بيان رسمي آخر كان هذا نصه: «لقد صدر العفو عن شيوخ الخزاعل الذين كانوا من جملة الذين سلموا الى الحكومة في الأول والثاني من الشهر الحالي. أما الباقون فقد أرسلوا الى أماكنهم بشروط تفرض تسليم الأسلحة، ويجب عليهم الحضور إذا دُعوا».[٢]

وعلى اثر اطلاق سراح شيوخ الخزاعل ذهب اثنان منهم ـ هما سلمان الظاهر ومحمد العبطان ـ الى أبوصخير، واجتمعا بالرؤساء الذين كانوا مصرين على مواصلة الثورة، وقالا لهم: «نحن واجهنا رجال الإنكليز من عسكريين وملكيين وعرضنا عليهم الطاعة بلا قيد أو شرط وقبولنا وجئنا ننصحكم أن يذهب كل الى أهله ومكانه والله بصير بكم وإلاّ فإن بقاءكم هنا يجلب عليكم الويل والثبور، لأننا بمواجهتنا رجال الدولة استقر حالنا واطمأن بالنا، وكل شيء بعد اليوم لا يرضي الحكومة هو لايرضينا». فسألهما عبدالواحد الحاج سكر: إذا أوعزت الحكومة أن تقاتلونا هل تفعلون ذلك أم لا؟ فكان جوابهما: نعم!..[٣]

ويُروى أن أحد الرؤساء الحاضرين عندما سمع هذه المحاورة أطلق هوسة يعيب الخزاعل بها هي: «من بيعة مكة إلكُم عادة». ومعناها ان خزاعة فعلت مثل هذا في أيام الجاهلية عندما باعت سدانة الكعبة بزق من خمر كما ورد في كتب التاريخ.

يبدو على أي حال ان الرؤساء انقسموا في الرأي على أثر ذلك. فقرر البعض

---

(١) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٥ تشرين الثاني ١٩٢٠.

(٢) – جريدة «الشرق»، في عددها الصادر في ٦ تشرين الثاني ١٩٢٠.

(٣) – فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص ٤٢٢.

منهم الاستسلام للانكليز بينما قرر البعض الآخر الفرار من العراق واللجوء الى الملك حسين في الحجاز.

استسلام عبدالواحد:

كان عبدالواحد الحاج سكر من جملة الذين قرروا الاستسلام للانكليز. ويقال انه كان في أول الأمر قد عزم على اللجوء الى الحجاز، وقد اشترى لهذا الغرض أربعين بعيراً،(١) ولكنه غير رأيه على أثر وصول رسالة إليه من الإنكليز. ويحدثنا عبدالواحد نفسه عن السبب الذي حدا به الى الاستسلام فيقول ما نصه:

«كنت جالساً في محلي بأبي صخير ذات ليلة... أذ أتاني سلطان الموسى حاملاً لي كتاباً مرسلاً بيده من قبل الحاج محسن شلاش الذي تلقاه من حاكم لواء الشامية والنجف ومن قائد قوات الفرات الأوسط فقرأت الكتاب وإذا بهما يقولان فيه ما ملخصه: «احضر عندنا لأجل بعض المذاكرات وأنت أمين بشرف حكومة بريطانيا وبالحظ والبخت تأتي سالماً وتعود غانماً وبوجداننا نحن الموقعين بعد المذاكرة ترجع لمحلك الخ..» وبعد أن قرأت الكتاب وفهمت ما فيه اعتقدت بصحته حيث كان فيه ذلك التعهد وهو «بشرف بريطانيا والحظ والبخت»، فعزمت على الذهاب لمواجهة الحكومة البريطانية...».(٢)

ذهب عبدالواحد الى النجف بصحبة رجلين من أعوانه الذين يعتمد عليهم، فلما وصلوا الى النجف ذهب عبدالواحد الى الضريح الحيدري لأداء الصلاة والزيارة فيه. وحين خرج من الصحن وجد حميد خان ينتظره عند الباب بسيارته، فأخذه هذا الى مقر القائد الكولونيل ووكر في موضع يسمى «البراكية» يقع على بعد أربعة

---

(١) - عبدالشهيد الياسري «المصدر السابق»، ص٢٩٦.

(٢) - فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص٤٣٨.

كيلومترات من الكوفة. وكان الميجر نوربري مع القائد. ولما مدّ عبدالواحد يده لمصافحة القائد قال له القائد وكان يعرف العربية: «أنا لا أمد يدي الى خائن، ولكن لك أمدّها». فقال عبدالواحد: «أنا الخائن؟! أنا لست خائناً». فرد عليه القائد قائلاً: «إذا كنت غير خائن فكيف حاربت الحكومة؟». فأجاب عبدالواحد: «ان الحكومة وعدتنا بالإستقلال ولم تَفِ بوعدها ثم سلطت علينا موظفيها وعاملونا معاملة سيئة ما كنا نعتقد أن الحكومة تعاملنا مثل هذه المعاملة». فقال للقائد: «أنا لست سياسياً، بل أنا عسكري انتقم ممن يخالف الحكومة، وأنت إذا ترغب أن تذهب الى الحاكم العام فانا أهيىء لك ذلك». ثم أمر بارساله الى السجن في الكوفة.[١] ثم صدر في بغداد بلاغ رسمي مؤرخ في ٤ تشرين الثاني ١٩٢٠، هذا نصه:

«سلّم اليوم الى قائد الفرقة في الكوفة تسليماً مطلقاً بدون قيد أو شرط الشيخ عبدالواحد السكر من شيوخ آل فتلة المشهور عنه أنه قائد قوات الثائرين. وقد أسكن في دار في الكوفة يخفره ضباط بريطانيون الى أن تصدر الأوامر في شأنه. وقد سلّم الى الآن بدون شرط أغلب الفخوذ الذين في لواء الشامية ما عدا فخذ بني حسن».[٢]

وقد أعقب تسليم عبدالواحد تسليم الكثيرين من رجال الثورة كان منهم: مجبل الفرعون وتكليف المبدر وكاظم الحاج سكر وعلي المزعل وكاظم الغازي. وفي ٢٦ تشرين الثاني ١٩٢٠ صدر بيان رسمي يعلن انتهاء المعارك في تلك المنطقة، وهذا نصه:

«أذاع قائد الفرقة الـ ١٧ بين أهالي لواء الشامية أن قبائل تلك المنطقة قد سلمت بأجمعها وأعطت عهداً عن عزمها الصادق على انجاز الشروط التي فرضت عليها. وان العداء الذي كان قائماً في تلك المنطقة قد انتهى من تاريخ هذه الاذاعة، ويرغب الأهالي

---

(١) - عبد الشهيد الياسري «المصدر السابق»، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٢) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٩ تشرين الثاني ١٩٢٠.

في الرجوع الى بيوتهم واستئناف أعمالهم بسلام. وينظر الآن الحاكم السياسي هناك في الاقتراحات بشأن شكل الادارة الملكية التي ستتبع في اللواء، وستعرض على المراجع الخاصة، وقد سلمت قبائل الشامية حتى اليوم الـ ٢١ من تشرين الثاني ثمانية آلاف بندقية و ٢٠٠/٠٠٠ خرطوشة، والتسليم مستمر».[١]

سقوط السماوة:

في الوقت الذي كان القتال يجري في المنطقة الشمالية من الفرات الأوسط حول طويريج والكوفة، كان يجري أيضاً في المنطقة الجنوبية منه، أي في منطقة بني حجيم. وتشير القرائن الى أن الجنرال هالدين كان مهتماً بالمنطقة الجنوبية اكثر من اهتمامه بالمنطقة الشمالية، وذلك لما عُرف عن عشائر بني حجيم من شدة المراس والصبر على القتال.

يقول هالدين في كتابه: انه لم يشأ ان ينيط القيادة في المنطقة الجنوبية الى الضباط الذين أرسلتهم الهند الى العراق مؤخراً، إذ هم لم يمارسوا القتال في بلاد العرب، وهو لم يحب أن يترك الأمر للصدفة، ولاسيما في منطقة مهمة كمنطقة بني حجيم، لأن الفشل فيها لابد أن يؤدي الى انتشار الثورة في منطقة الغراف وغيرها. وقد قرر هالدين أخيراً أن يعهد بالقيادة الى الجنرال كونتغهام الذي كان حينذاك مشغولاً بقمع الثورة في ديالى. ويصف هالدين هذا القائد برباطة الجأش والشجاعة وسعة الحيلة. وأرسل إليه برقية يطلب منه العودة الى بغداد في ١٦ ايلول ١٩٢٠.[٢] وقد وصل كونتغهام الى بغداد في اليوم المعين، فأرسله هالدين حالاً الى الناصرية.

كان مجموع القوات التي وصلت الى هالدين حتى ذلك الحين عشرين فوجاً، فجعل ستة عشر فوجاً منها تحت تصرف كونتغهام. وفي ١ تشرين الاول ١٩٢٠

---

(١) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٢٠.

(٢) - Haldane (op. cit) - p.221 - 223.

تحرك كونتنفهام بقواته من أورمتجها نحو الشمال. وفي ٦ منه وصل الى الخضر، وهناك لقي مقاومة من قبل قوة كبيرة من الثوار. ويقول هالدين: ان الثوار انسحبوا بعدما سقط منهم ٤٧ قتيلاً، ولم تخسر القوات الإنكليزية سوى قتيلين وسبعة جرحى.(١)

وفي ٨ منه أرسل كونتنفهام مفارز من الجنود للانتقام من القرى على ضفتي النهر بالقرب من الخضر جزاء ما فعله أهلها بنوتية «غرين فلاي» التي كانت قد جنحت في الطين في ١٠ آب ١٩٢٠. وكانت الطائرات تهاجم جموع الثوار بقنابلها ونيران رشاشاتها أينما وجدتهم. وفي ٩ منه أحرق الجنود قرية لأنهم وجدوا فيها عدة آلاف من خشب سكة الحديد.(٢)

وفي ١٢ منه وصلت القوات الإنكليزية الى مقربة من السماوة، فوجدت جموعاً من الثوار كامنين في بساتين البلدة يُقدَّر عددهم بما يزيد على سبعة آلاف رجل، وكانوا متمركزين في مواقع حصينة. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي تقدمت القوات نحو البلدة فوجدت قوة من الثوار تعترض الطريق ويتراوح عددهم بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ رجل. وفي الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم وصلت الطائرات الى المنطقة وصارت توجه نيران رشاشاتها على الثوار، وذلك بالاضافة الى قصف المدافع لهم. ثم تقدمت القوات الإنكليزية، تغطيها المدفعية، غير أنها لقيت من الثوار مقاومة عنيدة. وظل القتال مستمراً حتى الواحدة والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم. ثم ظهر الوهن على الثوار تحت تأثير القنابل، وأخذوا ينسحبون من مواقعهم بأعداد كبيرة. ويقدّر هالدين عدد قتلاهم بثمانين كان عشرون منهم قد غرقوا في النهر عند محاولتهم عبوره.(٣)

---

(١) - Ibid, p.226.

(٢) - Loc cit.

(٣) - Ibid, p.227.

دخلت القوات الإنكليزية الى السماوة في صباح اليوم التالي ـ أي في ١٤ تشرين الاول ـ فلم تجد فيها اية مقاومة، ووجدتها خالية من السكان ما عدا خمسة وعشرين عربياً ومثلهم من اليهود. وفي الساعة الحادية عشر مساءاً وصل القطار القادم من الجنوب بعد ما تم إصلاح السكة.

وجرى فك الحصار عن الحامية الإنكليزية التي كانت محصورة في شاطيء حسيجة الذي يبعد عن شمال بلدة السماوة بميل ونصف الميل. وكان أفراد الحامية عند فك الحصار عنهم في حالة جيدة وكانت خسائرهم قليلة جداً.

وأرسل هالدين الى وزارة الحرب البريطانية يعلمها بأنه لم يعد في حاجة الى التجدات الاضافية التي تقرر وجوب ارسالها قبل شهرين. وفي ١٨ تشرين الاول وصلت الى هالدين برقية من رئيس أركان الجيش الامبراطوري في لندن هذا نصها:

«تهاني قلبية على انقاذ السماوة وهو الأمر الذي يحسّن الموقف بشكل محسوس ويدل على مزية كبرى تتصف بها القوات التي زحفت وقاتلت في مثل تلك الظروف القاسية».

وقد نشر هالدين هذه البرقية حالاً لمنفعة الجنود. ثم وصلته برقية أخرى من وزير الحربية تشرتشل هذا نصها:

«ان صبركم وثباتكم خلال هذه الشهور الصعبة كان ذا قيمة كبرى، واني اهنئكم على التحسن الواضح في الوضع والذي يعود فضله اليكم».[1]

معركة السوير:

لم تنته الثورة عقب سقوط السماوة في ١٤ تشرين الاول كما ظن الإنكليز. فقد كانت عشائر بني حجيم لاتزال صامدة في شمال السماوة ويبدو عليها أنها مصممة على

---

(١) - Ibid, p. 229 - 230

عرقلة زحف القوات الإنكليزية باتجاه الرميثة.

ظل كوننغهام معسكراً بالقرب من السماوة طيلة النصف الثاني من تشرين الأول. وفي أواخر الشهر قرر اللجوء الى طريق التفاهم والمفاوضة مع الثوار. والمظنون أن أمراً صدر إليه بذلك من بغداد على أثر تشكيل الوزارة النقيبية الاولى في ٢٥ منه.

أرسل كوننغهام رجلاً الى الرميثة يستدعي إليه السيّد محمد السيّد محمود الذي كان قد قام بالوساطة بينه وبين الثوار في تموز الماضي. فوصل السيّد محمد الى مقر كوننغهام في ٣١ تشرين الاول، فكلفه كوننغهام بالذهاب الى الثوار للتفاهم معهم على أساس ان الهدف الذي كافحوا من أجله وهو الإستقلال قد تحقق الآن، وهو يطلب منهم الكف عن القتال ويسألهم ما هي الشروط التي يريدونها من أجل ذلك. فذهب السيّد محمد الى مقر الثوار بالقرب من جسر السوير.[1] الذي يقع على بعد ستة كيلومترات من شمال السماوة. ويحدثنا السيّد محمد عما جرى له في مفاوضاته مع الثوار حسبما رواه فريق المزهر الفرعون على النحو التالي:

«ذهبت الى مقر العشائر في جسر السوير، واجتمعت برؤسائهم، فوجدتهم والحق يقال لايهابون الموت، متعطشين لملاقاة العدو، مؤمنين كل الايمان بانتصارهم. فجمعت الرؤساء وعرضت عليهم ما قاله لي القائد، فرفضوا ذلك الطلب قائلين: لا أمان للانكليز. فطمأنتهم بأن القائد قد تحدث عن الصلح جدياً وهو سوف لايحيد قيد شعرة عن تلبية الشروط التي يريدها الثوار، وانا باعتباري عراقياً مخلصاً أرى من الوطنية انهاء الحرب مع الإنكليز واعطاء حد للتضحية التي كلفت الطرفين الشيء الكثير من القتلى. ولاشك بأنكم تعرفون ان حكومة بريطانيا لاتكل ولاتضجر، كما أن لديها المصانع الغزيرة للاسلحة الفتاكة الكثيرة التي لايملكها الثوار الوطنيون

---

(١) – ورد جسر السوير في الخرائط الإنكليزيّة باسم جسر الامام عبدالله» فيرجى الانتباه الى ذلك.

كالطيارات والمدافع والرشاشات وغير ذلك، كما أن جبهات الثورة الأخرى في الوند والحلة والفلوجة وديالى قد احتلت كلها من الإنكليز. وبعد توسلات وتأكيد رغبة القائد في الصلح تمكنت أن أقنعهم بقبول الصلح، وحملت منهم الشروط بمسودة كتبها أحدهم... فعدت الى القائد وعرضت الشروط عليه، حيث ترجمها له الميجر ديجبرن حاكم الناصرية الذي كان عنده، فوافق القائد عليها على أن يضيف بعض الشروط الخفيفة الأخرى، وقد دوّن شروطه التي ترجمها حاكم الناصرية. وبعد أن عدت بها الى الثوار. تمكنت بعد الأخذ والرد أن أقنعهم بقبولها، فرجعت الى القائد مسروراً بعد أن نجحت في أداء عملي. ولما أخبرت القائد بموافقة الثوار قال: الحمد للّه. ولكن الوقت ضيق فليكن الإجتماع بممثلي الثوار صباح غد للتوقيع على الشروط.[١]

يتضح من هذه الرواية ان الاتفاق قد تم بين كوننغهام والثوار على شروط معينة، ولكن هناك رواية أخرى تشير الى أن كوننغهام رفض أحد الشروط التي قدمها الثوار وهو اعفاءهم من الغرامات، وطلب أن يسلموا ألف بندقية عن كل عشيرة.[٢]

والمظنون ان الرواية الثانية اقرب الى الواقع، ذلك لأن الثوار أخذوا يستعدون بعد المفاوضة لقتال الإنكليز، ويُروى عن شعلان أبوالجون أنه أنشأ هوسة يحث بها الثوار على الثبات في القتال وهي:

بسيه خير يكثّر عسكر وريلات

سوارية وبيادة وفوك طيارات

بعزم اللّه وحيدر أبوالحملات

يتوزع وطروح نشيله

اختار الثوار رجلاً منهم معروفاً بالشجاعة ورباطة الجأش اسمه «برجس

---

(١) – فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣.

(٢) – عبدالشهيد الياسري «المصدر السابق»، ص ٣٢٩.

الجياد»، ويلفظ اسمه محلياً «بريس». واختار هو بدوره سبعين رجلاً انتقاهم من مختلف العشائر اعتماداً علىٰ شجاعتهم وبراعتهم في اصابة الهدف. وتوجه بهم الى نهر جاف بالقرب من جسر السوير، فكمنوا فيه ليرقبوا منه حركات الإنكليز. وأخذ برجس يرسل في الليل أربعة من رجاله بالتناوب ليتحسسوا استعدادات الإنكليز عن كثب.

وقبيل الساعة السادسة من صباح ١٢ تشرين الثاني، بدأت القوات الإنكليزية بالتحرك باتجاه مواقع الثوار. فأمر برجس رجاله بأن يعدوا بنادقهم علىٰ أن يمتنعوا علىٰ اطلاقها إلاّ عندما يأمرهم بذلك، وأوصاهم بأن لايبذروا رصاصهم عبثاً بل يجعلوا لكل رصاصة تنطلق من بنادقهم هدفاً معيناً. وحينما وصلت القوات الإنكليزية الى مقربة منهم أمرهم برجس باطلاق الرصاص.

فبوغتت القوات الإنكليزية بهذه النيران الشديدة التي لم تكن تتوقعها، وحل بها الاضطراب الشديد. ثم جاءت العشائر علىٰ أثر سماعها اطلاق الرصاص. فانضمت الى برجس ورجاله. فوقعت عند ذاك معركة تعد من أكبر معارك الثورة، وهي التي عُرفت بـ«معركة السوير».[1]

ذكرت بعض مصادر الثوار ان عدد قتلى الإنكليز في تلك المعركة بلغ الفاً ومائتين، وقتلى الثوار بلغ خمسمائة.[2] وهذا تقدير لايخلو من مبالغة إنما هو علىٰ أي حال يدل علىٰ ضراوة المعركة وكثرة ضحاياها.

وعلىٰ أثر هذه المعركة عاد الجنرال كوننغهام فأرسل يستدعي إليه السيّد محمد لمفاوضة الثوار من جديد، وكان السيّد محمد حينذاك في السماوة. وقد بذل السيّد محمد

---

(١) – حدثني بذلك السيّد عبدالحميد الياسري.

(٢) – فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص٤٨٦.

جهوداً كثيرة للتوفيق بين الثوار والإنكليز، فكان يذهب ويعود بين مقر الثوار ومقر كوتنغهام مرة بعد مرة الى أن تم له اقرار الصلح بينهما علىٰ أساس الشروط التالية:

أولاً: ان تكون للعراق حكومة عربية مستقلة.

ثانية: أن لايطالب عرب قبائل بني حجيم بكل شيء خسرته الحكومة أثناء الثورة عدا ما تراه أعين رجال الحكومة باقياً في ايديهم.

ثالثاً: أن لايؤدي عرب القبائل المذكورة شيئاً من الضرائب الأميرية لسنة ١٩٢٠ لأنهم لايستطيعون ان يدفعوا هذه الضرائب بسبب ما لحقهم من الأضرار الفادحة من جراء القيام بالثورة.

رابعاً: أن يأخذوا علىٰ عهدتهم محافظة السكة الحديدية التي تمر بهم علىٰ طول منطقتهم.

خامساً: أن يتعهدوا بتوطيد الأمن وحماية السلم في جميع أراضيهم.

سادساً: أن يسلموا الى الحكومة ٢٤٠٠ بندقية.[١]

استسلام أم صلح:

مما يلفت النظر ان معركة السوير التي وصفناها آنفاً نقلاً عن مصادر الثوار لا نجد عنها في المصادر الإنكليزية إلاّ اشارات موجزة توحي للقاريء كأنها من المناوشات البسيطة التي لا أهمية لها. فقد تطرق إليها هالدين في كتابه. كما عرض لها مخططاً، ولكنه صوّرها باعتبارها من الانتصارات التي نالها رتل كوتنغهام علىٰ الثوار.[٢] وقد أشار الى المعركة أيضاً بلاغ رسمي نشرته جريدة «العراق» كان هذا نصه:

«حدث قتال عنيف في يوم ١٢ من هذا الشهر ـ يقصد تشرين الثاني ١٩٢٠ ـ في منطقة الامام عبدالله، وقد هجم بالحراب عند الظهر مقدار ٢٠٠ رجل من الثوار علىٰ

---

(١) ـ محمد المهدي البصير «تاريخ القضية العراقية»، بغداد ١٩٢٣، ص ٢٢٠.

(٢) ـ Haldane (op. cit) - p.280 - 281.

جنود السيك، فكرّ عليهم السيك، لكنهم لم يتلقوا الكرة. وعند الفجر وقع هجوم على مواقع خارجية في ميمنتنا، فتلقته جنودنا بغلالة من نيران رشاشاتنا وبنادقنا. وتقدر خسائر الثوار بنحو خمسين قتيلاً وبكثير من الجرحى. أما مجموع خسائرنا فانها تتراوح بين اربعين وخمسين».(١)

وقد صدر بعدئذٍ بلاغ رسمي آخر كان هذا نصه: «وقع في السماوة في ٢٠ تشرين الثاني ممثلوا القبائل وفخوذها على شروط التسليم، ومن جملتها اعادة ٢٤٠٠ بندقية ويخمن هذا العدد مجموع ما في يد هذه القبائل من البنادق».(٢)

يرجح في ظني ان البلاغ الاخير لايخلو من مغالطة. فهو يصور عشائر بني حجيم كأنها استسلمت للانكليز ووافقت على الشروط المفروضة عليها مثلما فعلت العشائر الاخرى. وهذا أمر يخالف الواقع كما دلّت عليه مختلف الروايات والقرائن.

من الجدير بالذكر أن الإنكليز لم يعتقلوا أحداً من شيوخ بني حجيم على نحو ما فعلوا مع الشيوخ الآخرين، بل تركوهم أحراراً، وهذا دليل على أن الشروط التي اتفقوا عليها مع كوننهام كانت شروط صلح لاشروط استسلام.

وهناك رواية حدثني بها أحد المطلعين تشير الى مثل هذا المعنى هي أن غرامة البنادق التي وردت في شروط الصلح كانت ظاهرية أكثر مما هي حقيقية. ذلك ان الإنكليز قدموا لشيوخ بني حجيم مبالغ نقدية لكي يشتروا بها البنادق ويسلموها إليهم بغية الاعلان عنها أمام الرأي العام. ويُروى أيضاً أن البنادق بالرغم من أنها أشتُريت بأموال الإنكليز لم تُسلَّم اليهم: فانها عندما جمعت في مكان معين لتسليمها، وجاء المكارون لحملها، خرجت فتاة من بنات الشيوخ وهي ناشرة شعرها وهوّست

---

(١) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ١٧ تشرين الثاني ١٩٢٠.

(٢) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٢٠.

قائلة: «يا مجاري بهيده وياهيبة». فتهافت افراد العشائر عند ذلك على البنادق فاختطفوها، ولم يتركوا منها للمكارين نصيباً.

يمكن القول على أي حال أن عشائر بني حجيم هم أبطال ثورة العشرين بلا مراء، وقد تفوقوا في بطولتهم على جميع العشائر العراقية الاخرى. يجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن عشائر بني حجيم هم الذين بدأوا بالثورة في الرميثة في ٣٠ حزيران ١٩٢٠، وظلوا يقاتلون الإنكليز وحدهم طيلة اسبوعين تقريباً دون أن يهبّ أحد من العشائر الاخرى لمساعدتهم أو التخفيف عنهم. أضف الى ذلك ان المعارك التي خاضها بنو حجيم خلال أشهر الثورة كانت أشد ضراوة وأكثر خسائر من جميع معارك الثورة على الاطلاق. وفوق ذلك نجدهم أخيراً لا يتوقفون عن القتال إلاّ بشروط اتفقوا عليها مع الإنكليز ولم تُفرض عليهم فرضاً. تلك مأثرة قلما تضاهيها مأثرة أخرى في ثورة العشرين!

استعراض القوة:

قرر الجنرال هالدين عقب انتهائه من ثورة الفرات الاوسط ان يقوم بنوع من استعراض القوة في منطقة الغراف والمنتفق، فأعد لذلك رتلين كبيرين: أحدهما يتحرك من الناصرية بقيادة الجنرال كوننغهام والآخر يتحرك من الكوت بقيادة الجنرال دنت. وفي ١٦ كانون الثاني ١٩٢١ تحرك رتل دنت. وبعد يومين تحرك رتل كوننغهام. وقد صحب خيون العبيد هذا الرتل الأخير مع بعض أتباعه.

لم يلق الرتلان في طريقهما اية مقاومة. وفي ٢٣ كانون الثاني التق الرتلان في قرية الكرادي التي تعرف الآن باسم «الرفاعي». ويقول هالدين في التعليق على ذلك: ان الحركات المشتركة التي قام بها رتلا كوننغهام ودنت كان لها تأثير عميق في العشائر القاطنة في تلك المنطقة، فقد رأت هذه العشائر اننا نملك جنوداً، وأنها قد غُرّر بها بواسطة الدعاية المعادية لنا فارتابت في مدى قوتنا. ومما قوى هذا التأثير في العشائر

وجود القطعات الكثيرة من الخيالة والمدفعية، وسعة المعسكرات التي كانت تحل فيها، وتحليق الطائرات المتكررة فوقها. وقد حدث ماكنا نتوقع فعلاً حيث ازداد نفوذ العشائر التي كانت مواليه لنا في أيام الثورة.[١]

وبعد مدة قصيرة وصلت الى هالدين من لندن هذه البرقية:

«ببالغ الطمأنينة والرضا تلق مجلس الجيش تقريراً يفيد أن حركات الثورة القائمة قد انتهت. انه يزجي اليكم التهاني على النجاح الذي تكلل به اضطلاعكم بهذه المهمة الصعبة، ويزجي التهاني أيضاً الى ضباط الأركان والقوات التي تحت امرتكم».[٢]

---

(١) - Haldane (op. cit) - p.288 - 295.

(٢) - Ibid, p.297.

الفصل الثامن

استفحال البداوة في الفرات الأعلى

في الوقت الذي انتهت فيه الثورة وشمل الهدوء مختلف أنحاء العراق بقيت منطقة واحدة لم يشملها الهدوء هي منطقة الفرات الاعلىٰ التي تقع الى الشمال من هيت. ويبدو أن الإنكليز لم تكن لديهم قوات زائدة يوجهونها الى تلك المنطقة، أو لعلهم اعتبروا المنطقة غير مهمة من الناحية العسكرية فتركوا أمرها الى الحكومة العراقية التي كانت آنذاك في طور التأسيس.

ظلت تلك المنطقة بضعة عشر شهراً في وضع اجتماعي سماه سكان المنطقة بعهد «الفلت»، وهو عهد استفحلت فيه القيم البدوية، واختنق نفوذ السلطة المركزية، وأصبح البقاء فيه لمن هو قوي في نفسه وعشيرته. أما من لاعشيرة له فيجب أن يتكاتب مع احدى العشائر القوية لكي تحميه علىٰ اساس المنفعة المتبادلة بينه وبينها: فهي من جانبها تأخذ بثأره إذا قُتل، وهو من جانبه يقاتل معها ضد أعدائها ويساهم في أداء ما يُفرض عليها من ديات ومغارم.

من الجدير بالذكر بوجه عام ان منطقة الفرات الاعلىٰ هي أشد مناطق العراق قرباً الى روح البداوة وقيمها. ويُعزى ذلك الى سببين، أولهما: أنها من المناطق «القاصية» حسب تعبير ابن خلدون ـ أي بعيدة عن مركز الحكومة نسبياً. والثاني أنها محاطة من كلا جانبيها بالصحراء التي تعج بالقبائل البدوية وشبه البدوية. فهي محاطة من جهة الشرق ببادية «الجزيرة» التي تقطنها قبيلة شمر. ويصف تقرير

بريطاني هذه القبيلة بأنها جاءت الى العراق من نجد في بداية القرن التاسع عشر، ولكنها ظلت حتى عهد الاحتلال تشبه أقرباءها في نجد، إذ هي بدوية رحالة معظم أفرادها يرعون الابل، وقليل منهم يرعون الاغنام، ولا يشتغلون فى الزراعة أو بأي عمل آخر.[1]

أما من جهة الغرب فإن المنطقة محاطة ببادية الشام الواسعة التي تقطنها قبيلة عنزة. ويصف تقرير بريطاني هذه القبيلة بأنها بدوية تجوب الصحراء طلباً للكلأ والماء، ولها عداء تقليدي مع شمر، وقد استمرت المنازعات بين القبيلتين اكثر من ١٥٠ سنة.[2]

أما المنطقة نفسها فتسكنها قبيلة الدليم، وهي جاءت الى العراق قبل شمر، ولهذا كانت في عهد الاحتلال في مرحلة وسطى بين البداوة والحضارة، فكان نصفها تقريباً يعمل بالزراعة بينما النصف الآخر يربي الاغنام ويرعى الابل في الصحراء على جانبي الفرات.[3]

كانت منطقة الفرات الأعلى في العهد التركي طريقاً للسفر والنقل التجاري بين العراق وسوريا وتركيا. وكانت العشائر تفرض الأتاوة على المسافرين والتجار الذين يمرون بديرتهم. وكان ذلك عرفاً مقبولاً لايستنكره أحد. نجد وصفاً للوضع الاجتماعي في هذه المنطقة في أواخر القرن التاسع عشر كتبه القنصل الالماني ببغداد الهر فردريك روزن. فقد سافر هذا الرجل بشختور من دير الزور في ٢٧ آذار ١٨٩٨ متجهاً نحو الفلوجة. وهو يقول في وصف ما شاهده على ضفتي الفرات ما نصه:

«... وقد مررنا ببعض القرى الكبيرة ولكنها كانت قليلة متباعدة. وأحياناً كنا

---

(١) - عبدالجليل الطاهر «العشائر والسياسة»، بغداد ١٩٥٨، ص ١٥٣ ـ ١٥٦.

(٢) - المصدر السابق، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) - المصدر السابق، ص ٥١.

تصادف ناعوراً يشق بصريره المرتفع سكان البرية الكئيبة المهجورة. ولكن الأوشال التي يحملها لم تكن لتكفي إلاّ لسقي حاشية صغيرة من الأرض في نهاية الأخاديد التي شقها النهر. ومهما جنى الفلاحون المساكين أنصاف البدو من أتعابهم في الزراعة، فإن عليهم أن يشركوا في غلتهم البدو الذين يتنقلون في الصحراء لاقتناص (الخاوة) من المقيمين، فضلاً عن الضرائب الثقيلة التي تجبيها منهم الحملات الحكومية. وكانت البلاد بصورة عامة مهجورة، حتىٰ لقد رأينا كثيراً من الخنازير البرية تنزل الى الشاطيء لارواء عطشها».[١]

ويصف القنصل كيف هاجمت شختوره جماعة من عشيرة «أبوحمام» في الطريق بين دير الزور وعانة. فهم يريدون منه دفع الاتاوة وهو يرفض دفعها، وقد أحاطوا بشختوره وهم يسبحون في النهر بمساعدة الأجربة المنفوخة، ويحملون في ايديهم الرماح والمقاوير، وكان رئيسهم يهزج بانشودة الحرب قائلاً: «اللّه قوينا عليهم»، فيردد اتباعه بعده: «يارب قوينا عليهم». وكادت تقع معركة بينهم وبين رجال الدرك الذين كانوا يصحبون القنصل، لو لم يتدخل صاحب شختور كان قريباً منهم، فتوسط بين الفريقين. ولم يتمكن شختور القنصل من النجاة إلاّ بصعوبة بالغة.

ويذكر القنصل ان أصحابه حرضوه فيما بعدعلىٰ تقديم الشكوى الى الحكومة علىٰ عشيرة أبوحمام، ولكنه لم يفعل لأن الشكوى لن تؤدي ـ علىٰ حد تعبيره ـ إلاّ الى تجريد حملة من الجنود والمتطوعين الذين سيعتصرون آخر قرش من أولئك البائسين الذين كانوا في فقر شديد. ويقول القنصل عن تلك العشيرة انهم أنصاف بدو ولكنهم يمارسون شيئاً من الزراعة في البقعة التي ينحسر عنها النهر عند انخفاض مياهه، وهم يجبون الاتاوة من جميع السفن المارة بهم، كما أنهم بدورهم يدفعون

---

(١) ـ نجدة فتحي صفوة «العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب»، بيروت ١٩٦٩، ص٤٨ ـ ٤٩.

الاتاوة الى القبيلتين البدويتين القويتين ـ شمر على الضفة اليسرى من النهر، وعنزة على الضفة اليمنى منه ـ فضلاً عن الضرائب التي يدفعونها الى الحكومة.[1]

حادثة في عانة:

أشرنا في فصل سابق الى العداء القديم الذي كان موجوداً بين عانة وراوة. ولاحاجة بنا الى القول ان هذا العداء لابد أن يزداد شدة في عهد «الفلت» الذي تحدثنا عنه، وهو العهد الذي استفحلت فيه القيم البدوية فانتعشت الاحقاد القديمة وتحركت نزعة الأخذ بالثأر واظهار القوة على الاعداء.

بذل الشيخ علي السليمان جهوداً كثيرة للاصلاح بين الفريقين، وربما فعل ذلك بايعاز من الإنكليز لأن مصلحتهم كانت تستدعي استتباب الأمن في تلك المنطقة. فقد نشرت جريدة «العراق» مقالاً في موضوع الصلح بين عانة وراوة نسبته الى مراسلها هنالك، كان عنوانه «نبأ من الدليم»، وهذا نصه: «ان مآثر حضرة علي السليمان شيخ مشايخ الدليم وأعماله الحسنة قد أصبحت معروفة وفوق ذلك فإن شيوخ الأعراب في عانة وراوة وما حولها قدمت على يديه الطاعة وحسن الانقياد وبواسطته طلبت قدوم الحكومة ووجودها في تلك الجهة. ولايخفى ما في ذلك من الفضل وحسم النزاع كما ان فيه أمن للبلاد وحقن للدماء. وسيتقدم قضاء الدليم بمساعي هذا الشيخ الجليل هذه السنة تقدماً باهراً خصوصاً في زراعته وتجارته التي تتوسع كل يوم وتخطو خطوة واسعة الى الامام. هذا وقد وقفت على صورة عريضتين ممتعتين رفعها كبار بعض العشائر والاهالي الى حضرة الشيخ علي السليمان عرضوا فيهما المعذرة والصفح عما ظهر منهم من التقصير وابانوا ما انتابهم من المشقات وما كابدوه من المؤلمات، وقدموا طاعتهم وتسليم أمرهم إليه سائلين اياه أن يشملهم بعنايته ويفكر في مصالحهم

---

(١) - المصدر السابق، ص ٥٢ ـ ٥٣.

ويمدهم بآرائه، ثم طلبوا إليه أن يقدم إليهم ليقف على حالتهم بنفسه ويسبر غورهم. وقد كانت العريضة الاولى موقعة بامضاءات الآتية أسماؤهم: عبدالجادر، حمادي، عبدالعزيز العواد، علي الحاج حسين، الحاج محيسن، السيّد مصطفى اليوسف، السيّد حسان آل فتيان، الحاج شاهر، الحاج حسين الحاج تمو، علي بن محمد. والثانية بامضاءات الآتية أسماؤهم وقد قالوا باسم العموم: السيّد حسان، سري محمد سعد، الحاج حسن...».[1] يبدو ان جهود الشيخ عليالسليمان انتهت الى شيء من النجاح في الاصلاح بين أهل عانة وراوة، فصار الفريقان يتزاوران، وبدأت العلاقات بينهم تسير في سبيل التحسن شيئاً فشيئاً. ولكن ذلك لم يدم طويلاً. فقد حدثت حادثة في عانة أدت الى انتعاش العداء من جديد وعاد النزاع بين الفريقين الى ما كان عليه سابقاً.

خلاصة الحادثة ان شجاراً وقع في محلة دلي علي بين جماعة من الراويين كان على رأسهم عباس الحاج بجول، وبين أحمد العمر الذي كان من سكنة المحلة. فاستنجد أحمد العمر بأهل المحلة على خصومه، وصاحت النساء على عادتهن في مثل هذه الحالة. وكان أحمد العمر يحمل بندقية في يده فأطلق منها طلقة قتلت رجلاً من الراويين كان سائراً في طريقه اسمه محمد الحمد ويلقب بـ«أبوسن». أما عباس الحاج بجول وأصحابه فقد أسرعوا ملتجئين الى بيوت الراويين الساكنين في عانة واحتموا بهم. ولما سمع أهل راوة بالحادث استثارتهم الحمية وصمموا على الأخذ بثأر قتيلهم محمد الحمد. جاء إليهم نجرس الكمود لتهدئتهم وتعهد لهم بتسليم القاتل. كما جاء إليهم محمد الفتيان والحاج محيسن والسيّد داود العبدالله وغيرهم ينصحونهم بالهدوء، فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً.[2] استدعى الراويون رجلاً منهم له خبرة بالمدفعية اسمه عواد اليعقوب الخالد من ألبوعبيد، بغية قصف عانة بالمدفع الموجود لديهم والذي

---

(١) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٩ شباط ١٩٢١.

(٢) - نقلاً عن كتاب السيّد جمال الراوي «تاريخ راوة» المخطوط.

كان منصوباً فوق تل بالقرب من القلعة مقابل محلة دلي علي.[١] وقد أطلق الرجل من المدفع قنبلة سقطت على مضيف الحاج محمد رئيس المحلة. ويقال ان الشيخ علي السليمان كان في المضيف عند سقوط القنبلة، فأسرع الى الخروج منه حافياً تاركاً حذاءه وراءه من شدة الفزع.[٢]

كان عواد اليعقوب الخالد عازماً على مواصلة قصف عانة بمدفعه، ولكن محمد الفتيان تمكن من ردعه، حيث وضع بدنه أمام فوهة المدفع، وقيل انه أدخل رأسه في الفوهة، فاضطر عواد الى التوقف عن اطلاق القنابل. ثم عبر الراويون النهر وهاجموا محلة دلي علي، ونشب قتال عنيف بين الفريقين سقط فيه عدد غير قليل من القتلى والجرحى. ولكن أحمد العمر الذي كان سبب الحادثة استطاع أن ينجو بنفسه حيث فر الى بغداد، وقد استوطن فيها بعدئذ، ولم يعد الى عانة.[٣]

انذار العمري:

كان متصرف لواء الرمادي حينذاك رجل من آل العمري ذو ثقافة ملائية من الطراز القديم، وكان مولعاً بالسجع في كتاباته. فلما وصل إليه خبر الحادثة أرسل الى الراويين انذار ننقله فيما يلي بنصه لما فيه من طرافة:

بسم الله الرحمن الرحيم

العدد: ١١٦٩.

التاريخ: رجب ١٣٣٩ هـ ـ مارت ١٩٢١ م.

الموضوع: انذار

من محمد رشيد العمري متصرف الحكومة المفخمة العربية للواء الدليم

---

(١) – حدثني بذلك أحمد مالك الفتيان.

(٢) – حدثني بذلك السيّد أحمد الراوي.

(٣) – نقلاً عن «تاريخ راوة» المخطوط.

الى الراويين الطاغين الباغين المغرورين. إنما الدين النصيحة.

ايها الراويين. حتىٰ متىٰ وانتم مصرين علىٰ الضلال، الذي عاقبته عليكم خزي ووبال. أوما يكفيكم بغيكم وتعندكم مع اخوانكم المطيعين. فيكون معلوماً لديكم ان الحكومة المفخمة العربية التي تشد ازرها وتعاضدها الحكومة البريطانية، ولعل منكم رشيد يرشدكم الى سبيل الرشاد، وإلاّ فالحكومة المفخمة المشار إليها ليست غافلة ولا عاجزة عن تعاطي الازمة بحقكم. فإني رشيد ارشدكم لطريق نجاحكم وتأمين مستقبلكم. هذه رقابكم تحت ظل جناح الحكومة وعرض الطاعة. وأما المدفع الذي عندكم فليس يدفع شدة البطش وبأس الحكومة عليكم. ساعة أقدم تسلمون الى معتمد الحكومة في قضاء عانة لكي تسلمون. فيا أيها الراويين، أنتم نيام أو مجانين، أما رأيتم أو سمعتم اقتدار سلطة الحكومة وافعالها وانتقامها وترغيبها وترهيبها، فاذا كان غروركم في نجرس فهو رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، والمرقوم ابن كعود له يوم مؤجل موعود. ايها الراويين الباغين. من يوم وصولي لمركز اللواء هو الرمادي دائماً، اسمع عنكم حركات وتهاجم ونهب، وغصب أموال ومواشي، وتهديد لعانة من مدفعكم الذي لايسمن ولايغني من جوع، فهذا غروركم فاجعة عليكم، فإن لم تطيعوا وتخضعوا وتسلموا المدفع للحكومة كما حررنا فيكون محققاً عندكم ان الموت الذي تفرون منه فهو ملاقيكم.

ايها الراويين الشريرين. محتمل أن تثبتوا بانكم مغررين، فكيف يصدق ذلك منكم وإلى هذه الدقيقة لم تراجعوا في شيء، وهذا دليل واضح كاف بأنكم خائفين، والخائن خائف.

ايها الراويين المغرورين المنكوبين الحظ، لاتعاندوا من إذا قال فعل، وأطيعوا اللّه والرسول وأولي الأمر منكم. اني أنصحكم باسم الحكومة المعظمة العربية أن تستغفروا اللّه وتعرضوا الطاعة والانقياد، وان بقيتم مصرين علىٰ ضلالكم القديم

فالويل لكم والويل عليكم، ولابد من تعقيبكم وترتيبكم، فتبصروا وتنوروا. ان الطيارات إذا زُفعت، والسيارات إذا سُيِّرت، وإذا المدافع زحفت، وإذا الرشاشات نُصبت، مقابل اطفالكم وأهلكم إذا استعملت، فذلك يوم عسير، على المتمردين غير يسير.

فيا ايها الراويين اسمعوا وأجيبوا الجواب، وبسرعة تسليم المدافع أوقع، والدخالة الى الحكومة القاهرة انفع. ولكم ذلك من تاريخه الى مدة ثمانية ايام، ان لم تطيعوا وتلبوا فلابد من أن يحيطكم غضب الله، وبعد لاينفعكم الندم. وقد أعذر من انذر.

محمد رشيد العمري - متصرف لواء الدليم(١)

انذار جديد:

عينت الحكومة سليمان افندي الدخيل قائمقاماً لعانة. وفي ٦ نيسان ١٩٢١ ذكرت جريدة «العراق» تقول: ان الاحوال تحسنت في عانة واستقرت الأمور، وتصالح العانيون والراويون، وسيذهب قائمقام عانة الى مقره قريباً. وفي ٥ أيار كتبت الجريدة نفسها بعنوان «تنظيم الحكومة في عانة» ما نصه:

«سار في الاسبوع الماضي مشاور متصرف الدليم ومعه قائمقام عانة الى تلك البلدة ونظم الحكومة فيها. وقد جاء إليها أهالي راوة وأعربوا عن خضوعهم وسلموها مدفعاً كانوا قد غنموه. وبعد أن أتم المشاور أعماله في عانة قفل راجعاً وعين ممثلاً للحكومة في حديثه. وقد وافتنا الانباء تُشعر ان الأمن والنظام عادا الى نصابهما في تلك الربوع واستتب الأمن في الطريق بين هيت وعانة»

وفي ١٤ حزيران كتبت الجريدة مرة أخرى تؤكد على استتباب الأمن في تلك المنطقة حيث قالت ما نصه:

---

(١) - نقلاً عن نسخة أعارني اياها خيري العمري، وله الشكر.

«كان قد فر كثير من الناس من عانة الى بغداد في زمن الاضطراب الذي حدث هناك وهجوم الراويين. والآن قد عاد هؤلاء الى مواطنهم بعد أن خيمت السكينة واستتب الأمن هناك. وقد وردت منهم رسائل تنبيء عن استقرار الحالة الهادئة هناك، وقد أثنوا فيها على سهر سليمان أفندي الدخيل قائم مقام عانة وعنايته الكبرى بمصالح الاهالي وسعيه في جلب السعادة لهم».

«وفي ١٨ تموز عادت الجريدة فكتبت تمدح قائمقام عانة سليمان افندي الدخيل على تنظيم شؤون المنطقة وربط قلوب الاهالي بعضهم ببعض حتى أوجبت أتعابه في هذا الشأن الثناء الطيب. ثم قالت الجريدة: «فنحن لانستغرب ذلك من وطنينا الهمام ونسأل له اطراد التقدم والفلاح جزاه الله خيراً».

يبدو أن ما ذكرته جريدة «العراق» عن استتباب الأمن كان مقتصراً على بلدة عانة وحدها، أما راوة فظلت على وضعها السابق. ففي ١٨ ايلول ١٩٢١ وجه مستشار لواء الدليم الى الراويين انذاراً جديداً، كان هذا نصه:

اخطار لأهالي راوة:

بما أن أهل راوة قد عصوا أوامري وأوامر مأموري الحكومة الآخرين مراراً عديدة، وقد أطلقوا عيارات نارية على افراد شرطة العراق، وقد آووا عندهم جماعات من الغزاة المعادين للحكومة، وقد برهنوا بوجه العموم أنهم غير مطيعين لأوامر الحكومة، فعلى أهالي راوة أن تعلم الآن ان الحكومة سوف لاتتحمل عصيان كهذا، مع أن الحكومة صبرت عليهم في الماضي وعاملتهم بكل حلم أملاً أن يخضعوا للأوامر وان يسلكوا مسالك السلام والسكينة، وحتى الآن الحكومة ترغب راحة الأهالي ولكن يجب على الاهالي المحافظين على السكينة أن ينهوا هذه الاعمال المخلة بالأمن العام لأن ذلك خيراً لهم، لأن الحكومة قد صممت أن تضع حداً لكل هذه الاعمال. وعليه فإننا نأمر أهالي راوة بما يأتي:

١ ـ ان يسلموا للحكومة حالاً الاشخاص المذكورة اسماؤهم أدناه من عشيرة السواهيك: علي المحمد وعبدالعزيز المحمد وعبدالحميد المحمد وسلومي المحمود ومصلح المحمود ويعقوب الحسن وعباس الحاج مجول وحسين اليوسف وجبير الحاج شاهر. ومن عشيرة السراحنة: جاسم المحمد أخ مدّ اللّه ونزال ابن الفاعور.

٢ ـ أن يسلموا للحكومة ثمانمائة بندقية جيدة ويجب أن يكون نصفها من الطراز الجديد (أم مخزن).

٣ ـ ان يدفعوا جزاءاً قدره عشرين الف روبية؛ ان الوقت المسموح به لأهالي راوة للقيام بما طلب منهم، أي إذا لم يدفعوا هذه الجزاءات ولم يسلموا الاشخاص المذكورة أسماؤهم اعلاه، قبل فجر ٢٤ سيتمبر ٩٢٢ فإني سأطلب من قائد القوة العسكرية الموجود الآن هنا مع القوة أن يستعمل كل الوسائط التي بيده لتنفيذ أوامر الحكومة لأن الحكومة مصممة أن تحصل على الطاعة وأنها لا تحجم أن تتخذ أشد الوسائل للحصول عليها.

عن متصرف لواء الدليم ـ (توقيع الانكليزي)

لقد تسلم في الساعة الثانية عشر عربية صباحاً في ٢١ ايلول سنة ٩٢٢[١]

حادثة جديدة:

على أثر هذا الانذار الأخير قرر الراويون مراجعة المسؤولين في بغداد لحل قضيتهم حلاً نهائياً. فتألف وفد منهم يضم ثمانية عشر رجلاً من رؤسائهم. وغادر الوفد راوه متجهاً نحو الرمادي بمحاذاة ضفة الفرات اليسرى أي في جهة الجزيرة. ولكنهم حين وصلوا الى موضع يدعى «أبوخربية» يقع بين راوة وحديثة، وكان الوقت فجراً، وتوقفوا لأداء صلاة الصبح. وبينما هم في الصلاة هاجمهم غفلة عدد من الخيالة مطلقين عليهم الرصاص، فقتلوا ثلاثة منهم، هم: الحاج شاهر اللافي

---

(١) ـ نقلاً عن نسخة أعارني اياها خيري العمري.

وعبدالعزيز العواد وعبدالرحمن صالح العزاوي، وجرحوا ستة كان منهم السيّد داود العبدالله والحاج علي العبد والحاج خضر ومظهور العبدالله. ونهبوا كل ما كان لدى الراويين من نقود وأمتعة وحيوانات، وكان أحد الجرحى وهو السيّد داود العبد الله قد أصيب في خصيته، ومات بعد مدة متأثراً من جراحه، وهو من أقرباء الشيخ محسن الراوي.

اشارت جريدة «العراق» الى هذه الحادثة وذكرت ان المعتدين كانوا أربعين رجلاً هم من عشيرة البو محل مع بعض الاشخاص من بيت دلي علي والعانيين.(١) ولكن الجريدة استدركت بعد أيام فنشرت التوضيح التالي:

«نشرنا من قبل في جريدتنا عن نهب بعض الراويين الذين كانوا قاصدين العاصمة وقتل بعضهم. وقد اتصل بنا اليوم من مصدر وثيق أن الاشخاص الذين اتهمهم الراويون في الامر من العانيين كانوا لدى وقوع الحادثة في الرمادي، وقد اعترف الشيخ علي السليمان بأن تبعة هذه الحادثة تقع على الدليم جماعة عفتان الشرجي، والحكومة آخذة في التحقيق في القضية، وسنرى النتيجة بعد ذلك أما عفتان الشرجي نفسه فلم يكن حاضراً في تلك الواقعة».(٢)

أرسل السيّد أحمد الراوي الى جريدة «العراق» تصحيحاً لهذا التوضيح، فنشرته الجريدة، وهذا نصه: «أن قتل رؤساء الراويين كان بأيدي بعض أفراد من بيت دلي علي وعلي المطلق وافراد من عشيرة البو محل من الدليم. وان الذين شاهدوا الجريمة يعرفونهم بأسمائهم واشخاصهم يزيدون على الخمسة عشر شخصاً سواء من الذين سُلبت أموالهم وهم سالمون، أو من المجروحين، هذا علاوة على معرفة البو نمر وغيرهم ذلك مما يدل على موافقة بيان الراويين للحقيقة وعدم اتهامهم الابرياء. انهم

---

(١) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ١١ تشرين الأوّل ١٩٢١.

(٢) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢ تشرين الثاني ١٩٢١.

اسندوا الاشتراك بالجرم الى اناس هم ليسوا من بيت دلي علي مثل فارس البشور وعدم التعرض بكثير من بيت دلي علي المعروفين عندهم».(١)

حادثة ثالثة:

يبدو أن حادثة «أبوخريبة» جعلت الراويين يتحفزون لأخذ الثأر من العانيين، وصاروا يتحينون الفرصة له. وقد سنحت الفرصة لهم في آذار ١٩٢٢. حيث هاجم الراويون بضعة شخاتير كانت تحمل بعض العانيين مع بضائع لهم. وفيما يلي ننقل ما ذكرته جريدة «العراق» حول هذا الحادث بعنوان «أخبار قضاء عانة»:

«جاء عن اخبار ذلك القضاء ان شخاتير كانت آتية من دير الزور تحمل أموالاً ونساءاً ولما وصلت مقابل راوة هجم عليها بعض الراويين واطلقوا عليها الرصاص وقتلوا أحد العانيين المسمى حسن بن حاج هاشم من محلة حقون وأخذوا المال الذي في الشخاتير ويظهر من الأخبار التي جاءت ان الموقف هناك سيصبح حرجاً جداً إذا لم تسرع الحكومة باتخاذ التدابير اللازمة لسرعة حسم هذا النزاع الذي تزيده الحوادث والايام بين الطرفين تحكماً وصعوبة خصوصاً والعشائر التي تقطن في تلك الاطراف أصبحت على مقربة من تلك البلاد».(٢)

انبرى للرد على هذا الخبر الذي نشرته جريدة «العراق» رجلان من الراويين هما: شويش الهويدي والحاج عبدالحميد. وقد نشرا ردهما في جريدة «الإستقلال» بعنوان: «رد تهمة». وهذا نصه:

«حضرة الفاضل صاحب جريدة العراق المحترم»

«قرأنا في جريدتكم الغراء المؤرخة في ٢٣ مارت مقالاً مفاده اسناد تهمة السلب

---

(١) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ١٥ تشرين الثاني ١٩٢١.

(٢) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٣ آذار ١٩٢١.

وقطع الطريق الى الراويين وحيث أننا قد أطلعنا على تلك الواقعة تماماً فيسرنا أن نخبركم ومن يهمه الامر ان المسألة ليست كما أخبرتم به بل غاية ما هناك أن شختوراً أقلع من دير الزور قاصداً عانة ولما أن مر من الحدود (اي حدود العراق وسورية) هاجمته عصابة من البدو على مسافة مرحلة من راوة الى الشمال وأنذروا أصحاب الشختور بأن يتقدموا الى الساحل ولما لم يمتثلوا أمرهم اطلقوا عليهم طلقات نارية اصابت أحد الركاب ومضى الشختور في طريقه سالماً بلانهب ولا سلب ولاخبر للراويين عن كل هذه الحوادث بل أن فاعليها من رجال القبائل النازلة بين وديان خزكة الى القائم وهم عنزة وشمر ودليم وغير ذلك.

«وقد اهتمت حكومة عانة بذلك ولدى الفحص والتدقيق تبيّن أن المسألة بدوية لا راوية. وقائمقام القضاء يشهد بذلك. هذا ونرجو من أرباب الصحف الحرة أن يتفكروا ملياً عند نشر أمثال هذه الفقرات التي قد تؤدي الى تكوين سوء التفاهم والشحناء بين سكنة بلدتين طالما سمع الناس بما وقع بينهما من القتال الذي أحدثه اهل النفاق. وتفضلوا بقبول احترامنا».[1]

تصدى للرد على هذا البيان رجل من عانة اسمه «عبدالوهاب العامل»، ونشر رده في جريدة «العراق» تحت عنوان «اثبات حقيقة»، وهذا نصه:

«قرأت في عدد ٦٦ من جريدة الإستقلال رداً على ما نشر في جريدتكم بشأن القتيل العاني، وحيث أن ما نشرتموه صحيحاً يثبت ذلك ما كتبه وكيل القائمقام وحضرة القاضي ابراهيم ناجي أفندي عن هذه الحادثة، وعن التي قبلها أيضاً. وقد حول ذلك سعادة متصرف اللواء الى الداخلية رقم ١٢٤١ ـ على ما نظن ـ فاذا أراد الراويون أن يعرفوا ذلك يمكنهم ان يقفوا على الحقيقة بواسطة وزارة الداخلية لأن ما

---

(١) ـ جريدة «الإستقلال»، في عددها الصادر في ٢٧ آذار ١٩٢٢.

كتبه وكيل القائمقام اضيف الى الأوراق السابقة. وليحيط قراء جريدتكم علماً بادرت بالتصديق واثبات الخبر».(١)

انتهاء الازمة:

اضطرت الحكومة أخيراً الى توجيه قوة عسكرية الى راوة بقيادة نوري السعيد. وكانت القوة مؤلفة من فوج مشاة وسرية خيالة ومدفعين مع اثنتي عشرة طائرة انكليزية. عسكرت القوة على الضفة اليمنى من نهر الفرات تجاه راوة، وأخذت الطائرات تلقي على راوة مناشير تدعوهم الى التسليم، كما ألقت عليهم بعض القنابل. وقد التجأ الراويون الى مغارة قريبة للوقاية من قنابل الطائرات، ولم يصب منهم سوى حمار ورجل عاني كان هناك لغرض التجسس.(٢)

حاول نوري السعيد حل القضية سلماً بدون اللجوء الى استعمال السلاح. واستدعى إليه جميل الحسين الحاج علي من رؤساء راوة ليكون واسطة بينه وبين الراويين. وقد بذل الشيخ محسن الراوي جهده للتوفيق بين الفريقين. وحصل الاتفاق أخيراً على تخفيض عدد البنادق المطلوبة من الراويين من ثمانمائة الى اربعمائة. وتم تسليم الاشخاص المذكورة اسماؤهم في انذار الأخير، وسيقوا مخفورين الى بغداد.(٣) وقد تشفع لهم الشيخ ابراهيم الراوي ـ وهو أخو الشيخ محسن ـ لدى الملك فيصل، حيث ذكر له انهم من الذين شاركوا في ثورة العشرين. فأصدر الملك عنهم عفواً خاصاً، وأطلق سراحهم.

ومن الجدير بالذكر ان الراويين ساهموا جميعاً في دفع الغرامة التي فُرضت على بلدتهم حتى الذين كانوا يقيمون في بغداد أو غيرها منهم. حدثني السيد أحمد الراوي:

---

(١) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٨ آذار ١٩٢٢.

(٢) - حدثني بذلك مهدي الرحال وكان من الضباط المشاركين في تلك الحملة.

(٣) - نقلاً عن كتاب «تاريخ راوة» المخطوط.

أن اسرته دفعت نصيبها من الغرامة بالرغم من أنها كانت تسكن بغداد منذ مدة طويلة. وتلك عادة عشائرية لابد من الإلتزام بها.

وفي ١ أيار ١٩٢٢ عُين لعانة قائمقام جديد هو عارف حكمت بك.[١] وفي ١٥ منه ذكرت جريدة «العراق» تقول ان الأمن قد استتب تماماً في منطقة عانة بهمة خلف بك السعيد البكر البكباشي مأمور مركز شرطة عانة.

---

(١) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢ أيار ١٩٢٢.

الفصل التاسع

مصائر رجال الثورة:

على اثر انتهاء الثورة تشتت رجالها، فنهم من استسلم للانكليز، ومنهم من اختفى أو هرب الى خارج العراق، ومنهم من لقى مصيراً آخر. وسنحاول في هذا الفصل ذكر ماجرى لهم بمقدار ما حصلنا عليه من معلومات عنهم.

في سجن الحلة:

ان الذين استسلموا الى الإنكليز من رجال الثورة أطلق سراح البعض منهم حالاً بينما أودع البعض الآخر في سجن الحلة. وقد بلغ عدد الذين ضمهم سجن الحلة ثلاثة وثلاثين. وهم فئتان: وجهاء المدن وشيوخ العشائر. وفيما يلي أسماؤهم:

وجهاء المدن: هبة الدين الشهرستاني، حسين الددة، حسين القزويني، محمد الكشميري، عبدالوهاب الوهاب، طليفح الحسون، عبدالرحمن العواد، عبدالجليل العواد، أمين كرماشة،عبدالرسول تويج، نجم العبود، محسن العامري.

شيوخ العشائر: سلمان البراك، شخير الهيمص، دليمي البراك، سلمان الكعيد، سلمان الفاضل، دوهان الحسن، عمران الحاج سعدون، علوان الشلال، سماوي الجلوب، عبدالواحد الحاج سكر، خادم الغازي، عبادي الحسين، خضير العاصي، متعب الشاني، عبود العنين، حمود الصليلي، ابراهيم السماوي، علي المزعل، محسن العباس، فرحان الدبي.

ويُلاحظ ان الشيخ محمد حسن أبوالمحاسن كان من جملة الذين جرى تسليمهم

في كربلاء، ولكنه لم يودع كزملائه في سجن الحلة، بل أودع في سجن طويريج لسبب لانعرفه، ثم اطلق سراحه بعد بضعة أسابيع.[١] اما الذين أودعوا في سجن الحلة فقد مكثوا فيه حتى صدور العفو العام في ٣٠ أيار ١٩٢١ حيث أطلق سراحهم جميعاً.

ومن الطريف ان نذكر في هذه المناسبة ان السيّد هبة الدين الشهرستاني نظم في سجن الحلة أرجوزة اشار فيها الى أسماء الذين كانوا معه في السجن. ننقلها فيما يلي بنصها:

هاك أسامي نخبة الآفاق	من حوكموا في نهضة العراق
سبع وعشرون شيوخ رؤسا	وستة من نسل أصحاب الكسا
هم هبة الدين لأجل الدين	وحبرنا الحسين من قزوين
والسيّد الوهاب مظهر الإبا	والهادي للحق الزويني نسبا
والمرشد الحسين من نسل الدده	خاتمهم محمد ذو المحمده
أحصي الشيوخ كمنازل القمر	هذا الدليمي وذاك المفتخر
اشخيّر من آل أبوسلطان	ثم الفتى أمين أبونعمان
ثلاثة اسمهم سلمان	والمحسنان والفتى دوهان
عمران ذاك الصارم المصقول	علوان فيهم سيفنا المسلول
والبر نجم كالسماوي العابد	ولافتى حر كعبيد الواحد
عليّ المزعل للاعادي	كخادم الغازي كذا عبادي
خضيّر العاصي عن التسليم	والشهم من كان كابراهيم
طليفح الحر كذا فرحان	متعب أعدانا هو الرحمن
عبدالجليل صنوه العواد	والتاج عبد للرسول الهادي

---

(١) – سلمان هادي الطعمة «ابوالمحاسن»، كربلاء ١٩٦٢، ص٨

وابـــــن عـــــنيّن اسمـــه عـــبود   وابن الصـلبلي الفتى محمود[١]

مصير البغداديين:

ان البغداديين من رجال الثورة قد لجأوا الى النجف عقب سقوط طويريج في ١٢ تشرين الاول ١٩٢٠ ـ كما اشرنا إليه في فصل سابق ـ ولكنهم لم يمكثوا في النجف سوى يومين، إذ هم اضطروا الى مغادرتها عقب سقوط الكفل في ١٤ منه. فذهبوا الى أبوصخير غير أنهم لم يجدوا فيها أمناً لشدة قصف الطائرات لها. فاضطروا الى مغادرتها حيث ذهبوا الى مضيف عبدالواحد في المشخاب. وقد وصف لنا علي البازركان ما جرى له بعد مغادرته النجف حيث قال: «.. وعندما اجتزت سور مدينة النجف الأشرف شاهدت السيّد جعفر أبوطبيخ يهم بركوب عربة بسيطة يجرها حيوان واحد. فطلبت منه الركوب معه فوافق، وقد ركب معنا رجال ونساء. فوصلنا الى ابي صخير ليلاً، وحينما اشرقت الشمس صباح اليوم التالي حلقت فوقنا عدة طائرات انكليزية فأمطرتنا بقنابلها، وبقينا يومين في ابي صخير. ولما جاءنا خبر سقوط النجف الأشرف اضطررنا الى مغادرة القصبة المذكورة انا وشاكر محمود والسيّد عبدالرزاق الهاشمي فركبنا كعداً ـ أي زورقاً ـ وتوجهنا الى مضيف عبدالواحد الحاج سكر، وقد التحق بنا كل من يوسف السويدي والسيّد محمد الصدر وحسين علوان وعارف حكمت (الملقب زابون) ومحمود رامز ومحمد جعفر أبوالتمن وغيرهم. وكأن الطائرات الإنكليزية علمت بوجودنا هناك فحلقت فوقنا والقت قنبلتين جرحت واحدة منها حانوتياً قرب المضيف، والأخرى سقطت في النهر. وعندئذ توجهنا نحو مضيف الشيخ مزهر الفرعون على نهر أبوصفصافة...».[٢]

---

(١) ـ ابراهيم الوائلي «ثورة العشرين في الشعر العراقي»، بغداد ١٩٦٨، ص١١٦ ـ ١١٩.

(٢) ـ علي البازركان «الوقائع الحقيقية»، بغداد ١٩٥٤، ص٢٠٧.

ويروي البازركان حادثة جرت في مضيف الشيخ مزهر الفرعون في اثناء مكوثهم فيه، خلاصتها ان أمين الجرجفجي امين صندوق حزب الحرس في بغداد أرسل الى يوسف السويدي ومحمد الصدر مبلغاً من مال الحزب لمساعدتهم به قدره أربعمائة ليرة ذهب، ولما علم حسين علوان بوصول المبلغ اليهما طالبهما به قائلاً حسب رواية البازركان: «يجب أن تعطونا من النقود التي جاءتكم إذ معنا علي البازركان وقد حكمت عليه السلطة الإنكليزية بالاعدام، أو خذوه معكم لانقاذه من الإنكليز لأنه أحق بالسفر منكم، وان لم تفعلوا فإن قتلكم جائز». وكانت مع حسين علوان قنبلة يدوية، وهمّ بالقائها عليهما، غير أن سرتيب ابن صاحب المضيف أمسك يده ومنعه من القاء القنبلة.(١)

لم يبق البغداديون في مضيف الشيخ مزهر طويلاً، وقد تفرقوا، فالتجأ فريق منهم الى مضيف السيّد نور الياسري في المشخاب، والتجأ فريق آخر الى مضيف السيّد هادي المقوطر في الشنافية. وقد اجتمع الذين التجأوا الى مضيف السيّد هادي، فأخرج كل واحد منهم ماعنده من النقود، ووضعوا النقود كلها أمامهم لاقتسامها بينهم بالتساوي، فكان نصيب كل واحد منهم ليرتين أو عشرة مجيديات. ثم غادروا الشنافية بعد هذا، فذهب كل فريق منهم الى الجهة التي يأمل أن يجد السلامة فيها.(٢)

اتجه جميل قبطان وعبدالحميد الحريري واسماعيل حقي الأغا وداود السامرائي نحو البصرة عن طريق النهر، واتجه حسين علوان نحو البصرة أيضاً غير أنه سلك طريق البر، وصار راعياً للابل لدى بعض الاعراب.(٣) وعاد عارف حكمت الى

---

(١) - المصدر السابق، ص١٧٦، ٢١٢.

(٢) - المصدر السابق، ص٢١٢.

(٣) - تحسين العسكري «الثورة العربيّة الكبرى»، النجف ١٩٣٨، ج٢، ص١٩١.

بغداد فألقي القبض عليه وسجن لمدة ثلاثة أشهر، ثم نُفي بعدئذٍ الى الفاو.[١]

قرر ثلاثة من البغداديين الالتجاء الى الحجاز، وهم: علي البازركان واسماعيل كنة وعبدالرزاق الهاشمي. وفي ٢٢ تشرين الاول ١٩٢٠ غادروا الشنافية برفقة دليل بدوي. فوصلوا الى حائل. ومن هناك سافر كل منهم على حدة. ويحدثنا علي البازركان عن متاعب رحلته بعد مغادرته حائل، فيقول مانصه:

«وأنا تركت حائل وتوجهت نحو المدينة المنورة مع خوي (دليل)، وأثناء الطريق خرجوا علينا شمر آل عطا من الاخوان، فسلبوني أنا وخوي، وبقينا نطوي الارض على أرجلنا لمدة سبعة أيام حتى وصلنا المدينة المنورة عراة حفاة كما خلقنا اللّه، وكذلك دون أن نذوق أي طعام أو شراب عدى أكل بعض الحشائش في الطريق. كل ذلك يهون في سبيل خدمة الوطن ولكن...».[٢]

أما يوسف السويدي ومحمد الصدر فقد استأجرا ذلولين بمائة واربعين ليرة، ودليلاً من البدو بستين ليرة، ثم رحلا الى الشام عن طريق الفرات.[٣] وعندما وصلا في طريقهما الى راوة نزلا في تكية الشيخ محسن الراوي وفي ضيافته. وقد مكثا في راوة سبعة ايام. ثم غادراها مع نفر من الراويين بصحبة قافلة متوجهة الى الشام. وفي الطريق هاجم القافلة غزاة من البدو ونهبوا أمتعتها، غير أن السيّد فتيخ من رجال راوة تمكن من استعادة المنهوبات لها.[٤]

---

(١) – محمود فهمي درويش «الدليل العراقي الرسمي»، بغداد ١٩٣٦، ص ٨٩٧.

(٢) – علي البازركان «المصدر السابق»، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٣) – المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٤) – نقلاً عن كتاب السيّد جمال الراوي المخطوط «تاريخ راوة».

اللاجئون الى الحجاز:

ان الذين قرروا الالتجاء الى الحجاز من قادة الفرات الاوسط هم: السيّد نور الياسري والسيّد علوان الياسري والسيّد محسن أبوطبيخ والسيّد هادي المقوطر ومرزوق العواد وشعلان الجبر ورايع العطية وصلال الفاضل ومهدي الفاضل وعلوان الحاج سعدون وعمران الحاج سعدون. وقد انضم إليهم من الكربلائيين المرزا أحمد الآخوند الخراساني، ومن البغداديين جعفر أبوالتمن ومحمود رامز وزكي أمين المدفعي وشاكر القرغولي.

كان السيّد نور الياسري ذا عائلة كبيرة جداً لأنه كان مزواجاً.[١] وقد أعد ١٣٠ بعيراً وعدداً من الخيل لحمل من اختارهم من افراد عائلته مع خدمهم وعبيدهم الذين زاد عددهم على الثمانين، ولكن بعض أصحابه اشاروا عليه بتقليص العدد لطول الطريق وصعوبته، فعمل باشارتهم.[٢]

تحركت قافلة اللاجئين من الشنافية في أواخر عام ١٩٢٠. وحين وصلت الى مقربة من نقرة السلمان وصلتهم رسائل من بعض علماء النجف ومن الميجر نوربري يطلبون منهم العودة الى العراق. وقد تعهد لهم نوربري بأنهم سوف لايصيبهم أي سوء، غير أنهم رفضوا الاستجابة لهذا الطلب، ماعدا واحداً منهم هو عمران الحاج سعدون حيث قرر العودة، وعند وصوله الى النجف اعتقله الانكليز وأودعوه في سجن الحلة.

عند وصول قافلة اللاجئين الى بلدة حائل استقبلهم أميرها عبدالله بن رشيد باللطف والترحاب. وكان في البلدة تاجر نجفي اسمه الحاج محمد معلة، وقد بذل هذا

---

(١) – قيل ان زوجات السيّد نور بلغ عددهن ٣٩ زوجة، وكان له عند وفاته ٢٣ ولداً ذكراً و١٨ بنتاً.

(٢) – عبدالشهيد الياسري «البطولة في ثورة العشرين»، النجف ١٩٦٦، ص٣٠٥.

الرجل جهده في مساعدتهم وتوفير مايحتاجون اليه، ومكثوا في حائل نحو أربعين يوماً. كتبوا الى الملك حسين في مكة يخبرونه بقدومهم اليه. فأجابهم انه يرحب بهم كل الترحيب، وطلب من ابن رشيد ان يبعث معهم حرساً لحمايتهم في الطريق من غارات «الاخوان» الذين دأبوا على نهب المسافرين وقتلهم. وفي ١٠ آذار ١٩٢١ غادرت قافلة اللاجئين متوجهة نحو المدينة.

كان السيّد نور يحمل معه عشرين ألف ليرة ذهب، وخشي أن ينهبها «الاخوان» كلها. فأودع جزءاً منها لدى الحاج محمد معلة من باب الاحتياط، وقدره ثلاثة آلاف ليرة، وأخذ الباقي معه.[١]

امتنع علوان الحاج سعدون عن مرافقة القافلة، وقرر الرحيل مع عشائر شمر الى الجوف.[٢] وقد حاول اصحابه اقناعه بمرافقتهم دون جدوى، وحصلت من جراء ذلك مشادة بينه وبين السيّد علوان الياسري.[٣] وقد اقترض مبلغاً من المال من الحاج محمد معلة. ويدّعي الحاج محمد إن علوان لم يدفع له المبلغ بعدئذ.[٤]

سارت قافلة اللاجئين في طريق غير مطروق خوفاً من «الاخوان»، ونالوا من ذلك الكثير من المشقة والعطش. واستغرقت رحلتهم الى المدينة ٢٧ يوماً مع العلم ان الابل تقطع تلك المسافة في الظروف الاعتيادية بعشرة أيام. وقد وصلوا الى المدينة في ٥ نيسان ١٩٢١.

خرج لاستقبالهم على بعد عشرين كيلومتراً من المدينة جمع غفير من الناس كان في مقدمتهم جميل الراوي وابراهيم الراوي، وكانا يومذاك ضابطين في الجيش

---

(١) - المصدر السابق، ص ٣٣٥.

(٢) - فراتي «على هامش الثورة العراقية الكبرى»، بغداد ١٩٥٢ - ص ١٣.

(٣) - عبدالشهيد الياسري «المصدر السابق»، ص ٣٣٦.

(٤) - علي البازركان «المصدر السابق»، ص ٢١١.

الحجازي. كما كان من بين المستقبلين تاجر نجفي يسكن الحجاز اسمه السيّد عمران الحبوبي. وعند وصولهم الى باب المدينة أطلقت المدافع احدى وعشرين طلقة احتفاءاً بهم. وقد خصص لكل واحد منهم دار خاصة به لسكناه. وكانت الدار المخصصة للسيد نور الياسري تقع في حارة النخاولة، وهم من الشيعة الأثني عشرية، وقد أقام السيّد نور في تلك الدار تعزية حسينية لمدة عشرة أيام.[١]

غادروا المدينة في ١٨ نيسان بصحبة حرس خاص متوجهين الى مكة. وكان الطريق بين مكة والمدينة في تلك الايام غير مأمون إذ كان معرضاً لغارات قبيلة حرب، وكانت هذه القبيلة تنقم علىٰ الملك حسين لأنه لم يدفع لها الاتاوة المخصصة لها في ذلك العام. ولهذا اتخذت قافلة اللاجئين طريقها الى مكة بمحاذاة الساحل. ولكنهم مع ذلك لم يسلموا من تحرش القبيلة، فقد فاجأتهم تلك القبيلة فجراً علىٰ بعد مرحلتين من المدينة، وحصرتهم في وادي ضيق. فخرج إليها رجال الحرس وأخبروها بأن القافلة فيها رجال غرباء من العراق وأنهم ضيوف جلالة الملك حسين. فكان جواب القبيلة: «نحن نعلم أنهم من العراق ولكننا نريد قتلهم لأنهم ضيوف حسين». وبعد أخذ ورد بين رجال الحرس والقبيلة حصل الاتفاق علىٰ دفع أتاوة لها مقدارها خمسمائة ليرة ذهب. وقد دفع اللاجئون الأتاوة مرغمين.[٢]

وصلوا مكة في صباح ٢٢ شعبان ١٣٣٩ هـ وهو يوافق ١ أيار ١٩٢١ م، فوجدوا مكة في زينة احتفاءاً بمقدم فيصل الذي كان قد وصل إليها من لندن قبل يومين. وبعدما قاموا بالطواف حول الكعبة كما يجب نزلوا في دور كانت معدة لهم. وقبيل الظهر جاءهم عبدالله المضايفي يقول لهم: «سيدنا الملك يطلب ملاقاتكم في البلاط». فذهبوا جميعاً الى القصر الملكي وأدخلوا عليه في غرفة خاصة تسمى

---

(١) - عبدالشهيد الياسري «المصدر السابق»، ص٣٢٧.

(٢) - نقلاً عن مذكرات السيّد محسن أبوطبيخ المخطوطة.

«الخلوان» أي غرفة المذاكرات الخصوصية. وقد جاملهم الملك مرحباً بهم، ثم قال لهم: ابشركم، فقد قررت الحكومة البريطانية اعطاءكم الإستقلال والعفو عنكم والسماح لكم بالعودة الى العراق. ثم أخذ الملك يحدثهم عن الثورة التي قام بها ضد الأتراك خلال الحرب، وعن الغاية المقصودة منها وهي استقلال البلاد العربية، وقال: ان البلاد العربية توزعت عليه وعلى أولاده، فهو في الحجاز على أن يخلفه ابنه علي بعد موته، وفيصل في سوريا، وعبدالله في العراق، وزيد في اليمن. ثم استدرك الملك قائلاً: ان مشكلة ظهرت اخيراً حيث وقع خلاف شخصي بين فيصل والفرنسيين مما أدى الى خروج فيصل من سوريا، وقد راجعنا الحلفاء من أجل حل هذه المشكلة فكان جوابهم: ان الفرنسيين لايرضون بعودة فيصل الى سوريا، وان لا حلّ للمشكلة الاّ عن طريق تبادل التيجان بين الأخوين، فيكون فيصل ملكاً للعراق، وعبدالله ملكاً لسوريا. ثم التفت الملك نحوهم وقال: ان حل المشكلة في أيديكم، فأنتم قد ناديتم في ثورتكم باسم عبدالله، فاذا تنازلتم عن ذلك وقبلتم بفيصل لعرش العراق بدلاً من عبدالله صار في مقدورنا اقناع الفرنسيين بقبول عبدالله لعرش سوريا.

أجابوه جميعاً بلسان واحد أنهم موافقون، وقالوا: «ان أي واحد من انجالكم تختارونه لعرش العراق فهو على رؤوسنا وعيوننا». فقال لهم: «ان شهر رمضان قريب فصوموه عندنا، وعندما يحل اليوم الثالث من عيد الفطر خذوا مليككم واذهبوا الى بلادكم سالمين».[١]

الخلاف بين اللاجئين:

مكث اللاجئون في مكة طيلة شهر رمضان، وقد بدأ رمضان عامذاك في ٩ أيار ١٩٢١. وكان الملك حسين يدعوهم لتناول طعام الافطار عنده في ليلة الجمعة من كل

---

(١) – نقلاً عن مذكرات السيد محسن أبوطبيخ المخطوطة.

أسبوع. ولوحظ أنه كان يولي السيّد نوري الياسري رعاية خاصة لكبر سنّه ولأنه كان مصاباً بداء المفاصل، فكان يرسل إليه في كل مرة فرساً من أفراسه الملكية لنقله الى قصره.

حصل شيء من الخصومة أو الخلاف في الرأي بينهم في اثناء مكوثهم في مكة.[١] وليس لدينا معرفة موثوقة عن سبب هذا الخلاف، وقد عثرت في مذكرات السيّد محسن أبوطبيخ على وجهة نظره في ذلك، حيث قال:

«عند مكوثنا في مكة علمت أنا وجعفر أبوالتمن ان فيصل اتفق مع الإنكليز على وضع العراق تحت انتدابهم. فقررنا مقابلة الملك حسين للاستفسار منه. وعند اجتماعنا بالملك في منزله الخاص سألناه: هل سيكون استقلال العراق تاماً أم مقيداً؟ فأجابنا: ان الإستقلال سيكون مقيداً بالانتداب الى أن يدخل العراق عصبة الأمم وعندئذٍ سيزول الانتداب عنه. فلم نعلق على كلام الملك إلاّ بكلمة واحدة هي خير ان شاء الله. ثم خرجنا من عنده وذهبنا للإجتماع بأصحابنا في بيت السيّد نور، ولما أخبرناهم بكلام الملك حدث بينهم جدال وأخذ ورد، وارتأى فريق منهم أن يمتنعوا عن الذهاب مع فيصل الى العراق لكي لايؤاخذهم الشعب بعدئذٍ على موافقتهم على الانتداب، بينما ارتأى الفريق الآخر الموافقة على الذهاب...».[٢]

هذا هو رأي السيّد محسن أبوطبيخ في سبب الخلاف بين اللاجئين. والواقع أن هناك رأياً آخر في هذا الشأن حدثني به السيّد عبدالحميد الياسري نقلاً عن أبيه السيّد علوان، فهو يقول: ان موضوع الانتداب ربما كان السبب الظاهري للخلاف بينهم، أما السبب الحقيقي فهو أعمق من ذلك، إذ هو نشأ من جراء تنافسهم على الرئاسة، وهو تنافس طبيعي كان موجوداً بينهم في أيام الثورة وقبلها، ولكنه اشتد في

---

(١) – علي البازركان «المصدر السابق»، ص١٥٨.

(٢) – نقلاً عن مذكرات السيّد محسن أبوطبيخ المخطوطة.

مكة عندما صار الملك حسين يولي السيّد نور رعاية خاصة، فقد امتعض السيّد محسن أبوطبيخ من ذلك، وبذلك انقسم اللاجئون الى فريقين: أحدهما انحاز الى السيّد نور والآخر انحاز الى السيّد محسن.

كان فيصل يرغب في ان يذهب الى العراق وفي رفقته اللاجئون كلهم لكي يكون ذلك بمثابة الدعاية الحسنة له أمام العراقيين، ولكن اربعة منهم خيبوا ظنه إذ امتنعوا عن مرافقته وهم: السيّد محسن أبوطبيخ وجعفر أبوالتمن ورائع العطية ومرزوق العواد. كان عذرهم أنهم يريدون أداء فريضة الحج الذي كان موسمه قريباً. ويُروى أن جعفر أبوالتمن قال لفيصل: «أرجو أن تعفيني من أن اكون من زفافة هذا العرس».[1]

غادر فيصل ومن معه ميناء جدة على ظهر الطراد البريطاني «نورث بروك» في ١٢ حزيران ١٩٢١، فوصلوا البصرة في ٢٣ منه. ثم وصل فيصل الى بغداد في ٢٩ منه. أما الأربعة الذين تخلفوا فقد عادوا الى العراق بعد أداء فريضة الحج، فوصلوا البصرة في أوائل ايلول ١٩٢١. ونشرت جريدة «العراق» تقول: ان الحاج جعفر أبوالتمن سيصل الى بغداد بالقطار في صباح الجمعة القادمة ـ ١٦ ايلول ـ وان وفداً مؤلفاً من ثلاثة عشر شخصاً قد سافر الى البصرة لاستقباله، كما أن وفداً آخر سيسافر الى الحلة للغرض نفسه.[2]

وفي صباح ١٦ ايلول وصل الحاج جعفر بالقطار فجرى له في المحطة بالكرخ استقبال كبير شارك فيه تلاميذ مدرستي الجعفرية والحسينية، ونُحرت تحت قدميه الذبائح، ثم حملته سيارة مزينة الى داره في محلة «صبابيغ الآل» تبعتها سيارات المستقبلين.[3] وكان أهل المحلة قد نصبوا له أقواس النصر، كما غصت الدار بالمهنئين.

---

(١) ـ جريدة «المستقبل»، في عددها الصادر في ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٢.

(٢) ـ جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ١٣ ايلول ١٩٢١.

(٣) ـ جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ١٧ ايلول ١٩٢١.

والق الشيخ مهدي البصير قصيدة كان هذا مطلعها:

طـرقت بغداد والاقبال مقتبل   فعش لشعبك واسلم ايها البطل[١]

وبعد يومين وصل الى بغداد اثنان آخران منهم هما: السـيّد محسـن أبـوطبيخ ومرزوق العواد.[٢] ولاندري لماذا لم يصل الأربعة الى بغداد سويّة، وهل كـان ذلك بسبب خلاف جديد بينهم؟!

مصير عبدالواحد:

ذكرنا في فصل سابق كيف استسلم عبدالواحد للانكليز في ٤ تـشرين الثاني ١٩٢٠ وأودعوه رهن الاعتقال في الكوفة. وقد مكث عبدالواحد معتقلاً في الكوفة عدة أيام، ثم نُقل بعدئذٍ الى الحلة، ثم أعـيد الى النـجف حـيث قُـدم أمـام محـكمة عـسكرية.

وجه رئيس المحكمة الى عبدالواحد عدة اسئلة كان من بينها: لماذا اعلنتم الثورة؟ ومن هم شركاؤكم فيها؟ ومن أين جئتم بالاسلحة؟ والواقع ان موقف عبدالواحـد أثناء المحاكمة كان صلباً وشجاعاً، وقد اعترف بأنه هو المسؤول وحده عـن قـيام الثورة، إذ لم يقم بها أحد غيره، وليس لأحد غيره ذنب. أما الاسلحة فقد اشتروها من الجزيرة العربية. وحين سأله رئيس المحكمة عن مصدر الأموال التي اشتروا بهـا تلك الاسلحة، أجاب قائلاً: أنها من أموال الضرائب التي لم يدفعوها الى الحكومة، فهم قد احتفظوا بتلك الاموال واشتروا بها الاسلحة.[٣]

وقد أفاض عبدالواحد خلال المحاكمة في شرح الدوافع التي دفعتهم الى الثورة،

---

(١) - عبدالرزاق عبدالدراجي «جعفر أبوالتمن»، رسالة جامعيّة غير مطبوعة، ص ١٣٤.

(٢) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٠ ايلول ١٩٢١.

(٣) - عبدالشهيد الياسري «المصدر السابق»، ص ٢٠٠.

حيث وضع اللوم كله علىٰ الموظفين البريطانيين ووصفهم بأنهم عاملوا العراقيين بقسوة مع العلم ان الحكومة البريطانية كانت قد وعدتهم مراراً بالإستقلال التام. ثم قال: بدلاً من انجاز تلك الوعود جرىٰ نفي العلماء والرؤساء الى خارج العراق، واصبح كل عراقي غير آمن علىٰ نفسه وماله. ولما أخذ العراقيون يطالبون الحكومة بانجاز الوعود مطالبة سلمية وجّه الموظفون إليهم الحملات العسكرية، وصاروا يقتلون فيه ويحرقون ويحبسون وينفون، فاضطر العراقيون الى الدفاع بسلاحهم عن حياتهم وشرفهم.[١]

وبعد الانتهاء من سماع أقواله أصدرت المحكمة حكمها عليه بالنفي الى خارج العراق. ثم سيق الى الحلة فأودع في سجنها مع المعتقلين الآخرين.

كان المعتقلون في الحلة يعيشون في داخل السجن بملابسهم ويتزاورون فيما بينهم. أما عبدالواحد فقد ميّزه الإنكليز عنهم بالباسه ملابس السجناء العاديين ووضع سلسلة حديدية في قدميه. وقد تذمر عبدالواحد من ذلك كل التذمر، وخاصة من السلسلة الحديدية التي كانت تمنعه من اداء الصلاة كما ينبغي، مع العلم أنه كثير التهجد في صلاته.

انتهز عبدالواحد زيارة أحد الضباط البريطانيين للسجن، فصار يشكو له من هذه المعاملة، وذكر له كيف أنه سلّم نفسه بعد أن جاءه تعهد من الإنكليز بشرف بريطانيا وبالحظ والبخت علىٰ أن لايمسوه بسوء. وتساءل عبدالواحد: أين هو شرف بريطانيا؟! فطلب الضابط منه أن يريه ورقة التعهد، فأخرجها عبدالواحد اليه، فقرأها الضابط ثم طواها ووضعها في جيبه، وخرج. وفي اليوم التالي عاد الضابط الى السجن ومعه حداد، وأمر الحداد بكسر السلسلة عن قدمي عبدالواحد، كما أمر بالباسه

---

(١) – فريق المزهر الفرعون «الحقائق الناصعة»، بغداد ١٩٥٢، ص ٤٤٢.

الملابس الاعتيادية.[١] نُقل عبدالواحد بعدئذٍ الى سجن بغداد، وقد زاره في السجن بعض الضباط البريطانيين كان من بينهم الكابتن لايل الذي كان علىٰ معرفة سابقة به عندما كان يعمل في أبوصخير. وقد أبدى لايل نحو عبدالواحد كثيراً من اللطف والمجاملة. ويقول عبدالواحد في وصف لايل: «فشكرته وسأبق اشكره كلما ذكرته مادمت حيّاً إذ أنه أول رجل بريطاني منصف في نظري».[٢]

وفي ٢٥ كانون الثاني ١٩٢١ قام بزيارة عبدالواحد في السجن ضابط بريطاني برتبة كولونيل، واخرج له من جيبه صيغة عريضة طالباً منه أن ينسخ العريضة حرفياً ويوقعها ليقدمها هو الى المندوب السامي.

وكان فحوىٰ العريضة: «إنني ثرت اجابة لرغبة عشائري الذين ثاروا اجابة لفتوى رجال الدين كما أنني مرتبط بوجوب الاستجابة دينياً للفتاوى هذه». وقد تردد عبدالواحد في كتابة هذه العريضة في البداية، ثم وافق أخيراً.

وبعد أيام قليلة جاء إليه في السجن عبدالعزيز المظفر ومعه الكابتن لايل وأخذاه الى مكتب السيّد طالب النقيب الذي كان يومذاك وزيراً للداخلية. وعند دخول عبدالواحد على السيّد طالب قال له هذا: «ان الحكومة قررت أن تبعدك الى البصرة». فحاول عبدالواحد اقناعه بابقائه في بغداد، ولكن السيّد طالب أصر علىٰ نقله الى البصرة. ثم اوعز بنقله الى محطة القطار حالاً.[٣]

يعتقد عبدالواحد ان الإنكليز كانوا يريدون اطلاق سراحه غير أن السيّد طالب هو الذي منع من ذلك. وهو يروي في ذلك قصة لها دلالتها هي أنه بعد خروجه من مكتب السيّد طالب سأله الضابط البريطاني الذي كان معه: «ماذا يريد منك

---

(١) – المصدر السابق، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥.

(٢) – المصدر السابق، ص ٤٤٥.

(٣) – المصدر السابق، ص ٤٤٦.

الوزير؟»، ولما علم الضابط بأن السيّد طالب يريد تسفيره الى البصرة حالاً قال:

«ما قيمة أمر هذا الوزير»، ثم أخذ الضابط يذم السيّد طالب بكلمات نابية وقال: «ان السيّد طالب سيلاقي عقابه الصارم علىٰ تهوراته الكثيرة».[١]

عندما وصل عبدالواحد الى البصرة أسكن في دار تحت رقابة الشرطة، بحيث أنه لم يكن يستطيع الخروج من الدار إلاّ بإذن منها. وقد لقي عبدالواحد من أهل البصرة كل حفاوة وتكريم. وزاره في داره الشيخ خزعل أميرالمحمرة. فرد عبدالواحد الزيارة له بعد أن أخذ الاذن من حاكم البصرة. ثم جاء إليه وفد من قبل أميرالكويت الشيخ أحمد الصباح وقدم له ألف ليرة ذهب، ودعاه باسم الشعب الكويتي وأميره لزيارة الكويت. فاعتذر عبدالواحد عن قبوله المبلغ مع ابداء الشكر والامتنان.[٢]

مصائر خمسة:

استطاع اثنان من رجال الثورة أن يفرا الى راوة. هما: فيصل المغير رئيس عشيرة الجحيش، وعلوان الشلال رئيس البومحيي، وكان مع علوان أهله وعشرون من أتباعه، ونزلوا جميعاً في تكية الشيخ محسن الراوي.

ظل فيصل المغير في راوة حتىٰ اعلان العفو العام في ٣٠ أيار ١٩٢١. أما علوان الشلال فقد بقي في راوة نحو شهر واحد، ثم غادرها مع أهله وأتباعه، وصار يتنقل في البادية. وحين وصل الى مقربة من كربلاء اتصل بفخري كمونة وكان صديقاً له فأشار عليه فخري بالتسليم للانكليز. فسلّم الى الكابتن استن في المسيّب، وأرسل من هناك الى سجن الحلّة.[٣] ونشرت جريدة «العراق» بياناً رسمياً ذكرت فيه ان علوان

---

(١) ـ عبدالشهيد الياسري «المصدر السابق»، ص٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٢) ـ فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص٤٤٧.

(٣) ـ فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص٥٨٣ ـ ٥٨٤.

الشلال أعلن خضوعه للحكومة في الاول من شهر شباط ١٩٢١.[١]

تمكن اثنان آخران من رجال الثورة أن يفرا الى ايران هما: السيّد قاطع العوادي والسيّد أبوالقاسم الكاشاني. وقد ظل العوادي في ايران حتىٰ اعلان العفو العام، فعادالى العراق، وقيل انه في اثناء اقامته في طهران اتصل بالقنصل الروسي، فطلب القنصل منه الذهاب الى موسكو، ولكنه لم يذهب.[٢]

أما الكاشاني فقد فرّ الى ايران قبل انتهاء الثورة والمظنون ان قادة الثورة أرسلوه الى طهران لكي يقابل سفراء الدول الأجنبية فيها للمطالبة باستقلال العراق. وقد حمل الكاشاني معه وثيقتين تخولانه الكلام بالنيابة عنهم احداهما موقعه من قبل الشيخ فتح اللّه الاصفهاني، والثانية موقعه من قبل بعض الرؤساء.[٣] ومن الجدير بالذكر ان الكاشاني لم يعد الى العراق بعدئذٍ، بلّ ظل مقيماً فيها طيلة حياته، واشتغل في السياسة الايرانية وأصبحت له شهرة عريضة في عهد مصدق كما هو معروف.

ولابد هنا من التطرق الى السيّد صالح الحلي، وهو الخطيب الحسيني الذي كانت له يد في التحريض علىٰ الثورة في بعقوبة. فقد ألقى الإنكليز عليه القبض قبيل اندلاع الثورة في تلك البلدة وارسلوه مخفوراً الى البصرة،ومنها أركبوه باخرة متجهة الى الهند. فلما وصلت الباخرة الى مقربة من قصر الشيخ خزعل في الفيلية أخذ السيّد صالح يستغيث بأعلىٰ صوته صارخاً: «واخزعلاه!». ولم يكد الشيخ خزعل يسمع صوت الاستغاثة حتىٰ أرسل نفراً من رجاله الى الباخرة، فأخذوا السيّد صالح منها عنوة وجاؤوا به الى القصر. وقد بقي السيّد صالح في ضيافة الشيخ خزعل وحمايته

---

(١) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ١٤ شباط ١٩٢١.

(٢) – عبدالرزاق الحسني «الثورة العراقيّة الكبرىٰ»، صيدا ١٩٧٢، ص٢٠٤.

(٣) – مجلة «رسالة الشرق الكربلائيّة»، في عددها الصادر في ١٥ شعبان ١٩٧٣ م.

بضعة أشهر.(١) وبعد انتهاء الثورة تشفع له خزعل لدى الإنكليز فعاد الى العراق.

مصير الأيوبي:

في صيف ١٩٢٠ كان في دير الزور عدد غير قليل من العراقيين ضباطاً وجنوداً برئاسة علي جودت الأيوبي، وكان تحسين العسكري يتولى منصب مدير الشرطة فيها. أما المتصرف فكان سورياً اسمه مصطفى باشا القنواتي. وقد وصف تحسين العسكري هذا المتصرف بقوله: «هو رجل مسن في العقد السادس من عمره. وتظاهر انه لم يكن من المحبذين للثورة، ولكننا لم ندعه يتسلط على أمورنا، وكان يتحاشانا لوجود القوة تحت نفوذنا».(٢)

عندما سقطت الحكومة العربية في سوريا في ٢٥ تموز، ووصل الخبر الى دير الزور، حاول العراقيون كتمان الخبر ومنعوا من نشره بين الأهالي لكي لاتطمع بهم العشائر المحيطة بالبلدة، غير أن المتصرف أذاع الخبر بين موظفيه بصورة سرية، مما أدى الى ذيوعه بين الناس شيئاً فشيئاً. وبدأت العشائر تتحفز لمهاجمة البلدة ونهبها.

يقول الأيوبي في مذكراته حول هذا الموضوع ما يلي:

«كانت دير الزور مهددة من قبل العشائر الموجودة في أطرافها، وكانت الاخبار ترد الى المتصرف منبئة بأن العشائر تنوي مهاجمة البلدة ونهب أموالها، فاتفقنا على أن اتخذ بعض التدابير الوقائية الظاهرية فوضعت المدفعين اللذين كانا لدينا فوق رابية تشرف على موقع الخطر، فيما إذا وقع أي تجاوز، يحميها بعض الجنود، وجهزت دورية تتكاتف مع الشرطة وذلك بمساعدة مديرها تحسين العسكري ومعاونه حسام الدين جمعة، وتجوب الأسواق والمحلات، وتطمئن الأهالي الى أموالهم وأرواحهم.

(١) - علي الخاقاني «شعراء الحلة». النجف ١٩٥٢، ج٣، ص١٦٣.

(٢) - تحسين العسكري «المصدر السابق»، ج٢، ص١٥٠.

فارتاح المتصرف لهذا التدبير واستقرت الأمور نوعاً ما حتىٰ أواخر شهر أيلول سنة ١٩٢٠ حين لم يبق لديَّ مال يكفي لمساعدة وإعاشة الضباط والجنود المتطوعين الذين بقوا معي في دير الزور...».[١]

قرر الايوبي أخيراً مغادرة دير الزور، فكتب الى ياسين الهاشمي في دمشق يرجوه التوسط لدىٰ السلطة الفرنسية بالسماح له بالمجيء اليها. وكان الهاشمي ذا حظوة لدىٰ الفرنسيين.[٢] فتوسط للأيوبي لديهم، ثم كتب إليه يقول انهم لا يمانعون في مجيئه الى دمشق. فسافر الأيوبي اليها، والتقى فيها بالعراقيين الذين كانوا لايزالون فيها كجميل المدفعي ورضا الشبيبي ويوسف السويدي ومحمد الصدر علاوة علىٰ الهاشمي.

بقي الأيوبي في دمشق حتىٰ أوائل حزيران ١٩٢١، حين وصلته برقية من الأمير فيصل يطلب حضوره الى القاهرة مع السويدي والصدر. فغادر الثلاثة دمشق في ٦ منه بسيارة حمل (لوري) حيث توجهوا بها الى القاهرة عن طريق بيروت وصيدا وصور وحيفا. وقد وجدوا في القاهرة رستم حيدر وابراهيم كمال وصبيح نجيب ومكي الشربتي. وغادر الجميع القاهرة الى جدة فوصلوها في ١١ منه، فالتقوا فيها بالأمير فيصل وحاشيته ومن صحبه من رجال الثورة. وفي اليوم التالي تحرك بهم الطراد البريطاني «نورث بروك» متوجهاً بهم الى البصرة.[٣]

مصائر الآخرين:

علىٰ أثر مغادرة الأيوبي لدير الزور شعر العراقيون فيها أنهم يجب أن يغادروها أيضاً إذ ليس لهم مستقبل فيها. وصار كل منهم يبحث عن ملجأ يلجأ اليه.

---

(١) – علىٰ جودت «ذكريات»، بيروت ١٩٦٧، ص١٤١.

(٢) – سامي عبدالحافظ القيسي «ياسين الهاشمي»، البصرة ١٩٧٥، ج١، ص١١٤ (حاشية).

(٣) – علي جودت «المصدر السابق»، ص١٤٢ ـ ١٤٣.

التجأ فريق منهم الى تركيا، بينما عاد فريق آخر الى العراق ـ كما سنأتي إليه فيما بعد ـ وذهب البعض منهم الى الرقة، وكانت قد تشكلت في تلك البلدة حكومة صغيرة برئاسة الشيخ حاجم بن مهيد يؤيدها الأتراك.وكان يعمل فيها بعض الضباط العراقيين كتحسين علي وبكر صدقي ويوسف العزاوي. ولكن هذه الحكومة لم تعش طويلاً إذ سرعان ما ضعفت وانهارت، وقال الشيخ حاجم يخاطب العراقيين بلهجته المحلية: «روحوا لأهلكم، حصلوا استقلالهم ببلادكم، خلّونا بحالنا».(١)

معظم الذين كانوا في دير الزور التجأوا الى دمشق، وانظموا الى العراقيين الذين كانوا فيها من قبل. وقد عاش الجميع هناك ينتظرون الفرج، وكان عددهم كبيراً قُدّر بنحو أربعمائة. وكان الكثير منهم في حالة معاشية سيئة لنفاد النقود لديهم.

في كانون الثاني ١٩٢١ وصلت الى ياسين الهاشمي في دمشق برقية من نوري السعيد الذي كان آنذاك في ايطاليا هذا نصها: «وافوني مع جميع العراقيين بدون استثناء الى السويس فقد تشكلت الحكومة العراقية حسب المطلوب».(٢) وقد بذل القنصل البريطاني في دمشق كل مساعدة ممكنة لتسفير العراقيين بناءاً على الأوامر التي تلقاها من حكومته.

سافر فريق من العراقيين الى العراق عن طريق البادية، بينما ركب معظمهم القطار متجهين الى السويس، وعند وصولهم إليها أقاموا في معسكر فيها انتظاراً لباخرة تنقلهم الى العراق. وقد وصلت أخيراً باخرة يونانية اسمها «ملتيادس» فحملتهم الى البصرة، حيث وصلوها في ٤ آذار ١٩٢١، ومن هناك ركبوا القطار الى بغداد...

بقي في دمشق من العراقيين ثلاثة لم يُسمح لهم بالعودة الى العراق هم: ياسين

---

(١) ـ حدثني بذلك من أثق به نقلاً عن أحد الضباط الذين كانوا يعملون في حكومة الرقة.

(٢) ـ جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ١٢ شباط ١٩٢١.

الهاشمي ومولود مخلص وجميل المدفعي. فقد ذكرت تقارير الشرطة السرية أنهم كانوا على اتصال سري بالقائد التركي في عينتاب وأورفة.(١)

التجأ المدفعي الى الأمير عبدالله في شرق الأردن فعينه هذا متصرفاً للواء الكرك. وعاد مولود مخلص الى العراق بعد اعلان العفو العام في ٣٠ أيار ١٩٢١، وتقول عنه المس بيل انه ذهب الى الموصل يدعو لفتح سوريا واخراج الفرنسيين منها.

وتعلق المس بيل على ذلك قائلة: ان مولود باشا جاء في السنة الماضية الى دير الزور من الشمال لكي يقود الحملة ضد الإنكليز، ومن المضحك أنه في هذه السنة يريد الذهاب الى دير الزور من الجنوب ليقود الحملة ضد الفرنسيين. وتذكر المس بيل كلمة في وصف مولود مخلص قالها جعفر العسكري هي: «انه حمار من الدرجة الاولى».(٢)

أما ياسين الهاشمي فقد مانع في عودته الإنكليز والملك فيصل معاً. والظاهر ان الهاشمي كان ذا دهاء يُخشى منه. فقد كتب عنه كوكس يقول: «ان السماح لياسين بالعودة الى العراق ليس في صالحه ولا في صالح الرأي العام. انه شخص خطر وقوي في آن واحد، ولايوجد لدى أية حكومة استعداد كافٍ لاستخدامه، لذا يجب منعه من العودة». أما فيصل فكان لايطمئن الى الهاشمي، وقد بلغه ان الهاشمي زار الجنرال غورو عقب سقوط دمشق بأيدي الفرنسيين.(٣) وقال أحد الضباط الكبار من رجال فيصل: ان الهاشمي لو سُمح له بالعودة الى العراق فسوف يشتغل لنفسه كما فعل في

---

(١) - فيليب آيرلاند «العراق»، ترجمة جعفر خياط، بيروت ١٩٤٩، ص ٢٢٥ (حاشية).

(٢) - Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, p.241 _ 242.

(٣) - سامي عبدالحافظ القيسي (المصدر السابق)، ج١، ص١١٣ _ ١١٤.

سوريا.[١] أخذ الهاشمي يعمل في التجارة في دمشق، ولكنه لم يوفق فيها، فكثرت خسارته وتراكمت عليه الديون. واضطر أخيراً الى الالتجاء الى القنصلية البريطانية في دمشق، فكتب سكرتير القنصلية الى دار الاعتماد البريطاني ببغداد يذكر الوضع المالي السيء الذي حل بالهاشمي وضرورة تسهيل عودته الى العراق، وأعلن أنه يضمن شخصياً اخلاص الهاشمي وولائه إذ وجده «أميناً ووطنياً حقيقياً».[٢]

وبعد جهود كثيرة تمت الموافقة على السماح له بالعودة الى العراق، فغادر الهاشمي دمشق في ٢٢ نيسان ١٩٢٢ متوجهاً بالقطار الى حلب، فالتقى هناك بأخيه طه، وغادر الاخوان حلب بالسيارة متوجهين الى الموصل فوصلاها في ٥ أيار، واقام لهما النادي الادبي الموصلي حفلة تكريمية. وفي صباح ٧ منه غادرا الموصل فوصلا بغداد بعد يومين. ونشرت جريدة «الإستقلال» ترحيباً حاراً بهما.[٣] وفي ١٥ منه اقام المعهد العلمي حفلة تكريمية لهما ألقى فيها كل من سليمان فيضي ومهدي البصير كلمة ترحيبية مناسبة، ثم ألقى ياسين الهاشمي كلمة أكد فيها على ضرورة زيادة المعاهد العلمية في البلاد...[٤]

الملتجئون الى عانة:

قرر ثمانية من الذين كانوا في دير الزور أن يلجأوا الى عانة، وهم: تحسين العسكري وحسام الدين جمعة وحسن فهمي المدفعي وعبدالله الطيار وصالح العزاوي وزكي حنظل وحسن الرشاش وداود المدفعي. وكان ثلاثة منهم تصحبهم عائلاتهم. وقد أعطانا تحسين العسكري في مذكراته وصفاً مسهباً لما جرى لهم في سفرهم

---

(١) – فيليب آيرلاند «المصدر السابق»، ص٢٢٥ (حاشية).

(٢) – سامي عبدالحافظ القيسي «المصدر السابق»، ج١، ص١١٧.

(٣) – جريدة «الإستقلال»، في عددها الصادر في ١٢ أيار ١٩٢٢.

(٤) – جريدة «الإستقلال»، في عددها الصادر في ١٦ أيار ١٩٢٢.

الى عانة، ثم الى بغداد، تنقل فيما يلي موجزاً له:

استأجر هؤلاء الثمانية ابلاً لنقلهم، كما جهزوا أنفسهم بالاسلحة والقنابل اليدوية للدفاع عن أنفسهم تجاه غزاة البدو. وفي أواسط تشرين الأول ١٩٢٠ خرجوا من دير الزور ليلاً متنكرين. وبعد مسيرة استغرقت عشرين ساعة وصلوا الى بئر فنزلوا عندها. فاقتربت منهم جماعة من البدو من عنزة يبلغ عدد رجالها نحو المائة، وجاء إليهم رئيس الجماعة واسمه «عكيلي» طالباً منهم «خوة» ـ أي أتاوة ـ قدرها ألف ليرة ذهب. فقالوا له: اننا لسنا أعداءاً لكم ولسنا أجانب أو غرباء عن هذه البلاد، بل نحن جزء من جيش الثورة القائمة على الاستعمار البريطاني. فلم ينفع هذا الكلام فيه شيئاً. وبعد أخذ ورد معه ومجادلة استغرقت عدة ساعات تمكنوا من اقناعه بتخفيض المبلغ الى عشر ليرات فقط.(١)

كانت عانة عند وصولهم إليها تحت حكم نجرس الكعود ـ على نحو ما ذكرناه في الفصل السابق ـ وقد وجدوها مفلسة ليس لديها ماتنفقه على رجالها. يقول تحسين العسكري في مذكراته:

«كنا نقضي اكثر أوقاتنا جياعاً ونشجع بعضنا بعضاً بلزوم التحمل والثبات! ولولا مساعدة بعض الاشخاص من أهالي عانة وراوة ومعونتهم لنا في فتح أبوابهم لاطعامنا لكانت حالتنا أتعس مما يتصور. أما العشائر فقد كنا قائمين بتشجيعهم بالوعظ والوعود كما اننا وزعنا عليهم الأوسمة التي كانت لدينا باسم الشريف حسين، وأهدينا إليهم سيوفنا ومسدساتنا وبضعة صناديق من العتاد باسم الملك فيصل، واستعملنا وسائل أخرى، مما كان لها التأثير الحسن على روحية الرؤساء. والخلاصة اننا لم نبخل عليهم بكل ما استطعنا إليه سبيلاً وذلك حباً بتثبيت دعائم الثورة

---

(١) ـ تحسين العسكري «المصدر السابق»، ج٢، ص١٧٢ ـ ١٧٤.

الى النهاية».(١) وبينما هم في هذه الحالة وصل إليهم يوسف السويدي ومحمد الصدر، وكانا في طريقهما الى الشام، وقد أخبرهم هذان الرجلان بما حل بالثورة العراقية من انهيار، فوقع الخبر عليهم وقع الصاعقة، ولكنهم طلبوا منهما أن يكتما الخبر فلا يخبرا به أحداً غيرهم لكي لاتشيع روح الهزيمة في تلك المنطقة. يقول تحسين العسكري:

«كنا نحاول سابقاً اخفاء أخبار سقوط الشام ودير الزور في أيدي الفرنسيين، والآن أمسينا تجاه كارثة أعظم وأدهى، فكيف نتمكن من إخفائها وتمشية أمور الثورة مع العشائر السذّج؟ كأن الله أراد أن يذيقنا أنواع الآلام والشدائد ليمتحننا في جميع الملمات».(٢)

غادر فريق منهم عانة متوجهين الى قرية حديثة، وهم: تحسين العسكري وحسام الدين جمعة وحسن فهمي المدفعي وشريف الفضلي وعبدالرزاق محمد العسكري وخليل المدفعي وغيرهم. ولما وصلوا إليها نزلوا في ضيافة عبدالرزاق الحديثي أحد وجهاء القرية. وهناك وصلتهم نسخة من جريدة «العراق» وفيها خبر عودة كوكس الى العراق وقرب تشكيل حكومة وطنية فيه. فاستبشروا بذلك خيراً، وأرسلوا من عندهم رجلين الى بغداد متنكرين لاستطلاع الخبر. وقد اعتقل أحدهما في الرمادي بينما وصل الثاني الى بغداد سالماً. وقد اتصل هذا الرجل بجعفر العسكري الذي كان قد وصل من سوريا منذ عهد قريب، واتصل جعفر من جانبه بكوكس، فقال كوكس:

انه يرحب بجميع الثائرين الذين يتوقفون عن الحركات الثورية ويعودون للمساهمة في بناء وطنهم بهدوء. وكتب كوكس كتاباً بهذا المعنى موجهاً الى تحسين العسكري. وحين وصل الكتاب الى تحسين اطلع زملاءه عليه. وبعدالمداولة فيما بينهم

---

(١) - المصدر السابق، ج٢، ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) - المصدر السابق، ج٢، ص ١٩٤.

قرروا ايقاف الحركات الثورية مؤقتاً وايفاد تحسين الى بغداد للمفاوضة.[١]

وصل تحسين الى بغداد في أواسط كانون الاول ١٩٢٠، وعند وصوله قابل كوكس في مكتبه. فابتشر له كوكس مرحباً وسأله هل ان العراقيين في الفرات الاعلىٰ مازالوا مستمرين في الثورة؟ فكان جواب تحسين: نعم. فقال كوكس: ان حكومة بريطانيا العظمى مستعدة لتشكيل حكومة عراقية وطنية حسب منهاج حزب العهد، وانه مخول بمفارضة الزعماء العراقيين في هذا الشأن، ولهذا فلا حاجة الى استمرار العراقيين علىٰ الثورة مادامت النتيجة المطلوبة قد حصلت. وأخرج كوكس المنشور الرسمي الذي أذاعه في هذا الشأن. فأبدى تحسين ترحيبه بالمفاوضة واستعداده للمشاركة فيها. وبعد خروجه من مكتب كوكس قابل أخاه جعفر، ثم كتب بالاتفاق معه الى زملائه في حديثه يخبرهم بما جرىٰ ويطلب منهم العودة الى وطنهم. فاستجابوا لدعوته وجاؤوا الى بغداد...

الدبوني وصاحباه:

كان من بين الذين التجأوا الى تركيا ثلاثة هم: عبدالحميد الدبوني وجميل الخليل ومحمد علي النعلبند، وهم الذين كان لهم دور كبير في واقعة تلعفر ـ كما ذكرناه في حينه.[٢]

يختلف مصير الدبوني عن مصير صاحبيه اختلافاً كبيراً. فإن صاحباه قد سافرا الى تركيا من دير الزور مباشرة، ولم يجدا صعوبة في سفرهما، ولما وصلا الى تركيا أعيدا الى الجيش التركي بنفس الرتبة التي كانت لهما قبل الحرب. وقد آثرا البقاء في تركيا، فلم يعودا الى العراق. وتدرج كل منهما في المناصب العسكرية حتىٰ وصل فيها

(١) ـ المصدر السابق، ج٢، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) ـ انظر القسم الأوّل من هذا الجزء، الفصل الحادي عشر.

الى رتبة «ميرالاي» ـ أي عميد ـ عند احالته الى التقاعد...[١]

أما الدبوني فله قصة لاتخلو من غرابة، وقد لقي الكثير من المشقات والمخاطر. وفيا يلي نذكر موجزاً لقصته نقلاً عن كتاب «ثورة تلعفر»:[٢] حينما غادر الدبوني دير الزور توجه الى مضارب شمر بالقرب من الحدود التركية، ومكث فيها نحو شهر ونصف، ثم انضم الى قافلة متجهة الى الموصل وهو متنكر. وعند وصوله الى الموصل لم يمكث فيها سوى يومين لشدة الرقابة فيها، فغادرها متجهاً نحو الحدود التركية، واشتغل في الطريق راعياً للغنم تارة، وأجيراً في احدى البساتين تارة أخرى. وتمكن أخيراً من اجتياز الحدود الى تركيا، وحين وصل الى نصيبين ألقي القبض عليه وأرسل مخفوراً الى ماردين. وقد تشفع له هناك عجيمي السعدون وأمين العمري، فأطلق سراحه وأعيد الى الجيش التركي برتبته التي كانت له قبل الحرب.

كان الأتراك يومذاك قد أعدوا في جزيرة ابن عمر فرقة عسكرية لغزو العراق بقيادة عاكف بك، فانضم الدبوني الى تلك الفرقة. وهناك وشى به الواشون بسبب تركه الجيش التركي بعد الهدنة، فألقي القبض عليه مرة ثانية، وقُدم الى محكمة عسكرية. وقد تشفع له في هذه المرة اثنان من أغوات تلعفر بالاضافة الى عجيمي السعدون فأطلق سراحه.

عُين الدبوني بعدئذٍ عضواً في وفد سُمي بـ«وفد الاصلاح» كانت مهمته اثارة القبائل الكردية ضد الإنكليز في العراق ومساعدة القوات التركية عند زحفها نحو الموصل. والغريب أنه ألقي القبض عليه للمرة الثالثة مع الأعضاء الآخرين من وفد الاصلاح، وقد وُجهت إليه أربع تهم هي:

---

(١) – قحطان أحمد عبوش التلعفري «ثورة تلعفر»، بغداد ١٩٦٩، ص ٤١٠.

(٢) – المصدر السابق، ص ٣٥٣، ٤٠٧ ـ ٤٠٩.

١ ـ تركه الخدمة في الجيش بعد الهدنة.
٢ ـ اثارة القبائل الكردية ضد الأتراك.
٣ ـ اتصاله بالإنكليز.
٤ ـ تهريبه للاسلحة.

قُدم الدبوني الى المحكمة في ديار بكر، ولكن الذي انقذه في هذه المرة وصول نسخة من جريدة «الإستقلال» البغدادية الى ديار بكر في اثناء المحاكمة، وكان فيها خبر اعلان العفو العام في العراق عن رجال الثورة مع استثناء نفر منهم كان الدبوني من جملتهم، فقدم الدبوني نسخة الجريدة مع عريضة الى المسؤولين، فأطلق سراحه وأعيد الى رتبته العسكرية في الجيش.

الق القبض على الدبوني للمرة الرابعة، وكان معه في هذه المرة جميل الخليل ومحمد علي النعلبند واسماعيل صفوت، ومكثوا في الحبس شهرين، وكانت التهمة الموجهة إليهم أنهم يعملون لمصلحة الإنكليز، ولكن التهمة لم تثبت عليهم، وسرعان ما أطلق سراحهم وأعيدوا الى الجيش.

ظل الدبوني بعد هذا يعمل في الجيش التركي حتى سنة ١٩٢٥. وفي هذه السنة أخذ الدبوني اجازة من الجيش لمدة اربعة أشهر، وعاد الى العراق متنكراً بغية الحصول على عفو خاص عنه. إنه لم يؤثر البقاء في تركيا على نحو ما فعل زميلاه جميل الخليل ومحمد علي النعلبند.

وصل الدبوني الى بغداد وهو يحمل رسائل توصية من عجيل الياور الى الملك فيصل وياسين الهاشمي. فتنكر بزي سيد يمتهن مهنة «فتاح فال»، وبنى له كوخاً من قصب في مقبرة الشيخ معروف. فكان ينام في الكوخ ليلاً ويتجول في ازقة الكرخ نهاراً يفتح الفال لمن يطلب منه. وكان في أثناء تجواله في الازقة يشاهد على الجدران

اعلاناً بمنح جائزة لمن يلقي القبض عليه ويسلمه الى السلطات العسكرية.(١)

كان الدبوني يتصل سراً بياسين الهاشمي وغيره لكي يتوسطوا له في الحصول على العفو الخاص، فلم يوفق الى ذلك. واضطر الى مغادرة بغداد الى الموصل، وبقي فيها حتى انعقاد مؤتمر لوزان في ١٩٢٦ الذي تقرر فيه العفو عن المستثنين من العفو العام. فعاد الدبوني عند ذلك الى بغداد، وعين مديراً للثانوية المركزية، ثم أخذ يتدرج في الوظائف الحكومية حتى عام ١٩٥٦ عندما أحيل الى التقاعد.

مصير المدفعي:

كان جميل المدفعي قد التجأ الى الأمير عبدالله في شرق الأردن، وعينه الأمير متصرفاً للواء الكرك ـ كما اشرنا إليه من قبل ـ وقد أثار هذا التعيين غضب المندوب السامي في فلسطين السر هربرت صموئيل، فابرق الى فيلبي الذي كان يومذاك كبير معتمدي بريطانيا في شرق الاردن يطلب منه أن يحتج رسمياً الى الأمير على هذا التعيين بالنسبة الى شخص أدانته احدى المحاكم العسكرية البريطانية وقضت عليه بالاعدام لاشتراكه في ثورة تلعفر عام ١٩٢٠. فابرق فيلبي جواباً الى المندوب السامي يعتذر عن عدم امكانه التدخل في مثل هذه القضية المحلية التي هي من صميم اختصاص الحكومة الاردنية، وقال له: «ليس في وسع أية حكومة عربية أن تعترف بشرعية حكم تصدره محكمة أجنبية على أي من قادة حركة استقلالية». ثم أضاف الى ذلك قائلاً بأن الحكومة البريطانية كانت منحت خلال الحرب وسام الصليب الحديدي الى جميل المدفعي اعترافاً ببسالته في القتال، ولم تقم الحكومة بعدئذٍ بأي اجراء لشطب اسمه من قائمة الذين أنعم عليهم بأوسمة الشرف.(٢)

---

(١) - نقلاً عن عدنان ابن عبدالحميد الدبوني.

(٢) - خيري حماد «عبدالله فيلبي»، بيروت ١٩٦١، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

لم يرد المندوب السامي علىٰ جواب فيلبي. وبقي المدفعي متصرفاً للواء الكرك. ويقول فيلبي إن هذا اللواء كان معروفاً بكثرة الاضطراب، ولكن الهدوء والاستقرار سرعان ما استتبا فيه بفضل المدفعي.[١]

ظل المدفعي في شرق الأردن حتىٰ عام ١٩٢٣ حيث سُمح له بالعودة الى العراق. والمعروف ان الأمير عبدالله والملك فيصل تشفعا له لدىٰ الإنكليز في ذلك، ولكن المس بيل تدّعي أنها هي التي حثت السر برسي كوكس علىٰ السماح للمدفعي بالعودة.[٢] والظاهر ان الملك فيصل هو الذي طلب منها ذلك.

في ١٨ تموز ١٩٢٣ نشرت جريدة «الإستقلال» هذا الخبر: «سيعود الى بلاده العزيزة (العراق) سعادة الوطني الغيور جميل بك المدفعي قائد تلعفر بعد أن أجازت له السطلة المختصة بذلك». ولكن الجريدة عادت بعد أيام فذكرت ان المدفعي تاه في الصحراء في طريق عودته الى العراق، حيث قالت ما نصه:

«شاع في العاصمة يوم أول أمس ان جميل بك المدفعي قد ضل في الطريق في جزيرة الشامية، وقد اضطربت الافكار هنا لهذا النبأ الأليم. فاهتمت الحكومة لذلك وأرسلت طيارات خاصة لتفتش عنه كما أن سمو الأمير زيد المعظم أبرق الى سمو الأمير عبدالله في عمان ليرسل إليه الطيارات للتحري عنه. وقد أبرق جناب قنصل فرنسا الى سوريا لتتخذ الوسائط اللازمة في أمر نجدته. ولا زالت الافكار مضطربة حتىٰ الآن. وسنأتي بالنتيجة بعد اطلاعنا عليها. فنسأل المولى أن يقر أعيننا بنجاة هذا البطل العربي».[٣]

وبعد ثلاثة أيام من نشر هذا الخبر نشرت الجريدة خبراً ساراً تحت عنوان

---

(١) – المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢) – Burgoyne (op. cit) - vol. 2, p.326.

(٣) – جريدة «الإستقلال»، في عددها الصادر في ٢ آب ١٩٢٣.

«بشرى» ذكرت فيه ان جميل بك المدفعي قد وصل العاصمة مساء أمس الاول، وقالت: ان القلوب ارتاحت لهذا النبأ السار وأخذت علائم البشر تتجلى في سماء كل من عرف وطنية هذا الشهم الغيور وبسالته، وأن جريدة «الإستقلال» تقر أعين المواطنين الكرام بنجاة أحد أبنائها الشجعان...(١)

تقول المس بيل أنها كانت في لندن عند عودة المدفعي الى بغداد، وهي تصفه قائلة: «انه لم يبذل أي جهد لتحبيب نفسه بل انضم حالاً الى الحزب المناوي، للانكليز. ولما عدتُ الى العراق لم يقم بزيارتي مطلقاً (وهو بالطبع لم يعرف ولن يعرف الدور الذي قمتُ به لمصلحته) وهو كذلك لم يزر السر هنري دوبس ـ المندوب السامي الجديد الذي خلف كوكس ـ ولكن كورنواليس، ذلك الوسيط العظيم، قابله وكان رأيه فيه طيباً، وقد عُيّن متصرفاً للمنتفق في الشهر الماضي ـ تقصد شهر كانون الأول ١٩٢٣ ـ وهو يعمل الآن بصورة جيدة. وقد اجتمعت به هناك... وجرى الحديث بيننا بصراحة وودّ، وفي النهاية أوصاني بتبليغ احتراماته الى السر هنري، ووعد أن يزورني عند مجيئه الى بغداد...».(٢)

نُقل المدفعي بعد هذا الى متصرفية العمارة، ثم الى الديوانية، ثم الى ديالى. وفي ٢٣ آذار ١٩٣٠ استوزر لأول مرة حيث تولى وزارة الداخلية في الوزارة السعيدية الاولى، ثم تولى بعدئذٍ رئاسة الوزارة غير مرة. ويعلق فيلبي على ذلك قائلاً: «اني لأذكر ان دار الاذاعة البريطانية ذكرت في احدى المرات التي ألف فيها المدفعي الوزارة ابان الحرب الكونية الثانية: انه رجل يتمتع بسجل حافل من التعاون الودي مع السلطات البريطانية. وفي وسعي أن ادّعي لنفسي شرف توجيهه في هذا الطريق».(٣)

---

(١) ـ جريدة «الإستقلال»، في عددها الصادر في ٥ آب ١٩٢٣.

(٢) ـ burgoyne (op. cit.) - Vol. 2, p.326.

(٣) ـ خيري حماد «المصدر السابق»، ص١٢٥.

لابد لنا في هذه المناسبة من أن نتطرق الى الجدال الذي ثار حول جميل المدفعي بين الكتّاب الذين كتبوا عن ثورة العشرين، إذ كان موضوع الجدال: هل كان المدفعي هو المقصود بالاستثناء من العفو العام في عام ١٩٢١ أم كان المقصود غيره.

سبب الجدال هو أن بيان العفو العام لم يعين اسم المدفعي بوضوح بل أشار إليه باسم «جميل بك». وقد ذهب بعض الكتاب الى أن المقصود من هذا الاسم هو جميل الخليل وليس جميل المدفعي. ومن الطريف أن نذكر أن أحد المؤلفين ـ وهو عبداللّه الفياض ـ جاء بثلاث قرائن للتدليل أن المقصود بالاسم هو جميل الخليل،[1] بينما جاء مؤلف آخر ـ هو قحطان التلعفري ـ بست قرائن للتدليل على أنه جميل المدفعي.[2]

الواقع ان رأي التلعفري هو الصحيح، ويبدو لي ان هذا أمر واضح ليس في حاجة الى قرائن تؤيده. فالذي يمعن النظر في بيان العفو العام يجد بسهولة ان المقصود باسم «جميل بك» هو جميل المدفعي لاغيره. ذلك لأن البيان صنّف المستثنين من العفو الى فئتين: فئة الذين كانوا موظفين لدى الإنكليز عند اشتراكهم في الثورة، وفئة الذين اقترفوا قتل البريطانيين أو حرضوا على قتلهم. وقد أهمل البيان ذكر أسماء الفئة الاولى بينما هو ذكر أسماء الفئة الثانية. ومعنى هذا ان جميل الخليل كان مستثنى من العفو دون أن يرد له اسم في البيان لأنه من رجال الفئة الاولى، أما جميل المدفعي فهو من رجال الفئة الثانية طبعاً ولهذا ورد اسمه في البيان.

عودة الهنجاميين:

في كانون الثاني ١٩٢١ اطلق سراح بعض المعتقلين في جزيرة «هنجام» كان من بينهم أحمد الشيخ داود وجعفر الشبيبي ونوري فتاح. ونشرت جريدة «العراق» برقية

---

(١) ـ عبداللّه الفياض «الثورة العراقية الكبرى»، بغداد ١٩٧٤، ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) ـ قحطان أحمد عبوش التلعفري «المصدر السابق»، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٦.

وردتها من البصرة مؤرخة في ٣١ كانون الثاني وهي من الشيخ أحمد يقول فيها انه وصل الى البصرة.[١]

غادر الشيخ أحمد ورفاقه البصرة بالباخرة «مجيدية» فوصلوا بغداد في ٩ شباط. وقد أصدرت جريدة «الإستقلال» عدداً خاصاً احتفاءاً بهم كتبت في صدره عنواناً ضخماً تهنيء الشعب العراقي بقدمهم وتطالب باعادة المعتقلين الآخرين.

طلب الشيخ أحمد عقب وصوله الى بغداد من دار الاعتماد البريطاني أن يعينوا له موعداً لمقابلة السر برسي كوكس وسكرتيرته الشرقية المس بيل، ليشكرهما على اطلاق سراحه. فحددوا له الموعد في يوم ١٢ شباط. وقد كتبت المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ١٣ منه تقول ما يلي:

«جاء بالامس المغفل العجوز السيّد أحمد داود حسب موعد محدد لتقديم احتراماته للسر برسي ولي. وصادف ان كان جالساً معي آنذاك عزت ـ تقصد عزت الكركوكلي ـ ولو أني كنت قد دبّرت اللقاء تدبيراً مسرحياً لما استطعت أن أدبّره خيراً مما وقع. لأن عزت له اسم عظيم في البلاد، وهو رجل وطني ونزيه. ان احمد داود (الذي يعتبر نفسه بطل العراق إن لم يكن أميره المنتظر) قد فوجيء مفاجاة واضحة حتى كدت أراه يتضائل وينكمش أمام ناظري».[٢]

لاندري ماذا كانت المس بيل تقصد من عبارتها هذه، والمظنون أنها لم تظهر للشيخ أحمد أي اكتراث أو احترام، بل وجهت كل احترامها الى عزت الكركوكلي تحدياً له. ويبدو ان الشيخ احمد أراد زيادةالتقرب من دار الاعتماد فأرسل الى جريدة «العراق» بياناً نشرته الجريدة في مكان بارز في صفحتها الأولى، وهذا نصه:

---

(١) ـ جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢ شباط ١٩٢١.

(٢) ـ Burgoyne (op. cit) - vol. 2, p. 208.

لعموم مواطني الكرام

ان ما علمته من حسن نية الحكومة العراقية العربية الموقته واهتمامها ازاء سعادة الوطن المحبوب لما يبعث روح الأمل في مستقبل زاهر للعراق وعليه فالواجب الوطني يدعونا الى مؤازرة الحكومة المشار إليها والاجتناب عن الجهالات المضرة بصالح الوطن ومن الله التوفيق.

السيد أحمد داود[1]

ظل المعتقلون الآخرون في هنجام، فلم يفرج عنهم إلاّ بعد اعلان العفو العام في العراق في ٣٠ أيار ١٩٢١. في ٢٠ حزيران ذكرت جريدة «العراق» تقول ان برقيات وصلتها من هنجام تنبيء بمغادرة جميع المعتقلين لها وأنهم متجهون الى العراق.

كان صباح ٣ تموز ١٩٢٠ موعد وصول القطار الذي يحمل المعتقلين العائدين. وقد جرى لهم في محطة القطار في الكرخ استقبال كبير وذكرت جريدة «العراق» أسماءهم، وهم: جلال بك بابان، حميد افندي آل كتة، عبدالغني افندي من مندلي، السيد أحمد أفندي والشيخ عبدالقادر آل كاكة أحمد والشيخ عريب ومحمد أفندي وتوفيق افندي من السليمانية.[2]

مصير ابن عبدكة:

كان ابن عبدكة لاجئاً عند أحد شيوخ المحاويل عقب فراره من خرنابات ـ على نحو ماذكرناه في فصل سابق ـ وقد ظل في حماية الشيخ بضعة أشهر في حالة تنكر لايعرفه سوى الشيخ نفسه، وقد أطلق على نفسه في تلك الآونة اسم «عبد».

ومن الطرائف التي تروى عنه في فترة تنكره انه سمع في عصر أحد الأيام شبان القرية يتبارون في اصابة هدف لهم وضعوه على قمة بيدر من الحبوب. فجاء ابن

---

(١) – جريدة «العراق» في عددها الصادر في ٢٣ شباط ١٩٢١.

(٢) – جريدة «العراق» في عددها الصادر في ٤ تموز ١٩٢١.

عبدكة إليهم وأخذ البندقية من أحدهم ورمى الهدف فأصابه بشكل أثار دهشتهم واعجابهم. وصار الشبان من بعد ذلك يتحدثون عنه باعجاب حيث وصفوه قائلين بأنه اصاب الهدف ببراعة «كأنه ابن عبدكة».

انهم لم يكونوا يعرفون انه ابن عبدكة بالذات.[1]

ومن الجدير بالذكر ان ابن عبدكة في الوقت الذي كانت الحكومة تبحث عنه للقبض عليه، كان هناك أناس آخرون يبحثون عنه أيضاً هم اقرباء من قتلهم ابن عبدكة لكي يأخذوا بثأرهم منه. فقد بلغ مجموع من قتلهم ابن عبدكة في حياته ٤٢ رجلاً كما اعترف هو نفسه بذلك. ولابد أن يكون لهؤلاء المقتولين ـ كلهم أو بعضهم ـ أقرباء يريدون الأخذ بثأرهم على عادة الناس في تلك الأيام.

كان من بين من قتلهم ابن عبدكة رجل اسمه نجم بن زهو العزاوي، والمعروف عن هذا الرجل انه كان شقياً كبيراً يضاهي ابن عبدكة في الشجاعة والجرأة. ولكنه انخرط في سلك الشبانة، وقد قتله ابن عبدكة دون أن يعرفه، ولما علم بمقتله عض اصبعه متأسفاً وقال: «قتلت رجلاً يسوى عشيرة». وقد صار اقرباء نجم بعد ذلك يبحثون عن ابن عبدكة أو أحد أقربائه ليقتلوه. فكان هو دائم الحذر منهم. وقد ظفروا أخيراً بابن عم له اسمه «محمد دارا» فقتلوه. ولما سمع ابن عبدكة بمقتل ابن عمه حزن كثيراً حتى أصيب بالحمى من شدة التأثر.[2]

في شهر حزيران ١٩٢١ تمكنت الشرطة من معرفة مكان اختفاء ابن عبدكة، وفي ١٤ منه بينما كان ابن عبدكة لايزال طريح الفراش من أثر الحمى التي أصابته. فوجيء بثمانية من رجال الشرطة وهم يحيطون به شاهرين مسدساتهم. فاضطر الى

---

(١) ـ حدثني بذلك عبدالرزاق شبيب المحامي نقلاً عن ابن عبدكة، وكان سجيناً معه في وقت من الأوقات.

(٢) ـ عبدالكريم العلاق «بغداد القديمة»، بغداد ١٩٦٠، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

الاستسلام لهم، فنقلوه مخفوراً الى بغداد.

قُدم ابن عبدكة مع نفر من أعوانه الى المحكمة في بغداد. وعُقدت أول جلسة لمحاكمتهم في ٢٣ تموز ١٩٢١. وكانت المحكمة برئاسة حاكم بريطاني اسمه مستر ودمن، وعضوية حاكمين عراقيين هما: عبدالمجيد أفندي الياسين ويعقوب سويدة أفندي. وقد توكل عن ابن عبدكة المحامي معروف علي أصغر، وهو الذي عُرف فيما بعد باسم «معروف جياووك».

توالت جلسات المحاكمة طيلة أربعة اشهر، وقد اهتم لها الرأي العام، وصارت ساحة المحاكم تمتلىء بالجمهور عند انعقاد الجلسات وابدت جريدة «العراق» شكرها للسرجنت دين مأمور مركز خان دلة علىٰ نشاطه في حفظ النظام اثناء المرافعات.(١)

وفي ٢١ تشرين الثاني ١٩٢١ اصدرت المحكمة حكمها علىٰ ابن عبدكة بالاعدام شنقاً لقتله نجم بن زهو العزاوي، ولترأسه عصابة مسلحة كما اصدرت حكمها علىٰ رفيقيه محمد العباس وحسين الشمام بالسجن عشر سنوات مع الاشغال الشاقة لوجودهما مع ابن عبدكة في اثناء مقتل نجم. وذكرت جريدة «العراق» تقول: ان ابن عبدكة تلقى صدور الحكم عليه بكل جلد.(٢)

طلب محامي ابن عبدكة تمييز الحكم. وفي ٢٠ كانون الاول ١٩٢١ صدقت محكمة التمييز حكم الإعدام علىٰ ابن عبدكة، غير أنها خفضت الحكم علىٰ رفيقيه محمد العباس وحسين الشمام الى خمس سنوات. وكان تصديق الحكم بالاكثرية. ونشر محامي ابن عبدكة في جريدة «العراق» توضيحاً مفاده: ان تصديق الحكم كان بالاكثرية المطلقة لا بالاكثرية المقيّدة، وذكر ان الاكثرية المطلقة معناها زيادة واحد

---

(١) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢١.

(٢) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢١.

علىٰ نصف الآراء. أما المقيدة فعناها ثلثا الآراء. وختم المحامي توضيحه قائلاً: «واني واثق ان جلالة مليكنا العادل المفدىٰ سينظر في هذا الأمر بعين الرحمة والرأفة...».[١]

كان سليمان فيضي عضواً في محكمة التميز التي نظرت في قضيةابن عبدكة، وهو يقول عنها في مذكراته مانصه:

«ابن عبدكة ثائر شعبي من عامة الاكراد، اشتهر بالشجاعة والاقدام، وكان له في اثناء الثورة العراقية مواقف مشرفة ضد الإنكليز في لواء ديالى... فلما نشبت الثورة العراقية واخلى الإنكليز بعقوبة دخلها ابن عبدكة، ونصب نفسه مديراً للأمن فيها، وبطش بالجواسيس، فقتل بعضهم وأحرق دورهم، مما اثار حقد الانجليز ونقمتهم عليه. وفي عهد الحكومة الوطنية ألقي القبض علىٰ ابن عبدكة، وسيق الى المحكمة الكبرى في بغداد بتهمة قتل موظف رسمي اثناء تأدية واجبه. فحكم عليه بالاعدام شنقاً. ميّز ابن عبدكة الحكم لدىٰ محكمة التميز، فتبيّن لنا أن القتيل لم يكن موظفاً رسمياً، وإنما هو أحد الأهليين المأجورين كان الإنكليز قد عهدوا إليه بالتجسّس علىٰ الناس لحساب دائرة الاستخبارات، وان القانون لايعاقب علىٰ مثل هذه الجريمة باكثر من الحبس خمسة عشر عاماً. اختلف حكام التميز في اصدار القرار علىٰ هذه الجريمة، فاتفق الرئيس وعضوان علىٰ تصديق حكم الاعدام، وعارضته انا ورشيد عالي، وأجّلت الجلسة عدة مرات، وكانت تأتينا التوصيات المتكررة من المندوب السامي بتصديق الحكم، فلم نأبه لها. وقد شغلت هذه المحاكمة الرأي العام، فكنت أرى قاعة المحاكم وفسحتها مكتظة بآلاف الناس، وكانوا كلما خرجتُ أو خرج رشيد عالي هتفوا لنا وأكبروا موقفنا لانقاذ ابن عبدكة من المشنقة. صدر الحكم بتصديق قرار الشنق بأكثرية الاصوات، ودونت معارضتنا الشديد أنا ورشيد في نص القرار. فلما اطلع جلالة الملك عليها امتنع عن تصديقه، وأمر بتخفيف العقوبة الى الحبس لمدة

---

(١) – جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٢٦ كانون الأول ١٩٢١.

خمسة عشر سنة. وقد علمت بعد ذلك ان ابن عبدكة قضى مدة الحبس ثم اطلق سراحه».[١]

ذكرت جريدة «العراق» في ٣١ كانون الثاني ١٩٢٢ خبراً مفاده ان الارادة الملكية صدرت بتبديل حكم الإعدام المصدق تمييزاً على ابن عبدكة الى السجن لمدة خمسة عشر عاماً. ولكن الجريدة عادت بعد أيام قليلة فكذبت هذا الخبر. وتبيّن أخيراً أن الملك لم يبدل حكم الإعدام الأ بعد مرور نحو سنتين على صدور الحكم، ويُعزى سبب ذلك الى أن الملك لم يحب أن يغضب المندوب السامي السربرسي كوكس في حينه. فلما نُقل كوكس من بغداد في عام ١٩٢٣، وحل محله السر هنري دوبس، وجد الملك في ذلك فرصة لتبديل الحكم.

وعلى أي حال فقد اختلفت الاقوال في السبب الذي حدا بالملك الى تبديل الحكم. وانتشرت بين الناس في حينه إشاعة قوية مؤداها أن المس بيل هي التي حرضت الملك على ذلك. وكان منشأ هذه الإشاعة أن الناس كانوا يعتقدون خطأ بأن المس بيل هي المرأة البريطانية التي أنقذها ابن عبدكة في شهربان، وهي لذلك أرادت مكافأته على هذا العمل «النبيل».

ان التحقيق الذي قمتُ به في هذا الشأن دل على ان المس بيل لم يكن لها أي اثر في تبديل الحكم على ابن عبدكة، وقد يصح القول أنها كانت راغبة في تنفيذ حكم الإعدام عليه تبعاً لرغبة رئيسها السر برسي كوكس. وأمّا السيّدة زتون ـ وهي المرأة البريطانية التي أنقذها ابن عبدكة في شهربان ـ فلم تكن عند صدور الحكم في بغداد، وهي بالاضافة الى ذلك لم تكن تعرف من هو الشخص الذي أنقذها، فهي لم تذكر اسمه في كتابها ولم تحمده على انقاذها، وربما اعتبرت عمله كأنه من الأمور المعتادة في

---

(١) ـ سليمان فيضي «في غمرة النضال»، بغداد ١٩٥٢، ص٢٨٥ ـ ٢٨٦.

تلك الظروف. الواقع ان هناك رجلين كان لهما اثرهما الفعال في هذا السبيل هما: الشيخ مهدي الخالصي والسيد محمد الصدر. فالأول منهما أرسل الى الملك رسالة مؤرخة في ٢٠ ذي الحجة ١٣٣٩ هـ ـ وهو يوافق ٢٥ آب ١٩٢١ ـ اشار فيها الى «الخدمات الجليلة» التي قدمها ابن عبدكة وأصحابه للعراقيين، ثم قال: «فنحن ننتظر أن ينال العراقيون خيراً بتخلية سراحهم أول جلوسكم الميمون». أما الثاني فقد ذهب بنفسه لمقابلة الملك ـ كما حدثني به أحد المطلعين ـ وقال له ان ابن عبدكة كان من أعوانه في ثورة ديالى وان الواجب يقضي بمساعدته.

مكث ابن عبدكة في السجن حتى عام ١٩٣٦. ولما خرج من السجن عطفت عليه الحكومة وعينته مراقباً للآثار في بابل. وقد سكن ابن عبدكة في الحلة بقية حياته. وفي مساء ٥ ايلول ١٩٥٤ بينما كان يمشي في بعض أزقة الحلة، وهو يتحامل على نفسه لاصابته بالشلل النصفي، أطلق عليه النار رجل وأرداه قتيلاً. وتبين ان القاتل هو سهيل ابن نجم العزاوي الذي كان ابن عبدكة قد قتله قبل ستة عشر عاماً. ويقال ان ابن عبدكة قال قبيل موته حين عرف هوية قاتله: «ليش احنه ماتوافينا؟ أنا قتلت أبوه، واعمامه قتلوا ابن عمي».[1]

مصير الشيخ ضاري:

كان الشيخ ضاري رئيس زوبع من جملة الذين استثنوا من العفو العام في ١٩٢١. وكان لاجئاً الى تركيا في قرية تُدعى «كفر توثا» على مقربة من الحدود العراقية.

كان الإنكليز قد أعلنوا عن مكافأة نقدية قدرها عشرة آلاف روبية لمن يأتي بضاري حياً او ميتاً. وقد استهوت هذه المكافأة سائق أرمني اسمه ميكائيل كريم، فصار يترصد لضاري مدة طويلة بغية انتهاز الفرصة للقبض عليه. وقد واتته الفرصة أخيراً في ٣ تشرين الثاني ١٩٢٧ حينما كان ضاري يريد الذهاب الى حلب للمعالجة

---

(١) ـ عبدالكريم العلاف، «المصدر السابق»، ص ١٤٤.

من مرض اصيب به. فجاء إليه ميكائيل يعرض عليه سيارته لنقله. فركب ضاري في السيارة مطمئناً لايدري ماذا دبر ميكائيل له. وقد تمكن ميكائيل من نقل ضاري عبر الحدود، وايصاله الى مخفر شرطة سنجار، ثم تسلم المكافأة، وهاجر بها الى مصر.

نُقل ضاري مخفوراً الى الموصل، ومنها الى بغداد، وفي ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٨ قُدم ضاري للمحاكمة أمام محكمة الجزاء الكبرى ببغداد. وكانت المحكمة برئاسة حاكم بريطاني اسمه جون بريچارد، وعضوية جميل خوشابه وأحمد طه. وكان المدعي العام خالد الشهبندر، وقد تطوع للدفاع عن ضاري المحامون: داود السعدي وأمجد الزهاوي وعلي محمود وياسين قدوري. وغصت ساحة المحاكم بالناس الذين جاؤوا ليشهدوا المحاكمة، ولم يسمح للدخول في قاعة المحكمة إلاّ لعدد محدود منهم. وظل الباقون في الخارج. تبيّن من سير المحاكمة ان ضاري كان منهوك القوى الى أقصى حد لكبر سنّه وابتلائه ببعض الأمراض، وقد سُمح له بالجلوس على كرسي في قفص الاتهام. وقد ارتأت المحكمة عرضه على طبيب لمعرفة هل هو قادر على تحمل الاستمرار في المحاكمة. وقد فحصه الطبيب البريطاني دنلوب وقرر ان في مقدوره الاستمرار فيها.

كانت الجلسة الأخيرة من المحاكمة قد انعقدت في ٣٠كانون الثاني ١٩٢٨. وقد القى فيها أمجد الزهاوي دفاعه عن المتهم بالنيابة عن زملائه المحامين. واختلت المحكمة بعد ذلك للمذاكرة، واستمرت المذاكرة ثلاث ساعات، ثم أصدرت حكمها على المتهم بالاعدام شنقاً حتى الموت مع تبديل هذا الحكم الى الاشغال الشاقة المؤبدة. وذكرت المحكمة أنها بدلت الحكم لسببين، أولهما: ان المحكوم طاعن في السن، والثاني: اعتلال صحته وابتلائه بمرض شديد من جراء تشرده عن وطنه ثماني سنوات.[1]

---

(١) - اعتمدنا في هذه المعلومات على كتاب «الشيخ ضاري» لمؤلفيه عبدالحميد العلوجي وعزيز جاسم الحجية، الصادر في بغداد في عام ١٩٦٨.

لم تطل حياة ضاري بعد صدور الحكم عليه سوى يوم وبعض يوم. ففي الساعة الرابعة والنصف من فجر الأول من شباط لفظ ضاري أنفاسه الأخيرة، ونقلت جثته الى المستشفى الملكي، وتألفت لجنة طبية لتشريح الجثة مؤلفة من أربعة اطباء هم: دنلوب وصائب شوكت وهاشم الوتري وابراهيم الآلوسي. وجاء في تقرير اللجنة: «ان سبب الوفاة وقوف القلب بسبب تقدم السن والتدرن الرئوي والديزانتري المزمن».[١] كان لضاري زوجة تسكن في بغداد، في محلة جامع عطا من جانب الكرخ، وهي من آل اللاحم من عكيل ولها منه ولدان صغيران. وقد جاء المحامون الى المستشفى يطالبون باسم هذه الزوجة تسليم الجثة إليهم للقيام بواجبات الدفن، كما احتشدت الجماهير على أبواب المستشفى تريد المشاركة في تشييع الجنازة.

وفي تلك الساعة حضر مدير شرطة بغداد حسام الدين جمعة ومعه عدد من الشرطة وأعلن انه مأمور بنقل الجنازة بسيارة خاصة الى مقبرة الشيخ معروف دون تسليمها الى الزوجة. ثم تقدم أفراد الشرطة لأخذ الجثة حسب الأوامر التي صدرت اليهم، ولكن الجماهير كانت أسرع منهم إذ هم اختطفوا الجنازة من ايدي الشرطة وساروا بها وهم يهوسون ويهزجون، ويهللون ويكبرون.

كان يوم تشييع جنازة ضاري من أيام بغداد المشهودة، قيل ان عدد المشيعين بلغ مائة الف، وهذا رقم مبالغ فيه بالنظر الى أن سكان بغداد لم يكونوا يتجاوزون في تلك الايام ربع المليون، ولكنه يدل على أي حال على ضخامة عدد المشيعين.

ومن الجدير بالذكر ان الجماهير الذين اشتركوا في التشييع كانوا يطلقون الهوسات بحماس شديد، وكانت هوساتهم فيها تهجم صريح على بريطانيا وتهديد لها بأخذ الثأر. حدثني أحد الذين اشتركوا في التشييع أنهم شاهدوا شاباً من آل الحسني ظنوه بريطانياً لأنه كان ذا بشرة بيضاء وعينين زرقاوين، فاندفعوا نحوه يريدون الفتك

---

(١) – جريدة «الإستقلال»، في عددها الصادر في ٥ شباط ١٩٢٨.

به، وقد كادوا يفتكون به لو لم يسرع إليه نفر ممن يعرفونه فأنقذوه.

وفيما يلي نذكر نماذج من الهوسات التي كانت الجماهير تطلقها أثناء التشييع:

هز لندن ضاري وبجاها، ساعة ومضمومة يالندن، جلينا من كتل الصوجر، كص راس تجيان وشاله، كبلك سوّوها يابن العم، مشهورة ياكتلة لجمن، هلهولة لكاتل لجمن، سجدوا له لذابح لجمن، تلكاها يالبايج ضاري، انذلينا عكبك ياضاري، العايل جزينا حدوده، منصورة ياراية ضاري، نحب ايده لكاتل لجمن، نام هنية ياكاتل لجمن...[1] سارت الجنازة في شارع الرشيد، ثم عبرت الى جانب الكرخ علىٰ جسر مود، ومرت من أمام دار الإعتماد البريطاني حيث ازدادت الجماهير حماساً في شتم بريطانيا. وصادف عند وصول موكب الجنازة الى مقربة من رأس الجسر القديم ان كان المندوب السامي قادماً من جانب الرصافة يريد عبور الجسر، ولكنه استدرك حالاً وأوعز الى سائق سيارته بالعودة ريثما ينتهي الموكب من مروره.[2]

حين وصلت الجنازة الى محلة جامع عطا، أدخلت الى دار الزوجة. فلطمت عليها النساء علىٰ عادتهن في مثل هذه الحالة. ثم حُملت الجنازة بعدئذٍ الى مقبرة الشيخ معروف، فدفنت هناك باحتفال مهيب اشترك فيها تلاميذ المدارس.

اصدرت جريدة «الإستقلال» في اليوم التالي عدداً خاصاً بتلك المناسبة كانت صفحاته محاطة بإطار أسود. وفي ٨ شباط نشرت جريدة «الإستقلال» نداءاً بتوقيع «الحمامي» تدعو فيه الى اقامة حفلة تأبين للشيخ ضاري في جامع الحيدر خانة. ولكن الحفلة لم تُعقد لسبب لانعرفه.

---

(١) - جريدة «الإستقلال»، في عددها الصادر في ٢ شباط ١٩٢٨.

(٢) - جريدة «الإستقلال»، في عددها الصادر في ٢ شباط ١٩٢٨.

الفصل العاشر

من ذيول الثورة

كان لثورة العشرين نتائج مختلفة سلبية وإيجابية. وليس هنا مجال ذكر هذه النتائج أو تقييمها. نكتفي في هذا الفصل بذكر بعض الأمور التي اعقبت الثورة وكانت لها صلة مباشرة او غير مباشرة بها.

انتقام:

في الفترة القصيرة التي أعقبت الثورة كان الكثير من البريطانيين، ولاسيما العسكريين منهم، يحملون الحقد الشديد على الثوار. فقد كانت أذهانهم مشبعة بصور الفضائع المبالغ فيها التي وصلت أخبارها إليهم عن قسوة الثوار في معاملة الجنود والضباط الذين وقعوا في ايديهم. ولهذا رأيناهم ينتقمون من الثوار انتقاماً عاطفياً يدل على أنهم كانوا يريدون شفاء غليلهم منهم. يروي ساطع الحصري في مذكراته: انه كان في مجلس يضم بعض المسؤولين البريطانيين في عام ١٩٢١، فاظهر احدهم مكنونات قلبه وأخذ يدافع عن العسكريين الذين انتقموا من الثوار انتقاماً مفرطاً، حيث قال بعصبية غريبة: «يجب أن نعذر هؤلاء، لأنهم شاهدوا الفضائع التي ارتكبها الثوار... انهم ذبحوا بعض الضباط الإنكليز ذبح الشاة. وقد مثلوا بأيديهم وأرجلهم، وقطعوهم إرباً إرباً. وقد وجدنا أكثر من عشر جثث بمثل هذه الأحوال الفجيعة. نحن سعينا أن نخفي ذلك، لم نقل ان العرب يحاربون هكذا، بل قلنا لعائلاتهم ـ يقصد عائلات القتلى البريطانيين ـ انا دفناهم بالاحتفالات اللازمة. ولكن هناك من عرف

ذلك. وشاهد ذلك. فاذا ما رأيتموهم يسلكون مسلك القساوة يجب أن لاتتعجبوا على ذلك». ثم اضاف المسئول البريطاني الى ذلك قائلاً: «ثاروا علينا.. هجموا علينا.. حاربناهم.. تغلبنا عليهم. ومع ذلك نراهم الآن يفتخرون طوراً ولسان حالهم يقول: «نحن غلبنا».. هذا لايطاق».[1]

ولم يكتف العسكريون بما فعلوا بالثوار من تقتيل فظيع بل عمدوا أيضاً الى احراق قراهم وتدميرها. يروي جعفر الخليلي عما شاهده بنفسه في الايام الاخيرة من الثورة فيقول: ان نيران القرى المشتعلة ظلت تشاهد عدة أيام من سطوح البيوت في النجف. وكان التل المعروف باسم «الجبل» مما يلي محلة المشراق في النجف مكاناً يقصده الناس في الأمسيات ويطيلون المكث فيه حتى منتصف الليل ليستعرضوا النيران التي أضرمها الإنكليز في بيوت الفلاحين وفي مزارعهم ومخازنهم والتي كان يراها الرائي من فوق الجبال كسلسلة من البراكين الثائرة لاتخمد نيرانها ولا تفتر.[2]

يبدو ان هذا الذي فعلوه لم يكن كافياً لشفاء غليل البعض منهم، ولعلهم كانوا يريدون تدمير مناطق الثوار تدميراً تاماً. كتبت المس بيل في ١٢ ايلول ١٩٢٠ تقول: «ان الجنرال هامبرو الطيب تغدى معي قبل أيام، وعرض فكرة رائعة هي أننا يجب أن ندمر مناطق الثورة تدميراً تاماً». وأشارت المس بيل الى أنها لم توافق على هذه الفكرة لأن الأراضي في بعض مناطق الثورة ليست من ممتلكات الثوار بل هي من ممتلكات البغداديين من بينهم النقيب وأحد اليهود المحترمين..[3]

مكافآت:

بعدما صدر العفو العام في ٣٠ أيار ١٩٢١، اتخذ الإنكليز في العراق سياسة

---

(١) - ساطع الحصري «مذكراتي في العراق»، بيروت ١٩٦٧، ج ١، ص ٦٣.

(٢) - فراتي «على هامش الثورة العراقية الكبرى»، بغداد ١٩٥٢، ص ١٠٦.

(٣) - Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, p. 163 - 164.

ظاهرية كان شعارها: «اسدال الستار عن الماضي والعفو عما سلف»، غير أنهم لم ينسوا أولئك الذين ساعدوهم في أيام الثورة فكانوا يسعون لمكافأتهم بكل وسيلة ممكنة.

لم تقتصر مكافأة الإنكليز على اولئك الذين ساعدوهم في أيام الثورة، بل رأيناهم يكافئون كل من جاء إليهم من رجال الثورة يعلن التوبة إليهم ويتعهد لهم بأنه سوف يقف الى جانبهم ويؤيدهم في سياستهم حتى الموت. ولكن هؤلاء كانوا في قائمة المكافآت في الدرجة الثانية بعد أولئك السابقين.

في ١٢ شباط ١٩٢١ اقام القائد البريطاني في الحلة حفلة شائقة لتكريم الشيخ عداي الجريان رئيس آلبوسلطان حضرها كثيرون من اعيان الحلة ورؤساء عشائرها كان من بينهم السيّد محمد علي القزويني والشيخ عمران الزنبور. وألقى القائد في الحفلة الخطبة التالية:

«إني قمت اليوم بأداء التجلة والحفاوة للشيخ عداي ألبو سلطان لأعلن على رؤوس الاشهاد تقدير الحكومة للخدمات التي أداها في أمر تسليم البنادق، وفي أثناء الثورة قد كان مناصراً لنا. وحين رأى أنه متعذر عليه صد عشيرته عن الاشتراك في الهجوم العام على السكة الحديدية ومدينة الحلة تركها والتحق بنا في الحلة عينها. وعندما سلمت عشيرته عاد فتقلد زمام السلطة عليها ونفذت فيها كلمته نفوذاً حتى أنه حمل قومه على تسليم كل ما لديهم من البنادق من الصنف الأول والثاني وكل ما عندهم من الذخائر الحربية وذلك دون أن تمس الحاجة الى ارسال جنود الى ناحيته... وأملي وطيد بأن العراق يمكنه الآن أن يتمتع بالسلام لمدة طويلة ويتقدم في الغنى والفلاح ببركات السلام وهبة حكومة حسنة. تذكروا أن ما نتج في هذه البلاد من الثروة قبل الثورة وكم خسرت من جرائها، وأفهموا أبناء العشائر أن منافع السلم أكبر وأكثر دواماً، وأن شق عصا الطاعة على الحكومة لا يأتي منه سوى

الخسائر والآلام. واني لمسرور لرؤيتي في هذه الحفلة الشيخ عمران الزبور وغيره من الذين بقوا مخلصين لنا وقت الثورة وجاؤونا بكل انواع المساعدة، ولذا فالحكومة تقدّر مساعيهم حق قدرها».[١]

اتجهت سياسة الإنكليز في مكافأة الشيوخ الموالين لهم نحو طريقتين: احداهما قصيرة الأمد وهي تخفيف الضرائب عنهم عن الفترة السابقة، والثانية طويلة الأمد وهي توسيع رقعة الاراضي التابعة لهم والوقوف الى جانبهم في قضايا الأراضي المتنازع عليها بينهم وبين خصومهم.

لكي يأخذ القارىء صورة عن الطريقة الأولى ننقل فيما يلي موجزاً لتقرير سري كتبه الحاكم السياسي في الناصرية في ٤ أيار ١٩٢١ الى مستشار وزارة الداخلية يوصي به بمكافأة عدد من شيوخ المنتفق، وذلك «لسلوكهم الممتاز ومساعدتهم القيّمة للحكومة البريطانية في سنة ١٩٢٠»:

أوصى التقرير بشطب مبالغ من الضريبة حددها تجاه كل واحد من أولئك الشيوخ بنسبة ما بذل الشيخ من خدمة للحكومة في مقاومة الثورة. وكان في مقدمة من اشاد بذكرهم التقرير منشد الحبيب رئيس عشيرة الغزى، وهي عشيرة كبيرة تقطن على الضفة اليمنى من نهر الفرات في المنطقة الممتدة بين الدراجي وسوق الشيوخ. وقد وصف التقرير هذا الشيخ بأنه أقوى من وقف الى جانب الإنكليز في أيام الثورة، وأنه هو الذي حال دون امتداد الثورة من منطقة السماوة الى الناصرية، ولولاه لفقد الإنكليز السيطرة على سكة حديد البصرة، وكان الى جانب ذلك يوصل الرسائل الى المواقع التي حاصرها الثوار ويعود منها بالأجوبة. وكان أخوه حاجم الحبيب أكبر مساعد له في ذلك. ويقول التقرير عن منشد أخيراً: «وباختصار إنه أعظم رجل

---

(١) - جريدة «العراق»، في عددها الصادر في ٧ آذار ١٩٢١.

يستحق منا كل تقدير في منطقة الناصرية. كان أداة نستطيع بها مواجهة العشائر المعادية بعد سقوط السماوة. وقام بأعمال باهرة خلال فترة اضطرابات سنة العشرين».

ويذكر التقرير كذلك نايف العجيل رئيس عشيرة المحيسن، وأخاه ناصر. فهما ينتميان في النسب الى عشائر بني حجيم، ولكنهما لم يثورا معهم وحالا دون امتداد الثورة الى عشائر الناصرية. وكان منشد الحبيب يوجّه نايف ويساعده في الوقوف ضد الثوار.

ويعدد التقرير بعد ذلك اسماء أشخاص ورؤساء آخرين هم: فرحان الطاهر رئيس عشيرة الحسينات، وسيد عبدالحسين رئيس الحصونة، وصالح الداغر رئيس الابراهيم، وقاطع البطي رئيس الازيرج، وحاج حسين الشيحان من الغزي، ومحسن النباز من الازيرج، والسيّد موسى الابراهيم، وعجيل الشويلي، وعطيوي الخليطر، وحاج غثيث، وحاج جناح.

وفي ١٠ حزيران ١٩٢١ كتب الحاكم السياسي في الناصرية تقريراً آخر أكّد فيه على تقريره الأول، وأوصى بمكافأة الشيخ سالم الخيون بساعة ذهبية لأنه قام بحراسة الطريق بين سوق الشيوخ والقرنة بمعاونة عشائر بني خيقان، وقد قُدِّرت قيمة البضائع التي نُقلت في هذا الطريق بعشرات الألوف من الروبيات.

وكذلك وصى التقرير بتقدير الشيخ بدر الرميض رئيس البوصالح من بني مالك لأنه رفض المشاركة في حركة الجهاد وقدم مساعدة فعالة للحكومة في أثناء الثورة وذلك بنزع أسلحة الشبانة الذين حاولوا الهروب، وارسالها الى الناصرية بيد ابنه الشيخ حسن. ثم يختم الحاكم تقريره بما يلي:

«كان الفضل كله يرجع الى اخلاص شيوخ العشائر وولائهم الذين حاولوا دون وقوع الكارثة في الفرات الأسفل. أتوسل اليكم أن تدعموا توصياتي هذه. وكما ترون في القائمة المرفقة ان عدداً كبيراً من اسماء الشيوخ مدرجة فيها، من الذين كان عليهم

أن يصرفوا بكل سخاء وبذخ ليحافظوا على شعبيتهم في عيون افراد عشائرهم. مثال ذلك: شيخ منشد الحبيب، فلقد صرف كل ضرائب الحكومة وأموال غيرها على الهدايا والكرم والضيافة. والنتيجة فإن الشيوخ غارقون اليوم الى آذانهم في الديون. وإذا طالبناهم بتسديد ديون الحكومة فاننا بدون شك ندفع بهم الى المرابين من سكان المدن الذين يقرضون المال بفوائد فاحشة جداً...».[١]

ومن المناسب أن نذكر هنا ما جرى عام ١٩٢٢ من جدال بين الشيخ محمد الصيهود رئيس عشيرة ربيعة في الكوت ودوائر المالية حول تخفيض الضرائب عنه:

ففي تشرين الثاني ١٩٢٢ قدم الميجر لونكريك مستشار لواء الكوت الى وزارة الداخلية اقتراحاً بتخفيض الضرائب عن شيوخ الكوت بنسبة الثلث عن عام ١٩٢٠، والنصف عن عام ١٩٢١. وقد وافقت الوزارة على هذا الاقتراح. وبعد مضي شهرين على ذلك قدم لونكريك اقتراحاً آخر طلب فيه زيادة التخفيض عن اثنين من أولئك الشيوخ هما: محمد الصيهود وبلاسم الياسين. وكان اقتراحه ان يكون التخفيض عن عام ١٩٢٠ كالتخفيض عن عام ١٩٢١ أي الى النصف.[٢]

يبدو ان الاقتراح الثاني وصل الى الوزارة متأخراً فلم ينل موافقتها. وقد أدى ذلك الى زعل الشيخ محمد الصيهود وصار يشعر بالغبن تجاه الخدمات الباهرة التي قدمها للانكليز في أيام الثورة.

فهو يدّعي أنه هو وحده الذي حال دون امتداد الثورة الى عشائر دجلة، وان الانكليز كانوا قد وعدوه بالاعفاء التام عن الضرائب لقاء هذه الخدمة.[٣]

---

(١) - عبدالجليل الطاهر «العشائر العراقية»، بيروت ١٩٧٢، ص٢٤٢ ـ ٢٤٨.

(٢) - المصدر السابق، ص٢١.

(٣) - فيليب آيرلاند «العراق»، ترجمة جعفر خياط، بيروت ١٩٤٩، ص ٢١٠ (حاشية).

وعلى أي حال فقد امتنع الشيخ محمد عن دفع معظم ما في ذمته من الضرائب وكان مجموعها يزيد على ٨٦ ألف روبية. ولم يدفع منها سوى عشرة آلاف روبية فقط.[١] وقد سكتت الحكومة عن مطالبته، ولم تشأ أن ترغمه على الدفع، بل تركته يفعل ما يشتهي حسب المبدأ القائل: «ضرب الحبيب زبيب وحجارته رمان!».

سياسة فيصل:

اتخذ الملك فيصل الاول سياسة مناقضة لسياسة الإنكليز في مكافأة الشيوخ، ولاسيا في منطق الفرات الاوسط. إذ كان يحاول مساعدة رجال الثورة الذين ظلوا مناوئين للانكليز. ولكن مقدرته في ذلك كانت محدودة. فكان ينجح فيها تارة ويخفق تارة أخرى.

يحدثنا علي جودت الايوبي في مذكراته ـ وهو كان قد عينه الملك فيصل متصرفاً للحلة والديوانية في ١٤ تشرين الاول ١٩٢١ ـ عما جرى من صراع بينه وبين الإنكليز حول مكافأة الشيوخ الموالين لهم، فيقول:

«كان المفتش الاداري ـ يقصد المستشار الإنكليزي في اللواء ـ ومعاونوه ميالين الى مضايقة بعض رؤساء العشائر، والى مساعدة الآخرين الذين آزروا السلطة الإنكليزية، وذلك حين ينشب نزاع بينهم. وكنتُ أود من صميم قلبي أن أحسم النزاع بين الطرفين بلا محاباة، وطبقاً لما يقتضيه العدل والانصاف. هذا مما جعلني والحكام العسكريين (المفتشين) في جدال مستمر قد تبق معه المسائل معلقة من دون حل، أو نجد مخرجاً للأزمات بصورة مناسبة وبقدر ما تسمح به الظروف.

«أذكر مرة أنني زرت وزارة الداخلية فقابلت المستر كورنواليس بصفته مستشاراً لوزارة الداخلية. وما كاد المقام يستقر بي في ديوانه حتى سألني عن أسباب

---

(١) ـ عبدالجليل الطاهر «المصدر السابق»، ص٢٠.

الخلاف بيني وبين المشاور الميجر دكسن. فلما أنكرت وجود أي خلاف راح يسرد لي قضايا كان المشار إليه قد أخبره بأنه مختلف معي في كيفية حسمها. فقلت إني أرىٰ أن اجتمع بالمشاور (المفتش) بحضوره لنناقش هذه القضايا ونصفّي أسباب الشكاوي والخلافات. فارتاح لهذا الحل وجاء الى الحلة. واجتمعنا ثلاثتنا فكنت افنّد كل قضية يذكرها، وأذكّره بطريقة حلها. فلما أدرك المستر كورنواليس ذلك أنكر علىٰ المشاور شكواه. ولكنه في الوقت عينه طلب مني أن افصل مدير التحرير السيّد حسين البياتي من عمله كحل وسط لتسوية ما زعم من الخلافات زاعماً أن حسيناً هو علة العلل في سوء التفاهم بين المتصرف والمشاور. فأجبته أن مدير التحرير لم يكن سوى موظف يعمل بأمري ولايمكن أن يجرأ علىٰ عمل أي شيء من دون موافقتي فإن كان هناك مسؤول فهو أنا لا مدير التحرير. وأصررت علىٰ وجهة نظري مما اضطره الى العدول عن المطالبة بكف يد مدير التحرير...

«كان المفتش الاداري ومعاونوه لايتركون فرصة لمساعدة رؤساء العشائر الذين كانوا من الموالين لهم، أو الذين لم يقوموا بحركة عدائية ضدهم أثناء الثورة... وكانوا أحياناً يشطبون بعض ما علىٰ هؤلاء من ديون للحكومة من الرسوم المفروضة عليهم».

«استُدعيت ذات مرة من قبل رئيس الوزراء السيّد عبدالرحمن النقيب الى الحضور أمام مجلس الوزراء. ولما حضرت لامني وزير المالية (ساسون حسقيل) لكثرة الشطب والاعفاء الذي قامت به المتصرفية بالنسبة الى رؤساء بعض العشائر في اللواء لأن الشطب والاعفاء من اختصاص وزارة المالية فقط. ولما برهنت له أن ذلك الشطب وتلك الاعفاءات لم تصدر منا وإنما كانت من قبل المفتش الإنكليزي، وأنه يجب عليه توجيه السؤال اليه، سكتَ وانصرفت. ولا أدري ما إذا كان قد لام

المفتش علىٰ تجاوزه سلطاته أم لا؟».[(١)]

نفد صبر الإنكليز من الأيوبي أخيراً. ففي أواخر آب ١٩٢٢ أصدر المندوب السامي البريطاني كوكس أمره بعزل الأيوبي من وظيفته، كما عزل القائمقامين من أعوانه كخيري الهنداوي وشاكر الملاحمادي.

ويحدثنا عبدالعزيز القصاب في مذكراته عما جرىٰ له في لواء المنتفق عندما عيّن متصرفاً له في اوائل عام ١٩٢٣. فهو قد عانى هناك مثلما عاناه الأيوبي، وخلاصة ما قال: أنه وجد صعوبة كبيرة في البت في القضايا المتنازع عليها بين رؤساء العشائر، وذلك لوقوف المستشار الإنكليزي الميجر ييتس، ومعاونه الكابتن كبن، حجر عثرة في هذا السبيل. ويذكر القصاب مثلاً علىٰ ذلك قضية رجل من سوق الشيوخ اسمه «شنتة». فقد كان هذا الرجل متهماً بقتل أحد الشيوخ، وقد اغتصبت اراضيه من قبل أقاربه الذين يؤيدهم الميجر ييتس. ويصف القصاب ما جرىٰ له عند زيارته لسوق الشيوخ بصحبة الميجر ييتس ومدير الشرطة السيّد أحمد الراوي: فهم لم يكادوا يدخلون بهو السراي في تلك البلدة حتىٰ دخل عليهم شنتة فجأة وهو حاسر الرأس وعقاله في عنقه، وانكفأ علىٰ قدمي القصاب ثم ربط كوفيته بالمنضدة التي أمامه علىٰ الطريقة البدوية المعروفة في الدخالة وقال: «انا داخل عليك وعلىٰ الملك أطلب حمايتي من هذا المستشار»، مشيراً الى الميجر ييتس. فأصفر وجه ييتس، ثم ترك المجلس بعد نصف ساعة.

ويقول القصاب ان قضية شنته انتهت أخيراً بعد تقديمه للمحاكمة في الناصرية حيث تبيّن انه بريء من تهمة القتل، فأطلق سراحه وأعيدت له حقوقه.[(٢)]

---

(١) – علي جودت «ذكريات»، بيروت ١٩٦٧، ص١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) – عبدالعزيز القصاب «من ذكرياتي»، بيروت ١٩٦٢، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

ويأتي القصاب بمثل آخر في قضية السيّد نعمة آل مسافر الذي نُهبت قلعته وأراضيه من قبل خيّون العبيد صديق الإنكليز. فقد كان من رأي القصاب أن هذا الرجل يجب أن يُعاد له جميع ما اغتصب منه حسب قرار اللجنة التي تشكلت لهذا الغرض. وقد أبدى رأيه هذا الى كورنواليس عند مجيئه الى اللواء، فأجابه كورنواليس بصراحة: «ان خيون صاحبنا وصديقنا فهل يمكنك ابدال الحل المقترح بحل غيره، فان هذا الحل سيحط كرامته بين العشائر». فلم يوافق القصاب على ذلك وأصر على رأيه، فاضطر كورنواليس الى الموافقة، ثم نادى خيون وقال له: «هذا المتصرف لايضمر لك العداء أبداً، وهو يحب الحق ويرغب بتنفيذه، فعليك أن تمتثل أمره». فوافق خيون على ذلك وصافح القصاب شاكراً.[1]

بداية الاقطاع:

ظل الإنكليز يتابعون سياستهم في مكافأة الشيوخ الموالين لهم حتى بعد انتهاء عهد الانتداب، وقد اتخذوا من تنفيذ قانون التسوية الذي بدأ في ١٩٣٢ وسيلة لهم في ذلك، إذ أن لجان التسوية كانت في الغالب تحت رئاسة موظفين بريطانيين، وأخذ هؤلاء يسجلون المساحات الواسعة من الأراضي باسم أولئك الشيوخ.

يحدثنا معروف الرصافي عن اثنين من اولئك الشيوخ، وعن مبلغ النفع الذي أصابهما من قانون التسوية، غير أنه لم يذكر اسميهما، حيث يقول ما نصه:

«.. ان رجال الإنكليز الذين ترأسوا هذه اللجان ـ يقصد لجان التسوية ـ قد أعطوا ما شاؤوا، وحرموا من شاؤوا، حسبما اقتضته سياستهم الاستعمارية... فكم ترى في العراق من صاحب مزارع واسعة ومضخات كثيرة كان بالأمس صعلوكاً من الصعاليك. أذكر لك اثنين من هؤلاء أحدهما كان جاسوساً من جواسيس الإنكليز

---

(١) ـ المصدر السابق، ص ٢٣٤.

بل عبداً من عبيدهم الى يومنا هذا، هو (..) الذي كان قبل ذلك شواكاً يبيع حزم الشوك في بغداد وهو اليوم من كبار المثرين في العراق. والثاني هو (..)، وهذا هو ومن التف عليه من شذاذ عشائر (..) قاتلوا الثوار العراقيين مع جند الإنكليز في الثورة العراقية حول الرمادي وهيت، وحتىٰ وصلت جموعهم الى عانة تتقدم جنود الإنكليز طلائع لهم علىٰ الثوار العراقيين... وملك هذا الشيخ اليوم يمتد من شمالي الرمادي الى ضواحي بغداد».[١]

من الجدير بالذكر ان الحكومة العراقية في العهد الملكي تبنّت هذه السياسة وثابرت عليها. فظهرت من جراء ذلك طبقة من الشيوخ يمكن اعتبارها بداية عهد الاقطاع في العراق، فلقد تحول الشيخ بها من كونه رئيساً عشائرياً الى كونه سيداً اقطاعياً، وبعدما كان الشيخ في الماضي يجد من مصلحته مداراة عشيرته والتحبب إليها لأنها مصدر قوته تجاه الحكومة وتجاه الشيوخ الآخرين، أصبح لايبالي بالعشيرة حيث ترك قريته وسكن القصور الباذخة في المدن معتمداً علىٰ وكلائه الذين يجلبون له الأموال من كدح الفلاحين.[٢]

بلغت مساحة الأراضي التي كانت تحت تصرف الشيخ محمد الصيهود مثلاً نحو ٣٧٤ ألف دونم، منها ما كان ممنوحاً له باللزمة ومنها ما كان مفوضاً بالطابو أو غير ذلك.[٣] ولهذا كانت الأموال تُجبى له بالألوف، فعاش بها عيشة السادة المترفين، وصار يعامل فلاحيه معاملة الاقنان أو قريباً منها.

يمكن القول ان هذا الشيخ أصبح نموذجاً حيث حاول الكثيرون من الشيوخ

---

(١) - معروف الرصافي «آراء الرصافي»، بغداد، ص١٧ ـ ١٨.

(٢) - انظر تفصيل ذلك في كتاب «اسطورة الأدب الرفيع»، للمؤلف، الذي صدر في عام ١٩٥٧ ـ ص ٣٦٩ ـ ٣٨٤.

(٣) - محمد علي الصوري «الاقطاع في لواء الكوت»، بغداد ١٩٥٨، ص ٣٤ ـ ٣٥.

الاقتداء به قليلاً او كثيراً. ولو أن العهد كان قد امتد بالعراق لربما صار جميع الشيوخ فيه من هذا الطراز.

التهافت على الوظائف:

كانت دوائر الحكومة في عهد الاحتلال يشغلها بريطانيون وهنود في الغالب، ولم يكن فيها من العراقيين إلاّ قليل. وعندما تشكلت الوزارة العراقية الاولى في خريف ١٩٢٠ اتجهت السياسة الإنكليزية نحو تقليص عدد البريطانيين والهنود في الدوائر وتعيين عراقيين بدلاً عنهم. ومنذ ذلك الحين بدأت في العراق ظاهرة التهافت على الوظائف وهي الظاهرة التي صارت تنمو بعدئذٍ وظلت تنمو حتى يومنا هذا دون أن يخمد لها أوار.

في ١٠ حزيران ١٩٢١ نشرت جريدة «العراق» افتتاحية بتوقيع «ع. ج. فهمي» كان عنوانها «معضلة الموظفين وحلها». ويمكن اعتبار هذه المقالة أول مقالة من نوعها في تاريخ العراق الحديث. إذ هي تتضمن أول اشارة الى تهافت الناس على الوظائف وما ينتج عنها من أضرار اجتماعية.

يقول الكاتب: ان التهافت على الوظائف من أسوأ العادات عندنا، واشار الى أن الذين نالوا الوظائف شعروا كأنهم نالوا بها السعادة، أما الذين لم يسعفهم الحظ في نيلها فقد صاروا يسلقون أولياء الامور بألسنة حداد...

يمكن تعليل ظاهرة التهافت على الوظائف في تلك الايام بأسباب ثلاثة نوجزها كما يلي:

أولاً: أن الوظيفة تمنح صاحبها مكانة اجتماعية عالية إذ تجعله من طبقة الحكام وأصحاب النفوذ.

ثانياً: كان مستوى الرواتب في تلك الايام ارفع جداً من مستوى الاجور للعمال

وأصحاب المهن. ويبدو أن الإنكليز تعمدوا ذلك لكي يجعلوا الوظيفة مغرية للمتعلمين ومخدّرة لهم.

ثالثاً: كان العراق آنذاك يعاني أزمة اقتصادية وكساداً في الاسواق بعد التضخم الذي حدث في فترة الاحتلال.

اتجهت السياسة الإنكليزية نحو اسناد الوظائف الى الأفندية العائدين من سوريا، وقد نال هؤلاء في الواقع حصة الأسد من المناصب العالية في الحكومة الجديدة. وقد أدى ذلك الى امتعاض الافندية الآخرين، وأخذوا يرفعون عقيرتهم بالتذمر من «ظلم الاستعمار».

كان في مقدمة المتذمرين من هذه السياسة ابناء الأسر العريقة في بغداد، فلم يهن على هؤلاء أن يروا اشخاصاً يتولون المناصب العالية وهم ليسوا من طبقتهم بل من طبقة كانوا يعدونها في الماضي لانسب لها ولا حسب. تقول المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ١٢ نيسان ١٩٢١:

«ان الاعيان الذين يعدون أنفسهم متميزين عن غيرهم لم يستسيغوا أن يروا شباناً، معظمهم لا اسرة لهم، وهم الذين خدموا في سوريا تحت إمرة فيصل، قد يسيطرون على العراق. إن تفكير الأعيان لايطابق تفكير هؤلاء الشبان الذين هم تقدميون جداً ومستعدون أن يتحدثوا باستمرار وبصوت عالي في ضرورة التخلص من الرجعيين القدامى، وادخال عناصر جديدة...».[1]

ويأتي بعد الأعيان في التذمر الافندية الذين شاركوا في ثورة العشرين، في العراق ولكنهم لم يشاركوا في الثورة العربية في الحجاز وسوريا. فهم كانوا يعتبرون أنفسهم أولى من غيرهم بمناصب الحكومة الجديدة. نلاحظ هذا الشعور واضحاً في كتاب

(١) - Burgoyne (op. cit) - vol 2, p. 212.

علي البازركان، فهذا الرجل كان من قادة الحركة الوطنية في بغداد، كما ذكرناه سابقاً، وعندما تأسست الحكومة الجديدة شعر بأنه لم ينل فيها المكانة التي يستحقها. ننقل فيما يلي ما قاله في هذا الشأن:

«... وهكذا أخذت الوزارات المتتاليه تدفعني ـ بإيعاز من الإنكليز ـ من لواء الى لواء، حتى توظفت في ١٣ لواء من ألوية العراق،وكانوا يريدون أن أموت على ايادي أذناب المستعمرين القذرة إلاّ أن شيئاً من ذلك لم يتم بحمد الله تعالى. فذقت المرض والمشقة والتعب والاهانات الى الدرجة التي أيقنت معها أن الذي لاقيته هو المكافأة الطبيعية التي يلاقيها من يخدم أمته بأخلاص من ابناء قومه. ولم أتحرر من قيود الوظيفة إلاّ عام ١٩٣٩ فانزويت في داري لا أخرج منه إلاّ نادراً، ولست بحاجة الى أي فرد سوى ربي. أعيش من ثروة قليلة جاءتني عن أجدادي، فلست من اصحاب السيارات أو العقارات ولا همّ لي إلاّ الخلاص من أذناب المستعمرين».[1]

ويروي علي البازركان ان الملك فيصل اعترف له في عام ١٩٢٩ بمقاومة الإنكليز وأذنابهم له، وقال له: «لا تنس أنك قمت تجاه أعظم دولة في العالم، وانهم لاينسوها، وينبغي أن تتحمل ما تقاسيه من ويلات». فسأله البازركان: «أأسكت إذن يا مولاي؟». ولما أجابه الملك بالايجاب قال البازركان: «ستراني من الصابرين».

ويصب البازركان جام غضبه على الأفندية الذين شاركوا في الثورة العربية ثم تولوا المناصب العالية بعدئذ، فهو يصفهم بأنهم صاروا في العراق من المنعمين المترفين، وقد احتكروا أرفع وظائف الدولة وأدسمها في جر المغانم والمكاسب، فأثروا بعد فقر، وأتخموا بعد مسغبة، يحكمون كما يشاؤون بلا محاسبة أو مسؤولية، ثم يقول عنهم: أنهم اصبحوا كالذين اشتركوا في معركة بدر والذين قال النبي فيهم: «اطلع الله على أهل

---

(١) ـ علي البازركان «الوقائع الحقيقية»، بغداد ١٩٥٤، ص ٢٢٢.

بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». وينتهي البازركان من ذلك الى نتيجة هي أنه يخشى أن تؤدي هذه الحالة بالبلاد الى هاوية سحيقة لايعلم قرارها إلاّ اللّه لأن الظلم لايدوم والباطل لايبقىٰ...[١]

تذمّر الشيوخ:

في الوقت الذي ظهر فيه التذمر لدىٰ بعض الأفندية تجاه البعض الآخر منهم ـ علىٰ النحو الذي ذكرناه ـ ظهر تذمر أشد منه لدىٰ شيوخ الثورة تجاه الأفندية بوجه عام. وكان سبب تذمر هؤلاء الشيوخ أنهم وجدوا الأفندية يستحوذون علىٰ الكراسي في الحكومة الجديدة فصاروا يتلاومون فيما بينهم ويتساءلون: لماذا قمنا بالثورة إذن، وقدمنا التضحيات الجسيمة في الاموال والأرواح؟ الكي يتولى هؤلاء الأفندية مناصب الدولة ويتحكمون في أمورنا كما يشاؤون!؟

صار تذمر الشيوخ ينمو بمرور الزمن. فإن الرجل منهم لايكاد يرى معاملة له تتأخر في احدى دوائر الحكومة حتىٰ يرفع صوته ناقداً ويجأر بالشكوى والتذمر.

وكان من أهم العوامل في نمو هذا التذمر شيوع الرشوة والوساطة والمحسوبية في دوائر الحكومة وهي الأدواء التي ورثتها الدوائر من العهد التركي. وهكذا انتشر بين الشيوخ شعور قوي بخيبة الأمل من نتيجة الثورة التي قاموا بها، ومن الحكومة الجديدة التي طالبوا بها.

حدثني احد المطلعين: ان الشيوخ المتذمرين كانوا يلجأون دائماً الى الملك فيصل يبثونه شكواهم، فكان هو يداريهم علىٰ طريقته المعهودة، ويحاول تخفيف لوعتهم، ويساعدهم بمقدار جهده. ويقال ان أحدهم قال له ذات مرة: ان المرحاض الذي هدمناه بنيتموه من جديد بنفس الطابوق الذي كان مبنياً به من قبل. فأجابه الملك:

---

(١) – المصدر السابق، ص ٢٤٠.

ماذا نصنع؟ ومن أين نأتي بالموظفين الأكفاء؟ هل نأتي بهم من سوريا؟!

أشار الكابتن لايل في كتابه الى هذا الموضوع، وهو قد عاش في العراق فترة طويلة بعد الثورة وشاهد الاحداث بنفسه، حيث قال: ان من الصعب أن تتصور فئة من الموظفين أشد تفسخاً من هؤلاء الأفندية، ولكن الإنكليز اضطروا الى توظيف بعضهم لقلة الموظفين الأكفاء في العراق. ويروي لايل أن احد علماء الدين في كربلاء قال لويلسون: «إذا أراد الانسان هدم مرحاض عام لرائحته الكريهة فمن الخطأ ان يبني مرحاضاً جديداً بنفس الطابوق».(١)

قام الملك فيصل عقب تتويجه بعدة جولات زار فيها مختلف مناطق العراق، كانت أهمها جولته في الفرات الاوسط التي بدأت في ٢٢ تشرين الاول ١٩٢١. ويقال انه عند مروره بالديوانية هوّست العشائر تخاطبه قائلة: «للشيّد تاجك فك عينك»، أي افتح عينك للذين بنوا عرشك، يقصدون بذلك أنهم هم الذين شيدوا عرش العراق.

ويروي سلمان الصفواني قصة لها دلالتها في هذا الصدد، خلاصتها أنه كان في عام ١٩٢٧ في جولة بالسيارة قرب الرميثة بصحبة شعلان أبوالجون والضابط البريطاني المعروف كلوب باشا الملقب بـ«أبوحنيك»، ولما وصلوا الى أراضي العارضيات، وهي الاراضي التي شهدت احدى معارك ثورة العشرين، أمر شعلان سائق السيارة بالوقوف وبرفع سقف السيارة، ثم قام في وسط السيارة كالأسد الثائر وحسر عن رأسه وشمّر عن ذراعه، والتفت نحو كلوب بعيون مزورّة، وسأله قائلاً: «صاحب! صاحب أتعرف هذه الأراضي؟».

فأجابه أبوحنيك: «نعم هذه العارضيات». فقال شعلان: «نعم هذه العارضيات. اتوّغ ـ أي أنظر ـ فهناك معسكرات عمامك ـ يقصد الإنكليز جنودهم ودباباتهم

---

(١) - Lyell (Ins and outs of Mesopotamia) - London 1923 - p. 107.

ومدافعهم وسائر معداتهم، ومن هنا خرج عليهم خوالك بني حجيم على حين غرة واحدقوا بهم من كل صوب، وما هي ساعة لاتشبه الساعات كنت لاتسمع فيها إلاّ دويّ المدافع وأزيز الرصاص ورعد الطائرات وفرقعة القنابل وصرخات القتل وأنين الجرحى، حتى ثردنا لك اياهم ثرد. مكانك خالي يا صاحب». فاكفهر وجه كلوب ولكنه ظل ساكتاً.

وواصل شعلان كلامه قائلاً: «ان هذه الارض لاتشبه بقية الاراضي. أنها حمراء قانية من الدماء، مشحونة بالاشلاء، افتدري لم كل هذه التضحيات يا صاحب؟... لتؤسس حكومة عربية مستقلة». والتفت نحو سلمان الصفواني قائلاً: «اليس كذلك يا سلمان؟!» فأجاب الصفواني: «بلى والله».

وعند هذا تكلم كلوب حيث قال: «لقد تم لكم ذلك يا شعلان، فلكم الآن حكومة ودستور وبرلمان ووزراء وموظفون، فماذا تريدون غير هذا؟». ولم ينتظر شعلان أن يتم كلوب كلامه بل علق عليه قائلاً: «ولكنهم يرطنون»، ثم لطم جبينه بكفه وصرخ قائلاً: «عوينت أبيكم يا بني حجيم!». وكأنه يقول: لقد ربحتم المعركة يا بني حجيم وخسرتم النتيجة.(١)

مفاخرات:

عندما أصبحت ثورة العشرين مناط الفخار لمن شارك فيها أخذ يدعيها الكثيرون في الحق والباطل. وهذا أمر طبيعي في البشر لا غرابة فيه.

انهم اتفقوا جميعاً على أن الفرات الاوسط كان محور الثورة وعمودها الفقري، ولكنهم اختلفوا في تعيين الفئة التي حركت الفرات الاوسط وحفزته على الثورة.

يدّعي النجفيون أن ثورتهم التي حدثت في ربيع ١٩١٨، والتي كانت أول ثورة

---

(١) – فريق المزهر الفرعون «الحقائق الناصعة»، بغداد ١٩٥٢، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٤.

على الإنكليز في العراق، هي الشرارة التي اندلعت منها ثورة العشرين أخيراً وينافسهم في هذا الادعاء أهل تلعفر إذ هم يعدون حركة تلعفر التي حدثت في أوائل حزيران ١٩٢٠ هي الجديرة بأن تكون شرارة الثورة. ويدّعي مثل هذا سكان الفرات الاعلى حيث يقولون ان الأحداث المثيرة التي وقعت في دير الزور والبوكمال، وما تلاها من أحداث راوة وعانة، كانت من أهم العوامل المشجعة لثورة الفرات الاوسط. وروي لي أحدهم هوسة تشير الى ذلك زاعماً ان عشائر الفرات الاوسط أطلقوها عند ثورتهم، وليس هنا مجال ذكرها.

وفي الوقت نفسه يدّعي الأفندية الذين كانوا في سوريا عند قيام الثورة انهم هم الذين أشعلوها، لأنهم هم الذين كانوا وراء أحداث دير الزور وتلعفر، وهم الذين أرسلوا الاموال والدعاة للتحريض على الثورة في أنحاء العراق المختلفة. ولكن أفندية بغداد لايؤيدونهم في هذا الادعاء، وينسبون الى أنفسهم الفضل الاكبر في تحريض الفرات الاوسط على الثورة. يقول علي البازركان في هذا الصدد مانصه:

«أما ما يثبت من أن رأس خيط الثورة كان بيد البغداديين، وأنهم هم الذين حرّضوا الناس ضد الإنكليز، واثاروها عوانا عليهم، فهي الهوسات والأهازيج التي كانت العشائر الفراتية تترنم بها، فهي تحمل هذا المعنى، فكانوا يقولون: (وجّوها وذبوها علينا). وقد سمعتها باذني من أفراد العشائر التي كانت مخيمة في الوند من آل فتله وبني حسن...».

ويروي البازركان: ان علوان الحاج سعدون رئيس عشيرة بني حسن فسّر له تلك الهوسة عندما سأله عنها، حيث قال: «تريدون الصدك انتم وجّيتوها وانهزمتم واحنا بكينا نقاتل الإنكليز». وقد فاه بمثل هذا القول الشيخ مرزوق العواد رئيس

عشيرة العوابد الذي كان من المنتسبين الى حزب حرس الإستقلال.[١]

الواقع ان الفراتيين لايستسيغون هذه الادعاءات من البغداديين أو غيرهم، فهم يقولون: انهم قاموا بالثورة من تلقاء أنفسهم دون أن يحرضهم أحد أما البغداديون فقد جاءوا الى الفرات لاجئين بعد فشلهم في بغداد وهربهم منها.

ويجب أن لاننسىٰ أن الفراتيين أنفسهم اختلفوا في ادعاءاتهم: كل فريق منهم يريد أن ينسب أكثر الفضل في قيام الثورة الى نفسه، ويقلل شأن غيره فيها. فمن يقرأ كتاب «الحقائق الناصعة» لفريق المزهر الفرعون مثلاً يشعر كأنه يريد أن يقول بأن آل فتلة كانوا عماد الثورة وقطب رحاها. وقد نحا نحوه آخرون علىٰ درجات مختلفة واشكال شتى ـ مما لا مجال هنا لذكره ـ.

ان أعجب الادعاءات في الواقع جاء به كاتب اسمه عباس علي في كتاب له بعنوان «زعيم الثورة العراقية»، فهو جعل الثورة كلها من تدبير شخص واحد هو السيّد محمد الصدر، وملأ كتابه بالمبالغات والأماديح الرنانة علىٰ الطريقة «المناقبية» القديمة، ولعله اساء بذلك الى السيّد محمد أكثر مما أفاده، لأن المبالغات في مثل هذا الموضوع قد تؤدي الى العكس منها.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد اني عندما زرت السيّد أبوالقاسم الكاشاني في داره في طهران في صيف ١٩٥٧، واستمعت إليه يتحدث عن دوره في ثورة العشرين، وجدته لايقل مبالغة عن عباس علي، وربما تفوق عليه من بعض الوجوه. فهو لم يكتف بأن جعل نفسه من أعمدة ثورة العشرين بل أضاف الى ذلك أنه عماد ثورة ايران في عهد مصدق، ومحرّك ثورة الجزائر ايضاً. ولما سألته عن الطريقة التي حرّك بها ثورة الجزائر أجاب: «انه أرسل الى الجزائر منشوراً يحث أهلها علىٰ الثورة

---

(١) – علي البازركان «المصدر السابق»، ص ١٢٩.

فثاروا». وقد اراني نسخة من المنشور وطلب مني قراءته على الحاضرين في مجلسه، فقرأته عليهم. والمظنون أنه فعل ذلك مع كل من يحضر مجلسه عشرات المرات!

جولة هالدين:

في أواخر ١٩٢١ قرر الجنرال هالدين أن يقوم بجولة في مناطق الثورة، ولا سيما في الفرات الاوسط وديالى، بغية الإجتماع بالشيوخ الذين شاركوا في الثورة، والتحدث اليهم. ولاندري هل فعل ذلك من تلقاء نفسه أم بايعاز من حكومته. إنما هو على أي حال كان في أحاديثه مع الشيوخ مجاملاً الى أبعد الحدود، حيث صار يطنب في مدحهم واعترف لهم بأن قصدهم في الثورة كان نبيلاً لأنهم كانوا يطالبون بحقوق بلادهم المشروعة.

ذهب هالدين في اول الأمر الى بعقوبة لقربها من بغداد، وكان متصرف لواء ديالى قد أخبر بالجولة بصورة رسمية فاستعد لها، وجمع شيوخ المنطقة بغية الإجتماع بهالدين عند وصوله. ولما وصل هالدين وقف يخطب في الشيوخ باللغة الإنكليزية، وكان الكابتن لويد يترجم أقواله الى العربية.

أخذ هالدين يحمد للشيوخ قيامهم بالثورة باعتبار أنهم كانوا يطالبون باستقلال بلادهم، ثم عطف الحديث الى نفسه وصار يعتذر لهم عن محاربته لهم بأنه إنما فعل ذلك طاعة لأمر حكومته، فهو مأمور ليس له إلاّ الطاعة، وإذا كانوا هم قد حاربوا بشرف في سبيل بلادهم، فهو قد حارب بشرف أيضاً. وانتهى هالدين الى القول بأنهم إذا عادوا الى الثورة من جديد، فلابد له من أن يعود لحربهم كذلك ويكسر رؤوسهم.

لما تعجب الكابتن لويد من هذه العبارة الأخيرة من هالدين، ولما ترجمها الى الحاضرين علق عليها بالعربية قائلاً: «هذا القائد حمار». فضحك الحاضرون من هذا التعليق اللاذع. واستغرب هالدين من هذا الضحك وقال للكابتن لويد: انه لم يتفوه بشيء مضحك فلماذا هذا الضحك؟! فأخبره لويد عن سبب الضحك وقال انه

وجد من المصلحة في هذه الظروف ان يصفه بالحمار. فقال هالدين: «إذا كانت مصلحة الامبراطورية البريطانية تقتضي أن تصفني بهذه الصفة فلا بأس».(١)

في ٧ كانون الاول ١٩٢١ وصل هالدين الى لواء الحلة والديوانية، وأخذ يتجول في أقضية اللواء ونواحيه. وكان متصرف اللواء آنذاك علي جودت الأيوبي، وقد صحبه في جولته. ويقول الأيوبي في مذكراته عن ذلك ما نصه:

«كان هذا القائد عسكرياً نبيلاً وقد تكلم في عدة محلات وظروف بكلمات تنم عن احساس رقيق وشعور طيّب. وقد أظهر كثيراً من الأسف لوقوع بعض الضحايا في أثناء الثورة، وتمنى أن يسود حسن التفاهم بين الطرفين. وفي الدغارة اجتمع برؤساء العشائر وخاطب الجميع قائلاً: ان لديه أصدقاء في بريطانيا وعند عودته إليها سيوصي أصدقاءه بمساعدة العراق لنيل استقلاله وهو يرجو له الرفاه والسعادة. ثم أشار الى شيخ عشائر الأكرع سعدون الرسن الذى كان يقود أفراد عشيرته ضد الإنكليز وأثنى على شجاعته وقال: «انه كان شجاعاً وكان قائداً لأفراد عشيرته يقاتل بين صفوفهم، بينا كنت أنا (هولدين) قائداً أيضاً للجيوش البريطانية اعطي الأوامر بعيداً عن خط القتال». وهنا صاح سعدون الرسن مخاطباً الجنرال هولدين: «صاحب! الميري، الميري»، يقصد تخفيف الضرائب، أي أن الضرائب هي التي تثقل كاهلنا يا حضرة القائد».(٢)

كان هالدين يرغب في لقاء بعض أبطال الثورة الذين اشتهروا بشجاعتهم في المعارك. وكان من جملة الذين رغب في لقائهم برجس الجياد بطل معركة السوير. انه كان يظن أنه سيشاهد رجلاً عملاقاً مهيباً يرتدي الملابس المناسبة لكفاءته الحربية، ولكنه أصيب بالدهشة حين دخل عليه برجس وهو يرتدي الملابس الريفية البسيطة

---

(١) – حدثني بذلك السيّد أحمد الراوي نقلاً عن الكابتن لويد نفسه.

(٢) – علي جودت «المصدر السابق»، ص١٥١ ـ ١٥٢.

وحذاؤه العتيق يطقطق في قدميه.[١]

كان هالدين حريصاً علىٰ لقاء عبدالواحد الحاج سكر، إذ كان يعتبره قائد الثورة في الفرات الأوسط. ويروي فريق المزهر الفرعون عن لقائهما ان هالدين قدم لعبد الواحد الشاي والقهوة بنفسه وأشعل له السكارة وقال له: «إذا افتخر العرب فمن حقهم أن يفتخروا مادام يوجد بينهم رجال مثلك بما أبهرت عيوننا نحن الغربيين حيث أنك قمت بثورة في العراق ضد بريطانيا تلك الدولة التي تعد من أعظم دول العالم، ناشداً من ثورتك استقلال بلادك، وبذلت أموالاً ونفوساً، وقدت تلك الثورة بنفسك واخوانك من آل فرعون، وأنت تسير أمام قومك حتىٰ نلت مناك، ولم تنكر ذلك في كل أدوارك وأطوارك، حتىٰ في محاكمتك أمام المجلس العرفي العسكري كنت محافظاً علىٰ الصدق والاخلاص لبلادك. فها أني أقدم لك هذه الساعة الذهبية بما نُقش فيها من العبارات التي هي بحق ما تستحقه من تقديري العظيم لك ولبطولتك ومحافظتك علىٰ عقيدتك وكلامك». ثم قدم هالدين الساعة الذهبية الى عبدالواحد، وقد نُقش علىٰ غطائها من الداخل هذه العبارة: «من الجنرال هالدين القائد العام في العراق الى الشيخ عبدالواحد الحاج سكر المحافظ علىٰ كلامه ١٩٢٢».[٢]

يبدو ان فريق المزهر الفرعون بالغ في روايته هذه علىٰ طريقته في كل ما يتصل بمناقب آل فتلة، ولكني مع ذلك استطيع أن أقول ان روايته لاتخلو من شيء من الحقيقة قليلاً أو كثيراً. والظاهر أن هالدين مدح عبدالواحد اكثر مما مدح الشيوخ الآخرين، وربما كان قصده اجتذاب قلب عبدالواحد. فإن المدح من أهم الوسائل لاجتذاب القلوب!

---

(١) – حدثني بذلك عبدالحميد الياسري، وهو يعرف برجس معرفة شخصية.

(٢) – فريق المزهر الفرعون «المصدر السابق»، ص٤٤٨ ـ ٤٤٩.

خاتمة

رأي للمناقشة حول ثورة العشرين

هناك رأي تأخذ به طائفة من علماء الإجتماع مؤداه أن الظلم وحده لايكفي لقيام الشعوب بالثورات على حكامها بل يجب أن يكون في الشعوب أيضاً شعور بالظلم وحافز يحركها للثورة، وهو ما نسميه بـ«الوعي الثوري».

ان الشعوب قد ذاقت في العصور القديمة والوسطى أبشع أنواع الظلم والاضطهاد، والاستغلال والاستعباد، دون أن تقوم بالثورة على حكامها إلاّ في حالات نادرة، بينما هي في العصر الحديث قد قامت بالثورات المتعاقبة حتى لا يكاد يمر جيل دون أن تنشب فيه ثورة أو عدة ثورات. والسبب في ذلك أن الناس كانوا قديماً يرضخون للظلم ويعتقدون أنه أمر مكتوب عليهم لامفر منه، ولكن نزعة الخنوع هذه أخذت تضعف لدى الناس منذ بداية العصر الحديث على أثر اختراع الطباعة وانتشار وسائل النشر والتثقيف والتوعية بينهم، حيث تفتحت بها أذهان الناس وصاروا ينظرون الى الحكام نظرة تختلف عن نظرتهم القديمة اختلافاً جذرياً. فبعدما كان الناس قديماً يعتبرون الحاكم يحكم بالحق الآلهي، أو هو ظل الله في الارض، أصبحوا الان يعتبرونه خادم الشعب أو مأجوراً له. وبعدما كان الكتّاب والشعراء يجودون بقرائحهم تزلفاً للحكام وهم يتوقعون منهم المكافأة على ذلك، أصبحوا يتزلفون للشعب ويبتغون المكافأة منه.

درس من الثورة الفرنسية:

ان الثورة الفرنسية التي نشبت في عام ١٧٨٩ تعطينا أمثلة حية على ما ذكرناه. فقد ثبت من التحقيق الذي قام به عدد من المؤرخين ان الشعب الفرنسي كان عند قيام الثورة أرفه حالاً من الشعوب الأوربية الأخرى كالشعب الألماني والايطالي والروسي والنمساوي والأسباني، وهو إنما قام بالثورة ليس لأنه كان أكثر مظلومية من غيره بل لأنه كان أكثر وعياً ثورياً. فقد ظهر في فرنسا في الفترة التي سبقت الثورة مفكرون وكتّاب، من طراز مونتسكيو وجان جاك روسو وفولتير وديدرو، كان دأبهم ايقاظ الشعب وتعليمه أفكاراً ثورية هادمة لمبدأ الحق الآلهي للملوك.

وكان من العوامل التي ساعدت على قيام الثورة الفرنسية نشوب الثورة الامريكية قبلها بسنوات معدودة. ومما يجدر ذكره أن الحكومة الفرنسية أيدت الثورة الامريكية بالمال والجنود نكاية بعدوتها بريطانيا، وهي حين فعلت ذلك لم تكن تدري أن نجاح الثورة الامريكية سيؤدي الى تنامي الوعي الثوري لدى الفرنسيين. والواقع أن الدستور الذي سنّه الثوار الامريكيون كان مستمداً في معظمه من كتاب مونتسكيو «روح القوانين»، وعند وصول خبره الى فرنسا أصبح محور أحاديث الفرنسيين ومناط اعجابهم، وكان لذلك من أهم الدوافع التي دفعتهم الى الثورة.

ويجب أن لاننسى في هذا الصدد أن لويس السادس عشر الذي كان يحكم فرنسا عند قيام الثورة كان أقل ظلماً من أسلافه وربما كان أقرب الى الشعب منهم، وقد استبشر الشعب به عند توليه الحكم على أثر موت جده المتفسخ لويس الخامس عشر في عام ١٧٧٤. يقول أحد المؤرخين في ذلك ما نصه:

«وبدا في فرنسا أن الحكم الجديد يبشر ببداية عهد طيب خير من سابقه، فقد تنفس الناس الصعداء مع نهاية حكم لويس الخامس عشر، وعم الارتياح معظم الطبقات.. فقد رحب الناس بمقدم الملك الجديد، الملك لويس السادس عشر، لأنهم

رأوا فيه لوناً من التغيير تطمئن إليه نفوسهم، ولقي شخص الملك من جانبهم كل حب وتقدير واحترام. فقد كان لويس السادس عشر يفيض قلبه بحب الانسانية التي سادت نزعتها أيام حكمه الاولى، وارتسمت آمالها في أفق حياة البلاد في تلك الفترة من تاريخها. وهي نزعة وآمال أبدى صاحبنا استعداده للأخذ بيدها ونصرتها عن طريق تغيير نظام الحكم. فقد كانت سنّته في أيام حكمه الاولى، بل ودينه في ساعاته الأخيرة، واحدة لاتتغير تلك أنه ملك يحب شعبه...»[١].

عيب لويس السادس عشر أنه كان لايملك صفات الحاكم الحازم. وقد وصفه المؤرخ المعروف فيشر قائلاً: «ان لويس السادس عشر كان يملك كل الفضائل الشخصية كالنزاهة والتقوى واللطف والفهم الجيد، ولكنه لايستطيع أن يحكم.

انه يفتقد الصفات التي تجعل منه رجل دولة كوضوح الفكرة والحزم وانتهاز الفرص وموهبة المثابرة. فهو بدلاً من أن يوجّه الأحداث انجرف مع التيار».[٢]

عندما قامت الثورة ونال الثوار أول انتصار عظيم لهم بسقوط الباستيل في ١٤ تموز ١٧٨٩، كان في مقدور الملك أن يقضي علىٰ الثورة وهي في مهدها، بقواته الموالية له، ولكنه لم يوافق علىٰ ضرب الثورة. بل آثر تأييدها.

وفي ١٦ تموز جاء بنفسه الى باريس فحضر صلاة الشكر التي أقامها الثوار في كاتدرائية نوتردام، ثم ذهب الى قصر البلدية حيث قدموا له الشارة المثلثة الألوان التي أصبحت شعار الثورة، فتسلمها الملك وهو يقول: «يستطيع شعبي أن يعتمد دائماً علىٰ حبي».[٣]

---

(١) – أحمد عصام الدين «الثورة الفرنسيّة»، القاهرة ١٩٧١، ص١٦ ـ ١٧.

(٢) – Fisher (A history of Europe) - London 1944 - p.795 - 796.

(٣) – سوبول «تاريخ الثورة الفرنسيّة»، ترجمة جورج كوسي، بيروت ١٩٧٠، ص١٢٤.

يبدو أن الشعب الفرنسي كان يزداد نقمة على الملك وثورته عليه كلما ازداد هو من جانبه في لينه وتساهله معهم، حتى انتهى الأمر بهم أخيراً الى اعدامه بالمقصلة هو وزوجته الجميلة ماري انطوانيت.

حول ثورة العشرين:

عند دراستنا لثورة العشرين في العراق يواجهنا السؤال التالي: لماذا تحمّل العراقيون حكم الأتراك طيلة أربعة قرون، وقبله حكم المغول والتتار، دون أن يثوروا عليهم، بينما هم ثاروا على الحكم الانكليزي بعد مضي سنتين أو ثلاث عليه، هذا مع العلم ان الحكم التركي وما قبله كان أكثر ظلماً وتفسخاً من الحكم الانكليزي؟

يحاول بعض الكتاب الجواب على هذا السؤال بقولهم ان العراق كان في ثورة دائمة في العهود الماضية، وهم يأتون بأمثلة على ذلك بالثورات المتتابعة التي كانت العشائر العراقية تقوم بها ضد الحكومة بين كل حين وآخر.

ليس من الصواب في رأيي اطلاق مصطلح «الثورة» على الثورات العشائرية التي قامت في العهد التركي وما قبله، بل هي كانت الى مفهوم التمرد المحلي أقرب. أنها كانت محدودة النطاق ولم يكن يقوم بها سوى عشيرة واحدة أو مجموعة من العشائر دون أن يؤيدها أهل المدن أو رجال الدين أو غيرهم. وهي بذلك تختلف كل الاختلاف عن ثورة العشرين.

ان ثورة العشرين ـ كما أشرنا إليه في حينه[1] ـ تمتاز على الثورات العشائرية السابقة لها بميزة واضحة هي أنها اشترك فيها الشعب العراقي بمختلف فئاته وطبقاته، حيث رأينا فيها الرجل الريفي الى جانب الرجل الحضري، والسني الى جانب الشيعي، والعربي الى جانب الكردي، والملاّي الى جانب الأفندي، وكلهم يهتفون:

---

(١) ـ انظر القسم الأول من هذا الجزء، بغداد ١٩٧٧، ص ١٤ ـ ١٥.

ليحي الوطن! يمكن القول ان هناك تشابهاً كبيراً بين الثورة الفرنسية وثورة العشرين من حيث أثر الوعي الثوري في نشوبها. فقد اجتمعت في عهد الاحتلال الإنكليزي في العراق عدة عوامل من شأنها تنبيه الأذهان وتحفيز الشعب على الثورة. وقد ذكرنا تلك العوامل بتفصيل في القسم الاول من هذا الجزء، ونكتفي هنا بذكر موجز لها على النحو التالي:

١ ـ **العامل الديني**: كان العامل الديني من أهم العوامل ـ ان لم يكن أهمها ـ في نشر الوعي الثوري بين العراقيين. وقد بدأ هذا العامل عمله منذ حركة الجهاد في أثناء الحرب، وهي الحركة التي تزعمها الملائية وتحمسوا لها. ولما انتصر الإنكليز في الحرب أخيراً وتم لهم احتلال العراق عدّ الملائية ذلك انكساراً لهم وصاروا يتحينون الفرص لاثارة الناس على الحكم الجديد. وعندما قامت الثورة أخيراً اعتبرها الملائية امتداداً لحركة الجهاد وصاروا يطلقون على الثوار لقب «المجاهدين» ويتهمون كل من يتعاون مع الإنكليز بأنه كافر نصراني.

٢ ـ **موت اليزدي**: مما زاد في قوة العامل الديني موت السيد كاظم اليزدي الذي كان يتولى المرجعية الدينية لدى الشيعة، فقد كان هذا الرجل لايحب الأتراك ولم يؤيد حركة الجهاد من أعماق قلبه، وحين جاء الإنكليز أيدهم مشترطاً أن يبقى تأييده لهم طي الخفاء. وشاء القدر أن يموت هذا الرجل في ٣٠ نيسان ١٩١٩، فاعتبر الإنكليز موته خسارة جدية لهم.[1] وقد حل محله في المرجعية الدينية رجل على النقيض منه هو الميرزا محمد تقي الشيرازي الذي كان مقيماً في كربلاء، والواقع ان هذا الرجل قام بدور مهم جداً في اثارة الناس على الإنكليز، وقد اتهمه الإنكليز لذلك بأنه كان على اتصال سري بالبلاشفة وأن ابنه يقبض منهم الأموال.

---

(١) - Atiyyah (Iraq) - Beirut 1967 - p.233 , 330.

٣ ـ **نشاط الافندية:** كان الأفندية يتولون الوظائف في العهد التركي وهم فيه جاه ونفوذ. فلما انسحبت الحكومة التركية من العراق فقد الافندية وظائفهم ونفوذهم، وصار الكثير منهم يرتادون المقاهي والدواوين يبشرون الناس بقرب عودة الأتراك الى العراق. وقد اتفقت مصلحتهم في ذلك مع الملالية، وأخذ الفريقان يتعاونان في بث الدعاية المناوئة للاحتلال الإنكليزي، وكان لتعاونهما أثره البالغ في نشر الوعي الثوري في أوساط العامة إذ هما كانا يمثلان الطبقة المثقفة في ذلك الحين ويعرفان كيف يؤثران في عقول الناس.

٤ ـ **الوعود البريطانية:** دأبت بريطانيا خلال الحرب على اغداق الوعود للعرب ولغيرهم من الشعوب قائلة لهم: اننا نحارب من أجل تحرير الشعوب ومنحها حق تقرير المصير. ولاحاجة بنا الى القول ان بريطانيا كانت تستهدف من تلك الوعود غرضاً سياسياً هو اجتذاب الشعوب الى جانبها في الحرب. وقد تبيّن لبريطانيا أخيراً أنها تورطت في اغداق تلك الوعود، لأن الشعوب بدأت تطالبها بتحقيق ما وعدت به. وقد اتضح أثر ذلك في العراق بشكل خاص إذ ان المتذمرين من الاحتلال الإنكليزي ـ لاسيما الملالية والافندية ـ استغلوا تلك الوعود واتخذوها سلاحاً في أيديهم لبث الوعي الثوري في الشعب العراقي. وقد خاطب السيّد علوان الياسري الإنكليز ذات يوم قائلاً لهم في محضر من شيوخ العشائر: نحن عشنا قبل هذا مئات السنين في وضع بعيد جداً عن الإستقلال، ولكنكم جئتم الينا أخيراً فأعطيتمونا وعوداً بالإستقلال، فأنتم عرضتم علينا فكرة الإستقلال في وقت نحن لم نطلبه منكم، ولم نكن نحلم به حتىٰ جئتم فوضعتم الفكرة في رؤوسنا، والآن في كل مرة نطالبكم بالإستقلال تسجنوننا.[١]

٥ ـ **الدعايات الخارجية:** في عام ١٩١٦ قامت الثورة العربية في الحجاز بقيادة

---

(١) ـ Mann (Administrator in The making) - London 1921 - p.292.

الشريف حسين، وفي عام ١٩١٧ قامت الثورة البلشفية الكبرى في روسيا بقيادة لنين، وفي عام ١٩١٩ قامت الحركة التحريرية في تركيا بقيادة مصطفى كمال، وكذلك قامت في العام نفسه الثورة المصرية بقيادة سعد زغلول. وقد كان لهذه الأحداث أثرها في بث الوعي الثوري في العراق بشكل أو آخر، إذ كانت أخبارها تصل الى العراق مضخمة فتثير في الناس التطلع واللهفة. وصار دعاة البلشفية يأتون الى العراق عن طريق ايران بزي زوار أو طلبة، كما جاء إليه دعاة من تركيا الكمالية. وتدعي المصادر الإنكليزية أن أولئك الدعاة كانوا يحملون معهم الأموال كما يحملون المنشورات والوعود المثيرة:

٦ ـ **العراقيون في سوريا**: في عام ١٩١٨ تأسست في سوريا حكومة عربية برئاسة فيصل بن الشريف حسين، وكان كثير من العراقيين يتولون المناصب العالية فيها. وقد أدرك هؤلاء العراقيون أن ليس لهم مستقبل في سوريا لأن السوريين أخذوا يضيقون بهم وينادون بمبدأ «سوريا للسوريين». ولهذا أخذ العراقيون في سوريا يوجهون أنظارهم نحو العراق بغية تأسيس حكومة عربية فيه من طراز حكومة سوريا. والواقع أنهم بذلوا في هذا السبيل جهوداً وأموالاً غير قليلة. وفي ٨ آذار ١٩٢٠. عندما بويع فيصل ملكاً علىٰ سوريا، اجتمع العراقيون في دمشق وأعلنوا استقلال العراق وبايعوا عبدالله ملكاً عليه. ثم أرسلوا الرسائل مع العلم العراقي الى ملالي العراق وأفنديته وشيوخه يعلمونهم بالأمر ويطلبون منهم الاستعداد. وبذا أصبح اسم عبدالله يلهج به الناس في كل مكان في العراق ويهتفون له. كما صار الناس يتوقعون ان يأتي عبدالله الى العراق بجيوشه الجرارة لطرد الإنكليز منه.

***

ان هذه العوامل المذكورة آنفاً جعلت العراقيين ـ لاسيما العشائريين منهم ـ في حالة من التوتر والتحفز بحيث لايحتاجون معها إلاّ الى شرارة صغيرة لكي يهبوا في

ثورة عارمة على الإنكليز. وقد انطلقت هذه الشرارة أخيراً في الرميثة في ٣٠ حزيران ١٩٢٠ ـ كما هو معروف.

كان الإنكليز قبيل انطلاق شرارة الثورة غافلين عما يدور حولهم، ولعلهم كانوا يصدقون ما يقوله لهم المتزلفون من أن الشعب العراقي يحبهم ويدعو لهم بطول البقاء. ولهذا ذهب قسم كبير من القوات الإنكليزية ومعها القائد العام للاصطياف في جبال العجم. وحين انطلقت الشرارة وردت من وزارة الحرب في لندن برقية الى القائد العام تسأله: ماذا يصنع في الجبال ونيران الثورة تشتعل في السهول؟![1]

أضف الى ذلك أن العشائر العراقية كانت حينذاك تملك وفراً من النقود من جراء التضخم النقدي وارتفاع أسعار الحبوب. كما كانت تملك عدداً من البنادق لم تملك مثله في أي عهد من عهودها الماضية ـ وهي البنادق التي نهبتها العشائر من الجيوش التركية والإنكليزية خلال الحرب التي استمرت أربع سنوات.

صارت العشائر تنال النصر تلو النصر على القوات الإنكليزية في بداية الثورة، وكان كل نصر تناله العشائر يؤدي الى تشجيع عشائر أخرى الى الإلتحاق بالثورة. ثم حدث أعظم نصر للعشائر في واقعة الرارنجية في ٢٤ تموز، وهي الواقعة التي يمكن تشبيهها بسقوط الباستيل في الثورة الفرنسية. وقد شاع خبر هذه الواقعة في العراق مع الكثير من المبالغات التي لابد أن تظهر في مثل تلك الظروف. وأصبحت العشائر في مختلف أنحاء العراق تطمح أن تنال مثل ما نالته عشائر الفرات الاوسط من نصر عظيم. وبذا عمت الثورة معظم أنحاء العراق.

رجاء أخير:

ان هذا رأي في تفسير ثورة العشرين نعرضه للمناقشة، ولكننا في الوقت نفسه

---

(١) ـ أمين الريحاني «ملوك العرب»، بيروت ١٩٥١، ج٢، ص٣٦٥.

نرجو ممن يريد المناقشة في هذا الموضوع أن يترك الاسلوب الخطابي الذي اعتدنا عليه، فهو أسلوب بطل استعماله في العالم المتمدن منذ زمان بعيد، ولكننا بقينا محافظين عليه. ولعله امتداد للتراث الشعري الذي سيطر على عقولنا. وقد آن الأوان لكي نتخلص منه.

انا في حاجة الى أسلوب جديد يلائم طبيعة الحضارة التي نعيش فيها!

الملحق الأول

ثورة النجف

كان المفروض أن تكون ثورة النجف من ضمن مواضيع الجزء الرابع من هذا الكتاب، لأنها وقعت في ربيع ١٩١٨ ـ أي في الوقت الذي كانت فيه الحرب مازالت قائمة بين الإنكليز والأتراك في العراق ـ ولكن عدم استكمال البحث فيها في حينه اضطرنا الى تأجيلها الى هذا الجزء.

ان ثورة النجف كانت أول ثورة في العراق على الإنكليز، وهي لم تستمر طويلاً إذ سرعان ما تمكن الإنكليز من القضاء عليها في مهدها. ولكنها على الرغم من قصر عمرها تُعتبر حدثاً مهماً من الناحية الاجتماعية، فهي تعطينا صورة حية من صور المجتمع العراقي في تلك المرحلة. ومن الممكن القول أنها من الاحداث التي تهم الباحث الاجتماعي والمؤرخ في آن واحد، أو لعل أهميتها الاجتماعية أكبر من أهميتها التاريخية. ومن المؤسف أن نجد معظم الذين كتبوا عنها ساروا في كتاباتهم على الطريقة المناقبية التقليدية، وبذلك أعطونا عنها صورة يختلط فيها الخيال بالواقع الى حد غير قليل.

عطية أبوقلل:

لايمكن أن نفهم ثورة النجف مالم نفهم شخصية عطية أبوقلل، فإن دراسة هذه الشخصية لها أهميتها من ناحيتين: فهي تلقي ضوءاً على طبيعة المجتمع النجفي من ناحية، وتكشف لنا عن أهم العوامل المحركة لثورة النجف من الناحية الأخرى.

وُلد عطية في النجف في عام ١٨٧٢، وحين بلغ مبلغ الرجال أبدى من الشجاعة

والجرأة في المعارك المحلية التي كانت تنشب بين محلات النجف تارة، وبين النجفيين والعشائر المجاورة لها تارة أخرى، مالفت إليه الأنظار وجعل مكانته الاجتماعية ترتفع في نظر أهل محلته وبلدته شيئاً فشيئاً. وقد أخذ عطية بالاضافة الى ذلك يخرج مع أعوان له لقطع الطريق على المسافرين ونهبهم، فقد كان ذلك من معالم الرجولة في عرف تلك الأيام.

تمثلت في شخصية عطيةمناقب الرجل البدوي من حيث كونه نهاباً وهاباً. فهو عندما توافر لديه المال من غزواته عمد الى بناء مضيف كبير له في النجف سماه «الدرعية». وكان ذلك في عام ١٨٩٩. وصار عطية من بعد ذلك يقف في مواسم الزيارة بين جماهير الزوار يدعوهم الى تناول الطعام في مضيفه إذ ينادي فيهم قائلاً: «يازوار الأمير تعالوا الى مضيف الأمير فيدرعية خادم الأمير عطية أبوكلل». وكان يبذل الطعام فيمضيفه بسخاء عجيب مما جعل الألسنة تلهج بمدحه.

كانت النجف مؤلفة من أربع محلات هي: العمارة والحويش والبراق والمشراق. وقد استطاع عطية أن ينال الرئاسة في محلة العمارة، ولكن طموحه لم يقف عند هذا الحد بل أراد أن يكون زعيماً للبلدة كلها اعتماداً على مالديه من موهبتي الشجاعة والكرم. ولم يكن الطريق ممهداً له طبعاً، إذ لابد أن يظهر تجاهه من رؤساء البلدة الآخرين من ينافسه على الزعامة. والواقع أن أهم من كان ينافسه في ذلك هو مهديالسيّد سلمان رئيس محلة الحويش،وقد أصبحت النجف من جراء ذلك ميدان صراع خفي بين هذين الرجلين ـ كل منهما يطمح الى التفرد بزعامة البلدة ويريد الايقاع بمنافسه عليها.

في أوائل عام ١٩١٤ حدث نهب لأموال الحكومة أثناء نقلها من النجف، فاتهم عطية بأن له ضلعاً في هذا النهب. وقيل ان السيّد مهديهو الذي أوغر صدر الحكومة عليه، كما قيل ان لعطية ضلعاً في النهب فعلاً على يد بعض أعوانه. فسيق عطية مع

بعض أعوانه الى بغداد مكبلين بالقيود، وجرىٰ عليهم هنالك تعذيب شديد استمر نحو أحد عشر شهراً. وتزعم المس بيل أن هذا التعذيب كان له تأثير سيء علىٰ شخصية عطية إذ تقول: «وبذا انقلب الشقي المتمرد علىٰ القانون غير الهياب الى شخص عصبي قلق لايحترم القانون».[١]

عندما اندلعت الحرب في العراق وأعلن الجهاد ساوم الأتراك عطية علىٰ أن يطلقوا سراحه لقاء انضمامه الى المجاهدين. وقد وافق عطية علىٰ ذلك وذهب علىٰ رأس عدد من أتباعه الى جبهة الشعيبه. ويقال انه اتصل هناك بالإنكليز سراً وتسلّم منهم بعض النقود، ولهذا كان من أوائل المنسحبين من المعركة،وتابعه في ذلك سيدر الفرعون وجماعته، مما أدى أخيراً الى هزيمة الجيش التركي.[٢]

ولما عاد عطية الى النجف بعدئذٍ ساهم في حركة العصيان التي قامت في تلك البلدة ضد الأتراك. وتقول المس بيل ان عطية اتصل في أثناء فترة العصيان بالإنكليز وكان يوازره في ذلك السيّد كاظم اليزدي.[٣]

وحين سقطت بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ ذهب عطية الى بغداد لمقابلة السر برسي كوكس وتهنئته بالنصر. يقول الشيخ رضا الشبيبي عن ذلك في يومياته ما نصه:

«.. غادر النجف الى بغداد عطيه أبوكلل، ولايزال الطريق ما بين بغداد وهذه الانحاء، بل بين بغداد وضواحيها، غير مأمون. ثم توجه الى بغداد آخرون من مشايخ الثوار كسعد وكاظم، وقد أغدق الإنكليز عليهم المال الأحمر وقربوهم.

---

(١) – المس بيل، «فصول من تأريخ العراق القريب»، ترجمة جعفر خياط، بيروت ١٩٧١، ص١١٧.

(٢) – حسن الأسدي، «ثورة النجف»، بغداد ١٩٧٥، ص ٢٣٠.

(٣) – المس بيل، «المصدر السابق»، ص٩٦.

وفي ١٦ جمادي الثانية سنة ١٣٣٥ ورد النجف من بغداد عن طريق كربلاء الكابتن ينك والكابتن سمث من ضباط الإنكليز ومعهما عطية أبوكلل، وهو احظى ثوار النجف عند الإنكليز. وقد استقبلهما المسلحون وهذه الغثراء وتظاهروا وأطلقوا لهما النار بما لم يُنتظر بعضه. وقد نزلا على عطية المذكور، وزارهما زعماء المتغلبين ثم ردا بعد ذلك عليهم الزيارة. وزارا أيضاً بعض البيوت الشهيرة في النجف مثل بيت الشيخ جعفر وبيت الشيخ راضي وبيت صاحب الجواهر وبيت الخراساني وسواهم. وقد طلب بعض النجفيين منهم مطالب وعدوهم بانجازها الى حين. وفي ٢٢ جمادي الثانية غادرا النجف الى بغداد بطريق الكوفة والسدة ومعهما عطية. ثم تبعه بدعوة منه بعض النجفيين. وقد تكاثر في هذه الأيام ورود دعاة الإنكليز...»

ثم يقول الشبيبي بعد هذا:

«عاد عطية وأولاده ومن معه من النجفيين من بغداد يوم الثلاثاء ١٦ رجب سنة ١٣٣٥، وكان قد صحب الضابطين الإنكليزيين. وقد ظهر أن عطية المذكور أحظى زعماء المتغلبين وآثرهم عند الإنكليز وانه كان يراسلهم ويقوم بقضاء مهماتهم منذ احتلالهم البصرة بل قبل ذلك. فلذلك قدموه وأسنوا عطائه. وقد أثرى هذا الرجل بعد ثورة النجف - يقصد عصيان النجف في عهد الأتراك - وتجر تجارة كبيرة بما تحصل له من أموال الإنكليز وغيرها، ولاسيما وان هؤلاء كانوا يسهلون السبيل لعماله في التجارة ويعطونهم الجوازات التجارية مجاناً. وقد بلغ من حظوته عندهم أن حقد عليه بعض اضرابه من النجفيين».[١]

منح الإنكليز لعطية سلطة اعطاء الرخصة لنقل البضائع والمواد الغذائية من النجف واليها، وأخذ التجار يتهافتون عليه للحصول على الرخصة في نقل بضائعهم،

---

(١) - مجلة «البلاغ»، في عدديها الثامن والتاسع من السنة الخامسة.

وصارت الرخصة تُعرف بين الناس باسم «باص عطية». وقد جنى عطية من ذلك ثروة طائلة حتى قيل ان النقود كانت تحمل إليه بالزنابيل.(١)

وعندما وصل السر رونالد ستورز مع حاشيته الى النجف في ١٩ أيار ١٩١٧، خرجت جماهير غفيرة من أهل النجف لاستقباله، وكان عطية في مقدمتهم. ويقول ستورز في مذكراته: ان أسواق النجف قد أغلقت بمناسبة قدومه تكريماً له.(٢) والمظنون ان عطية وأعوانه هم الذين أمروا أهل الاسواق باغلاق دكاكينهم تزلفاً لستورز. ولم يكن في مقدور أهل الاسواق حينذاك أن يخالفوا أمر عطية وأعوانه ـ كما لايخفى!

يمكن القول بوجه عام ان تلك كانت فترة الازدهار الكبرى في حياة عطية، إذ كان الإنكليز يعدونه موضع ثقتهم وركيزة نفوذهم في النجف، وكان هو من جانبه يخدمهم ويتزلف إليهم في كل سبيل. ولكن هذه الفترة لم تدم طويلاً، وليس من طبيعتها أن تدوم.

أخذت «الاخباريات» تصل الى الإنكليز مفادها ان عطية أبوقلل يعمل في تهريب المواد الممنوعة كالزئبق والقصدير الى الأتراك، فأرادوا التحقق من ذلك فأرسلوا إليه رجلاً كبيسياً اسمه ناصر، وقد اشترى هذا الرجل منه المواد الممنوعة ونقلها من النجف تحت حمايته.(٣) ويُروى ان الإنكليز أرسلوا إليه رجلاً آخر اسمه محمد ادعى أنه ضابط تركي هارب من أسر الإنكليز وانه جاء دخيلاً على عطية، فرحب به عطية وآواه عنده. وقد اطلع هذا الرجل على الصفقات السرية التي كان يعقدها عطية مع المهربين الأتراك، وعلى مبالغ الليرات التي يقبضها منهم، ثم عاد

---

(١) – حدثني بذلك أحد المسنين من أهل النجف.

(٢) – Storrs (Orientations) London 1939 - p.241.

(٣) – محمد علي كمال الدين «معلومات ومشاهدات»، بغداد ١٩٧١، ص ٢١.

محمد الى الإنكليز ليخبرهم بما شاهد.[(١)]

أدرك الإنكليز أن عطية ليس بالرجل الذي يوثق به، وصاروا يتحينون الفرص لتقليص نفوذه وتقليم أظافره. وقد أدرك هو تغيّرهم عليه وأخذ يعلن تذمره من الإنكليز بدعوى أنهم كفار، ويدعو الى تطهير البلدة المقدسة من رجسهم.

بداية النزاع:

في ٢٨ تموز ١٩١٧ عيّن الكابتن بلفور حاكماً سياسياً لمنطقةالشامية والنجف. وهو يتقن العربيّة إذ كان قبل هذا موظفاً في السودان. وقد حرّف العوام اسمه على عادتهم الى «أبوالفور».

وفي ١ آب ـ أي بعد تعيين بلفور بثلاثة أيام ـ عُيّن حميد خان معاوناً له في النجف. وهو من عائلة معروفة تسكن النجف، ويتقن الإنكليزية لأنه تلق تعليمه في مدارس الهند. ويقول جعفر الخليلي ان حميد خان رفض قبول الوظيفة في بداية الامر ولكن الإنكليز حملوه على قبولها بواسطة السيّد كاظم اليزدي.[(٢)]

وفي أواخر تشرين الأول ١٩١٧ وصلت الى النجف قافلة كبيرة من الاباعر تضم ١٢٠٠ بعير تعود الى عشيرة عنزة البدوية، وكان رئيس القافلة يحمل كتاب توصية من الإنكليز الى حميد خان من أجل شراء كميات كبيرة من الحبوب من النجف. وقد سمح حميد خان للقافلة بشراء ماتحتاج إليه من الحبوب. وأشيع في حينه أن عطية طلب الاتاوة من القافلة على عادته مع جميع القوافل التي تفد الى النجف للتموين، غير أن رئيس القافلة رفض دفع الاتاوة اعتقاداً منه ان النجف تابعة لحكم الإنكليز وليس لعطيةأي حق في فرض الاتاوة عليه. وحين بدأ رئيس القافلة بشراء

---

(١) ـ حميد عيسى حبيبان، «حقائق ناصعة»، النجف ١٩٧٠، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) ـ جعفر الخليلي «هكذا عرفتهم»، بغداد ١٩٦٢، ج ١، ص ٤٧.

الحبوب أخذت اسعار الحبوب بالارتفاع في البلدة،وتوتر الوضع فيها، وخرجت مظاهرة اشتركت فيها النساء وهن يولولن ويصرخن بالشكوى من ارتفاع الاسعار. والمظنون ان عطية كانت له يد في تحريك المظاهرة. ثم هجم نفر من أتباع عطية على القافلة فأطلقوا عليها الرصاص وقتلوا عدداً من أباعرها كما نهبوا منها بعض البنادق والامتعة.

حين علم بلفور بالخبر أسرع الى النجف، فاجتمع برؤساء البلدة واتفق معهم على ارجاع المنهوبات ودفع تعويض عن الأباعر المقتولة،وحدّد لهم مهلة أمدها خمسة عشر يوماً لتنفيذ ذلك. ولكن المهلة انتهت دون أن يقوم الرؤساء بالتنفيذ. وفي ١٩ تشرين الثاني جاء بلفور الى النجف وكان بصحبته حاكم الحلة الميجر بولي. فذهب الى السراي واستدعى إليه رؤساء البلدة، فحضر إليه اثنان منهم فقط، هما عطية وصديقه كاظم صُبّي رئيس محلة البراق. وكان عطية قد استصحب معه جماعة من أتباعه المسلحين، فوقف هؤلاء عند باب السراي وهم على استعداد للطواري».

كانت المقابلة بين بلفور وعطية غير ودية منذ البداية، فقد تكلم بلفور مع عطية بخشونة متهماً اياه بقلة الوفاء للانكليز الذين وثقوا به وجعلوه رئيساً للنجف، ثم وجّه إليه اللوم على أفعاله الأخيرة وطلب منه أن يدفع هو والرؤساء الآخرون مبلغ أربعة آلاف ليرة تعويضاً للقافلة المنهوبة. فردّ عطية عليه قائلاً: ان المنهوبات قليلة لاتبلغ هذا المبلغ، وهم قد استرجعوها من الافراد الذين نهبوها وعاقبوهم أشد العقوبة، ثم قال: «وإذا لم تصدق بكلامنا فاحضر فهد بك وتطلب منه اليمين الصادقة وتؤدي له بعد اليمين كل مايدعي بفقدانه».[١]

لم يقتنع بلفور بهذا الجواب وأصر على استحصال مبلغ التعويض كاملاً ـ أي

---

(١) – مجيد الموسوي، «الحاج عطيّة أبوكلل الطائي»، بغداد، ص١٢٦ ـ ١٣٢.

أربعة آلاف ليرة. وأوعز الى معاونه حميد خان بأن يكتب سندات بالمبلغ ليوقع عليها رؤساء البلدة. فاعترض عطية وصاحبه كاظم علىٰ ذلك. ثم جرت بعد ذلك مشاجرة عنيفة بين الفريقين، ويقال ان بلفور صفع كاظم علىٰ خده فردّ عليه كاظم بصفعة أشد منها بحيث أطارت القبعة من علىٰ رأسه.

ثم خرج كاظم وعطية من السراي غاضبين، وأشار عطية الى أتباعه الواقفين عند الباب بمهاجمة السراي، فانثال هؤلاء علىٰ الكراسي الموضوعة في مدخل السراي فنهبوها، ثم أشعلوا النار في بعض محتويات السراي، ورفعوا أصواتهم بسبّ الإنكليز. وأخذت الجماهير الواقفة بالقرب من السراي تسبّ الإنكليز معهم. أسرع الميجر بولي الى مغادرة السراي، وركب سيارته وعاد بها الى الحلة. أما بلفور فقد التجأ الى بيت السيّد كاظم اليزدي.

وفي تلك الآونة ذهب جماعة من النجفيين الى أبوصخير، وهاجموا السراي فيها ونهبوه، كما نهبوا صفائح النفط الخاصة بمضخة الماء المنصوبة هناك. وكذلك هاجمت جماعة من بني حسن سراي الكوفة، ولكن الموظف المسؤول في السراي قدم للمهاجمين ألف ليرة، فاكتفوا بها وتركوه. واضطرب الأمن في بعض الانحاء، وكثر السلب والنهب والقتل. استدعى السيّد كاظم اليزدي إليه رؤساء النجف وحاول تسوية الخلاف بينهم وبين بلفور.

وفي اليوم التالي ـ أي في ٢٠ تشرين الثاني ـ خرج المنادي الحاج حسين شيش ينادي في أسواق النجف وشوارعها قائلاً بأن الإنكليز قد عفوا عن النجفيين. وفي ٢٥ منه خرج المنادي مرة أخرى ونادى بأن الحكومة سوف تجلب الحبوب الى النجف من الحلة والديوانية، وسوف تمنع نقل الحبوب من الفرات الاوسط الى بغداد. وعند

هذا هبطت أسعار الحبوب في النجف، كما هبطت أسعار التمور والتمن وغيرها.[1]

تفاقم النزاع:

كانت منطقة الفرات الاوسط حتىٰ ذلك الحين خالية من أية قوة عسكرية، وقد شعرالإنكليز علىٰ أثر حادثة القافلة في النجف بضرورة وضع حاميات عسكرية في مواقع معينة من المنطقة. وفي أوائل كانون الاول ١٩١٧ قام كوكس بجولة استطلاعية في المنطقة لتعيين المواقع التي يجب وضع الحاميات فيها، وكان في صحبته زمرة من الضباط. وفي ٤ منه وصل كوكس وحاشيته الى الكوفة، فزار السيّد كاظم اليزدي فيها واختلى به فترة من الوقت، ثم توجه الى النجف، ولما اقترب من باب البلدة نُحرت تحت قدميه الذبائح، ثم ذهب تواً الى دار حميد خان حيث كان في استقباله فيها بعض رجال الدين من علماء «الحفين». وزار كوكس بعدئذٍ الشيخ فتح اللّه الاصفهاني في داره، ثم عاد الى الكوفة.

طلب كوكس من رؤساء النجف مقابلته في الكوفة، فذهب إليه اثنان منهم فقط هما مهدي السيّد سلمان وسعد الحاج راضي. وقد امتنع عن الحضور عطية وصاحبه كاظم صُبّي. فأرسل كوكس الى عطية محمد حسين خان النواب ليقنعه بالمجيء اليه. وقد حاول محمد حسين اقناع عطية بكل جهده، وقال له: «ياحاج عطية ان كوكس زعلان عليك»، وحذّره من العواقب، وحلف له بالقرآن بأنه «يذهب سالماً ويعود غانماً». ولكن عطية ظل مُصرّاً علىٰ امتناعه.[2] انه كان يخشى أن ينفيه كوكس الى الهند علىٰ نحو مافعل مع فخري كمونة في كربلاء.

في أوائل عام ١٩١٨ تم وضع الحاميات العسكرية في أنحاء الفرات الاوسط،

---

(١) - محمد رضا الشبيبي «ثورة النجف»، في مجلة «الثقافة الجديدة»، في عددها الخاص الصادر في تموز ١٩٦٩، ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٢) - مجيد الموسوي «المصدر السابق»، ص١٣١ ـ ١٣٢.

وكانت احدىٰ تلك الحاميات قد وضعت في الكوفة حيث عسكرت في شريعة أم التبن علىٰ الفرات. وأخذت هذه الحامية تقوم بتمارينها اليومية في الصحراء التي تقع بين النجف والكوفة.

وفي صباح ١٢ كانون الثاني ١٩١٨ اقتربت من سور النجف مفرزة من الخيالة الهنود يبلغ عددهم الثلاثمائة، فدارت حول مقبرة وادي السلام الواقعة في شمال النجف، ثم اتجهت جنوباً حيث صارت تجاه محلة العمارة. ولما علم عطية بوصول الخيالة تجاه محلته ظن أنهم قادمون للقبض عليه، فأخذ يهتف مستنجداً بأتباعه، فهبّ لنجدته نفر منهم، وتسلقوا الى شرفات السور، وصاروا يطلقون النار علىٰ الخيالة، فقتلوا واحداً منهم وجرحوا آخر.(١)

عادت المفرزة الى معسكرها في أم التبن دون أن ترد علىٰ النار بمثلها. وبعد ساعات قليلة ظهرت طائرة انكليزية في سماء النجف، فصعد بعض المسلحين الى سطوح الدور العالية وأخذوا يطلقون النار من بنادقهم علىٰ الطائرة. وفي الوقت نفسه هجم مسلحون آخرون علىٰ السراي، فهرب حميد خان منه مع موظفيه، وذهبوا الى الكوفة.(٢)

علىٰ أثر الحادثة ذهب الى الكوفة مهدي السيّد سلمان ومعه سعد الحاج راضي وبعض الرؤساء الثانويين، فقابلوا بلفور واعتذروا إليه عما حصل وأبدوا استعدادهم لدفع التعويض عن الخسائر. وفي اليوم التالي ذهب الى الكوفة كاظم صُبّي كذلك. وقد أعلن بلفور فرض غرامة علىٰ النجفيين قدرها خمسون ألف روبية مع تسليم عطية أبوقلل وكريم ابن سعد الحاج راضي. وكان كريم هذا مؤيداً لعطية في أعماله.

---

(١) - حدثني بذلك أحد المسنين من أهل النجف.

(٢) - Wilson (Loyalties) - London 1936 - vol. 2, p.73.

قام الرؤساء بجمع الغرامة من سكان النجف، وشعر عطية أنه يجب أن يترك النجف بدلاً من تسليم نفسه، فغادرها في ١٨ كانون الثاني، وقد استصحب معه ابنه هندي[١] البالغ من العمر أحد عشر عاماً، كما استصحب معه جماعة من الاتباع وعدداً من الابل والغنم ومقادير كبيرة من المواد الغذائية. وتَوَغّل في البادية بعيداً عن النفوذ الإنكليزي. وبعد بضعة أيام التحق به كريم بن سعد مع أتباع له.

وضع الإنكليز يدهم على جميع أملاك عطية في النجف، وكان من جملة تلك الاملاك خان كبير كان عطية قد بناه مؤخراً لأعماله التجارية خارج باب النجف الكبيرة، وهو الخان الذي عُرف بين الناس باسم «خان عطية». وقد اتخذه الإنكليز مقراً لهم بدلاً من السراي القديم الذي يقع في داخل السور.

قرر الإنكليز تعيين حاكم بريطاني للنجف بدلاً عن حميد خان، ووقع اختيارهم على الكابتن مارشال الذي كان يومذاك معاون حاكم سياسي في الكاظمية. تقول المس بيل عن الكابتن مارشال: انه كان فريداً في لياقته للمهمة الصعبة التي كُلّف بها وله المام باللغة الفارسية، وكان هو يأمل أن يعود الى بريطانيا في الصيف القادم لكي يتزوج فلما عرضت عليه الوظيفة الجديدة أبدى ارتياحه لقبول هذه المسؤولية العظيمة.[٢]

حمل الكابتن مارشال معه بعض التوصيات من علماء «الحفيز» في الكاظمية الى زملائهم في النجف. وقد وصل الى النجف في ١ شباط ١٩١٨، واتخذ مقره في خان عطية. اول عمل أهتم به مارشال هو اعادة تشكيل الشرطة. فقد كان أفراد الشرطة قبل ذلك من أهل البلدة نفسها وكانوا يمالئون رؤساءها في كثير من الاحيان، فعمد مارشال الى الاتيان بأفراد من الشرطة الشيعة الذين كانوا في بغداد والكوت،

---

(١) - كان عطية مولعاً بتسمية أبنائه على هذا النمط: تركي وعجمي وكردي وهندي.

(٢) - المس بيل، «المصدر السابق»، ص١٢٢.

ومعظمهم من أكراد كرمانشاه، كما جنّد آخرين من خارج النجف. ثم شرع بوضع نظام دقيق لجباية رسوم البلدية التي كانت غير منتظمة، وبدأ بتنظيف البلدة التي كانت في حالة صحية مزرية، وأوعز بقطع المخصصات التي كانت تمنح لرؤساء البلدة.[1]

تيار عدائي آخر:

ظن الإنكليز أنهم بهذه التدابير التي قاموا بها قد حلوا مشكلة النجف وسيطروا عليها. ولكن ظنهم هذا كان غير صحيح.

الواقع ان العداء للانكليز في النجف لم يكن منحصراً في نطاق عطية أبوقلل وأعوانه فقط بل كان هناك تيار عدائي آخر قائم على أساس الدين ومستمد من حركة الجهاد، وهو تيار كان يضم عدداً كبيراً من الملائية والعوام. فقد ظل هؤلاء ينظرون الى الإنكليز نظرتهم الى كافر تجب محاربته. وكان الكثير من هؤلاء بالاضافة الى ذلك يؤمنون بحتمية انتصار الأتراك وحلفائهم الألمان في الحرب.[2]

تألفت في النجف عقب سقوط بغداد جمعية دينية سرية باسم «جمعية النهضة الاسلامية» كان رئيسها السيّد محمد علي بحر العلوم، وسكرتيرها المرزا عباس الخليلي، وكان من أعضائها البارزين الشيخ جواد الجزائري والشيخ محمد علي الدمشقي. والمعروف عن الشيخ عبدالكريم الجزائري أنه كان يرعى الجمعية ويؤيدها من طرف خفي.

---

(١) – المصدر السابق، ص ١٢٣.

(٢) – ان هذا يشبه ما حدث خلال الحرب العالميّة الثانية عندما اعتقد الكثيرون في العراق بحتميّة انتصار الألمان في الحرب. ولكن الفرق بين هؤلاء وأولئك هو أن النزعة القوميّة كانت هي السائدة في الحرب الثانية، بينما كانت النزعة الدينيّة سائدة في الحرب الاولى.

وقد صاغت الجمعية منهاجاً لها مؤلفاً من احدى وعشرين مادة، ننقل فيما يلي المادة الثانية منها لانها تلخص الاهداف الرئيسية للجمعية وهذا نصها:

«السعي لاعلاء كلمة الاسلام وسعادته وترقيته، ومراعاة القانون الاعظم في ذلك ألا وهو الشرع الشريف المحمدي والعمل به طبقاً لقوله تعالى (وما جعل اللّه للكافرين على المسلمين من سبيل)، ونبذ التقاليد الافرنجية الذميمة ورفضها، مع مباراة الأمم المتمدنة ومجاراتها في المزايا الجميلة، ودرس الأحوال السياسية والعمل بما ينتفع به المسلمون ويعلو به الاسلام».(١)

نشطت الجمعية في دعوة الناس للانضمام اليها، وكان أكثرهم نشاطاً في ذلك عباس الخليلي، فقد سمّىٰ نفسه «فتى الاسلام» وصنع ختماً بذلك.(٢)

ووصل خبر نشاطه الى حميد خان، فأرسل هذا الى المرزا أسد والد عباس، وكانت له علاقة متينة معه، يطلب منه أن يخفف عباس من نشاطه لأنه غير مرضي حسب التقارير الواردة اليه. ولكن عباس أخذ يسب حميد خان ويتهمه بالخيانة.(٣)

انضم الى الجمعية معظم رؤساء النجف وكثير من شجعانها، ماعدا آل السيّد سلمان، كما انضم إليها الحاج نجم البقال وهو رجل له أهميته كما سنأتي إليه في حينه. وكذلك انضم الى الجمعية بعض رؤساء العشائر كمرزوق العواد رئيس العوابد، وراىع العطية رئيس الحميدات، وودّاي العلي رئيس آل علي، وسلمان الفاضل رئيس الحواتم، وغيرهم.(٤)

---

(١) – محمد علي كمال الدين «المصدر السابق»، ص٦٦.

(٢) – لايزال ختم الجمعيّة وختم «فتى الإسلام» موجودين يحتفظ بهما مشكور الأسدي.

(٣) – جعفر الخليلي «هكذا عرفتهم»، بيروت ١٩٧٢، ج ٤، ص٩٢.

(٤) – المصدر السابق، ج ٤، ص٩٣.

وأخذت الجمعية تتصل سراً بالاتراك الذين كانت جيوشهم مازالت في الرمادي على الفرات. حدثني السيّد عبدالوهاب الصافي فقال: انه كان يشهد بعض أعضاء الجمعية يجتمعون سراً في بيت خاله الشيخ عبدالكريم الجزائري ويكتبون الرسائل الى الأتراك.وكثيراً ماكانوا يملون الرسائل على السيّد عبدالوهاب لكي يكتبها بخط يده، وذلك مخافة أن تقع الرسائل في أيدي الإنكليز فيعرفوا كاتبها من خطه.

تدّعي المصادر الإنكليزية أن الجمعية إنما تأسست بايعاز من الأتراك والألمان، وأنها تسلمت منهم مالاً وفيراً. ويقول الإنكليز انهم عثروا فيما بعد ـ حين أسروا بروسر رئيس البعثة الالمانية في عانة ـ على وثائق تؤيد ذلك. ولكن الشيخ جواد الجزائري يكذّب إدّعاء الإنكليز هذا، فهو يقول مامفاده: انه بعد تأسيس الجمعية، وبعد أن يئس من استنفار العشائر القريبة لدعم الحركة، أرسل الى الأتراك رسولاً ومعه رسائل عسىٰ أن يمدوه بالسلاح والعتاد، وعند وصول الرسول الى القائد التركي تُرجمت رسالته الى الألمانية لكي يطلع عليها القائد الألماني، ولما أحتل الإنكليز عانة بعدئذٍ وقعت الرسالة المترجمة في أيديهم فربطوا بينها وبين ثورة النجف وادّعوا أنها كانت بتدبير من الألمان وحلفائهم الأتراك.(١)

قصة الشاب المجلود:

أصبح الرأي العام النجفي مفعماً بالعداء للانكليز تحت تأثير النشاط الذي قامت به جمعية النهضة الاسلامية من جهة، وأعوان عطية أبوقلل من الجهة الاخرى. وصار الجو الاجتماعي مهيّأً لانتهاز أية فرصة متاحة في سبيل الانتقاص من سمعة الإنكليز واثارة الناس عليهم.

وفي أوائل شباط ١٩١٨ حدث حادث في النجف استغله خصوم الإنكليز في

---

(١) – عبدالرزاق الحسني «ثورة النجف»، صيدا ١٩٧٢، ص٩١ ـ ٩٢.

هذا السبيل استغلالاً كبيراً. وملخص الحادث أن شاباً من أهل النجف لا نحب ذكر اسمه تشاجر مع بقال اسمه السيّد ياسر، وقد جرّه الغضب في أثناء المشاجرة الى سب فاطمة الزهراء. فشكاه السيّد ياسر الى السيّد كاظم اليزدي، واتصل أحد حاشية السيّد كاظم بالحاكم الإنكليزي طالباً منه معاقبة الشاب علىٰ «كفره». وقد انتهز الحاكم الفرصة لكي يتحبّب الى الرأي العام فأمر بجلد الشاب أمام الجماهير في الميدان. وجيء بالشاب الى الميدان، فأزاحوا الملابس عن دبره وجلدوه بالقرباج جلداً مبرّحاً. وقد اضطر الشاب علىٰ أثر ذلك أن يهجر النجف خجلاً من الناس، وسكن الكوفة.[١]

لاشك أن الميالين للانكليز اعتبروا هذا الحادث من مناقبهم. ولكن أعداءهم لابد أن يعتبروه من المثالب. وهذا هو ديدن البشر دائماً فيما يحبون ويكرهون. انقل فيما يلي ما ذكره صاحب كتاب «ثورة النجف» حول هذا الحادث، فهو يقول مانصه:

«... بعد جمع الغرامة بمدة قصيرة نادى منادي الحاكم الإنكليزي طالباً تجمع النجفيين في الميدان لأمر هام. ولشد ماهالهم الامر عندما رأوا أن السلطة تعرّي شاباً نجفياً من ملابسه وتجلده جلداً مبرّحاً لمخالفة بسيطة ارتكبها. فضجّ النجفيون لوحشية هؤلاء المحتلين الجدد، وراحوا يتهامسون بمرارة عن قساوة الإنكليز وشراستهم، وربما بيّت بعضهم أمراً. حيث تضايقوا كثيراً من هذه الاجراءات وأمثالها، وتشاءموا من وجود جيوش الاحتلال في النجف وأطرافها. فساد النجف ذعر مشوب بالنقمة، استغلته جمعية النهضة الاسلامية السرية، كما استغلت الحوادث المماثلة الاخرى، فازداد أعضاؤها وكثر المنتسبون إليها من جميع الطبقات، وبخاصة الطبقات التجارية...».[٢]

---

(١) – حدثني بذلك رجل من أهل النجف لم يحب أن يُذكر اسمه.

(٢) – حسن الأسدي «المصدر السابق»، ص٢٣٠.

نلاحظ الكاتب هنا يؤكد علىٰ فضاعة جلد الشاب، وينسى أن جريمته كانت سب فاطمة الزهراء، فهو يصف تلك الجريمة بأنها «مخالفة بسيطة». ولو أن الإنكليز كانوا قد عفوا عن الشاب ولم يعاقبوه، لصارت جريمته نكراء يهتز العرش منها.

اننا لانقول هذا دفاعاً عن الإنكليز، بل لتبيان طبيعة البشر، وهي الطبيعة التي أشار إليها المثل العراقي الدارج: «حب واحكي، واكره واحكي». ويجب أن لاننسى أن الإنكليز لايختلفون في هذا عن غيرهم من البشر،ومن يقرأ مذكراتهم يجد ذلك فيهم بوضوح.

الحاج نجم البقال وابنه:

الحاج نجم البقال رجل نجفي من أصل دليمي كان في تلك الأيام قد جاوز الستين من عمره، وله دكان في رأس السوق الكبير مما يلي الميدان يبيع فيه التمر واللبن وبعض الخضر. وقد عُرف عنه أنه كان من أكثر الناس حباً للاتراك وايماناً بحتمية انتصارهم في الحرب، وكان يعلن ذلك للناس في كل مناسبة.

للحاج نجم ولد اسمه عباس كان منتسباً الى الجيش التركي برتبة رئيس عرفاء، ولما انسحب الأتراك من النجف فتح عباس مقهى بالقرب من الصحن ليعيش منه. وكان عباس كأبيه يؤمن بحتمية انتصار الأتراك في الحرب، وقد صار مقهاه لذلك مجمعاً لكل من يحمل مثل هذا الرأي في الأتراك.

كان عباس من بين الذين هاجموا سراي أبوصخير في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٧ ونهبوا صفائح النفط، ولما أخذ الإنكليز يبحثون عنه للقبض عليه هرب الى البادية فذهب الى عشيرته الدليم، ومن هناك التحق بالاتراك. وكان عند هروبه يحمل معه ثلاث رسائل من جمعية النهضة الاسلامية، احداها موجهة الى عجيمي السعدون، والثانية الى القائد أحمد بك أوراق، والثالثة الى محمد العصيمي. وقد أخفى عباس الرسائل بين طيات نعاله.

توجه عباس الى الجزيرة قاصداً عجيمي السعدون، فأرسله عجيمي الى الموصل، وهناك التقى بالشيخ محمد الخالصي الذي كان يومذاك فيها. ويقول الشيخ محمد في مذكراته المخطوطة عن وصول عباس الى الموصل مايلي:

«جاء كتاب من عجيمي باشا السعدون... الى القيادة العامة ـ يقصد القيادة التركية التي كانت حينذاك في الموصل ـ يقول ان رسولين جاءا من النجف الاشرف من العلماء والزعماء. فلما علمنا بذلك دعوناهما فجاءانا، وكان اسم احدهما الحاج عباس بن الحاج نجم البقال... وثانيهما يُدعى أحمد وأبوه كان مدير ادارة البرق في النجف. فوردا بكتب من علماء النجف ورؤسائها، وأخبرا بتشكيل جمعية في النجف من أهل النجف وغيرهم غرضها انقاذ العراق من الانكليز لأن أهل العراق سأموا من ظلم الانكليز واعتسافهم وهم مستعدون لتنفيذ أي أمر يصدر من القيادة العثمانية، نادمون أشد الندم علىٰ ما كان منهم، لأنهم لم يكونوا يظنون أن الانكليز بهذه المثابة من الغرور والنخوة والتكبر والقسوة والجفاء والظلم...

فأخذت لهما من القيادة مايلزم لاعاشتهما من القوت والمال، وخلعت عليهما القيادة خلعاً نفيسة وخصصت لهما داراً الى جنب دارنا. وبعد أيام حدث نزاع بينهما وصار يسعى كلٌ بالآخر، فنعتهما من ذلك وفرقت بينهما...».[1]

كان عباس يتابع ارسال الرسائل ـ بواسطة سعادة من البدو ـ الى أبيه الحاج نجم والى جمعية النهضة الاسلامية، يحثهم فيها علىٰ الاسراع في الثورة علىٰ الإنكليز. والمظنون ان الأتراك هم الذين كانوا يوعزون له بذلك ويشجعونه عليه أملاً بأن تقوم ثورة في الفرات الأوسط فتشغل قسماً من القوات الإنكليزية فيخف بذلك الضغط عنهم في جبهة القتال.

---

(١) ـ نقلاً عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة.

وهناك رأي يقول به بعض المطلعين في هذا الشأن هو أن الأتراك كانوا يضمرون حقداً شديداً على النجف لما سبق من عصيانها عليهم، وهم حين حرضوا النجفيين على الثورة إنما أرادوا الانتقام منهم على يد الإنكليز، فإن الثورة في حالة فشلها لابدّ أن تؤدي بالإنكليز الى الانتقام من القائمين بها بكل قسوة، وهذا سيكون بمثابة اصابة عصفورين بحجر واحد، إذ أن إنتقام الإنكليز من النجف يمكن استغلاله لبث الدعاية المضادة لهم في العالم الاسلامي، وذلك بالاضافة الى ما في الانتقام من شفاء غليل الأتراك.

استعداد الحاج نجم:

كان الحاج نجم البقال يعد العدة منذ مدة غير قصيرة لاشعال الثورة في النجف، وقد ألف عصابة من بعض شجعان النجف ومغاويرها لهذا الغرض. ويحدثنا أحد الذين انتموا الى عصابته ـ واسمه السيّد عودة الشكري ـ عن كيفية انتمائه إليها فيقول ما يلي:

«في سوق الحويش مقابل حمام النسوان الصغير، وبجنب دكان الخباز، كانت توجد شايخانة لصاحبها السيّد جواد الموسوي. وفي هذه الشايخانة تلتقي جماعة من الأصدقاء الشباب المعروفين بجرأتهم وشجاعتهم، وقبل الحادث بحوالي عشرة أيام أو أكثر ـ يقصد حادث مقتل الكابتن مارشال الذي سنتحدث عنه ـ رأيت في هذه الشايخانة أربعة أشخاص هم: محسن أبوغنيم وصادق الاديب وجودي ناجي وهادي الحسن الحداد، وهم يتشاورون ويتهامسون، فسألتهم عما عندهم، فأجابوني: «موشغلك». ولما أظهرت لهم الزعل والاستغراب من جوابهم هذا، قالوا لي: «إذا تريد تدخل معانا تحلف بالقرآن ونحكي لك، فإن وافقت فيها، وإلا كتمت السرّ». عند ذلك حلفت لهم فقالوا: «يصير عطية أبوكلل يطلع من الولاية والكلاب يقعدون بمقاهي السكة؟! هذا ما يصير...». فأجبتهم بالموافقة على العمل معهم في هذا الشأن. وفي

اليوم التالي أخذوني الى دكان الحاج نجم فقال لنا: «اليوم ليلاً تعالوا الى دارنا». فذهبنا ليلاً الى داره قرب جبل المشراق. وهناك تقرر أن يقوم كل منا بجمع الاصحاب وادخالهم الحلف بعد القسم علىٰ العمل والكتمان. وبعد ثمانية أيام اجتمعنا في الشايخانة المذكورة نحن الخمسة ومعنا حميد أبوالسبزي. وقد احضر معه حميد حبيبان وحسين كنو ابن خالة حميد حبيبان... ومطرود الجعباوي، وكلهم من محلة الحويش، وبعد يومين دخل معنا من محلة العمارة السيّد جاسم بن السيّد محمد علي طيار الهوا، وسعدون الحاج حمد العامري، وحبيب العامري، وعبدعويد العامري، وعبدمحمد الحمامجي، وكريم بن علي الطيار النداف، وعبدحميمة النداف (وهو عبد بيت زوين). ومن محلة المشراق حضر السيّد جبر بن أخت الحاج نجم، والسيّد حمد حمّال الجنايز، ومحمد الصنم (وهو شبانة موظف عند الإنكليز). وكل واحد من هؤلاء كُلّف بأن يفاتح جماعة من معارفه ويضمّهم إليه بعد القسم دون أن يعلموا بالآخرين. وقد جرىٰ ذلك بكل سرعة وكتمان لاستعجال الحاج نجم ولئلا تنكشف المؤامرة إذا طالت مدة التكتلات».[١]

مقتل الكابتن مارشال:

كانت خطة الحاج نجم البقال في اشعال الثورة هي أن يهاجم هو ورجال عصابته خان عطية الذي كان الكابتن مارشال قد اتخذه مقراً له ومسكنا. وكان الحاج نجم يظن ان استيلاءه علىٰ الخان يؤدي الى انتشار الثورة في النجف، وعند هذا ستنضم العشائر المجاورة الى الثورة، ويتم النصر للمسلمين بعون اللّه!

حدد الحاج نجم موعد الهجوم علىٰ الخان في صباح ١٩ آذار. وتشير بعض القرائن الى أن ابنه عباس كان قد أخبره في بعض رسائله بأن الجيش التركي يعد

---

(١) – حسن الأسدي، «المصدر السابق»، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١.

العدة للقيام بهجوم صاعق على الإنكليز في ذلك الوقت، وهذا يجب أن يكون نشوب الثورة وهجوم الأتراك في آن واحد.

اضف الى ذلك ان اشاعات كانت تروج في النجف حينذاك مفادها أن الأتراك مصممون على استعادة بغداد وأنهم أعدوا جيشاً عظيماً لهذا الغرض سمّوه «جيش الصاعقة». يقول ويلسون في مذكراته: ان الإشاعات أخذت منذ أوائل آذار ١٩١٨ تتابع باستمرار وفيها الكثير من التفاصيل عن قرب حلول هزيمتنا وعودة الأتراك الى العراق. ويضيف ويلسون الى ذلك قائلاً: ان ثورة النجف ماكانت لتقع لو أنها تأخرت عن موعدها أياماً قليلة، ففي ٢٦ آذار تم أسر القوات التركية بأسرها في الفرات الاعلى.[١]

في الساعة التاسعة من مساء ١٨ آذار ١٩١٨ اجتمع الحاج نجم مع نحو مائتين من الأعوان في دار كبيرة تقع بين محلتي الحويش والعمارة. انهم كانوا يستعدون للاستيلاء على الخان في صباح اليوم التالي، ولكنهم صاروا يتظاهرون بأنهم يجتمعون لحفلة عرس، وأخذوا يغنون ويرقصون ويدقون على الطبول للتضليل.

وفي الساعة الحادية عشرة دخل الى الدار المرزا عباس الخليلي ومعه رجل اسمه السيد جعفر الصائغ، وقدّما للحاج نجم مظروفاً مكتوباً بالإنكليزية، وهو المظروف الذي يتمكنون به من الدخول في الخان للاستيلاء عليه.

وفي منتصف تلك الليلة خرج الحاج نجم وأعوانه من الدار متفرقين لكي لا يلفتوا إليهم الانظار، فتوجهوا الى الجهة الغربية من السور، وتسلقوه، ثم نزلوا الى الخارج بواسطة الحبال، واتجهوا شمالاً نحو مقبرة دار السلام، ولما وصلوا الى مقام المهدي استراحوا فيه قليلاً، ثم غادروه متجهين نحو قبر عليه قبة يقع بالقرب من

---

(١) - Wilson (op. cit.) - vol. 2, p.74.

الخان يسمى «مقبرة العلوي». مما يجدر ذكره أن عددهم لم يبق على حاله، بل كان يتناقص في الطريق شيئاً فشيئاً. فعند وصولهم الى مقام المهدي صار عددهم ٧٥ رجلاً، وحين وصلوا الى مقبرة العلوي هبط العدد الى ٢٧ رجلاً، وقيل أقل من ذلك. ولما رأى الباقون قلة عددهم ارتأى بعضهم تأجيل القيام بالثورة، فلم يوافقهم الآخرون على ذلك، وقرروا القيام بها على أي حال.

وعند شروق الشمس تقدم نحو باب الخان اثنان منهم هما الحاج نجم ومحسن أبوغنيم، وكانا متنكرين بملابس الشبانة للتضليل، فطرق الحاج نجم باب الخان، ولما سأله الجندي الحارس: من أنت؟ أجابه الحاج نجم بأنه يحمل البريد، وسمى نفسه «حسن الكصراوي»، وقدم له المظروف الذي كان يحمله معه، فلما تسلّم الحارس المظروف عاجله محسن أبوغنيم بطعنة خنجر أردته قتيلاً. ثم دخل الرجلان الى الخان يتبعهما الآخرون. وبدأت عند ذاك معركة حامية اشتد فيها تبادل النيران بين المهاجمين والحراس استمرت نحو ربع ساعة. فسقط واحد من المهاجمين قتيلاً وجُرح ثلاثة، كما قتل الكابتن مارشال وجُرح ضابط آخر كان معه. وحين وجد المهاجمون كثافة النيران المسلّطة عليهم من برج الخان فروا ومعهم الجرحى الثلاثة. وفي طريقهم الى البلدة لقيهم رجل من الشبانة فأطلق عليهم النار واصاب رجلاً منهم اسمه صادق الأديب، وقد مات هذا الرجل بعد ثلاثة أيام متأثراً بجراحه.

وبعد أن تخلص المهاجمون من أسلحتهم وملابسهم التنكرية خرجوا ليزاولوا أعمالهم الاعتيادية كعادتهم في كل يوم لكي يزيلوا الشبهة عن أنفسهم، أما الجرحى منهم فقد اختفوا في بيوت متفرقة وحاولوا معالجة جروحهم بما تيسّر لهم.

ومن الطريف أن نذكر أن الحاج نجم عاد الى دكانه كعادته في صباح كل يوم، وأخذ يسأل الناس عن الاطلاقات النارية التي سمعها كأنه لاعلم له بها. ثم صار ينشّ الذباب بمنشته المصنوعة من السعف ويقول بهدوء: «سوّوها آل براك»، فقد كان يريد

بذلك أن يلقي التهمة على جماعة من بني حسن كانوا يقطنون بالقرب من الكوفة...».[١]

اتساع الحركة:

حين بلغ الكابتن بلفور خبر الواقعة أسرع متوجهاً الى النجف ومعه قوة كافية من الجنود، فوصلوها في الساعة التاسعة صباحاً. ويُروى أنه عندما شاهد جثة الكابتن مارشال وهي ملطخة بالدماء قال: «أن كل قطرة من هذا الدم الغالي تساوي اربعمائة نجفي».[٢]

وزّع بلفور جنوده داخل البلدة وخارجها تحسباً للطواريء، ثم ذهب الى السراي القديم الذي يقع داخل السور، وأرسل الى رؤساء البلدة يستدعيهم للحضور لديه. ولما حضر الرؤساء اظهروا له استغرابهم مما وقع ونفوا أن يكون القائمون به من أهل البلدة. فخرج بلفور من السراي وهم بصحبته للتجول في البلدة، ولكنه لم يكد يسير قليلاً حتى سمع صوت طلقات نارية تنبعث من ناحية محلة المشراق، ثم جاء إليه أحد رجاله راكضاً وأخبره بأن أولاد سعد الحاج راضي قتلوا اثنين من أفراد الشرطة في سوق المشراق. وعند هذا التفت بلفور نحو سعد الحاج راضي فوبخه قائلاً: انت الذي تقوم بهذه الأعمال وتتظاهر بأنك لا تدري. فاحتدّ سعد من هذا الكلام، وردّ على بلفور بخشونة، ثم انصرف عنه غاضباً. ولما سمع أولاد سعد بتوبيخ بلفور لأبيهم جاؤوا يريدون قتله، وقد لمحوه يمشي في الميدان فأطلقوا عليه النار من بنادقهم ولكنهم لم يصيبوه. وتمكن بلفور من النجاة حيث خرج الى خان عطية وتحصّن فيه مع من كان معه من الجنود والشرطة.

---

(١) – حسن الأسدي «المصدر السابق»، ص ٢٤٤ ـ ٢٥٣.

(٢) – علي الشرقي «الاحلام»، بغداد ١٩٦٣، ص١٠٦.

تجمع حول أولاد سعد عدد من أقربائهم وأعوانهم، وأخذوا يتجولون في طرقات النجف، والقوا القبض على من وجدوه فيها من أفراد الشرطة، واستحوذوا على أسلحتهم، ثم احتجزوا بعضهم وأطلقوا سراح البعض الآخر. وهجموا على السراي القديم بعد أن فرّ عنه حراسه فنهبوا مافيه من الأثاث، وقلعوا أبوابه، واشعلوا فيه النار.(١)

كان ذلك ايذاناً باعلان الحرب بين الإنكليز والنجف. وقد حاول بعض العلماء والوجهاء التوسط للاصلاح بين الفريقين، فلم يجد توسطهم نفعاً. وحاول السيّد كاظم اليزدي أن يتوسط بنفسه حيث عقد اجتماعاً كبيراً في مدرسته في صباح ٢١ آذار ١٩١٨، وصار يحذّر الناس من مغبة محاربة الإنكليز وقال ان الإنكليز يملكون «الطواب» ـ أي المدافع ـ وان الاهالي لاقدرة لهم على محاربتهم. وطلب من سعد الحاج راضي تسليم ولديه أحمد ومحسن، وتعهد له بالمحافظة على حياتهما، ولكن سعد رفض الاستجابة له، وخرج من عنده ناقماً.(٢)

أدرك سعد الحاج راضي أنه أمام أمرين لا ثالث لهما، أما أن يسلّم ولديه ليشنقهما الإنكليز جزاء قتلهما الشرطيين، أو يعلن هو الثورة على الإنكليز. وقد آثر الامر الثاني. وصار يذهب الى بيوت الرؤساء وارباب الأسر القوية ينخوهم ويستنجد بهم لنصرته على الإنكليز «الكفار».

يروي حسن الأسدي: انه شهد سعد الحاج راضي يسير متجهاً نحو دار كاظم صبّي، وهو يرتدي دشداشة عليها جبة من الشال الترمة والسيف يتدلى من كتفه، وخلفه عدد كبير من أعوانه وهم يهوّسون ويردسون بحماس شديد، ولما وصلوا الى الدار دخلوا الى القسم البراني منه ـ أي قسم الضيوف ـ وهم مستمرون في

---

(١) – محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص ٢٩٤.

(٢) – حسن الأسدي «المصدر السابق»، ص٢٥٦.

هوساتهم. فخرج إليهم كاظم من الدخلاني ووقف علىٰ الطارمة الكبيرة وهو يهتز متجاوباً مع رجال سعد. ثم رفع سعد يده فسكت الجميع، وتقدم نحو كاظم وهو يقول: «اليوم يومك أبوجواد، أذيها؟» ـ وهي كلمة تقال عند النخوة والاستنجاد ـ فأجابه كاظم قائلاً: «عند وجهك أبوكريم». ثم أومأ بيده فخرج من الدخلاني عدد كبير من المسلحين واختلطوا مع رجال سعد، وصاروا يهوّسون جميعاً.[1]

ان اتفاق الرئيسين سعد وكاظم علىٰ اعلان الثورة حفز معظم شجعان النجف ومغاويرها علىٰ الاقتداء بهما. وانتشرت صيحة الثورة في مختلف أنحاء النجف. ويقول الشيخ رضا الشبيبي: ان زوجة عطية أبوقلل انبسطت للثوار واشرعت بيتها لهم وبذلت لهم المؤونة.[2]

لم يبق منكمشاً عن الثورة سوى قليلين كان منهم مهدي السيّد سلمان وسلمان أبوشبع وحسون شربة وغيدان عدوة من محلة الحويش، وآل جريو وآل الشرقي من محلة البراق.[3]

وفي ظهر ٢١ آذار حدث حادث كان له اثره البالغ في تقوية عزيمة النجفيين علىٰ الثورة. فقد اقتربت حينذاك من سور النجف كتيبة من الخيالة الإنكليزية، فخرج إليها جمع من النجفيين ورموها بالرصاص وظلوا يطاردونها حتىٰ عادت من حيث أتت. والظاهر أن البسالة التي ابداها هؤلاء في مطاردة الخيالة أثارت النخوة في عامة اهل النجف علىٰ اختلاف أهوائهم، فصاروا يتناخون ويحمّس بعضهم بعضاً. يقول الشيخ رضا الشبيبي: ان النجفيين كانوا قبل ذلك مختلفين في كلمتهم وآرائهم، فلما وقعت واقعة الخيالة رق بعضهم علىٰ بعض وتعاطفوا ونبذوا الخلاف، فعمد فتيان المحلات

---

(١) – المصدر السابق، ص ٢٥٧.

(٢) – محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٢٩٦.

(٣) – حسن الأسدي «المصدر السابق»، ص٢٥٨.

الأربع الى حمل سلاحهم وهم يقطرون حماسة ونخوة، وصرت لاتسمع إلاّقولهم: ان الضرورة تقضي بالاتفاق.(١)

خطة الإنكليز:

كان الإنكليز تجاه ثورة النجف في مشكلة ذات حدين. فالنجف بلدة مقدسة لدى الشيعة بوجه خاص، ولدى المسلمين بوجه عام. وإذا عمد الإنكليز الى التنكيل بالنجف وتسليط الجنود والمدافع عليها أتاح ذلك للاتراك والألمان فرصة لبث الدعاية السيئة ضد الإنكليز في ايران والبلاد الاسلامية. أما إذا اتخذ الإنكليز سياسة اللين والتسامح مع النجف فإن ذلك يؤدي الى تشجيع العشائر والمدن الاخرى الى الاقتداء بثورة النجف، وبذا يكون الحكام الإنكليز عرضة للاغتيال في كل مكان. تقول المس بيل في ذلك مانصه:

«ليس هناك شك بأن العشائر كلها ترمق النجف باهتمام، وان أي تدابير فعالة كانت ستتخذ ضد البلدة المقدسة كما كان يأمل الترك كانت ستثير شيئاً لا يستهان به من الشعور بالتعصب. لكن الخطر الرئيسي ينطوي على عكس ذلك، لان التقصير في الاقتصاص من قتلة ضابط بريطاني كان سيضع ارواح جميع زملائه تحت رحمة الأراذل من امثال الحاج سعد الذين يحرضهم الذهب التركي...»(٢)

لجأ الإنكليز الى حيلة هي نفسها التي كان يلجأ إليها الحكام القدماء للتغلب على خصومهم، أي سياسة بث الفرقة في صفوف الخصوم حسب المثل الروماني القائل: «فرّق تسد». فقد كان الإنكليز يعلمون ما كان بين رؤساء النجف من تنافس وتحاسد، وليس على الإنكليز إلاّ أن يتبعوا مثل طريقة معاوية في رفع المصاحف في

---

(١) – محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٢٩٥ـ٢٩٦.

(٢) – المس بيل، «المصدر السابق»، ص١٢٥.

صفين، ثم يتركوا الامور تأخذ مجراها الطبيعي بين النجفيين، حيث لابد أن ينقسموا الى فريقين متنازعين: أحدهما موافق والآخر مخالف.

في اليوم الرابع من الثورة ـ أي في ٢٢ آذار ١٩١٨ ـ دخل الى النجف رجل من أهلها كان مستخدماً لدى الإنكليز اسمه هادي شربة وهو يحمل رسالة من بلفور معنونة الى السيّد كاظم اليزدي وعلماء النجف ورؤسائها يطلب منهم المفاوضة. فاجتمع عدد كبير منهم في دار الكليدار لتحديد مطاليب النجفيين واختيار وفد منهم لمفاوضة الإنكليز. والظاهر أن النجفيين ازدادت ثقتهم بأنفسهم بعد الذي رأوه من إتفاق كلمتهم على الثورة فصاروا يشترطون في مطاليبهم حيث طلبوا أن يتخلى الإنكليز عن حكم البلدة ويتركوها لأهلها ليحكموها بأنفسهم، ولكنهم وافقوا على بقاء حميد خان في النجف ليكون ممثلاً للانكليز فيها.[١]

تم تأليف الوفد من السيّد عباس الكليدار وعمه السيّد هادي ومحمود أغا الهندي والشيخ جواد الجواهري والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والشيخ جعفر الشيخ راضي ومهدي السيّد سلمان. وقد عارض الحاج نجم البقال وأعوانه اختيار مهدي السيّد سلمان بالوفد لارتيابهم في موقفه من الثورة وطلبوا اختيار سعد الحاج راضي بدلاً عنه، فلم يوافق أكثر الحاضرين على ذلك.[٢]

خرج الوفد الى خان عطية فاستقبلهم فيه بلفور مرحباً وأخذ يلاطفهم ويشكرهم على «الزحمة» وقال لهم: ان الحكومة الإنكليزية تحترم النجف وعلماءها وأهاليها كل الاحترام وهي تريد كل الخير لهم، ولكن هناك جماعة من المفسدين هم الذين سببوا الفتنة وأخلّوا بأمن البقعة المباركة الشريفة وسلامة العلماء الاعلام المجاورين لهذا البلد الطاهر، وليس لدى الحكومة سوى مطلب يسير هو تسليم هؤلاء

---

(١) – محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٢٩٧.

(٢) – حميد عيسى حبيبان «المصدر السابق»، ص٨٤.

المفسدين إليها لينالوا جزاءهم، وان الحكومة على يقين بأن السيّد كاظم اليزدي وسائر العلماء بما لديهم من ثاقب الفكر وعلو الهمة وحسن النية سيساعدونها على ذلك إذ أنهم يعرفون حق المعرفة حسن نية الحكومة المعظمة ومساعيها الكثيرة لاعلاء المباديء الدينية التي يتدين بها أهل العراق وانقاذ شعوبه من المظالم والمفاسد السابقة.

رد الشيخ جواد الجواهري على بلفور قائلاً: ان الوفد جاء لاصلاح ذات البين وتذليل العقبات التي تقف حجر عثرة في سبيل الصلح بين الفريقين، اما هذا الطلب الذي قدمتموه فهو لايساعد على الصلح. فقال بلفور: ان هذه هي إرادة القائد العام وهي لاتُرد. فلما طلبوا منه التساهل أجابهم بأنه سيخابر القائد العام ويعطيهم الجواب غداً. فعاد الوفد الى النجف بانتظار الغد.

وفي عصر اليوم التالي خرج الكليدار ومهدي السيّد سلمان لمقابلة بلفور، فقدم لهم بلفور الشروط التالية:

أولاً: تسليم القتلة ومن اشترك معهم بالفتنة تسليماً بلا قيد أو شرط.

ثانياً: غرامة الف بندقية وخمسين الف روبية يجمعها الرؤساء المخلصون من المحلات التي كانت لها يد في الفتنة.

ثالثاً: تسليم مائة شخص من المحلات الثائرة الى الحكومة لابعادهم عن النجف بصفتهم أسرى حرب.

وقال بلفور عند تقديمه هذه الشروط ان النجف ستبقى تحت الحصار الشديد فيمنع عنها الطعام والماء الى أن تستجيب للشروط وتنفذها بحذافيرها. وفي الوقت نفسه أرسل بلفور الى السيّد كاظم اليزدي الرسالة التالية التي وجهها إليه كوكس:

الى حضرة آية اللّه الحاج سيد محمد كاظم الطباطبائي دامت بركاته. لقد اصدر صاحب الدولة قائد الجيش العام الاوامر اللازمة باخماد الفتنة التي وقعت في النجف

الأشرف وكدّرت خاطره كثيراً. وقد اصدر أيضاً الأوامر بإلقاء القبض على المفسدين الذين سبّبوا هذه الفتنة، وبالمحافظة على سلامة البقعة المباركة الشريفة، وسلامة حضرات العلماء الأعلام، والمجاورين لذلك البلد الطاهر. ولاشك في أن القبطان بلفور سيطلع حضرتكم على هذه الأوامر التي إن لم يطعها أهالي النجف الأشرف ويرضخوا لها فلابد أن تحصل بواسطتهم المضايقة على حضرات العلماء الأعلام الساكنين في النجف الأشرف. وأنا على يقين تام بأنكم ستساعدون السلطات البريطانية وتعاونوها بثاقب فكركم، وعالي همتكم، وحسن نيتكم، على تهدئة أحوال البلد الطاهر، وإخماد الفتنة الحالية، إذ انكم تعرفون حق المعرفة حسن نية الحكومة المعظمة ومساعيها الكثيرة التي تبذلها لاعلاء المبادىء الدينية التي يتدين بها أهل العراق، وانقاذ شعوبه من المظالم والمفاسد السابقة. وانا لمنتظرون نتيجة مساعيكم المشكورة وادامكم المولى ملاذاً للاسلام والسلام. ـ الحاكم الملكي العام في العراق[١]

حين عاد الوفد بشروط الإنكليز الى النجف، وانتشر خبر الرسالة التي وصلت الى اليزدي من كوكس، شعر النجفيون أن ذلك بمثابة التحدي لهم، فصمموا على رفض الشروط ومواصلة الثورة. وقد توثقت أواصر الاتحاد والتضامن بينهم في سبيل ذلك، وحمل الجميع اسلحتهم استعداداً للقتال، وهم قد مارسوا ذلك كثيراً في معاركهم المحلية الماضية.

تقع حول سور النجف، ولاسيا في جهة الجنوب والجنوب الغربي منه، سلسلة من التلول تكونت من تكديس التراب المستخرج من الأرض عند حفر سراديب النجف المشهورة. وكان اكبر تلك التلول يقع قريباً من باب السور الموصلة الى محلة الحويش، وهو المعروف عند أهل النجف بأسم «المقلاب» أو «جبل الحويش». وقد اتخذ النجفيون من تلك التلول، وخاصة المقلاب، حصوناً لهم للدفاع عن بلدتهم،

---

(١) ـ جريدة «العرب»، في عددها الصادر في ٩ نيسان ١٩١٨.

فحفروا فيها الخنادق ووضعوا عليها أكياس الرمل، وكانوا قد تعلموا ذلك مما شاهدوه في معارك الجيوش النظامية خلال الحرب.(١) وعينوا الحراس على الخنادق يتناوبون عليها ليلاً ونهاراً، بالاضافة الى الحراس الذين وضعوهم على شرفات السور من جميع الجهات.

تشديد الحصار:

كان الإنكليز قد حشدوا قوات كثيرة في الكوفة وجعلوها تحت قيادة الجنرال ساندرز، وقد اشغلت تلك القوات شواطيء الكوفة وخاناتها ومعظم الدور المطلة على النهر فيها. وتمركزت طلائع القوات في مقام كميل بن زياد الواقع على بعد كيلومترين من سور النجف. حيث اتخذت من قبة المقام وكراً لمدفعيتها، وشرعت في حفر الخنادق واقامة المتاريس ونصب الاسلاك الشائكة حول النجف.(٢)

وبذلك تمت حلقة الحصار على النجف، فانقطع أي اتصال بينها وبين الخارج، فلايمكن أن يدخل إليها أو يخرج منها أحد.

كان نطاق الحصار في بداية الأمر على بعد الف ياردة من السور تقريباً، وكان مقسماً الى ثلاثة قواطع، ثم قرّبوه بعدئذٍ من السور، وعززوه بنطاق آخر من الاسلاك الشائكة.(٣)

وعمد الإنكليز الى سد جدول «السنية» الذي يأخذ مياهه من نهر جحات في أبوصخير ويصل الى مقربة من سور النجف. وكان الذي اشار عليهم بهذا الرأي رجل من الحميدات اسمه فرحان المحمد البليبش، وقد ارسلوه الى أبوصخير لسد

---

(١) - محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٢٩٩.

(٢) - عبدالرزاق الحسني «المصدر السابق»، ص٣٥.

(٣) - محمد أمين العمري «حرب العراق»، بغداد ١٩٣٥، ج ٣، ص١٤٦ ـ ١٤٧.

الجدول، فقام به بالتعاون مع بعض العمال. وطلب الإنكليز من بعض الشيوخ وضع عدد من اتباعهم لمحافظة السد وحراسته، فلبى الشيوخ طلب الانكليز وتسلّموا منهم روبية واحدة يومياً عن كل واحد من أتباعهم المكلفين بالحراسة...[١]

أعدت جمعية النهضة الاسلامية عدة رسائل معنونة الى شيوخ العشائر الذين كانوا منتمين إليها تحثهم على مساعدة النجف في ثورتها.[٢] وفي ساعة متأخرة من مساء ٢٤ آذار حمل رجل من عشيرة العوابد تلك الرسائل، وخرج بها من السور من باب الثلمة قاصداً ايصالها الى اصحابها، ولكن خفراء الإنكليز أحسوا به عندما حاول عبور الاسلاك الشائكة، فطاردوه والقوا القبض عليه، وبعد أن استجوبوه وأخذوا الرسائل منه قتلوه. ثم اتخذ الإنكليز مختلف الوسائل لمنع شيوخ العشائر من التحرك لمساعدة النجف.[٣]

وحين علمت الجمعية بمقتل رسولها أعدت رسائل أخرى وارسلتها بيد رجل من بني عامر. وفي مساء ٢٧ آذار خرج الرجل من السور من باب السقائين، وهبط الى المنخفض الذي يحيط بالنجف من ناحيتها الجنوبية الغربية، وسار متخفياً من خلال تضاريس ذلك المنخفض ودروبه الملتوية. ووصل أخيراً الى مقصده وسلم الرسائل الى أصحابها. ولكنها لم تنفع شيئاً.[٤]

وفي ٢٩ آذار ١٩١٨ نشرت جريدة «العرب» الناطقة بلسان حكومة الاحتلال البيان التالي: «في صباح التاسع عشر من شهر آذار ذهب جماعة من القتلة الذين

---

(١) - عبدالشهيد الياسري «البطولة في ثورة العشرين»، النجف ١٩٦٦، ص١٠٥ ـ ١٠٦ (حاشية).

(٢) - محمد علي كمال الدين «المصدر السابق»، ص٣٩.

(٣) - حسن الأسدي «المصدر السابق»، ص٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٤) - المصدر السابق، ص٢٧٨.

استأجرهم فحركهم علىٰ القتل رجال من اصحاب الأهواء الى بيت الحاكم السياسي في النجف الواقع في خارج البلدة، فاطلقوا عليه عيارات نارية قتلته، وجرحوا ضابطاً آخر. وكان الحاكم المذكور قد نُقل الى النجف مؤخراً من الكاظمية بعد أن أحرز فيها ثقة العلماء الأجلاء وودّهم، وكذلك قل عن جميع الأهالي، فأسف عليه كل من عرف أمانته وأخلاقه ولين جانبه. وقام بعض المبغضين في النجف فأثاروا الشغب وقتلوا رجلين من رجال الشرطة. والأنباء التي وصلت الحكومة تدل علىٰ أن ثلاثة ارباع المدينة هادئة ساكنة. ورجال الفتنة هم الشيخ كاظم الصُبّي والحاج سعد من حي المشراق. وقد يكون المحرضين علىٰ هذه السيئة رجال من خارج النجف.

«وقد قامت الحكومة بالتدابير اللازمة، فأحاطت بالنجف في اليوم العشرين. وفي الواحد والعشرين والثاني والعشرين حاولت جماعة في النجف أن يهجموا علىٰ الجنود فردوهم علىٰ أعقابهم خاسرين. ومنذ ذلك الحين اصبحوا يترامون بالرصاص من وقت الى آخر. وقد خاطب في الثاني والعشرين رؤساء المجتهدين رجال السلطة العسكرية الذين يشدّدون علىٰ من اشترك في تلك الامور ومن يتعلق بهم. وقد أرسل أصحاب السلطة العسكرية والملكية برسائل الى السيّد محمد كاظم اليزدي يبدون فيها اسفهم لوقوع هذه المشاغبات، واهتمامهم بالمحافظة علىٰ الأماكن المقدسة وخزائنها وعلىٰ العلماء الكرام، ويحثون أيضاً المجتهدين علىٰ مشاركتهم في اعادة النظام الى نصابه. والرأي العام في كربلاء والحلة وبغداد وغيرها يقبّح كل التقبيح ماقام به اولئك المفسدون من اخلال بالنظام في البلدة. وعرض بعض شيوخ العرب الذين علىٰ الفرات أن يرسلوا بعض عشائرهم لتأديب اولئك المفسدين. ويرغب الناس في كل مكان أن تعاقب الحكومة جماعة المفسدين عقاباً شديداً حتىٰ يأمن المجتهدون والزوار، وتضمن مصالح التجار والأهالي وأموالهم. والحكومة العسكرية توسلت بالوسائل الواجبة بلوغاً هذه الغاية».

ويلات الحصار:

استمر حصار النجف مدة تزيد على الاربعين يوماً، فاضطر السكان الى شرب مياه الآبار وهي مالحة لاتستساغ، وارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعاً فاحشاً. حدثني أحد النجفيين من الذين شهدوا الحصار: أن رغيف الخبز الملي، بالسحالة بلغ سعره نصف روبية، واوقية الدهن ليرتين. وقال ايضاً: ان سعر البصلة الواحدة ارتفع الى قران، وانتشرت بين الناس هذه الاهزوجة: «راس البصل بقران ترضى ياربي»، ولكن سعرها ارتفع بعدئذٍ الى أربعة قرانات.

هلك في اثناء الحصار أكثر الطيور والقطط، كما مات بعض الفقراء من المرضى. واضطر بعض الناس الى ذبح الحمير للاستفادة من لحومها، ولكيلا تهلك الحمير جوعاً. وقد بيع لحم الحمير في السوق علانية.[١] ويحدثنا محمد علي كمال الدين عما شاهده بنفسه من مناظر الجوع لدى القطط في تلك الايام، حيث يقول مانصه:

«... وقد شاهدت القطط وهي تأكل التمر مع أنها لم تكن معتادة على أكله في النجف من قبل، ولم أنس منظرها الحزن وهي تتقلب في الطرقات وتموء بأصوات كسيرة وتقلب نظراتها بين المارة وكأنها تستجديهم مما أصابها من آلام الجوع. انه منظر كئيب يدمي القلوب، وكنت اتألم كثيراً لمرأى هذه الحيوانات الوديعة وهي تعالج سكرات الموت جوعاً».[٢]

مما خفف من حدة المجاعة في النجف ان التمر كان مكدساً في مخازن التجار بكثرة، فصار الغذاء الوحيد للكثيرين من سكان البلدة. ويُروى عن تاجر نجفي اسمه جدوع الصنم أنه كان لديه خان مليء بالتمر فوزّعه على الفقراء مجاناً لوجه الله. ولو أنه كان

---

(١) – محمد علي كمال الدين «المصدر السابق»، ص ٤٠.

(٢) – المصدر السابق، ص ٤١.

طماعاً لجني ثروة كبيرة كما يفعل الكثيرون في مثل تلك الظروف. انه آثر الآخرة على الدنيا وكان في ذلك من أندر البشر!

يبدو أن انقطاع الماء عن النجف كان أشد وطأة على سكانها من قلة الطعام. يقول الشيخ رضا الشبيبي في ذلك مانصه: «وأفضع آثاره ـ يقصد آثار الحصار ـ انقطاع الماء، فقد التجأ الجمهور الى مياه الآبار الملح الزعاق وهم يدعونه (ماء العديدة والدلو). وماء هذه الآبار من الاقنية القديمة، والظاهر من حال النجفيين أنهم يستسيغون هذا الماء أكثر من غيرهم لأن أسلافهم صبروا عليه ردحاً طويلاً من الزمان. وقد بيع حمل الماء العذب بليرة ومجيدي هذا اليوم ـ يقصد ٢٥ آذار ١٩١٨».

ويقول الشبيبي ايضاً: أن نفراً من النجفيين حاولوا في مساء ٢٤ آذار الخروج من السور في موضع يُدعى «باب الثلمة» طلباً للماء فقُتل بعضهم وجُرح آخرون، وكان من بين القتلى عبدالله الجصاني وزوجته وابنه، ولكن نفراً آخر من النجفيين حاولوا في مساء ٢٩ آذار الخروج من السور طلباً للماء ونجحوا في محاولتهم.[١]

أمطرت السماء مطراً غزيراً في مساء ٣١ آذار ١٩١٨، فكان ذلك بمثابة انقاذ للذين لم يذوقوا الماء العذب منذ ايام. وقد صار الناس يجمعون الماء بكل ماتيسّر لديهم من أوعية. وفي الصباح التالي كان الناس حين يتقابلون يسأل بعضهم بعضاً قبل التحية: «مقدار إيش جمعت من الماي».[٢]

محاولات نجفية:

في مساء ٢١ آذار قام المرزا عباس الخليلي بمحاولة لاشعال النار في خان عطية. فقد خرج من السور وهو يحمل قربة صغيرة من النفط، ومعه نفر من المسلحين، ولكنه

---

(١) – محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٢٩٨ ـ ٣٠٢.

(٢) – المصدر السابق، ص٣٠٦.

لم ينجح في محاولته لكثافة النيران التي سُلطت عليه وعلى اصحابه. فتراجعوا الى السور.[١]

وفي الساعة الثامنة من مساء ٢٤ منه تمكن نفر من أهل النجف كانوا في الخارج أن يخترقوا نطاق الحصار ويدخلوا البلدة، كان من بينهم كريم بن سعد، واثنان من أولاد عطية أبوقلل هما كردي وعجمي، وعبدهما اسمه «عصمان». فشاع بين الناس أن عطية نفسه قد دخل البلدة، وكان لهذه الإشاعة دوي ورنة بين الناس، وخرجت مظاهرة فيها نساء، وأخذت النساء يهزجن بهذه الأهزوجة:

أبـو تـركي قـحم بـالليل بـزمور التـفك والخـيل[٢]

وفي منتصف الليل من مساء ٢٦ آذار قدم الى النجف رجل من أهلها كان مقيماً في المشخاب يُدعى «ابن حسون غرب» وكان معه نيف وأربعون رجلاً من عشيرة الزرقات، وقد تمكنوا جميعاً من اختراق نطاق الحصار، وأحس بهم خفراء الإنكليز فأصلوهم ناراً حامية، ولكنهم لم يصيبوا سوى رجل واحد منهم بجراح، وقد تحامل هذا الرجل ووصل حياً مع رفاقه. وفي ضحى اليوم التالي تظاهروا في النجف متحمسين.[٣]

وفي الساعة العاشرة والنصف من مساء ٣١ آذار حدثت في النجف حادثة وصفها الشيخ رضا الشبيبي بأنها «الواقعة النجفية الكبرى» و «أم حوادث الثورة». وهو يقول عنها ما نصه: «... فلقد كانت ليلتها، وهي ليلة الاثنين ١٩ جمادي الثانية سنة ١٣٣٦، حالكة الجلباب مسودة الأهاب أول الأمر، وكان الجو عابساً مكفهراً والسماء متلبدة بالغيوم والريح ثائرة والارض مطيرة، كأن كل ظواهر الكون يومئذ

---

(١) - محمد علي كمال الدين «المصدر السابق»، ص ٣٤.

(٢) - محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٢٩٨.

(٣) - المصدر السابق، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

منذرة بحدوث حادث لا مفرّ منه، وقد انقبضت النفوس وضاقت الصدور توقعاً لما عسىٰ أن يصيبها منه. وأنه لسر من أسرار النفس أن تتوقع في بعض الأحوال حدوث بعض المزعجات فتجيء كما توقعت أو شبيهاً بذلك كأنما للنفس مع عوامل الغيب الخفية خلسات أو علاقات. فقد خرج فريق من ثوار النجف في الساعة الرابعة والنصف من تلك الليلة خارج السور من ثقب هم فيه قرب الباب الكبيرة الشرقية محاولين الهجوم علىٰ الخان، وهو كما لا يخفىٰ أمنع معاقل الإنكليز، وقد سمعناهم قبيل خروجهم يتظاهرون ويعطعطون، فلما صاروا على مقربة من الخان وأحست بهم الحامية اطلقت عليهم النار، فأجابوها بالمثل، وعلت لهم جلبة ولغط. واهتم لهذه الحركة القائد الإنكليزي علىٰ مايظهر، وظن أنها الفرصة التي يستاصل بها شأفة الثوار. وفي الحقيقة انه فاجأهم بما لم يكونوا يحلمون به وصبّ عليهم ناراً حامية هائلة من البندقيات والرشاشات، واشتركت في الحرب بعض السيارات المجهزة، واستعمل الإنكليز ضد القوم هذه المرة القنابل المتفرقعة (الديناميت) وهي اول مرة فعلوا معهم فيها ذلك، واستعانوا علىٰ استكشافهم بالنجمات المضيئة (وهي قسم من الصواريخ). وحاول هذا القائد اشغال خواطرهم أو منع وصول الامداد إليهم فأمر طائفة من جنده مرابطة ازاء (المقلاب)، او مترب الباب الصغيرة، بالتقدم اليها، وكانت حاميته ضعيفة قليلة فاستغاثت بمن في المدينة من الثوار، فأنجدها كاظم صُبّي وجماعته، ونشب الحرب بين الفريقين حول المترب في الوقت الذي كانت ناشبة فيه جهة الخان بشدة عظيمة دامت بين نصف ساعة وثلاثة ارباع الساعة. وكانت النتيجة ان الثوار الذين تقدموا الى الخان تقهقروا تحت وابل من النيران الحامية حتىٰ توهم كثيرون ان الحرب انتقلت الى الأزقة والشوارع. فقامت قيامة المدينة، وجاشت وغلت غلية المراجل بين مظاهرة الرجال وهلهلة النساء، لكن الثوار ستروا تقهقرهم بمهارة تامة وكانوا علىٰ مايظهر بقيادة الحاج نجم وكريم بن سعد. وأما الإنكليز الذين تقدموا الى المترب فقد تقهقروا أيضاً وطاردهم النجفيون. ومن الغريب أنه لم يظهر عدد من

أصيب هذه الليلة من الثوار، وربما أنكروا ذلك. لكنهم يبالغون، ومبالغتهم ليست بحجة، في عدد من اصيب من الإنكليز. ثم تلى الحادثة سكون عجيب استولى على المدينة، فلا تكاد تسمع فيها حساً ولا ركزاً من ذي حياة، كما يتلو عادة مثل هذا السكون حروب التطاحن الكبيرة على اثر ماينال خائضي غمارها من الكلال والأعياء. وفزع الناس الى الزوايا المظلمة والسراديب المطبقة يتهامسون في عظم الحادث وجلالة الخطب في وسط ذلك السكون الشامل الرهيب. واعلم انه ما كانت تغمض هذه الليلة لنجفي عين لهول ماسمعه الناس وما شهدوه».[1]

يذهب محمد علي كمال الدين في تفسير هذه الحادثة الى القول بأن الثوار كانوا يريدون الهروب من النجف في تلك الليلة عملاً برأي الشيخ جواد الجواهري، وقد نجح البعض منهم في ذلك فكمنوا في الكهوف والمغاور الموجودة في المنطقة غير أن البعض الآخر منهم عدلوا عن الهروب وآثروا البقاء في النجف مع العلم أنهم كانوا قادرين على الخلاص. وقد اضطر الآخرون الى مجاراتهم شهامة منهم، وبذلك ضاعت منهم تلك الفرصة التي لن تسنح لهم مرة أخرى.[2]

موقف الملائية:

اشرنا في الجزء الرابع الى ان المجتمع النجفي يضم فئتين متمايزتين من السكان، هما: «الملائية» و«المشاهدة»، أو بعبارة اخرى: «المعممون» و«المسلحون».[3] فالفرد الملائي يستمد قيمه الاجتماعية من الدين في الظاهر، بينما يستمد الفرد المشهدي قيمه من البداوة. ولهذا كان الملائية بوجه عام ينظرون الى المشاهدة نظرتهم الى أناس اعتدائيين لايخافون الله.

---

(١) - المصدر السابق، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٢) - محمد علي كمال الدين «المصدر السابق»، ص ٤٠.

(٣) - انظر الجزء الرابع من هذا الكتاب، بغداد ١٩٧٤، ص ٤٠٧ ـ ٤١٠.

وحين قامت ثورة النجف كان القائمون بها في الغالب من المشاهدة، ولم يساهم فيها من الملائية سوى نفر قليل جداً. وتشير بعض القرائن الى أن كبار الملائية، وفي مقدمتهم السيّد كاظم اليزدي، كانوا في أعماق قلوبهم يستنكرون الثورة، وربما اعتبرها بعضهم فتنة وعملاً من أعمال «الأشقياء». وهنا يكمن الفرق الأساسي بين ثورة النجف وثورة العشرين. ومن المؤسف ان نرى الباحثين في ثورة النجف يغفلون عن هذه الناحية المهمة منها. كان اكثر الملائية مساهمة في ثورة النجف هو المرزا عباس الخليلي. فقد كان هذا الرجل محور النشاط في جمعية النهضة الاسلامية، ولعله كان المحرك للكثير من فعالياتها. ولكننا يجب أن لاننسى في هذا الصدد أن عباس الخليلي لم يكن من كبار الملائية، فقد كان يومذاك شاباً في الثانية والعشرين من عمره، لم يلبس العمامة بعد، بل مازال يلبس العقال والكوفية كشأن صغار الملائية. وكان بالاضافة الى ذلك يحسن استعمال البندقية ونزول الآبار كما يفعل المشاهدة. وقد يصح أن نقول انه كان ذا شخصية مركبة من الملائية والمشهدية معاً، فلم يكن ملائياً محضاً أو مشهدياً محضاً. هناك رجلان آخران من الملائية بالاضافة الى الخليلي ابديا شيئاً من النشاط خلال ثورة النجف، هما السيّد عزيز اللّه الاسترآبادي والشيخ ابراهيم الكاشي، ولكن هذين الرجلين إنما ساهما في الثورة بدافع الغيرة الدينية وحدها، ولم يكونا يعرفان شيئاً عن السياسة وأحابيلها. انهما بعبارة أخرى كانا مدفوعين بالرغبة في محاربة الكفار والجهاد في سبيل اللّه ـ وهو الذي كانوا يطلقون عليه حسب الفقه الجعفري اسم «الدفاع».[١]

المعروف عن السيّد عزيز اللّه الاسترآبادي انه كان من زهاد المجاورين

---

(١) ـ ان الجهاد حسب الفقه الجعفري لايجوز إلاّ إذا كان مع الامام المعصوم، أما في غياب الامام فيجب الجهاد في حالة تعرّض البلاد الاسلامية لهجوم الكفار عليها، وهو عند ذلك يسمى «الدفاع».

وعبادهم، وكان شديد التحمس في الدين، وقد نهض لمحاربة الروس في عام ١٩١١ عندما قصفوا مشهد الرضا في خراسان، كما شارك في حركة الجهاد في القرنة خلال الحرب. وشوهد في إبان ثورة النجف، في مساء ٢٣ آذار ١٩١٨، وهو يقود مظاهرة صغيرة من الطلبة ويدعو الناس الى «الدفاع».

أما الشيخ ابراهيم الكاشي فكان واعظاً، وشوهد في عصر ٢٧ آذار وهو متقلد سيفاً يخطب الناس في الحث على «الدفاع». وفي ٣١ منه ذهب هذا الرجل الى الصحن يريد فتحه، وكان الصحن مقفلاً منذ بداية الثورة. وقد حاول الشيخ ابراهيم كسر القفل، فمنعوه من ذلك وأهانوه.[١] وحدثني رجل من النجف أنه شاهد الشيخ ابراهيم الكاشي واقفاً تجاه باب الصحن وقد شهر سيفه بيده وهو يخاطب الامام علياً مخاطبة شديدة ينخوه بها أن ينهض لنصرة الاسلام على الكفار. حين نقارن هذا بما فعله الملائية في ثورة العشرين نحس بوضوح مدى الفرق الكبير بين الثورتين من الناحية الاجتماعية.

الملائية يسترحمون:

يمكن القول على أي حال أن كبار الملائية كانوا تجاه ثورة النجف في موقف حرج، ففي الوقت الذي كان فيه معظمهم يستنكرون الثورة قلبياً كانوا يشعرون بالألم لما اصاب الفقراء والضعفاء منها من ويلات الحصار. وقد وجدوا من واجبهم أخيراً أن يكتبوا عريضة للانكليز يطلبون فيها الرأفة بسكان النجف. وفي ٢٥ آذار ١٩١٨ اجتمع في بيت السيد كاظم اليزدي كبار الملائية وكتبوا العريضة التالية:

لحضرة القائد العام لجيوش بريطانيا العظمى ـ بغداد.

نحن العلماء في النجف الأشرف نرفع الشكوى عنا وعن عامة الفقراء والمساكين

---

(١) - محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٢٩٨، ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

والمجاورين في هذه البلدة المقدسة، مستغيثين بمراحم هذه الدولة وعدالتها، مسترحمين رفع هذا الأسر والحصار عن الأبرياء والضعفاء الذين لا جناية لهم ولا تقصير ولا رضا. واشد البلاء قطع الماء فانه من العقوبات التي لا تسوّغ في جميع الأديان البشرية. فإن لم تكن رحمة للرجال فنسترحم الرأفة علىٰ النساء والأطفال. وحاشا من عدالة هذه الدولة المعروفة بالرأفة والعدالة والقوة والسطوة ان تأخذ الأبرياء بالأشقياء. وقد اشرفت النفوس علىٰ التلف والهلاك من الجوع والعطش وتعطيل الأسباب. وهذه المعاملة ضربة علىٰ جملة العالم الاسلامي، جارحة لعواطف عامة المسلمين، غير موافقة لما هو المعروف من سياستكم الجميلة في جلب عواطف عموم المسلمين. فالمأمول إعمال التدابير الحازمة في رفع هذه الغائلة علىٰ وجه لاتهلك الضعفاء والأبرياء باصدار العفو العام وتأمين البلاد وأنتم أعرف بذلك. (التواقيع)

وقد شارك السيّد كاظم اليزدي في التوقيع علىٰ هذه العريضة، وكتب بخط يده عليها هذه العبارة: «حسب الظاهر ان اطفاء هذه الغائلة عن هذا البلد المقدس موقوف علىٰ العفو العمومي وفيه المصلحة».

أرسلت العريضة الى الإنكليز بواسطة رجل اسمه «علي هجوع». وفي ضحى ٢٧ آذار حمل هذا الرجل الى النجف جواب القائد العام الإنكليزي علىٰ العريضة، وهذا نصه:

نمرة ٢٨٠٢ ـ ٢٦ آذار ١٩١٨ ـ تلغراف

الى حضرة حجة الاسلام السيّد محمد كاظم اليزدي الطباطبائي وحضرات العلماء الأعلام في النجف الأشرف والى أهاليها.

وصلنا كتابكم فأمعنا النظر فيه وانكم لمحقون في افادتكم أن الحكومة البريطانية رؤوفة، وأسطع برهان علىٰ ذلك الرأفة التي عومل بها النجفيون في الحادثتين اللتين وقعتا في الستة شهور الماضية. وبرهان آخر علىٰ ذلك الخطة السلمية التي نتبعها في

تنفيذ الشروط المشترطة عليكم. فاننا لم نوقع العقاب بالأهالي الذين لم يخالفوا القانون، بل أولئك الذين خرقوا حرمته ومن ساعدهم على ذلك. وفي استطاعة النجف الأشرف أن تخرج سالمة من مأزقها الحالي إذا خضعت للشروط التي سبقت وعرضناها. في امكان حضرات المجتهدين والعلماء الاعلام حكام النجف المسلمين، لابل الأحرى عليهم أن يطهّروا بلدتهم من مفسديها، كما وعليهم مساعدتنا على ايقاع العقاب بأولئك اللذين اقترفوا تلك الجريمة، وعلى من حرّضوا على ارتكابها. وسوف لاتقصر الحكومة في منح العفو متى آن الوقت المناسب. فليتأكد سكان البلدة المسلمين بأننا سنعاملهم بالحسنى إذا اظهروا بأعمالهم انهم يستحقون منا تلك المعاملة. ولقد مضت سبعة أيام منذ قُتل الكابتن مارشال ومع ذلك فلم يعبّروا لنا أهالي النجف الأشرف عن خضوعهم، ولم يقوموا بشيء ما لأرجاع القانون والنظام الى نصابيها والسلام. ـ القائد العام للجيوش البريطانية في العراق ـ مارشال

اجتمع كبار الملالية مرة أخرى في ٣٠ آذار وكتبوا رداً على جواب القائد العام. وكان هذا نصه:

لحضور حضرة القائد العام للجيوش البريطانية في العراق.

تلقينا تلغرافكم نمرة ٢٨٠٢ بتاريخ ٢٦ آذار ١٩١٨ وأخذنا ما فيه بنظر التدقيق. تذكرون أنكم لم توقعوا العقاب بالأهالي الذين لم يخالفوا القانون، ونحن نفصح بالصراحة ان البلاء، والعقاب ماوقع ولن يقع إلاّ على الأبرياء والضعفاء الذين لاجناية لهم ولاتقصير، وقد نشرنا لعدالتكم (التي ذاع صيتها ولاحاجة فيها الى برهان) طالبين رفع الحصار والأسر عن الأبرياء والضعفاء باصدار العفو العام. وعسى أن لايكون خفيّ عليكم عجز العلماء وعامة الأهالي عما تقدر عليه دولة معظمة كالدولة البريطانية التي وعدت بحفظ حرمات الاسلام ورعاية المسلمين كما أعلن القائد الفاتح مود في أوائل فتح بغداد، وأكده الحاكم الملكي العام، بحفظ نواميس معابدنا التي

صارت منذ اكثر من عشرة أيام هدفاً لرصاص المتراليوز، وشؤون العلماء مهتوكة بهذا الحصار الشديد. وبالنهاية تقول بكل صراحة بدافع النصيحة للدولة الفخيمة أن هذا الحصار الذي أوجب تلف عدة من نفوس الأبرياء من الغرباء والمجاورين كل يوم بالقتل والجوع والعطش، كل هذا فضلاً عن مغايرته للرافة والعدالة، ومخالف للنواميس الانسانية وحفظ حقوق البشرية، وموجب لهتك الحرمات الاسلامية، وهو ضد المصلحة المرعية لمثل هذه الدولة الوحيدة بالسياسة التي لايعجزها حل مثل هذه المسألة الطفيفة. أما العلماء فلم يقصروا ولايقصرون بالقيام بوظيفتهم في الوعظ والنصح والارشاد، وكيف وهو من واجباتهم الدينية. ولكن لاتكاد تنحسم المادة بصرف الوعظ والنصح فقط حتىٰ تنضم إليها مساعداتكم بالعفو والسياسة اللازمة في مثل هذا الوقت. ولذلك الأمل فيكم أكيد بإصلاح هذه الغائلة بالتدابير الحازمة بالقريب العاجل ان شاء الله. (التواقيع)

الملاحظ ان هذه العريضة لاتخلو من شدة في الخطاب، ويبدو ان السيّد كاظم اليزدي لم يستحسن اسلوبها، ولهذا نراه قد كتب عليها بخط يده هذه العبارة: «نعم الصلاح بالاصلاح»، وهي كما يخفىٰ عبارة غامضة المعنى. ويعلق عليها الشيخ رضا الشبيبي قائلاً: ان السيّد كاظم جرىٰ في ذلك علىٰ عادته في عدم مشاركة الجمهور، ومخالفة السواد الأعظم، وحب الامتياز والتفرد، والتهرب من التصريح بالكلمات المجملة التي تحتمل التأويل، فهو في عبارته هذه كأنه يريد أن يقول انه غير مسؤول إلاّ عن هذه الكلمة التي يُحتمل فيها التأويل.[1]

وعلىٰ أي حال فقد غضب الإنكليز من العريضة لما فيها من اشارة الى تعريض المعابد لرصاص المتراليوز. وفي عصر ٢ نيسان ١٩١٨ وصل الى السيّد كاظم جواب من الكابتن بلفور عليها. وهذا نص الجواب:

---

(١) ـ المصدر السابق، ص٣٠٢.

حضرت حجة الاسلام السيّد محمد كاظم اليزدي الطباطبائي وحضرات العلماء الاعلام.

سعادة الحاكم العام استلم كتابكم المؤرخ ٣٠ آذار سنة ١٩١٨، وهو يعتبر من الضروري أن ابيّن لكم بأن قولكم إن البلد المقدس أصبح هدفاً لنيران المتراليوز ليس مطابقاً للحقيقة إذ أنه معلوم تماماً أننا لم نطلق نيراننا إلاّ على الاشقياء الذين يطلقون نيرانهم علينا. وسعادته يرغب منكم أن تعلموا أن مثل هذه الأقوال لاتساعدكم في المدافعة عن واقعة النجف.

كتب هذا الكتاب بأمر قائد الجيوش في الكوفة.

الكوفة ٢ نيسان سنة ١٩١٨ ـ حاكم سياسة الشامية ـ كابتن بلفور

وفي عصر اليوم التالي وصل الى النجف جواب آخر وهو من القائد العام، وكان لايخلو من خشونة، وهذا نصه:

٣ نيسان سنة ١٩١٨

حضرت آية الله حجة الاسلام السيّد محمد كاظم اليزدي الطباطبائي وسائر العلماء الاعلام.

قصاص البلدة الذي تضمنته شروطنا لم يبتدىء بعد، وهو لايحتوي على أذية الأبرياء. الماء الموجود في البلدة كاف لحفظ الأنفس على مابلغنا، وأما قطع الواردات الخارجية فلاينتج عنه سوى عدم راحة الأهالي. وقد تبيّن مراراً الى القائد العام للجيوش أن الأهالي الخاضعين للقانون هم الجانب الأكبر، وهذا مايعظم خجلهم لعدم اتخاذهم أي إجراءات ضد الأشقياء الذين يستمرون على تجرّيهم علينا. لانمسّ بأي اذى أي شخص روحاني أو أي شيء مقدس، فاننا نحترم المحلات المقدسة المختصة بجميع الأديان، لكن الأهالي هم أنفسهم الذين يجلبون الخجل على بلدتهم المقدسة لعدم مقاومتهم القاتل وبذل جهدهم تلقاء تنفيذ القانون والنظام. لم يتقدم

الى الآن سبب يوجب منح العفو، ولم يصل الى القائد العام للجيوش أي كتاب يظهر شعور الأسف علىٰ قتل الكابتن مارشال من أي مصدر معتبر خارج بغداد والكاظمية. بناء عليه لايُخفف الحصار، وربما تقتضي الضرورة آناً ما باتخاذ إجراءات أشد في تنفيذ القيام بشروطنا. القائد العام للجيوش البريطانية في العراق.

دل هذا الجواب علىٰ ان الإنكليز كانوا مصممين علىٰ عقاب النجف بغض النظر عن أي شيء آخر. والغريب ان الشيخ رضا الشبيبي يقول في تعليقه علىٰ هذا الجواب: انه كان علىٰ الاجمال ذا وقع حسن في النفوس بالقياس الى الجواب الأول.[1]

بداية الانقسام:

في شهر نيسان ١٩١٨ نُقل كوكس الى طهران، وحل محله ويلسون في منصب الحاكم الملكي العام ببغداد وكالة ولم يكد ويلسون يتولى منصبه حتىٰ بدأت الضغوط تُوجّه إليه من أجل التساهل مع النجف. يقول ويلسون في مذكراته حول هذا الموضوع ما يلي:

«ان التوتر بلغ أشده وخيف من ردود فعل غير حميدة في بعض الأوساط، وقد زاد أهل السنة في بغداد من مصاعبنا عندما افصحوا عن ابتهاجهم علانية بوقوعنا في الفخ السام. واتصل علماء الشيعة في انحاء ايران والعراق بالحكام الإنكليز حيث ابدوا مخاوفهم من ظهور استنكار عام وعرضوا طلبات ضخمة للتسامح مع أهل النجف، أو اقتراحات للتوسط بيننا وبينهم. وأفصحت الحكومة الايرانية للوزير البريطاني في طهران عن مخاوفها من حدوث استثارات خطرة في المشاعر الدينية الايرانية... وجاءني الى دائرتي في بغداد وسطاء يقدمون اقتراحات من عندهم للوصول الى حل سلمي، ووصلتنا رسائل خالية من التوقيع تهدد بالاغتيالات، كما وردت برقيات من

(١) - المصدر السابق، ص٣٠٨.

الهند ولندن تدل على خشيتهم من عواقب الاجراءات الصارمة التي قمنا بها ضد النجف. ان السر برسي كوكس، الذي كنت أواصل إعلامه بكل التفاصيل، هو الوحيد الذي حافظ على موقف السكوت الحكيم والمشجع».(١)

كان بلفور واثقاً من نجاح خطته في النهاية ـ أي من حدوث انقسام بين النجفيين يشل حركتهم ويؤدي بها الى الاخفاق، ولهذا ظل مثابراً على تشديد الحصار على النجف بالرغم من جميع الضغوط الموجهة اليه. وكان ويلسون والقائد العام يؤيدانه في موقفه هذا.

لم تمض سوى أيام قليلة حتى بدأت بوادر الانقسام تظهر بين النجفيين على نحو ما تنبأ به بلفور. وليس من المستبعد أن بلفور قام ببعض الأعمال والدسائس التي ساعدت على تعجيل ذلك الانقسام وعلى تضخيمه. ان السياسي الداهية هو الذي يفهم طبيعة المجتمع ويعرف كيف يستثمرها لمصلحته.

أولى بوادر الانقسام في النجف ظهرت في ضحى ٣ نيسان ١٩١٨ خلال إجتماع عقد في بيت السيّد كاظم اليزدي وحضره رؤساء البلدة مع أتباعهم. فقد أعلن مهدي السيّد سلمان في ذلك الإجتماع براءته من الثورة ومن الثوار، فانبرى للرد عليه كاظم صُبّي حيث قال ان أولاد السيّد مهدي وبعض اتباعهم كانوا من المدبّرين للثورة. وطال الجدال بينهم، وكثر القيل والقال، وحاول السيّد كاظم الاصلاح بينهم. وتم الاتفاق بينهم أخيراً على كتابة عريضة الى الإنكليز يبدي فيها النجفيون ندمهم على ما وقع ويظهرون الطاعة، ليكون ذلك اساساً للمفاوضة معهم. وقد كتبوا العريضة فعلاً، ولكن السيّد مهدي وأتباعه امتنعوا عن توقيعها، فأجبرهم السيّد كاظم على التوقيع، غير أنهم عادوا بعدئذ فأخذوا العريضة من الرسول الذي حملها ومزّقوها.

---

(١) - Wilson (op. cit.) - vol. 2, p.75.

وفي اليوم التالي عقد السيّد كاظم اجتماعاً آخر في بيته، فعاد الجدال بين الرؤساء من جديد، وتكاشفوا، وكادوا يتشاتمون.[١]

وفي صباح ٥ نيسان وصل رسول من الإنكليز الى السيّد مهدي يطلب منه مقابلة بلفور، فذهب السيّد مهدي الى مقر بلفور خارج السور ثم عاد وهو يحمل انذاراً الى أهل النجف كان هذا نصه:

منشور الى أهالي بلدة النجف الأشرف

١ ـ ان اطلاق النيران المستمرة من الاشقياء على العساكر البريطانية لا يمكن أن يُحتمل أكثر.

٢ ـ وبالنظر الى هذا ستُتخذ الاجراءات التي أجدها ضرورية، غير أن هذه الاجراءات ستسري في باديء الأمر على بعض المحلات الخارجة عن البلدة، فعلى الأهالي أن يبتعدوا عن الأسوار وعن نواحي البلدة كي يسلموا من الضرر، وأنصحهم أن يختبئوا داخل السراديب بينما المدافع (الطواب) تطلق نيرانها.

٣ ـ وليتأكد حضرات العلماء الأعلام والأهالي الخاضعون أنه لايحصل أي ضرر للمحلات المقدسة داخل البلدة. الكوفة ٥ نسان ١٩١٨ ـ قائد جيوش النجف والكوفة

اذاع السيّد مهدي هذا الانذار على الناس، وذكر ان الإنكليز أمهلوا البلدة ٢٤ ساعة لكي يسلموا قتلة مارشال وأعوانهم الخمسة والعشرين، فعم الفزع بين الناس، وأخذ الساكنون قرب السور يتركون بيوتهم على عجل ويلجأون الى الداخل. أرسل السيّد كاظم اليزدي الشيخ محمود أغا الهندي والشيخ جواد الجواهري الى بغداد، وقد حملتهما الى بغداد سيارة انكليزية. وكان الغرض من ارسالهما مراجعة القيادة البريطانية من أجل إعادة الماء الى البلدة والسماح للزوار والغرباء بالخروج منها.[٢]

(١) ـ محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٢) ـ عبدالرزاق الحسني «المصدر السابق»، ص٧١ (حاشية).

وفي مساء ذلك اليوم ـ أي ٥ نيسان ـ استدعى اليزدي إليه سعد الحاج راضي وغيره من رؤساء الثوار، وحذّرهم من العواقب السيئة التي ستحل بالنجف من جراء محاربة الإنكليز، وربما طلب منهم مغادرة البلدة. فلم يوافقوا على طلبه، واصروا على البقاء والثبات ومواصلة الحرب حتى الموت.

وفي صباح اليوم التالي خرج السيّد مهدي ومعه عبدالمحسن شلاش لمقابلة بلفور، وكان الناس ينتظرون عودتهما على أحر من الجمر، ولما عادا أخبرا الناس بأن الإنكليز توقفوا عن اطلاق المدافع على أطراف البلدة. فعم الفرح بين الناس.

وفي عصر اليوم التالي ظهرت طائرة في سماء النجف على مستوى منخفض، وظلت تدور اكثر من ثلث ساعة. وقد اطلق بعض النجفيين عليها النار، فلم يصيبوها. ثم القت الطائرة نسخاً من منشورين أحدهما يتضمّن الشروط المفروضة على النجف، والثاني يتضمن خبر الانتصار الباهر الذي ناله الجيش الإنكليزي على الأتراك في خان بغدادي في الفرات الأعلى.(١)

اليوم الحاسم:

كان يوم ٧ نيسان ١٩١٨ ذا أهمية كبرى في تاريخ الثورة النجفية، ويمكن أن نسميه بـ«اليوم الحاسم» إذ هو كان بداية النهاية للثورة.

أدرك الإنكليز أنهم إذا تمكنوا من الاستيلاء على المقلاب، وهو التل الواقع بالقرب من محلة الحويش، فإن في مقدورهم السيطرة على البلدة كلها. وفي فجر ٧ نيسان بدأوا الهجوم عليه، فأمطروه بوابل من القنابل والرصاص. ثم تقدمت نحوه ثلة من الجنود السيك والكركه وهم يقذفون عليه القنابل اليدوية، واستمر القتال خمسين دقيقة كان النصر فيها للجنود حيث تمكنوا من احتلال المقلاب.

---

(١) ـ محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٣٠٨ـ٣١١.

وتقدم الجنود بعد ذلك نحو السور القريب فاحتلوا جانباً منه وأخذوا يرمون برصاص بنادقهم كل من شاهدوه يمر في الطرقات أو يتطلع من فوق بيت. فسقط من جراء ذلك عدد غير قليل من الأبرياء الذين لا شأن لهم في الثورة.

يحدثنا محمد علي كمال الدين عما شاهده من المعركة، وكان ساكناً في محلة الحويش قريباً من تل المقلاب، فيقول ما نصه:

«... وقد شاهدنا وقت الهجوم بعض الرجال متحصنين بمدرسة الشيخ ملاكاظم ـ بالقرب من التل ـ معلنين الحرب ضد الثوار المرابطين في التل، كما شاهدنا عقيب احتلال التل بدقائق أول بادرة لخضوع النجف، فقد اندفع افراد الشبانة اللاجئون عند السيد مهدي السيد سلمان وهم يرفعون علماً أبيض، غير أن الجنود الإنكليز رموا حامل العلم بالرصاص، فوقع صريعاً في الحارة امام جدار مدرسة الشيخ ملاكاظم المقابل للتل، وسحبه الأطفال المتجمهرون هناك من رجله الى رحبة الحويش الصغيرة، وقد شيعوه بالسخرية واللعنات».[١]

وبعد ساعتين من الاستيلاء على المقلاب دخل ثلاثة من الضباط الإنكليز الى النجف، وهم يسحبون معهم سلك التلفون، وذهبوا رأساً الى بيت السيد كاظم اليزدي. ويقال ان ويلسون تحدث الى السيد كاظم بالتلفون من بغداد يستفسر عن سلامته وسلامة البلدة من أجل تطمينه.[٢]

وفي ظهر اليوم نفسه ظهرت طائرة في سماء النجف والقت نسخاً من منشورين، أحدهما يتضمن جواب القائد العام المرسل الى السيد كاظم اليزدي في ٢١ آذار، والثاني جواب القائد المرسل الى اليزدي والعلماء في ٢٦ منه. وفحواهما ان الإنكليز

---

(١) ـ محمد علي كمال الدين «المصدر السابق»، ص٤٣.

(٢) ـ المصدر السابق، ص٤٣ ـ ٤٤.

لايريدون سوى تطهير البلدة المقدسة من المفسدين، وأنهم سيعاملون الباقين من سكان النجف بالحسنى إذا أظهروا أنهم يستحقون هذه المعاملة. ساد الرعب في النجف، وانتهز السيّد مهدي الفرصة فأوعز الى أهل محلته برفع الأعلام الحمر فوق بيوتهم اشارة الى الطاعة والتسليم. ثم خرجت جماعات من مختلف المحلات ليعرضوا الطاعة على بلفور كان في مقدمتهم عبدالمحسن شلاش.

وفي اليوم التالي خرج جماعة من رؤساء النجف ووجهائها كان منهم السيّد مهدي وعبدالمحسن شلاش والسيّد عباس الكليدار والسيّد هادي الرفيعي والسيّد علي جريو وعبدالله الرويشدي، بغية مقابلة بلفور. وقابلوه في موضع يُدعى «الرحى»، وسألهم بلفور عن الثوار فأجابوه بقولهم: «انهم خرجوا من النجف على مانسمع». فطلب منهم بلفور أن يضمنوا تبعة قولهم فيما لو دخلت القوات الإنكليزية الى البلدة بناءاً على ذلك، فترددوا ولم يضمنوا. فأكد عليهم بلفور أن يعودوا الى البلدة ويبحثوا عن الثوار في كل مكان. فتظاهروا باجابته، وعادوا الى النجف وأوعزوا الى أعوانهم بحمل السلاح وبالبحث عن الثوار، ففعل الأعوان ذلك وجاؤوا الى الصحن ففتحوا أبوابه وبحثوا عن الثوار فيه، كما بحثوا عنهم في محلتي العمارة والمشراق، فلم يعثروا على أثر لهم.[1]

هدم وقصف:

في الوقت الذي كان فيه أهل الطاعة يبحثون عن الثوار في النجف، أخذ الإنكليز يهدمون الأواوين والبيوت الملاصقة للسور في محلة العمارة، وكذلك بعض البيوت التي تقع خارج السور في تلك الجهة، وهي بيوت صغيرة معظم سكانها من الفقراء. وكان غرض الإنكليز من هدمها هو لكي يفتحوا طريقاً عسكرياً يربط بين بلدة النجف

---

(١) – محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٢١٢ ـ ٢١٥.

والمنخفض الذي يحيط بها من الناحية الغربية.

ومن الجدير بالذكر ان الإنكليز كانوا يدفعون لصاحب البيت ثمنه نقداً قبل الايعاز بهدمه، وكانوا قد استصحبوا معهم معماراً محلياً لتخمين ثمن البيوت المراد هدمها. ومن الطرائف التي تروى في هذا الشأن أن عجوزاً ايرانية من سكنة تلك البيوت سألت قائلة: «من هو هذا الشاه الذي يهدم بيوت الناس؟!». فتقدم منها ضابط انكليزي يعرف الفارسية وقال لها «انا». فقالت له: «هدمت بيتي، هدم اللّه بيتك!». فأجابها الضابط قائلاً: «ان الذي يدفع ثمن البيت المهدوم لايهدم اللّه بيته».(١)

وبعد هدم البيوت قرر الإنكليز هدم السور في تلك الجهة بواسطة قصفه بقنابل المدفعية، والظاهر أنهم قرروا ذلك لارهاب الثوار. وقد أرسل بلفور الى اليزدي رسالة يخبره فيها بهذا القرار، وهذا نصها:

حضرة آية اللّه السيّد محمد كاظم الطباطبائي دامت بركاته.

بعدالسلام، إني مأمور من قبل القائد العام لأبلغكم أن جنابه قرر اطلاق المدافع علىٰ نواحي محلة العمارة بكرة صباحاً. تقرر بموجب أمر قائد الكوفة والنجف، بناءاً علىٰ وساطة مندوبي حضرتكم الشيخ محمود أغا والشيخ صاحب الجواهر عند سعادة القائد العام، ادخال الماء الى المدينة، وترخيص الزوار والمسافرين لمغادرتها. وأنا مشغول بترتيب ذلك. فإن مقصد القائد العام رفع الصدمات الزائدة التي تلحق الأبرياء بسبب حركات المجرمين. ولي امل أن اتشرف بحضرتكم في هذا القرب، واستدعي لحضرتكم دوام الصحة.

٩ أبريل ١٩١٨ ـ بلفور حاكم سياسة الشامية

وعندما أراد الإنكليز قصف السور بالقنابل أحضروا بعض شيوخ العشائر كعبد

---

(١) ـ حدثني بذلك أحد المسنين من أهل النجف.

الواحد الحاج سكر، ومرزوق العواد، وعبادي الحسين، وعلوان الحاج سعدون، وغيرهم. واوقفوهم علىٰ شاطيء بحر النجف لكي يشهدوا القصف من هنالك. وكان قصدهم من ذلك أن يثبتوا للشيوخ أنهم إنما يقصفون السور فقط ولايتعرضون للأماكن المقدسة بسوء.[1]

مصير الثوار:

أخذ الكثير من الثوار يتبرأون من الثورة وينضمون الى أهل الطاعة ويدّعون أنهم كانوا ناقين علىٰ الثورة منذ بدايتها. يقول الشيخ رضا الشبيبي في ذلك ما يلي:

«.. أما سائر من حمل السلاح واطلق النيران علىٰ الإنكليز، واشترك في المظاهرة ضدهم، فقد ألقوا سلاحهم واحداً بعد الآخر، وتظاهروا بأنهم كانوا ولايزالون من الحزب الناقم علىٰ أهل الثورة، حتىٰ قاموا يومئذٍ علىٰ حراسة أحيائهم أن يدخلها أحد الثوار، وشهروا ظاهراً في وجوه رفاقهم اليوم سلاحهم الذي شهروه بالأمس في وجوه الإنكليز».[2]

لم يبق مصرّاً علىٰ مواصلة الثورة سوى نحو مائتي رجل، وقيل اقل من ذلك، وهم الذين كانوا واثقين بأن الإنكليز لن يعفوا عنهم، وفي مقدمتهم سعد الحاج راضي وأولاده والحاج نجم البقال وكاظم صبّي وكردي أبوقلل وعباس علي الرماحي.

حين رأى الحاج نجم قلة اصحابه اقترح عليهم أن يجمعوا كل التمر الموجود في خانات النجف فيخزنوه في الصحن ثم يغلقوا عليهم أبوابه ويتحصنوا في سطوحه ومرتفعاته، ويظلون يقاتلون حتىٰ يفرج الله عنهم.[3] ولكن اصحابه لم يقبلوا بهذا

---

(١) – عبدالرزاق الحسني «المصدر السابق»، ص٦٦.

(٢) – محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٣١٤ ـ ٣١٥

(٣) – حميد عيسى حبيبان «المصدر السابق»، ص٨٧.

الاقتراح خشية أن يصاب المرقد المقدس بضرر. وانتشرت بينهم روح الهزيمة، واضطروا في النهاية الى التفرق، واختبأ كل منهم في مكان.

صار الناس يسمّون هؤلاء بـ«أهل الحلف»، أي الذين تحالفوا وحلفوا علىٰ الثورة منذ بدايتها. وفي ضحى ١١ نيسان نادى المنادي في النجف يقول بأن كل من يخفي احداً من أهل الحلف فإنه سوفه يُصلب ويُهدم بيته وتُصادر أمواله، أما من يدل علىٰ أحد منهم فانه يُكافأ بخمسمائة روبية. وعند هذا اشتد البحث عن أهل الحلف في مخابيء النجف وخرائبها وسراديبها. ويقال ان البعض من أهل الحلف أنفسهم صار يبحث مع الباحثين لكي يدرأ عن نفسه تهمة الانتماء الى الحلف.

أصبح السيّد مهدي السيّد سلمان الزعيم الأوحد في البلدة لاينازعه فيها أحد، وأخذ أعوانه يتكاثرون. ولم يبق نفوذه مقصوراً علىٰ محلته وحدها، بل صار له أعوان يأتمرون بأمره في جميع المحلات. وانطلق هؤلاء الاعوان ينقّبون ويبحثون عن الاماكن التي اختبأ فيها أهل الحلف لكي يلقوا القبض عليهم ويسلموهم الى الحكومة «حفظاً للبلدة المقدسة وصيانة لكرامتها» علىٰ حد تعبيرهم.

يطلق الشيخ رضا الشبيبي علىٰ هؤلاء المنقبين الباحثين اسم «المسالمين» أو «الموادعين»، ويقصد بذلك أنهم سالموا الإنكليز وواودعوهم. وهو يصف تلك الايام بأنها أغرب أيام الثورة لما اظهره المسالمون من الدأب في طلب أهل الحف، والتصميم علىٰ القبض عليهم، حتىٰ ضيقوا علىٰ البلدة من أجل ذلك.[١]

ويعطينا جعفر الخليلي وصفاً مسهباً لتلك الايام حيث يقول ما نصه:

«... أدرك الثوار أن الثورة قد فشلت، فهمّ البعض بالخروج من النجف فالفوها محوطة بالاسلاك الشائكة، لذلك لجأ كل واحد منهم الى مخبأ من المخابيء، لينجو

---

(١) – محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٢١٨.

بنفسه. وتولى آل السيّد سلمان زعامة المدينة كلها والبحث عن العاملين في الثورة، ومال إليهم عدد غير قليل ممن اسهموا في الثورة وكانوا من المعتمد عليهم في الجمعية التنفيذية. وانقلبوا يبحثون عن الثوار ويخرجونهم من مخابئهم ويسلّمونهم الى الإنكليز. ومن هؤلاء كان تومان عدوة. وصاروا يشاركون آل السيّد سلمان في البحث عن الثوار وتسليمهم للسلطة تغطية لمشاركتهم في الثورة. والحق أنه لم يكن كل آل السيّد سلمان علىٰ هذه الوتيرة. فقد كانت بينهم عناصر وطنية لم ترض بموقف اسرتهم من تأييد الإنكليز... ولم يكن لهم من القدرة ما يستطيعون بها أن يصدوا السيّد مهدي السيّد سلمان زعيم الاسرة من الاندفاع في مؤازرة الإنكليز. وقد أفرط الباحثون عن الثوار في القسوة، فكووا ايدي النساء بالحديد لحملهن علىٰ الاعتراف بمخبأ المختبئين. ومن هؤلاء النسوة اللاتي كُويت ايديهن بالجمر كانت أم عباس علي الرماحي أحد رؤساء محلة البراق التي اضطرت تحت هذه القسوة أن تدل علىٰ مخبأ ابنها.

«وكانوا يسوقون المقبوض عليهم تحت الضرب والركل والصفع بالنعال علىٰ رؤوسهم، ويسلّمونهم بهذه الكيفية للانكليز خارج سور النجف، فيتسلمهم أولئك مكبّلين، ويشدّونهم بالحبال الى الخيول التي كانت تسحبهم كما تسحب الأثقال أو العربات، فيهرولون خلف الخيل لاهثين وهم مكتوفو الأيدي ليقطعوا عشرة كيلومترات علىٰ هذه الصورة حيث الكوفة التي تقيم فيها القيادة العسكرية الإنكليزية، ويدخلونهم هناك المخيم المعد لسجنهم، ريثما تحل محاكمتهم من قبل القيادة العسكرية».[١]

كتبت المس بيل في رسالة الى ابيها مؤرخة في ٢٤ نيسان ١٩١٨ قالت فيها ما يلي: «ان قضية النجف انتهت بانتصار لنا. فإن التعفن ظهر بين الثوار أنفسهم،

---

(١) - جعفر الخليلي «المصدر السابق»، ج ٤، ص ٩٥ ـ ٩٦.

وازدادت شجاعة اصدقائنا بينهم، فألقي القبض على عدد غير قليل من قتلة مارشال وسُلّموا لنا، واني أتوقع وآمل اننا سوف نشنقهم. ان القضية كلها قد دُبّرت بحذق كبير، والشكر للكابتن ويلسون والكابتن بلفور».[١]

القبض على الرؤساء:

في ١٢ نيسان ألقي القبض على الحاج نجم البقال. ويحدثنا الشبيبي عن كيفية القاء القبض عليه فيقول: انهم عثروا أولاً على ابن اخت الحاج نجم وهو من الذين اشتركوا معه في مقتل مارشال، وقد ارشدهم الى مخبأ خاله بعد أن وعدوه بالافراج عنه، غير أنهم لم يجدوا المخبأ إلاّ بصعوبة، وحين ارادوا القبض على الحاج نجم حاول مقاومتهم ولكنهم تغلبوا عليه وضربوه حتى أدموه. وقد أغلقت الاسواق على اثر ذلك وهرع الناس لمشاهدته واصطفوا على جانبي الطريق الذي مرّ به، وكان هو ثابت الجأش يدخن ولا اثر للجزع عليه، وصار يوبّخ الناس بعبارات شديدة قائلاً لهم: «إن هي إلاّ موتة واحدة ياكفرة». فسير به الى دار مهدي السيّد سلمان. ولما مثل بين يديه أخذ مهدي يسبه ويشتد في تعنيفه، ثم سلّمه بعدئذٍ الى الإنكليز.[٢]

وفي اليوم التالي سلم سعد الحاج راضي نفسه الى الإنكليز. انه أنف أن يقبض عليه أحد من اجل الحصول على المكافأة، فخرج من داره عصراً وكان يحف به جماعة من المسالمين دون أن يلمسوه أو يهينوه مهابة له، وقد سار خلفه وأمامه وعلى الجانبين جمهور كبير من الرجال والنساء وهم يبكون. فجرى تسليمه الى الإنكليز خارج السور، فأحاطه الإنكليز بالجنود وأوثقوا أكتافه ثم سيّروه مع آخرين من أهل الحلف الى الكوفة.

---

(١) – Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol.2 p.84.

(٢) – محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٢١٧ ـ ٢١٩.

وفي ١٤ نيسان ـ أي بعد يوم واحد من تسليم سعد ـ عثر المسالمون علىٰ ولديه أحمد ومحسن، وكانا مختفيين في دار احدى قريباتهم في محله البراق، وعندما أخرجهما المسالمون من الدار أخذ أحدهم يضربهما بعصاه ويسبهما. وقد طلب أحمد رؤية ابنه الصغير وصار يتوسّل ويتخضّع بدافع عاطفة الأبوة. فأحضروه له بعد لأي، فاحتضنه وقبّله كثيراً. ثم سحبوه مع أخيه محسن وسلّموهما الى السلطة.(١)

وفي مساء ٢٤ نيسان قرر عباس الرماحي تسليم نفسه، فخرج تحت جنح الظلام متنكراً الى بيت عبدالمحسن شلاش، غير ان المسالمين علموا بأمره فأسرعوا إليه يريدون القبض عليه، وحدث جدال وصياح بينه وبينهم: فهو يريد تسليم نفسه بنفسه بينما هم يريدون أن يتم التسليم علىٰ يدهم ليحصلوا علىٰ المكافأة. وقد حسم عبدالمحسن شلاش النزاع الناشب بينهم حيث تعهد أن يتم التسليم علىٰ يده لايشاركه فيه أحد.

وفي ظهر اليوم التالي خرج كردي أبوقلل لتسليم نفسه، وكان تسليمه يختلف عن كل ما حدث قبله أو بعده. فكان يوماً مشهوداً لم تعهد النجف له مثيلاً. يقول الشبيبي: ان المسالمين كانوا يعرفون مخبأه، ولكنهم كانوا يرهبون جانبه ويخشون سطوة أبيه المعروف بالشجاعة والفتك، فتهاونوا في امساكه، ولكن بلفور كان يلح في امر القبض عليه، فارسل مهدي السيّد سلمان إليه من يكلمه برفق ويهوّن عليه الأمر ويطمئنه. فخرج كردي من مخبأه وهو يرتدي افخر ثيابه ويواجه الناس بثغر باسم كأنه ذاهب الى محفل أنس وسرور. ثم يقول الشبيبي: «وهكذا ظهر للناس هذا الشاب الذي ما راهق سنه العشرين غير هيّاب ولا وجل، واظهر من عدم المبالاة ما لم يكن ينتظر منه علىٰ صغر سنه، وقد رقّ لمنظره الجميل كثيرون، وبكى كل من رآه، فعلا الضجيج وارتفعت الاصوات بالويل والعويل، فكأن النجف ساعة ذاك قد اصيب فيها كل بيت

---

(١) ـ حسن الأسدي «المصدر السابق»، ص٣٢١.

فيها بمصاب، فأنى اتجهت والى أي جهة توجهت لاتسمع غير صراخ وقر الأسماع وكثرة الالتياع، فالمدينة من اقصاها الى أقصاها في حزن عظيم. فأطل جماعات من الإنكليز وقد أدهشهم ذلك المرأى، والناس أكداس وأفواج، وظلوا يطيلون النظر الى طلعة ذلك الصبي الجميل...».(١)

كاظم وكريم:

في ٢٧ نيسان ـ وهو اليوم الاربعون للحصار ـ كان قد تم القبض على جميع المطلوبين الرئيسيين تقريباً ماعدا اثنين منهم هما: كاظم صُبّي وكريم بن سعد الحاج راضي.

كان كاظم صبّي مختبئاً في دار والد زوجته حبيب الحار. وكان المسالمون يعرفون مكانه ولكنهم يخشون التحرش به لشدة بأسه. وقد اضطر عبدالمحسن شلاش أخيراً الى الذهاب إليه وخاطبه من خارج الدار قائلاً: ان الفقراء يعانون من الحصار وهو لايرفع إلاّ بتسليمه، وناشده أن يسلّم نفسه انقاذاً للنجف من محنتها. فاستجاب كاظم له ووعده أن يسلّم نفسه في اليوم التالي.(٢)

وفي فجر اليوم التالي خرج كاظم من مكمنه فذهب الى الحمام فاغتسل فيه، ثم ذهب الى الصحن وكان بابه مازال موصداً، فسلم على الامام من الخارج، ثم صلى صلاة الصبح عند الباب، وودّع الامام، وسار نحو باب البلدة مخترقاً السوق الكبير. ولما وصل الى حاجز الاسلاك الشائكة أعلم الحراس بأنه كاظم صُبّي، وطلب منهم السماح له بالمرور لتسليم نفسه. فرفض الحراس السماح له بالمرور، او لعلهم لم يفهموا كلامه. فعاد كاظم أدراجه، وذهب الى خان البو مرزة الذي كان مركزاً للمسالمين،

---

(١) - محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٣٢٨.

(٢) - حدثني بذلك أحد المطلعين من أهل النجف.

ولكن المسالمين لم يكادوا يعلمون بقرب وصوله إليهم حتىٰ فروا من الخان. وحين دخل الخان لم يجد فيه احداً منهم، فاستغرب من ذلك وتساءل ساخراً: «ألا يريدون القاء القبض عليّ؟!». ثم توجه الى مقهى قريب، فشرب القهوة فيه، وذهب بعدئذٍ الى دار عبدالمحسن شلاش، فأخذه هذا الى بلفور.(١)

يقال ان كاظم لقي من بلفور احتراماً كثيراً عند وصوله اليه، فقد قدم إليه بلفور طعام الافطار المؤلف من الحليب والكعك، ثم اركبه سيارة خاصة لتوصله الى الكوفة.(٢) والمظنون ان بلفور قصد من هذا الاحترام تذكير كاظم بالصفعة التي صفعه بها سابقاً. وهذه طريقة يستعملها بعض الاشخاص من أولي الحقد الشديد، إذ هم عندما يتمكنون من خصم لهم يبشون في وجهه ويكرمونه ولكنهم في اعماق أنفسهم يدبّرون له افظع الانتقام.

وفي ٣٠ نيسان، عند غروب الشمس، أُلقي القبض علىٰ كريم بن سعد، ولم يكن هذا الرجل محبوباً من الناس لما اتصف به من غلظة واعتداء علىٰ الضعفاء. وقد خف لمشاهدته الوف من الرجال والنساء، وكثر الازدحام علىٰ الاسلاك الشائكة. فذعر الإنكليز لهذا الازدحام الغريب، وخرج مئات منهم لتفريق الناس بالحراب. وفي نحو الساعة الواحدة بعد الغروب جيء به مكتوفاً، فأسرج الإنكليز فوانيسهم للنظر اليه، ثم أدخلوه من باب الاسلاك الشائكة، وأوقفوه هنالك فترة يسيرة، وشوهدت الايدي تتساقط عليه حتىٰ أوشك أن يهلك من شدة الضرب. ثم ساروا به الى الخان. وقد كافأ الإنكليز مطلق المعمار بمبلغ ١٥٠٠ روبية لأنه كان أول من ألقى القبض علىٰ كريم.(٣)

---

(١) ـ حسن الأسدي «المصدر السابق»، ص٣٢٧ ـ ٣٢٨.

(٢) ـ محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٣٢٥ ـ ٣٢٩.

(٣) ـ المصدر السابق، ص٣٢١ ـ ٣٢٢.

القبض على الملائية:

في صباح ٢٧ نيسان دخل بلفور الى النجف وذهب الى بيت السيّد كاظم اليزدي، وكان معه عدد من الضباط ونحو خمسين جندياً، وكانوا يسحبون معهم سلكاً للتلفون. فدخل بلفور وحده على اليزدي واختلى به فترة من الزمن حيث فاتحه في أمر الملائية الذين وجدت أسماؤهم في أوراق بروسر في عانة، واهمهم السيّد محمد علي بحر العلوم والشيخ جواد الجزائري والمظنون ان ويلسون تحدث الى اليزدي من بغداد حول هذا الموضوع.

وعلى اثر خروج بلفور من بيت السيّد كاظم انتشر الخبر في النجف، وجاء نفر من كبار الملائية الى السيّد كاظم يطلبون منه التشفع في أمر بحر العلوم والجزائري. فلم يعطهم السيّد كاظم جواباً صريحاً بل لجأ كعادته الى المماطلة والاعتذار والتفوه بعبارات غامضة تحتمل التأويل.

كان الشيخ فتح الله الاصفهاني يومذاك يلي السيّد كاظم في المكانة الدينية، وقد اتصل ببلفور متشفعاً للشيخ جواد الجزائري، فوعده بلفور أن يقدم للجزائري كل أسباب الرفاهية عند اعتقاله.

قرر الشيخ جواد الجزائري تسليم نفسه. وفي ٢٩ نيسان خرج من بيته لهذا الغرض، وكان في توديعه جماعة من الملائية وفي مقدمتهم ابن الشيخ فتح اللّه الاصفهاني، فنُقل الى الكوفة، ومنها نُقل الى بغداد، فأودع في معسكر أم العظام في كرادة مريم. ثم نُقل بعدئذٍ الى معسكر الشعيبة قرب البصرة. وقد طلبه الشيخ خزعل من الإنكليز، فلبى الإنكليز طلبه، ونقلوا الجزائري الى المحمرة. وهناك اقام في ضيافة الشيخ خزعل بضعة اشهر الى أن صدر العفو عنه.

وفي ١٢ أيار ١٩١٨ استدعى بلفور إليه السيّد محمد علي بحر العلوم وابلغه أنه مطلوب من قبل الحكومة في بغداد، ثم ارسله في سيارة اليها. وقام الإنكليز في الوقت

نفسه بتفتيش داره والاستحواذ علىٰ أوراقه. وفي ٢١ منه أعيد الى الكوفة، وشوهد في ساقيه قيد خفيف. فقُدم الى المحكمة العسكرية التي عُقدت هناك.[١]

وبعد انتهاء محاكمته أعيد الى بغداد، فأسكن في دار في محلة رأس القرية، ومكث فيها نحو شهر واحد تحت رقابة الجيش. وقد طلبه الشيخ خزعل علىٰ نحو ما طلب زميله الجزائري من قبل، فنُقل الى المحمّرة...

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان أحد المسالمين ـ وهو غيدان عدوة ـ أراد القاء القبض علىٰ السيّد عزيز اللّه الاسترآبادي، مع العلم أنه لم يكن مطلوباً من الإنكليز. فذهب إليه في المدرسة الدينية التي كان ساكنا فيها، وأخرجه منها ثم سار بغية تسليمه الى الإنكليز، ولكن الناس تجمعوا علىٰ غيدان وأهانوه واضطروه الى اخلاء سبيل السيّد عزيز اللّه.[٢]

بقي اثنان من الملاتية كان الإنكليز يطلبونها ولكن المسالمين لم يتمكنوا من القبض عليها، هما المرزا عباس الخليلي والشيخ محمد علي الدمشقي. فقد استطاع الأول منها ان يهرب من النجف ويلجأ الى ايران، والواقع ان قصة هربه عجيبة سوف نتحدث عنها فيا بعد. أما الثاني منها، وهو الشيخ محمد علي الدمشقي، فقد بقي في بيته، وجاء المسالمون إليه وكانوا لا يعرفونه لأنه قد إعتاد علىٰ الانزواء وقلة الاختلاط بالناس. فسألوه: «أين هو الشيخ محمد علي الدمشقي؟» فأجابهم: «انه كان يسكن في هذا البيت سابقاً ثم تركه منذ مدّة طويلة، ولا أعرف عنه شيئاً». فصدقوا قوله وتركوه.[٣]

---

(١) ـ المصدر السابق، ص٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) ـ حسن الاسدي «المصدر السابق»، ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٣) ـ حدثني بذلك جعفر الخليلي نقلاً عن الدمشقي نفسه.

فك الحصار:

بدأ الإنكليز منذ ١٢ نيسان ١٩١٨ يسمحون لبعض الأسر والأشخاص بالخروج من النجف بعد الحصول علىٰ رخصة منهم، وقد ساعد حميد خان في تسهيل اعطاء الرخصة للكثيرين. وأخذ هؤلاء يخرجون من باب السقائين المشرفة علىٰ منخفض النجف. وكان أول الخارجين أسرة الكليدار وبعض الأسر الدينية المعروفة ومن كان له صلة بالإنكليز أو بحميد خان.

ضجت النجف بالنقمة علىٰ الإنكليز للتمييز بين الناس في الخروج، فقد كان الفقراء أحق الناس بالخروج لما اصابهم من مجاعة وحرمان، ولكنهم وجدوا المترفين يسبقونهم فيه. نسي الفقراء أن الدنيا تسير علىٰ هذا المنوال منذ قديم الزمان!

وفي ١ أيار أذن للكليدار أن يفتح باب الصحن الذي كان مغلقاً طيلة أيام الحصار. فدخله الناس افواجاً باكين معولين مستغيثين، وكانوا قبل ذلك يفزعون الى مسجد الهندي إذ يتخذونه موئلاً بعد الصحن لسعة رقعته.[1]

وفي صباح ٤ أيار بدأ الإنكليز يرفعون الأسلاك الشائكة من حول النجف، وجاء بلفور بنفسه في عصر ذلك اليوم فأزال بيده الحاجز الذي كان يسد مدخل النجف باتجاه الكوفة ايذاناً بفك الحصار عن النجف نهائياً. فاستبشر الناس وفرحوا فرحاً لامزيد عليه، وخرجوا افواجاً افواجاً نحو الكوفة مشياً علىٰ الاقدام وهم يكادون لايصدّقون عيونهم. وبدأت الاغنام وأحمال الماء والاطعمة ترد الى النجف، فهبطت الأسعار فيها تدريجاً.

الحاكم الجديد:

في ٢٣ أيار ١٩١٨ وصل النجف حاكم جديد بدلاً من حاكمها المقتول اسمه

---

(١) - محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٣٣٣.

الكابتن غرينهوز. وكان هذا الحاكم يعمل قبل ذلك في شوشتر في ايران ويتقن الفارسية، ويصفه ويلسون في مذكراته بأنه قام بعمل ممتاز في شوشتر.(١)

المعروف عن الكابتن غرينهوز أنه كان علىٰ النقيض من سلفه مارشال فظاً متكبراً يسير في موكب ويفرض علىٰ الناس القيام له احتراماً علىٰ طريقة السلاطين القدامى. ويبدو أن الإنكليز تعمدوا تعيين هذا الرجل في النجف نكاية بها وانتقاماً اختلف الرواة في وصف الموكب الذي إعتاد غرينهوز علىٰ السير فيه في النجف، فنهم من بالغ في وصف شدته، ومنهم من اعتدل. وفيما يلي ننقل روايات ثلاثة من شهود العيان حول هذا الموضوع، لكي يطلع القاريء علىٰ مختلف أوجه النظر فيه:

رواية محمد علي كمال الدين، حيث يقول:

«وان أنس لا أنسى منظر ذلك الحاكم الإنكليزي كرينهوي.. تتقدمه زبانيته في الأسواق أثناء رواحه ومجيئه كل يوم، والزبانية يزأرون في وجوه الناس باللغة الفارسية: (أي زن قحبة جايي باشو) ومعناها: يا ازواج الفواحش قفوا. والويل كل الويل لمن لايصيخ لهذا النداء، ولاينتبه لهذه الاشارة من المارة واصحاب المحلات. فلا يقف علىٰ اقدامه تعظيماً للحاكم، حيث يتولاه هؤلاء الزبانية ضرباً بأعقاب البنادق ثم يُساق الى السجن أو تُفرض عليه الغرامة من أولئك الزبانية أو من الحاكم الإنكليزي نفسه. ورغم كل ذلك فإن الجالسين في المقاهي كانوا يتحملون الضرب ولايقومون أو يتزحزحون عن أمكنتهم. ولايكتفي هؤلاء بكل ذلك، بل يتولون الناس بالضرب واللكم لمجرد أن انساناً التفت الى الوراء، او ابتسم مع رفيقه، او لم ينتبه الى مرور واحد من جنود الإنكليز الى جنبه، أو لم يفسح له الطريق».(٢)

(١) - Wilson (op. cit) - vol. 2, p.76.

(٢) - محمد علي كمال الدين «المصدر السابق»، ص٦١ ـ ٦٢.

رواية جعفر الخليلي، حيث يقول:

«.. فكان الحاكم حين يخرج من دائرته يتقدمه أحد الجلاوزة فيصرخ بالناس علىٰ طريقة ما تنقله قصص ألف ليلة وليلة عن خروج الملوك. وكان معظم الجلاوزة من أكراد كرمنشاه ـ كانوا يصرخون بالناس بلهجة ملؤها الخشونة صائحين: «أخرسوا والزموا جانبي الطريق»، أو كانوا يصرخون صائحين: «أنتهيوا وقفوا علىٰ قارعة الطريق صماً بكماً»، وغير ذلك مما لا يتعدى هذه المعاني التي سجلتها بدون أقل زيادة ونقصان. فاذا مر الحاكم من السوق ولم ينتبه له أحد، أما لأنه كان مشغولاً بالحديث مع رفيق له، أو مشغولاً بابتياع حاجة، فما أسرع ما تهبط السياط علىٰ ظهره او رأسه فتلهبه. وقد بلغ من لعلعة اصوات الجلاوزة أن نعتهم البعض بـ(المجوّدين) أي الذين يتلون النصوص بطريقة تجويدية، ولأول مرة تسمع الدنيا ترتيل الشتائم بالطرق التجويدية في الفرات الأوسط وفي النجف خاصة».[1]

أما الرواية الثالثة فقد رواها لي أحد المسنين من أهل النجف، ولكنه لم يحب أن أذكر اسمه، فقال ما خلاصته: ان الحاكم عند مسيره في الاسواق كان يتقدمه على بعد خطوات جلواز كردي وهو ينادي: «ويسكنار، ويسكنار»، ومعناه قفوا جانباً. فكان الناس وأصحاب الدكاكين يقومون احتراماً للحاكم. وقد حدث مرة أن أحد أصحاب الدكاكين امتنع عن القيام، فاقترب منه الجلواز وسأله بالفارسية: لماذا لم يقم؟ فأجابه الرجل بما معناه ان الحاكم كافر ولايجوز القيام له شرعاً. وقد سمع الحاكم هذا الجواب فتقدم منه مبتسماً وربت علىٰ كتفه وقال له: لابأس عليك!

ان هذه الروايات المختلفة تذكّرنا بروايات الطبري التي يرويها عن الحادثة الواحدة من حوادث التاريخ. فكل راوي يتحدث عن الحادثة اعتماداً علىٰ ما شاهده

---

(١) ـ قراتي «على هامش الثورة العراقية الكبرىٰ»، بغداد ١٩٥٢، ص١٠١.

منها من زاويته الخاصة، وهو لابد أن يضيف الى ما شاهده شيئاً من التعديل والتحوير حسبما يوحي به اطاره الفكري ودوافعه اللاشعورية. ولكن الباحث المحايد قادر ان يستشف من الروايات المختلفة شيئاً من الحقيقة الوسطى قليلاً أو كثيراً.

مصير عطية:

كان عطية أبوقلل قد غادر النجف قبل مقتل مارشال بشهرين ـ كما أشرنا إليه من قبل ـ وظل يتنقل في البادية مع أتباعه. ولما سمع أخيراً بما حل بثورة النجف من اخفاق عزم أن يسلّم نفسه الى الإنكليز، فتوجّه بمفرده الى الشنافية، ونزل ضيفاً عند السيّد هادي المقوطر، وقد أقام له السيّد هادي مأدبة فخمة دعا إليها وجهاء الشنافية ورؤساءها. ومكث عطية في المضيف ثلاثة ايام.

كان معاون الحاكم السياسي في الشنافية ضابط اسمه الكابتن فلتشر، ويسميه الأعراب «أبو رويشات». وقد تشفع السيد هادي لعطية عند الكابتن فلتشر. ثم ذهب عطية بنفسه الى فليتشر، وأخذ يستعطفه حيث ذكر له كيف أن المغرضين شوّهوا سمعته لدى الحكومة ونسبوا له تهماً هو بريء منها، ثم قال له: «رأيت من الواجب أن أسلّم نفسي الى الحكومة بواسطتكم لما عُرفتم به من الشرف وإنكم من ذوي الوجدان، وها أنا جئت مستجيراً بكم، راجياً مساعدتكم، وان تحققوا ظنّي الجميل بكم». فطيّب فلتشر خاطره وقال له: ستري ما يسرّك.[1]

بعد أن قضى عطية الايام الثلاثة في مضيف السيّد هادي، نُقل الى المعسكر الإنكليزي الواقع في شمال الشنافية، وهناك مكث تحت الحراسة يومين. وكان لديه هميان يحتوي على ثلاثمائة ليرة، وقد أخذوه منه لقاء وصل. ثم نُقل بباخرة مستشفى كانت متوجهة الى الكوفة، فوصلت الباخرة الى الكوفة في عصر ٦ أيار. ولم ينزل

(١) ـ مجيد الموسوي «المصدر السابق»، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

عطية من الباخرة إلاّ في صباح اليوم التالي، وشوهد عند نزوله من الباخرة وفي يديه ورجليه قيد خفيف.[١] وانضم الى بقية المعتقلين في الكوفة.

محاكمة الثوار:

بلغ عدد المعتقلين في الكوفة مائة واثنين، وكان اعتقالهم في خان آل شلاش المشرف علىٰ شاطيء النهر. وقد عوملوا معاملة قاسية، حيث حُشر كل عشرة منهم في غرفة من غرف الخان وهم مُقيّدون بالحديد، وخُصصّ لكل غرفة صفيحتان احداهما تحتوي علىٰ ماء الشرب، والأخرى للبول. وكان يُسمح لكل واحد منهم يريد التغوط بالذهاب الى شاطيء النهر تحت الحراسة الشديدة. أما من حيث طعامهم اليومي فقد خُصّص لكل واحد منهم ثلاث صمونات سوداء ومقدار من التمر الزهدي.[٢]

تمكن واحد من المعتقلين أن يهرب، واسمه شمران العامري. وكانت قصة هربه عجيبة خلاصتها: أنه طلب من حارسه الإنكليزي أن يسمح له بالذهاب الى شاطيء النهر للتغوط، فأخرجه الحارس الى النهر وهو مكبّل بالحديد، وقد انتهز شمران غفلة من الحارس فأهوى علىٰ رأسه بالابريق الذي كان يحمله، ثم الق بنفسه الى النهر. وكان الحارس قد أغمي عليه من شدة الضربة، فلما افاق صرخ، فجاء إليه ضابط ومعه ستة جنود، ولكنهم لم يستطيعوا العثور علىٰ شمران. ويقال ان الضابط أوعز بقتل الحارس والقاء جثته في النهر.[٣]

عمد الإنكليز الى تشديد الحراسة علىٰ المعتقلين علىٰ أثر هروب شمران، كما قرروا تسفير القسم الاكبر منهم الى الهند، وهم الذين انتهى التحقيق معهم وكان

---

(١) - حسن الأسدي «المصدر السابق»، ص ٣٢٠.

(٢) - المصدر السابق، ص ٣٨٨.

(٣) - محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص ٣٢١.

عددهم ٦٥ رجلاً. وقد جرى تسفيرهم من الكوفة في ضحى ٢ أيار ١٩١٨، وازدحم الناس على الشاطيء، وفي شرفات البيوت للتفرج عليهم. وحين تحركت بهم السفن انطلقت أصوات النساء بالعويل، ولكن المنفيين صاروا يشتمون المتفرجين ويعيّرونهم.(١) وسوف نتحدث عن مصير هؤلاء المنفيين فيما بعد.

تألفت في الكوفة محكمة عسكرية لمحاكمة الباقين من المعتقلين، وكانت مؤلفة من ثلاثة ضباط بريطانيين يعرفون العربية أحدهم ليجمن وهو الذي ترأس المحكمة، وقد بدأت جلسات المحكمة في ٥ أيار ١٩١٨ وانتهت في ٢٥ منه.

استندت المحكمة في محاكمة الثوار على اوراق بروسر وعلى شهادات الشهود من النجفيين والبريطانيين. يروي الشبيبي عن محاكمة محمد علي بحر العلوم مثلاً أن المحكمة استدعت فيها خمسة شهود هم: عباس الكليدار وهادي النقيب وجواد الجواهري وعبدالمحسن شلاش وحميد خان. وقد حاول اربعة منهم تبرئة بحر العلوم من التهم: بينما الخامس وهو عبدالمحسن شلاش خالفهم في الشهادة ونسبت الى بحر العلوم عدّة أشياء.(٢)

عند انتهاء محاكمة الجميع أصدرت المحكمة حكمها بالاعدام شنقاً على أحد عشر رجلاً منهم هم: كاظم صُبّي، نجم البقال، عباس الرماحي، علوان الرماحي، محسن أبوغنيم، جودي ناجي، مجيد دعيبل، وثلاثة من أولاد سعد الحاج راضي هم كريم وأحمد ومحسن مع عبداً لهم اسمه سعيد. كما صدر الحكم على تسعة آخرين بالسجن لمدد تتراوح بين الست سنوات والسجن المؤبد، كان من بينهم عطية أبوقلل وسعد الحاج راضي. وقد سُفّر هؤلاء الى بونه في الهند لقضاء مدة سجنهم فيها. أما الباقون وكان عددهم ستة عشر فحُكم عليهم بالنفي الى الهند، وقد سُفّروا الى سمربور حيث

---

(١) – المصدر السابق، ص ٢٣٤.

(٢) – المصدر السابق، ص ٢٣٧.

التحقوا برفاقهم فيها. حدثت ضجة قوية في النجف وبغداد وغيرها من المدن العراقية علىٰ اثر صدور تلك الاحكام. وقيل ان كثيراً من الناس ذهبوا الى السيّد كاظم اليزدي يرجونه التشفع لدىٰ الانكليز للحيلولة دون تنفيذ الاحكام، لاسيما أحكام الشنق منها، غير أنه رفض التدخل في هذه القضية بالرغم من توسلات النساء وعويل الاطفال.(١) وأشيع في حينه أن آل الحاج راضي، وقد حكم علىٰ ثلاثة منهم بالاعدام، طلبوا من اليزدي أن يصدر الفتوى بعدم جواز قتل أحد عشر بواحد، فلم يوافق وقال: «يجب تطهير البلد من المجرمين»، فحاولوا قتله.(٢)

يقول ويلسون في مذكراته:

«ان اعلان أحكام الإعدام أدى الى ورود سيل من الرسائل والبرقيات من جهات متعددة وهي تطلب مني ان اشير الى القائد العام بتبديل تلك الأحكام والاكتفاء باعدام الشخصين الذين قتلا الكابتن مارشال فقط. انهم استندوا في ذلك علىٰ حكم الشريعة الاسلامية التي لاتجيز إعدام اكثر من شخص واحد بسبب جريمة قتل واحدة. وجاءتني وفود من السادة والملالية والطلبة الصغار تحثني علىٰ الاخذ بالرأفة وتتوقع حدوث استنكارات عامة مقلقة في حالة تنفيذ أحكام الاعدام. ولكن بلفور وهو الذي تقع عليه مسؤولية ادارة المنطقة اتخذ موقفاً صلباً وأصرّ علىٰ الاعدام، وقد قبلتُ وجهة نظره كما قبلها القائد العام الجنرال مارشال...».(٣)

تنفيذ حكم الاعدام:

كان الأحد عشر رجلاً الذين صدر عليهم حكم الإعدام يسكنون في غرفة واحدة، وعند تبليغهم بالحكم صمموا علىٰ الفرارقبل تنفيذ الحكم فيهم. وقد ابتدعوا

---

(١) – عبدالرزاق الحسني «المصدر السابق»، ص٧٨ (حاشية).

(٢) – حسن الأسدي «المصدر السابق»، ص٣٣٩.

(٣) – Wilson (op. cit) - vol. 2, p.74 - 75.

لذلك خطة بارعة جداً كادوا ينجحون فيها لولا تدخل القدر.

كانت خطتهم هي أن يبولوا كلهم طيلة الايام التالية على موضع معين من الجدار، وان لايبولوا على موضع آخر. وبعد اربعة أيام من استمرار البول على ذلك الموضع صار الطابوق فيه رخواً يسهل اقتلاعه، فأخذوا يستلون الطابوق منه شيئاً فشيئاً حتى كادوا ينجحون في صنع منفذ في الجدار يستطيعون الهرب من خلاله. ولكنهم ماكادوا يقاربون النهاية حتى أحسّ بهم أحد المعتقلين في الغرفة المجاورة، فأخذ يصرخ بأعلى صوته: «يا حكام، تعالوا، ذوله راح يشردون...». فأسرع الحراس اليهم، وانهالوا عليهم بالضرب الموجع، وشدّدوا الحراسة عليهم.[1]

تم شنق الأحد عشر رجلاً في الكوفة، في الصباح الباكر من يوم ٣٠ ايار. وكان الإنكليز قد دعوا لحضور الشنق عدداً من النجفيين وبعض رؤساء العشائر القريبة، كما أحضروا باخرة حربية وجهت مدافعها نحو ضفتي النهر. وفي الموعد المعين جرى الشنق في خان آل شلاش. وقيل ان مرزوق العواد بكى عند مشاهدته الشنق، كما أن سلمان العبطان انتخى قائلاً: «أنا أخو فاطمة».[2]

وقيل أيضاً أن كريم بن سعد عندما تقدم نحو المشنقة أخذ يسب مهدي السيّد سلمان سبّاً مقذعاً، وأخذ رجل آخر منهم يشتم الملكة فكتوريا شتماً جنسياً بذيئاً على طريقة القشار العراقي. نُقلت جثث المشنوقين الى جامع الكوفة حيث غُسّلت وكُفّنت، وفي مساء ذلك اليوم نُقلت في عربات الترامواي بصحبة نفر من الشبانة الى مقبرة دار السلام، فدُفنت في موضع يقع بين مقبرة الهنود ومقبرة السيّد عليوي البحراني،[3] وهو موضع قريب من الخان الذي قُتل فيه الكابتن مارشال.

---

(١) - حسن الأسدي «المصدر السابق»، ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.

(٢) - المصدر السابق، ص٣٤٧.

(٣) - جعفر محبوبة «ماضي النجف وحاضرها»، النجف ١٩٥٨، ج١، ص٣٤٩.

تكريم بلفور:

في عصر يوم ٣٠ أيار ـ أي في نفس اليوم الذي تم الشنق في صباحه ـ اقيمت في دار السيّد عباس الكليدار في النجف حفلة فخمة لتكريم بلفور حضرها ويلسون بالطائرة من بغداد، كما حضرها بعض الملاتيةوالوجهاء والشيوخ. ولدينا ثلاث روايات عن هذه الحفلة نذكرها هنا على التوالي:

اولى تلك الروايات هي التي وردت في مذكرات ويلسون، فهو يقول في التعليق على حادث الشنق مايلي:

«كانت النتيجة مدهشة ومثيرة. فبعد ساعات قليلة من تنفيذ حكم الاعدام، اقام الكليدار، أو حافظ مفاتيح المرقد في النجف، حفلة استقبال في بيته الواقع في مركز المدينة. وقد حضرت أنا الحفلة ومعي بلفور وغريهوز.. كما حضرها الاعيان وكثير من العلماء. وخطب الكليدار فأعرب عن رضا أهل البلدة غير المحدود بخلاصهم من أيدي الاشرار، وعن أمله القوي في أن تندمج ادارة النجف بالادارة العامة في العراق. وأضاف أنه يرجو تحقيق المطمح الاكبر لأهل البلدة وهو تجهيزهم بماء الانابيب من الفرات. وختم خطابه بتقديم سيف الشرف الى بلفور لكي يدافع عن حريات البلدة وسكانها في المستقبل على نحو ما فعل في الماضي. ثم قدم الكليدار لي خاتماً ضخماً من الذهب ومفتاحاً من الفضة لكي يكون رمزاً، كما قال، لرغبة اهل النجف في أن تبقى مفاتيح بلدتهم وقلوبهم مفتوحة دائماً تجاه ممثلي الادارة المدنية. ان نية هذا الاهداء كانت مكتومة لأن كثيراً من الناس كانوا يخشون ان يفلت رؤساء الحركة من العقاب في اللحظة الأخيرة».[١]

أما الرواية الثانية فهي التي جاء بها الشيخ رضا الشبيبي في يومياته، فهو كان

---

(١) ـ wilson (op. cit) - vol. 2, p. 76.

يعيش في النجف طيلة أيام الثورة وسجل عنها مذكراته يوماً بعد يوم، وقد اعتمدنا علىٰ تلك اليوميات كثيراً في هذا الملحق كما يلاحظ القارىء. وكان الشبيبي قد ختم يومياته بوصف مسهب عن تلك الحفلة، وهذا نصه:

«مساء يوم الخميس ١٩ شعبان عقد أعيان النجف حفلة شائقة تكريماً الى بلفور، عُقدت في دار الخازن ـ يقصد الكليدار ـ فحضرها العلماء، وأولاد المجتهدين والتجار وأركان الحكومة في النجف ونائب الحاكم الملكي، وكانت أول حفلة في تاريخ النجف. فزُينت دار الخازن بأنواع الأمتعة والرياش، وضُرب عليها فسطاط جميل، ونُظمت صفوف المجتمعين علىٰ نظام حسن، وكان للعلماء صف وللتجار صف وللأشراف صف، وهكذا ترتيب الطبقات. ولما تم ذلك الإجتماع نهض الحاج عبدالمحسن شلاش وتلى خطبة بليغة أثنى بها علىٰ رجال الحكومة وعلىٰ الأخص بلفور الذي عُقدت له الحفلة، وأظهر بها امتنان النجفيين من الأعمال الفذّة في النجف، وتطهيرها من اركان الفساد وأهل العناد الذين شوّهوا مدينة النجف المقدسة بسوء افعالهم. وجاء في الخطبة ما معناه: ان أعمال بلفور في حادثة النجف الاخيرة هي من أكبر الأعمال التي جعلت النجفيين مدينين له علىٰ مر الأيام وتتابع الاعوام، لذلك أحب النجفيون أن يعقدوا له حفلة تكريماً لحضرته، وأن يقلدوه سيفاً مرصعاً بالذهب دليلاً علىٰ ما أودعه في النفوس من الحب والارتباط المتينين. ثم ختم خطابه وخطى هو والخازن نحو بلفور فقلّداه السيف الذهبي، وتلى ذلك هتاف وتصفيق حاد من الحاضرين. وبعد ذلك وقف الخازن وتلى خطاباً أيضاً شكر فيه الحكومة علىٰ ما اظهرته في الآونة الأخيرة من الاهتمام بالنجف والعلماء، والفقراء والأبرياء. ثم وقف بلفور وخطب باللغة العربية خطاباً وجيزاً قال فيه: ان من هو أولى مني بالشكر وبالتنويه والزهو هم رجال الحكومة الذين أوعزوا اليّ أمر النجف، وبالحقيقة اني مأمور من قبلهم باجراء تلك الاعمال التي شهدتموها، ولم أكن قد تصرّفت مدة الحادثة، أو أتيت عملاً ما، بدون أوامر الأمراء الكبار، فالشكر إذن إنما يتوجه أولاً

وبالذات الى اولئك الذين أمروني باجراء الحركات العسكرية، علىٰ أنه كما تشكروني وتذكروني اشكروا هذا الغور عبدالحميد خان وقدروا أتعابه التي أعانتني ورأيتم ثمرتها بالحس والعيان. ثم نهض بعد ذلك وكيل الحاكم العام ـ يقصد ويلسون ـ فخطب بالفارسية خطاباً جميلاً شكر به أهل هذا الإجتماع وامّل أن تكون هذه الحفلة بدء احتفالات كبيرة لتزداد بذلك الارتباطات وتقوى العلائق بين النجفيين وبين الإنكليز. وبعد ذلك أديرت كؤوس المرطبات وأكل الحاضرون أنواع الحلويات، ثم انفض المجلس. وفي الساعة الحادية عشرة عاد وكيل الحاكم الملكي الى بغداد.(١)

أما الرواية الثالثة فقد وردت في جريدة «العرب» التي كانت تنطق بلسان الإنكليز، وهي رواية طويلة نلخصها فيما يلي، حيث قالت الجريدة:

رأى علماء النجف ومشايخه وأعيانه وتجاره وأهاليه أنه من الواجب المقدس عليهم ان يعبروا عن شكرهم الخالص للحكومة عن الاعمال التي قامت بها لتطهير البلد المقدس من أهل الفساد، فاتفقت آراؤهم علىٰ اقامة حفلة باهرة في بيت السيّد عباس الكليدار. ولما ازفت الساعة التاسعة عربية اقبل الكابتن ويلسون والكابتن بلفور والكابتن بروثور والكابتن كرينهوز والكابتن فيشر. فاستقبلهم خارج البلدة السيّد هادي النقيب والسيّد عباس الكليدار، ولما استقر بهم المقام قام الحاج محمود أغا الهندي وقال: «لما كنتُ نائباً عن حضرة آية اللّه السيّد محمد كاظم اليزدي أبلغكم تشكراته واعتذاره عن حضور هذا الحفل لعجزه وعدم تمكنه من المجيء من الكوفة الى النجف الأشرف». ثم قام الشيخ جواد الجواهري فعبَّر عن تشكراته القلبية وقال: «ينبغي علينا جميعاً أن نشكر الباري جل شأنه علىٰ أنه تفضل علينا بمثل هذا المجتمع المركب من العلماء الاعلام والأمراء البريطانيين الكرام والاشراف من جميع الاصناف في هذا البلد المقدّس... فهي نعمة جسيمة وموهبة عظيمة، وعلينا أن نعتبرها رحمة

---

(١) ـ محمد رضا الشبيبي «المصدر السابق»، ص٣٣٩ ـ ٣٤٠.

وعدالة». ثم ارتجل الحاج محسن شلاش خطاباً قوبل بالتصفيق في كل عبارة. وبعد هذا تقدم الحاج محمود أغا الهندي والشيخ جواد الجواهري والسيّد هادي النقيب والسيّد عباس الكليدار والحاج محسن شلاش والسيّد مهدي السيّد سلمان والسيّد محسن أبوطبيخ والشيخ علوان الحاج سعدون والشيخ عبادي الحسين، فأخذوا بيد جناب الكابتن بلفور وأوقفوه في وسط الردهة وقلّدوه سيفاً من ذهب علامة للنصر الذي أحرزته وتحرزه الأمة البريطانية في جميع ميادينها. ثم قام السيّد عباس الكليدار وألقى خطاباً عبّر فيه عن شكره الخالص بصفته خادماً وخازناً للمرقد الشريف للدولة العظيمة لحسن درايتها إذ هي لم تتعرض للمحلات المقدسة بشيء من الضرر. ثم تقدم الكليدار نحو ويلسون وألبسه ساعة من ذهب مرصعة بالحجارة الكريمة، كما ألبس بلفور مثلها، كوسامين من الحضرة الشريفة لحنكتهما في السياسة. ثم قام ويلسون فارتجل خطاباً باللغة الفارسية لم يسمع ابلغ منه. وهكذا استمر الحال الى الساعة الثانية عشرة عربية. وفي الختام قام المدعوون وكانوا يخصون بشكرهم الحاج محسن شلاش الذي أظهر همة عظيمة في ترتيب هذه الحفلة.[1]

وقد ذكرت الجريدة أسماء الذين حضروا الحفلة، وهم كثيرون لايسع المجال هنا لذكرهم. ومما يلفت النظر أن من بين الذين ذكرتهم الجريدة بعض كبار الملالي الذين نستبعد حضورهم في مثل تلك الحفلة، كالشيخ عبدالكريم الجزائري، والسيّد أبوالحسن الاصفهاني، والشيخ ضياء الدين العراقي، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والسيّد عبدالرزاق الحلو. وقد سألت أحد المطلعين من أهل النجف عن ذلك، فأجاب: بأن من الممكن أن يحضر الحفلة علماء «الحفيز» أو بعض صغار الملالي أما هؤلاء فمن رابع المستحيلات حضورهم.

---

(١) - جريدة «العرب»، في عددها الصادر في ٨ حزيران ١٩١٨.

موت عباس بن نجم:

من غرائب الصدف ان يموت عباس بن الحاج نجم البقال في الموصل في نفس اليوم الذي شُنق فيه أبوه واصحابه في الكوفة ـ أي في ٣٠ أيار ١٩١٨ ـ ويحدثنا الشيخ محمد الخالصي في مذكراته المخطوطة عن قصة موته فيقول مانصه:

«... مرض الحاج عباس فكنت أعوده في داره. ومن غريب أمره أني عدته يوماً فرأيته محتضراً وأول ما رآني رحّب بي ثم قال: وا اسفاه ألا تنظر الى كريم بن سعد حاج راضي كيف يصلبه الإنكليز. ثم صاح: آه إنهم قد جاؤوا بأبي ليصلبوه. ثم صاح: آه، وكرر ثم قال: ألا تنظر كيف يصلبون ابي. ثم قال:ها هم قد صلبوه. وصرخ، وفارقت روحه الدنيا. فعجبت من ذلك وظننت ان ذلك كان هذياناً منه. فلما رجعت الى الكاظميه علمت ان الإنكليز بعد أن شددوا الحصار على النجف وحاربوا أهلها بقوى كبيرة استولوا عليها وقبضوا على رؤسائها ونفوا أكثر شيوخهم الى الهند وساقوا شبانهم الى المشانق مع بعض شيوخهم فصلبوهم جميعاً في الكوفة بمحضر من رؤساء القبائل، وكان فيهم كريم بن سعد حاج راضي رئيس الشمرت من أهالي النجف، والحاج نجم أبوالحاج عباس. وكان صلبهم في الكوفة في اليوم والساعة التي مات فيها حاج عباس بن الحاج نجم في الموصل. ولاشك أنه كان يرى اباه قد سيق الى المشنقة، وكريماً كذلك، وكان يريهما ويتأسف على ما جرى عليهما. وكان حجاب المادة حائلاً بيني وبينهما بخلافه إذ كان في تلك الحالة مجرداً من غشاء المادة، منكشفة له الأشياء بقدر مالروحه من الانكشاف. ولما مات الحاج عباس شيعناه ولم أستطع تغسيله بنفسي فغسله أحد الشافعية، وطلبت له حنوطاً فسألوني: هل هو شافعي؟ فلم أجب، فظنوا ذلك، وأتوه بالحنوط على مذهب الشافعي الذي يقرب من مذهب الشيعة في ذلك. ثم صليت عليه بنفسي إذ لم يكن شيعي في الموصل غيري. ثم دفناه

خارج الموصل في الجهة الشمالية في المقبرة العامة...».[١]

قصة هروب الخليلي:

اشرنا من قبل الى أن هروب المرزا عباس الخليلي من النجف له قصة عجيبة. وقد حدثنا عن هذه القصة أخوه جعفر الخليلي في كتابه «هكذا عرفتهم».[٢] وفيما يلي ننقل موجزاً لها إذ هي لاتخلو من عبر اجتماعية تفيدنا في فهم الفترة التي تلت ثورة النجف:

كان الإنكليز قد أعلنوا عن مكافأة قدرها خمسة آلاف روبية لمن يلق القبض على عباس الخليلي أو يدل على مكان اختفائه، وكذلك الصقوا الاعلانات على أبواب الصحن والمساجد الكبيرة وفيها انذار للذين يعرفون عنه شيئاً ولم يخبروا السلطة به. ولهذا أخذ المسالمون يبحثون عن الخليلي في كل مكان، وكان في مقدمتهم رجل اسمه تومان عدوة. والمعروف عن هذا الرجل أنه كان قبلئذٍ من الثوار، ثم انقلب عليهم كالكثيرين من أمثاله، وقد تعهد للسلطة بالقبض على عباس الخليلي لأنه كان من اقرب الناس اليه.

كان الخليلي في بداية الأمر مختفياً في بيت ابيه الواقع في محلة العمارة. وعند اشتداد البحث عنه وجد نفسه مضطراً الى مغادرة البيت والالتجاء الى بيت آخر.

فتنكّر في زيّ امرأة محجبة، وذهب بصحبة أمه الى بيت امرأة من أقربائه، ولكن المرأة رفضت أن تأويه في بيتها خوفاً، ثم وافقت بعد الالحاح على ابقائه في البيت ليلة واحدة فقط. وعاد الخليلي الى بيت أبيه في اليوم التالي.

اجتمع مجلس العائلة للنظر في الأمر، وبعد المداولة ارتأى احد أفراد العائلة ان

---

(١) - نقلاً عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة.

(٢) - جعفر الخليلي «المصدر السابق»، ج ٤، ص٩٦ ـ ١٤٦.

خير طريقة لاخفاء عباس هي في وضعه في صندوق من الخشب، ووضع الصندوق في حفرة في السرداب، ثم وضع شيء من التراب والقش فوقه للتضليل. وقد وافق مجلس العائلة علىٰ هذا الرأي، فأعدّوا الصندوق، وحفروا الحفرة في السرداب علىٰ عجل، وجلس الخليلي الى جانب الحفرة وهو علىٰ استعداد تام حتىٰ إذا سمع طرقاً مريباً علىٰ الباب أسرع هو من جانبه الى دخول الصندوق، وهيل التراب والقش فوقه.

نجحت الخطة نجاحاً تاماً، فلم يوفق المسالمون وعلىٰ رأسهم تومان عدوة الى العثور عليه بالرغم من أنهم بحثوا عنه في كل مكان من البيت حتىٰ البئر. ومن مفارقات القدر أن تومان نفسه ألقي القبض عليه دون أن يتمكن هو من القبض علىٰ صاحبه الخليلي.

وعندما فُك الحصار عن النجف قرر الخليلي مغادرتها، فخرج بصحبة أمه وهو في زيّ امرأة محجبة، وسارت المرأتان ـ الحقيقية والمزيّفة ـ الى الكوفة مشياً علىٰ الاقدام، لعدم تيسّر وسيلة للركوب لهما آنذاك. ولما وصلا الى الكوفة التجأ الى مسجد النبيّ يونس للاستراحة فيه. وكان المسجد مليئاً بالناس، وبالنساء خاصة، فجلست المرأتان بين النساء طبعاً. ولكن الخليلي كان حريصاً علىٰ التزام الحجاب الشديد هنالك لكي لايُعرف، وقد ابدت احدى الجالسات دهشتها من تحجب امرأة بهذه الشدة وهي بين النساء، فاعتذرت امه عن ذلك قائلة: «أنها ابنتي وهي خرساء خجولة، وقد اعتادت مثل هذه العادة حين تخرج من البيت». وابدت امرأة أخرىٰ دهشتها حيث لاحظت ان هذه البنت الخرساء تجلس مثل الرجال وربما كانت رجلاً متخفياً. فاضطر الخليلي وأمه الى مغادرة المسجد علىٰ عجل. وسرعان ما علمت الشرطة بوجود رجل متخفٍ بين النساء في المسجد، فجاءت إليه ومعها امرأتان لتفتيش النساء. ولو أن الخليلي كان باقياً في المسجد لقُبض عليه.

عبر الخليلي وأمه النهر، وسارا مشياً على الأقدام متجهين نحو مضيف رجل له صلة نسب بهما يسكن بالقرب من قرية أبوشورة اسمه السيّد فرهود. وصادف انهما بعد عبور النهر لقيا السيّد فرهود قادماً، فأخبرهما أنه جاء خصيصاً الى النجف لكي يطمئن عليهم بعد الحصار الطويل ولكي يعرض عليهم الخروج من النجف، ثم سار معهما عائداً الى مسكنه، وسألهما عن عباس، فقالت أمه: «ان هذه ابنتي معي، أما عباس فلا نعلم عنه شيئاً».

وبينما هم في الطريق الى أبوشورة، ارتاب أحد المارة بمشية الخليلي لأنها تشبه مشية الرجال، وأراد القبض عليه طمعاً بالمكافأة، ولكنه أراد أن يستخير الله على ذلك قبل القيام به، فتقدم من السيّد فرهود وطلب الاستخارة بمسبحته لأمر ما، ولم يذكر له الأمر ـ كما جرت العادة عليه. فقام السيّد فرهود بالاستخارة وكانت نتيجتها: لاتفعل. وأعاد الرجل طلب الاستخارة مرة أخرى، وكانت نتيجة الاستخارة الثانية كالاولى. ونجا الخليلي!

ولما وصلوا الى مقربة من مضيف السيّد فرهود كشف الخليلي عن وجهه لأن الطريق كان خالياً من المارّة، ولم يكد السيّد فرهود يراه حتى سيطر عليه الرعب، وأخذ يعاتب أم الخليلي على كتمان السرّ عنه وتعريضه للتهلكة، وأعلن رفضه لايواء الخليلي عنده.

اضطر الخليلي أن يخلع زيّ النساء ويتنكر بزيّ سيّد من أهل الدين والتصوف، وكانت امه تحمل معها صرة تحتوي على الملابس المناسبة لهذا التنكر. فلبس الخليلي تلك الملابس، وامسك بيده مسبحة حسينية طويلة، ثم أعطته أمه خمس ليرات هي كل ما كان لدى العائلة من مال في ذلك الحين، وقالت له تودّعه: «ودّعتك بيد العزيز القدير».

فارق الخليلي أمه، واستكرى دابة وانضم الى قافلة متجهة الى بلدة البغيلة التي

تسمى الآن بالنعمانية. ومن هناك سافر الى بدرة في قافلة أخرى. وفي الطريق الى بدرة اقترب منه أحد المسافرين بحماره وقال له: «اني عرفتك». فجفل الخليلي فزعاً من هذه الكلمة، ولكن الرجل أتم كلامه قائلاً: «اني عرفتك فأنت جاسوس انكليزي». فشعر الخليلي بالارتياح من هذه التهمة وهدأت نفسه، وقال للرجل: «اقسم عليك بحق جدي رسول الله أن تكتم الخبر عن الناس».

استطاع الخليلي أخيراً أن يتسلل عبر الحدود الى ايران. وقد بقي في ايران ولم يعد الى العراق، فاشتغل في الصحافة، ثم دخل سلك الخدمة الدبلوماسية وعُيّن سفيراً لايران في الحبشة واليمن. وفي ١٠ شباط ١٩٧٢ مات عباس الخليلي!

مصير المنفيين:

لابد لنا قبل ختام هذا الملحق من التطرق الى موضوع له صلة مباشرة بثورة النجف، هو مصير النجفيين الذين نفاهم الإنكليز الى الهند عقب الثورة. فقد حدثنا عنه بتفصيل أحد المنفيين، وهو عبدالرزاق عدوة. وفيما يلي نذكر موجزاً له نقلاً عن كتاب «ثورة النجف».[1]

كان عدد الدفعة الاولى من المنفيين ٦٥ رجلاً، وقد جرى تسفيرهم من الكوفة في ضحى ٢ أيار ١٩١٨ ـ كما أشرنا إليه من قبل ـ فحملتهم سفن مجهزة بمحركات بخارية تحرسها باخرة حربية، وسارت بهم نحو المسيّب، ولما وصلوا إليها أنزلوا فيها في أحد البساتين، ومكثوا فيها ثلاثة ايام، ثم نقلوا الى المحمودية بسيارات الحمل. ومن هناك نُقلوا بالقطار الى معسكر أم العظام في عربات مكشوفة. وقد مكثوا في المعسكر أربعة أيام، ثم نُقلوا الى العمارة على ظهر باخرة نهرية، ومنها نُقلوا بالقطار الى البصرة في عربات خاصة بنقل الحيوانات، وقد سدوا أبوابها عليهم، فكادت ارواحهم تزهق

---

(١) ـ حسن الأسدي «المصدر السابق»، ص٣٨٨ ـ ٣٩٩.

من شدة الضيق والحر. مكثوا في معتقل قرب البصرة سبعة ايام، وقد ابدلت ملابسهم بملابس أسرى الأتراك، ثم سير بهم الى الميناء فاركبوا في باخرة كانت على وشك الابحار الى بومبي، وحُشروا في قاعة ضيقة فيها قريبة من المدخنة.

عانى المنفيون في ليلتهم الاولى في الباخرة من الحر والضيق ما لم يعهدوه من قبل، حتى كادوا يشرفون على الهلاك. فقرروا فيما بينهم أن يقوموا بثورة عندما يأتي الصباح. وفي الصباح انطلقوا خارجين من القاعة بقيودهم، فاكتسحوا حراسهم، وصعدوا الى سطح الباخرة لاستنشاق الهواء الطلق. فجاء إليهم ضابط برتبة كولونيل ومعه مترجم، وبعد أن تكلم معهم بواسطة المترجم وسمع شكواهم سمح لهم بالبقاء على سطح الباخرة.

وعندما حل المساء امروا ان يعودوا الى القاعة ليقضوا الليل فيها. فرفضوا اطاعة الأمر، وجرت معركة بينهم وبين الحراس اصيب فيها بعضهم بجروح، وأخذوا يصرخون ويكبّرون، وساد الهرج في الباخرة.

فجاء إليهم الضابط نفسه، وبعد أن سمع شكواهم استدعى طبيب الباخرة لفحصهم، وقد أيّد الطبيب شكواهم وارتأى ضرورة انتقالهم الى قاعة أخرى. فنُقلوا الى قاعة واسعة بعيدة عن المدخنة فيها نوافذ عديدة.

كان في الباخرة عدد من الأسرى من الذين وقعوا في قبضة الإنكليز في معارك العراق الاخيرة، وكان فيهم بعض الضباط العراقيين. وحين سمع احد هؤلاء الضباط صراخ النجفيين جاء إليهم وأبدى تشفّيه بهم قائلاً لهم: «أكلوها! خيل وياكم! ما رضيتوا على الحكومة العثمانية ونرتوا عليها، إجوكم الإنكليز ونرتوا عليهم، شتريدون!؟». فرد النجفيون عليه منتهرين له، وعلا ضجيجهم بالاستنكار والكلمات القارصة. وتدخل الضابط البريطاني وقال للضابط العراقي ما معناه: ليس هذا وقت التشفّي ارجعوا الى أماكنكم.

استغرق سير الباخرة بين البصرة وبومبي سبعة ايام. وحين وصلوا الى ميناء بومبي وجدوا في باحة الميناء جماعة من الهنود المسلمين من حزب الخلافة الاسلامية وهم يحملون أكياساً فيها ملابس يريدون تقديمها الى الأسرى المسلمين. فنال النجفيون نصيبهم من تلك الملابس حيث حصل كل واحد منهم على كيس فيه معطفان وبنطلونان من الدوق الأبيض المتاز مع طربوش ومنديل وزوجين من الجوارب وحذاء. فلبس النجفيون هذه الملابس وصاروا افندية!

نُقل النجفيون والأسرى جميعاً بالقطار الى «سمربور»، ووصلوها بعد ثلاثة ايام. وكان فيها معتقلات واسعة لأسرى الحرب تضم نحو ١٤ ألف أسير فيهم التركي والعربي والكردي والأرمني واليهودي، ولكن معظمهم كانوا من الأتراك والعرب.

لقي النجفيون في المعتقل شيئاً من الراحة والمعيشة المرفهة نسبياً، فقد خصص لكل واحد منهم سرير مفروش، وادوات للطبخ، ومقادير وافرة من المواد الغذائية والصابون والسكاير والكبريت والشاي والسكر.

وصل الى سمربور بعد مدة قصيرة ١٦ رجلاً من النجفيين، وهم الذين حكمت عليهم محكمة الكوفة بالنفي مؤخراً. وقد انضم هؤلاء الى رفاقهم السابقين. لم يمت في سمربور من النجفيين سوى رجل واحد اسمه عبدالحسين الحمامي، وهو من المشاركين في مقتل الكابتن مارشال ولكنه نجا من حكم الإعدام باعجوبة. والواقع ان قصة موته في المعتقل تُعدّ أعجب من قصة نجاته من الاعدام: فقد جاء إليه في اثناء نومه رجل أرمني كان معتقلاً معه وقطع مذاكيره بموسى حلاقة، ومات عبدالحسين بعد يومين متأثراً بجراحه. وتبيّن ان القاتل كان مصاباً بلوثة عقلية!

لم يترك النجفيون في المعتقل عاداتهم التي نشأوا عليها في بيئتهم الاولى. فلما أعلنت الهدنة العامة في تشرين الثاني ١٩١٨، واقيمت معالم الزينة في المعتقل ابتهاجاً بانتصار الحلفاء، لم يهن ذلك على النجفيين الذين كانوا يؤمنون بحتمية انتصار الأتراك

والألمان في الحرب، فصاروا ينتقلون بين الأسرى يشككّونهم بصحة الخبر، كما صنعوا أعلاماً تركية وألمانية ونشروها في الليل على الجدران، وحين اصبح الصباح اسرعت السلطة فجمعت الاعلام وعاقبت النجفيين بتشديد الرقابة عليهم وتأجيل اطلاق سراحهم.

وفي يوم من أيام كانون الثاني ١٩١٩ حدثت في داخل المعتقل معركة ضارية بأعواد الحطب بين الاكراد والأرمن، فانبرى النجفيون لنصرة الاكراد على الأرمن. وحين علمت السلطة بأمر المعركة أوعزت بنفخ بوق التجمع. ولدى اجراء التحقيق كان حنق الأرمن منصباً على النجفيين وحدهم وتركوا الأكراد. وقد تم تشخيص سبعة عشر نجفياً اتهموا بأنهم شاركوا في المعركة، فعُقدت لهم محكمة حكمت على بعضهم بالاشتغال في حدائق المعتقل أربعة وعشرين يوماً، وبرأت الآخرين.

كان النجفيون آخر من أطلق سراحهم من الأسرى، وذلك عقاباً لهم على تكذيبهم لانتصار الحلفاء في الحرب، فقضوا أيامهم الأخيرة في المعتقل وحدهم. وحين صدر الأمر بالافراج عنهم أخيراً نُقلوا الى بومبي بالقطار، ومنها الى البصرة بالباخرة. وقد مكثوا في معتقل قرب البصرة نحو اربعة اشهر. وكان سبب هذا التأخير أن الحكومة طلبت من كل واحد منهم تعهداً بعدم الاشتغال بالسياسة على أن يكفله في ذلك تاجر مقتدر أو من يدفع عنه عشرة آلاف روبية نقداً. ولما تم لهم ذلك عادوا الى النجف سالمين!

ذكرنا سابقاً أن تسعة من النجفيين قد حُكم عليهم بالسجن، ونُقلوا الى بونه في الهند، من بينهم عطية أبوقلل وسعد الحاج راضي. ولم يطلق سراح هؤلاء إلاّ في عام ١٩٢٥.

من نتائج الثورة:

فرح الإنكليز فرحاً لامزيد عليه بالنجاح الذي حققوه في القضاء على ثورة

النجف وهي في مهدها، وقد رُفّع بلفور لهذا السبب رتبتين مرة واحدة، حيث ارتفع من رتبة كابتن الى رتبة لفتنانت كولونيل، أي من نقيب الى مقدم. ثم مُنح اجازة طويلة قضاها في لندن. وعندما عاد الى العراق في أواخر عام ١٩١٨ عُيّن في بغداد في منصب الحاكم العسكري والحاكم السياسي معاً. وقد باشر وظيفته في ١٧ كانون الاول ١٩١٨، وكان له دوره في أحداث رمضان التي جرت في عام ١٩٢٠ـ كما ذكرنا ذلك في حينه.[1]

يعتقد الإنكليز ان لثورة النجف نتيجتين مهمتين، احداهما سياسية والأخرى اجتماعية. فإن العقاب الشديد الذي حل بالثوار جعل النجفيين يخشون التحرش بالحكومة بعد ذلك. وقد ظهر اثر ذلك واضحاً عند اجراء الاستفتاء في النجف في أواخر عام ١٩١٨، فإن النجفيين كانوا اقل معارضة في الاستفتاء من زملائهم في كربلاء والكاظمية وبغداد. وكذلك كانوا في بداية ثورة العشرين، وهم لم ينضموا إليها الآ بعدما عمت معظم أنحاء الفرات الاوسط. ولولا ثورة النجف لكان النجفيون من أوائل المشاركين في ثورة العشرين.

هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية الاجتماعية فإن العقاب الشديد كسر عزائم «المشاهدة» الذين كانوا قبل هذا دائبين على القيام بالمعارك المحلية ويفاخرون بالرجولة وسفك الدماء. وهم حين قاموا بالثورة كانوا يظنون أنها ستنتهي بالفوز على منوال ما انتهت حركة العصيان التي قاموا بها ضد الأتراك قبل سنتين. ولكنهم أدركوا أخيراً ان الدنيا قد تغيّرت، وان الإنكليز غير الأتراك.

يقول ويلسون في مذكراته تعليقاً على تنفيذ حكم الإعدام بالاحد عشر رجلاً من قادة ثورة النجف، ما نصه:

---

(١) ـ انظر القسم الأوّل من هذا الجزء، الفصل الثاني عشر.

«إن تنفيذ حكم الإعدام كان له تأثير عميق في أنحاء العراق، وخاصة بين العشائر. وقد وصلتني من تعبيرات الامتنان والارتياح لما حصل أكثر مما وصلني قبلئذٍ من طلبات الرأفة. وكان التأثير في النجف بوجه عام طيباً، لأن قوة الجماعتين المتنافستين في البلدة ـ الزقرت والشمرت ـ قد انكسرت، ولن تبق النجف بعد هذا مصدراً للقلق الجدي لدىٰ حكومة البلاد...».[1]

موقف اليزدي:

كان السيد كاظم اليزدي عند قيام ثورة النجف المرجع الديني الأكبر في العالم الشيعي، حيث نال المرجعية علىٰ اثر موت منافسه الملاكاظم الخراساني في أواخر عام ١٩١١. وقد اشرنا من قبل الى أن اليزدي لم يكن ميالاً الى تأييد ثورة النجف، وربما كان من المستنكرين لها باعتبارها من أعمال «المشاهدة» الذين هم من المفسدين في نظره. ورأينا كيف أنه امتنع عن التشفع للمحكوم عليهم بالاعدام علىٰ الرغم من الضغط الذي وُجّه إليه من قبل الرأي العام في النجف.

يُروى أن الكابتن بلفور اتصل باليزدي عقب صدور حكم الإعدام يسأله ان كان لديه ما يقوله في حق المحكوم عليهم، فلم يقل له شيئاً.[2] وحدثني أحد المطلعين: ان اليزدي كان قادراً علىٰ التشفع لدىٰ الإنكليز لتخفيف حكم الاعدام، ولكنه لم يفعل لأنه كان يريد تخليص النجف من شرورهم، وقد ظهر صواب رأيه أخيراً لأن المعارك المحلية انقطعت في النجف بعد ذلك، ولم تقم لها قائمة.

ومن الجدير بالذكر ان اليزدي ساءت سمعته كثيراً في اعقاب ثورة النجف، وانتشرت حوله الإشاعات القبيحة، ولاسيما بين أقارب المشنوقين والمنفيين. وكانت

---

(١) - Wilson (op. cit) - vol. 2, p.76.

(٢) - عبدالرزاق الحسني «المصدر السابق»، ص١٧٨ (حاشية).

من جملة تلك الإشاعات ان السيّد كاظم اليزدي ليس سيداً ولايزدياً بل هو انكليزي لبس العمامة السوداء للتنكّر.

أذكر أن شاباً من أهل الأعظمية سألني منذ عهد قريب قائلاً: «هل صحيح أن السيّد أبوالحسن الاصفهاني اصله انكليزي؟». فقلت له: ان جوابي لك ذو شقين، أولها أن المتهم بذلك هو السيّد كاظم اليزدي وليس السيّد أبوالحسن الاصفهاني، والثاني أن هذه التهمة غير صحيحة إنما اختلقها له الخصوم على اثر ثورة النجف.

تفسير اجتماعي:

في خلال مدة قصيرة لم تتجاوز الست سنوات قامت النجف بأربع حركات مختلفة: ففي أواخر ١٩١٤ تزعمت النجف حركة الجهاد لمناصرة الأتراك ضد الإنكليز، وفي السنة التالية قامت النجف بحركة العصيان ضد الأتراك، وفي عام ١٩١٨ قامت النجف بثورتها التي تحدثنا عنها هنا، وفي عام ١٩٢٠ شاركت النجف في ثورة العشرين مشاركة فعالة.

يفسّر صاحب كتاب «ثورة النجف» هذه الحركات كلها بأنها نابعة من الاتجاه الأصيل السائد في النجف وهو محاربة الاستعمار من أي نوع يكون. وحين يأتي الكاتب الى التناقض الموجود بين حركة الجهاد وحركة العصيان ـ إذ أن الاولى منها قامت لمناصرة الأتراك بينما الثانية قامت لمحاربتهم ـ يفسّر ذلك على النحو التالي حيث يقول:

«وقد حملت النجف راية الخصومة للاستعمار الإنكليزي منذ اعلان الحرب العالمية الاولى في عام ١٩١٤، حيث تطوعوا لمحاربتهم مناصرة للاتراك. ثم ثاروا على الأتراك عندما اطلعوا على سوء نواياهم وشاهدوا فظائعهم في ما تمكنوا منه من مدن الفرات كالحلة وكربلاء. ومع ذلك استمروا في مقاومة الإنكليز، حيث قرروا مقاطعة الطرفين الاستعماريين في هذه الحرب الطاحنة. وبعد أن انسحب الأتراك من المنطقة

بقي النجفيون مستمرين في مقاومة الإنكليز واقلاقهم في كل مكان...».[١]

نلاحظ هنا ان الكاتب يعتبر الحكم التركي نوعاً من الاستعمار، وهو في الوقت نفسه يعترف بأن النجفيين ناصروا الأتراك في عام ١٩١٤. فاذا كان الدافع الذي دفع النجفيين لمناصرة الأتراك هو الدين والجهاد في سبيل الله فكيف جاز لهم أن يثوروا عليهم بعد فترة قصيرة؟! وهل ان اطلاعهم علىٰ سوء نوايا الأتراك وفظائعهم يكفي لأن يقلبوا عليهم ظهر المجنّ؟!

والغريب ان الكاتب حين يأتي الى ذكر الحفلة التي اقيمت في النجف لتكريم بلفور لا يعيرها أية أهمية ويميل الى التشكيك في صحة وقوعها، فهو يقول في ذلك ما نصه: «أما الحفلة فإنها إن كانت واقعة فعلاً فلابد أنها كانت من السرية بحيث لم يشعر بها أحد. ومعلوم ان المتمصرين في كل زمان يجدون من يمالئونهم ويحرقون لهم البخور طمعاً أو خوفاً».[٢]

اني أخالف الكاتب في رأيه هذا. فإن المبدأ الذي أسير عليه في تفسير أحداث التاريخ هو أننا لكي نفهم الاحداث يجب أن نفهم أولاً طبيعة المجتمع الذي ظهرت فيه تلك الاحداث. وهذا يصدق علىٰ أحداث النجف الى حد كبير.

يتميز المجتمع النجفي ـ كما اشرنا إليه سابقاً ـ بوجود نوعين مختلفين من الزعامة فيه: احداهما ملائية دينية، والأخرى مشهدية محلية. وقد إعتاد الناس في النجف علىٰ احترام كلا هذين النوعين من الزعامة بالرغم من التناقض الواضح بينهما من حيث الاهداف والقيم وتركيب الشخصية.

ان هذا في رأيي يفسر لنا التناقض الذي لاحظناه بين حركه الجهاد وحركة

---

(١) ـ حسن الاسدي «المصدر السابق»، ص٢١٣.

(٢) ـ المصدر السابق، ص٣٤٦.

العصيان في النجف، فإن الحركة الاولى إنما قامت بدعوة من الملالئية وتحت زعامتهم بينما قامت الثانية تحت زعامة المشاهدة. فالملالئية إنما دعوا الى الجهاد لنصرة الأتراك علىٰ الإنكليز باعتبار ان هؤلاء كفار تجب محاربتهم وأولئك مسلمون تجب نصرتهم. وقد ظل الملالئية علىٰ مبدئهم هذا لم يتغيّروا فيه حتىٰ قامت ثورة العشرين فايدوها باعتبارها امتداداً لحركة الجهاد.

أما المشاهدة فإنهم يختلفون عن الملالئية في ذلك اختلافاً غير قليل. انهم يعيشون في عالم آخر غير عالم الملالئية، فإن ما اعتادوا عليه من قيم البداوة جعلهم لايفهمون من الدين سوى مظاهره الشكلية. أما في حياتهم العملية فهم يسيرون علىٰ عادات مخالفة للدين في الغالب، كالعصبية والنخوة والثأر والنهب وسفك الدماء وفرض الأتاوة والاسراف في الضيافة وما أشبه.

ان المشاهدة يريدون نظاماً في الحكم يجاريهم في عاداتهم هذه ولايتدخل في شؤونهم. وهم لايبالون إذ ذاك ان يكون الحاكم مسلماً أو كافراً. ولهذا كان المشاهدة راضين عن الحكم التركي قبل الحرب فلم يثوروا عليه. لأنه تركهم يفعلون بأنفسهم ما يشتهون ولم يتدخل في شؤونهم إلاّ قليلاً. ولم يكد الحكم التركي يتدخل في شؤونهم خلال الحرب حتىٰ أعلنوا العصيان عليه. وكذلك فعلوا مع الحكم الإنكليزي إذ هم لم يثوروا عليه إلاّ بعد ان تدخل في شؤونهم.

خلاصة القول: ان حركة الجهاد وثورة العشرين قام بها الملالئية، بينما حركة العصيان وثورة النجف قام بها المشاهدة.

الملحق الثاني

كوتلوف وثورة العشرين

في عام ١٩٥٨ صدر في روسيا كتاب عن ثورة العشرين لمستعرب روسي اسمه «كوتلوف»، وهو رسالة قدمها مؤلفها لنيل شهادة الدكتوراه. وقد اتخذ المجلس العلمي لمعهد شعوب آسيا التابعة لأكاديمية العلوم السوفيتية قراراً بطبع الرسالة لكونها «غنية في محتواها، عميقة في تحليلاتها واستنتاجاتها العلمية»[١]... وقد ترجم الدكتور عبدالواحد كرم كتاب كوتلوف الى العربية، وصدرت الطبعة الاولى منه في بغداد عام ١٩٧١، والثانية في بيروت عام ١٩٧٥.

قوبل كتاب كوتلوف في العراق بالترحاب والمديح من قبل بعض الكتّاب الماركسيين، وقد وصفه الدكتور كمال مظهر بأنه «نموذج حيّ لأسلوب البحث العلمي الحديث الذي نحن بأمسّ الحاجة إليه لتقييم تاريخنا على ضوئه».[٢] كما وصفه مترجمه الدكتور عبدالواحد بأنه يمتاز عن كل المؤلفات الأخرى التي كُتبت عن ثورة العشرين بكونه يتضمن تحليلاً علمياً للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي مهدت للثورة، وأنه اعتمد اسلوباً جديداً في البحث يضع الجماهير التي هي خالقة التاريخ في المكان الاول من الحوادث إذ هو يعتبر جماهير الفلاحين والبدو وشغيلة المدن هي التي أشعلت الثورة وكانت عمادها وقوتها بالرغم من أن قيادة الثورة كانت

---

(١) - كمال مظهر أحمد، «ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي»، بغداد ١٩٧٧، ص ٤١.

(٢) - جريدة «التآخي»، في عددها الصادر في ٣٠ حزيران ١٩٧٠.

مؤلفة من شيوخ العشائر ورجال الدين والبرجوازية الوطنية.[١]

يؤسفني أني لا استطيع أن أوافق هؤلاء الكتّاب علىٰ رأيهم في كتاب كوتلوف. وأعترف اني حين قرأت الكتاب شعرت كأنه يتحدث عن ثورة غير الثورة التي عرفناها وأدركنا رجالها، وعن بلاد غير البلاد التي نعيش فيها. ويبدو أن كوتلوف حاول أن يصب ثورة العشرين في القوالب التي يحملها في ذهنه بغض النظر عما جرىٰ في الثورة من وقائع مشهودة.

سأحاول فيما يلي مناقشة كوتلوف في بعض النقاط من كتابه، وأترك الحكم للقارىء.

حول موقف الشيوخ:

في رأي كوتلوف أن ثورة العشرين هي من صنع الجماهير الثائرة من افراد العشائر، وان القيادة الفعلية للثورة كانت في الغالب من الفلاحين وقد تولاها عنهم شيوخ العشائر ورجال الدين.[٢]

يواجه كوتلوف هنا اعتراضاً هو: كيف يمكن أن تكون الثورة من صنع الفلاحين بينما تكون قيادتها في أيدي الشيوخ ورجال الدين!؟ فالمفروض في الفلاحين أن تكون ثورتهم ضد الشيوخ المستغلين لهم، وليس من المعقول أن يكون المستغلون هم أنفسهم قادة الثورة!

يحاول كوتلوف الجواب علىٰ هذا الاعتراض بقوله ان الشيوخ إنما انضموا الى الثورة تحت ضغط عشائرهم، وهم لم يكونوا في اعماق أنفسهم مؤيدين لها، ولهذا صاروا يحاولون انتهاز الفرص للاتصال بالإنكليز سراً من أجل التفاهم معهم.

---

(١) – كوتلوف «ثورة العشرين»، بيروت، ١٩٧٥، ص٥.

(٢) – المصدر السابق، ص ١٢٠، ١٣٧.

يقول كوتلوف في ذلك ما نصه:

«فقد بادر الكثير من شيوخ القبائل، ممن يخشون فقدان مراكزهم في حالة فشل الثورة، الى الدخول في مباحثات سرية مع القيادة البريطانية. كما حدث لشيوخ الرميثة الذين اسرعوا الى إجراء مباحثات مع الضباط السياسيين الإنكليز في المنطقة حال سماعهم أنباء الحشود العسكرية المزمع ارسالها لاسناد الحامية المحاصرة، للاتفاق على شروط الاستسلام».[1]

ان كوتلوف يشير بهذا الى الوساطة التي قام بها السيّد محمد السيّد محمود للتوسط بين الإنكليز وقادة الثورة في الرميثة في ١٨ تموز ١٩٢٠. وقد ذكرناها بتفصيل في القسم الاول من هذا الجزء.[2] وهي في الواقع لم تكن على نحو ما استنتجه كوتلوف منها. وقد حدثنا عنها السيّد محمد نفسه حيث قال: انه حمل من الشيوخ عريضة الى القائد الإنكليزي كوننغهام يطلبون فيها الإستقلال التام، ولما تسلم القائد العريضة رمى بها الى الارض وداسها بحذائه وقال: «اني لست مأمور استقلال وإنما أنا مأمور حرب، وإني سأطحنهم طحناً»، ثم مسح احدى يديه بالأخرى. ان هذا هو ما ذكره السيّد محمد السيّد محمود، وهو المصدر الوحيد الذي يمكن أن نستمد منه المعلومات حول الوساطة التي قام بها بين الإنكليز والشيوخ. ولست أدري من أين ستمد كوتلوف معلوماته التي تختلف عن معلومات السيّد محمد؟!

ويجب أن لاننسى في هذا الصدد أن الشيوخ الذين وصفهم كوتلوف بـ«الانهزامية والانتهازية» هم شيوخ بني حجيم الذين كانوا اشد القادة صموداً في ثورة العشرين، ولم يلقوا سلاحهم إلاّ بعدما حصلوا من الإنكليز على اعتراف باستقلال البلاد ـ كما ذكرنا ذلك في حينه ـ فاذا كان هؤلاء انهزاميين انتهازيين، فمن هم الذين كانوا ثابتين

---

(١) ـ المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٢) ـ انظر القسم الأول من هذا الجزء، ص ٢٢٨ ـ ٢٣١.

مخلصين يا ترى؟! ويأتي كوتلوف بمثل آخر على انهزامية الشيوخ في قضية المفاوضات التي جرت في ١ تموز ١٩٢٠ بين الميجر نوربري وشيوخ آل فتلة. فهو يصف تلك المفاوضات بأنها كانت ضد رغبة افراد العشيرة وأنهم استنكروها بشدة، حيث يقول ما نصه:

«وقد استنكرت الجماهير الشعبية بشدة محاولات بعض الشيوخ للتآمر على قضية الثورة. في الاول من تموز أثناء المفاوضات التي عقدت بين نور بري وشيخ الفتلة قام أفراد هذه القبيلة بمظاهرة كبيرة أعلنوا فيها احتجاجهم على المفاوضات».[١]

الواقع أن المفاوضات التي جرت في ١ تموز لم تكن من نمط ما ذكره كوتلوف عنها. فإن لدينا عنها مصدرين: أحدهما انكليزي، والآخر عراقي. وكلاهما يخالف كوتلوف في استنتاجه. فالمصدر الإنكليزي يقول: ان الذين حضروا الإجتماع من الجانب البريطاني هم الميجر نوربري والميجر نيجول والكابتن هوبكنز والكابتن مان. أما من الجانب العربي فلم يحضر سوى قليل من شيوخ آل فتلة، وقد ألقى عبدالواحد الحاج سكر في الإجتماع كلمة مثيرة وجهها نحو الشيوخ بدلاً من توجيهها نحو الضباط البريطانيين. ولما خرج الضباط عقب انتهاء الإجتماع قوبلوا من أفراد العشيرة باصوات الاستهزاء، ثم قُذف زورقهم البخاري بالاحجار. ويؤكد المصدر الإنكليزي أن هذه الاهانة لم تكن تلقائية بل كانت مدبّرة.[٢]

ويقصد بذلك ان الشيوخ هم الذين دبّروها لأن افراد العشيرة لايمكن أن يقوموا بعمل خلاف رغبة الشيوخ كما هو معروف.

---

(١) - كوتلوف «المصدر السابق»، ص ١٢٠.

(٢) - Maan (Administratar in The Making) - London 1921 - p.291.

أما المصدر العراقي، وهو فريق المزهر الفرعون وكان من جملة الذين حضروا الاجتماع، فهو يقول ان الميجر نوربري حاول اغواء بعض الشيوخ فلم يوفق، وعندما خرج من المضيف جابهه افراد العشيرة الذين كانوا واقفين خارج المضيف بهوستين هما: «هج ما حصلني وردّ خالي» و«يا عزّاك لبابك فكينا».[١] ومعنى هذا ان أفراد العشيرة كانوا يسخرون من نوربري لاخفاقه في المفاوضة مع شيوخهم، وليس احتجاجاً علىٰ المفاوضة كما يزعم كوتلوف.

حول حرب الأنصار:

يعتقد كوتلوف أن الجماهير الشعبية في العراق استمرت علىٰ قتال الإنكليز بعد انتهاء الثورة، إذ هي لجأت الى حرب الانصار علىٰ حد تعبيره. وهو يقول في ذلك ما نصه:

«بالرغم من استسلام قيادة الثورة، فإن الجماهير الشعبية من الفلاحين والبدو الرحل وشغيلة المدن لم تنزع السلاح، واستمرت في المقاومة تحت قيادة بعض صغار الشيوخ، ومن برزوا مؤخراً في القيادة ورفضوا الرضوخ لشروط الاستسلام، كما امتنعوا عن تسليم أسلحتهم ودفع الضرائب والتعويضات... وفي مختلف مناطق العراق استمر الثوار في حرب الانصار أشهراً عديدة بعد استسلام كبار قادتهم وتمزق وحدتهم...».[٢]

ويقول كوتلوف في موضع آخر من كتابه:

«في أثناء القتال ضد المستعمرين خلال الأعوام ١٩١٨ ـ ١٩٢٠، واجهت الجماهير الشعبية أحداثاً كثيرة تؤكد عدم ثبات الفئات الاقطاعية التي تزعمت الثورة،

---

(١) – فريق المزهر الفرعون «الحقائق الناصعة»، بغداد ١٩٥٢، ص١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) – كوتلوف «المصدر السابق»، ص ١٥٧.

وعدم رغبتها في قطع علاقاتها بزعماء الاقطاع والكومبرادور المؤيدين للانكليز. وظهرت أثناء الثورة علائم تدل على عدم ثقة الجماهير الشعبية تجاه طبقة الاقطاعيين. ونكل الثوار في عدد من المناطق بالعملاء السافرين للانكليز. في الرابع والعشرين من تشرين الاول ١٩٢٠ قتل الانصار شريف الفاروقي، وهو من ابرز الشخصيات الانهزامية من القوميين العرب، وذلك في اثناء هجومهم على خط السكة الحديد بين بغداد وشرقاط. وامتد الشعور بعدم الثقة الى بعض العناصر في قيادة ثورة العشرين، ويؤكد ذلك استمرار القتال بعد استسلام أو هروب زعماء الثورة، حيث رفضت الجماهير الشعبية بحزم تسليم اسلحتها والامتناع عن حرب الانصار».[1]

الواقع أن كلام كوتلوف هذا يثير فينا الاستغراب الشديد، فنحن نعرف أن عشائر بني حجيم وحدها هي التي ظلت مثابرة على الثورة عقب استسلام العشائر الاخرى، وكان في مقدمتها شعلان أبوالجون، ولكن كوتلوف وصف شيوخ تلك العشائر قبل هذا بالانهزامية والانتهازية، ولا ندري أي جانب من أقواله نصدق!؟

أضف الى ذلك ان المؤرخين العراقيين لم يذكروا شيئاً اسمه «حرب الانصار» عقب انتهاء الثورة. فكل ما ذكروه في هذا الشأن هو أن الهدوء شمل مناطق العراق كلها بعد الثورة ـ ما عدا منطقة واحدة هي منطقة «الجزيرة» الصحراوية. فهذه المنطقة كانت مليئة بالعشائر البدوية، وقد انتهزت بعض تلك العشائر فرصة انشغال القوات الإنكليزية بقمع الثورة فأخذت تقطع الطرق وتنهب القوافل، ولاسيما في طريق الموصل. ولاحاجة بنا الى القول ان العشائر البدوية لاتعرف شيئاً عن الثورة أو حرب الانصار، كل همها أن تغزو وتنهب ـ فهذا هو الفخار الاكبر في نظر العشائر البدوية كما هو معروف!

---

(١) – المصدر السابق، ص١٦٨.

والغريب أن كوتلوف يعتبر مقتل شريف الفاروقي من بين الاعمال الوطنية التي قام بها الأنصار عقب انتهاء الثورة. هذا مع العلم أن الذين قتلوا الفاروقي لم يكونوا من الانصار بل كانوا من قطاع الطرق الذين اشتد نشاطهم في طريق الموصل آنذاك. وخلاصة القصة أن الفاروقي غادر الموصل في ٢٤ تشرين الأول ١٩٢٠ متوجهاً الى بغداد، وكان راكباً في سيارة ومعها خمسة سيارات أخرى يركبها مسافرون آخرون. ولما وصلت السيارات الى موضع بين الشورة وحمام العليل اعترضتها جماعة من عشيرة ألبوحمد مؤلفة من ١٥٠ خيالاً برئاسة شيخ لهم اسمه «بلبيل أغا». وكان من بين الركاب رجل مسيحي يُدعى «ابن بيثون»، فاقترب منه رجل من البو حمد يسأله: «هل أنت نصراني؟». فأجابه ابن بيثون بحدة: «نعم أنا نصراني!». وعند هذا صرخ الرجل في وجهه: «ياخنزير»، ثم اهوى عليه فقتله. والظاهر أن الفاروقي حاول أن يردع الرجل عن القتل، وربما انتهره ظناً منه أنهم يعرفونه، فتقدم بلبيل أغا نحوه واطلق عليه النار وقتله دون أن يعرف من هو. ثم انثال ألبو حمد بعدئذٍ على السيارات فنهبوها ونهبوا ركابها...[1]

المعروف عن بلبيل أغا أنه كان اسود اللون، وكان في العهد التركي من عبيد البوحمد، وقد ابدى حينذاك من الشجاعة والجرأة شيئاً كثيراً، ووضع نفسه في خدمة والي الموصل سليمان نظيف بك. ثم نصّبَ نفسه شيخاً على ألبوحمد. وفي أيام الثورة صار يقطع الطرق بدعوى محاربة الإنكليز والجهاد في سبيل الله. وقد القي القبض عليه أخيراً وسيق الى المحكمة بتهمة قتل شريف الفاروقي، وقد برأته المحكمة من هذه التهمة. والتق به عبدالمنعم الغلامي عقب تبرئته، فصرح له بلبيل أغا قائلاً: «والله ياخوي ما آني قاتل شريف لكن الذين قتلوه أو سببوا قتله هم الذين وجهوا عليّ هذه التهمة لكي يجعلوني مسؤولاً عن دمه تجاه ابناء بلدته واقاربه وبذلك تحصل

---

(١) – قحطان أحمد عبوش التلعفري «ثورة تلعفر»، بغداد ١٩٦٩، ص٣٨١ـ ٣٨٢.

الغاية هم من ضرب عصفورين بحجر واحد كما يقول المثل».[١]

قرائن واهية:

الملاحظ بوجه عام ان كوتلوف يحاول التشبث بأية قرينة أو دليل مهما كان واهياً من أجل اثبات رأيه، وهو لذلك قد يتورط في أخطاء مفضوحة كان في غنى عنها. فهو مثلاً عندما يتطرق الى أحوال العراق في العهد التركي يقول: «كان رؤساء القبائل، أمثال السويدي والهاشمي وجميل زادة وغيرهم ممن يقطنون بغداد وبعض المدن الاخرى، ويستحوذون علىٰ مساحات شاسعة من الأراضي».[٢]

ان هذا كلام قد يعبر علىٰ القرّاء من غير بلادنا، ولكن القرّاء العراقيين يعرفون كل المعرفة ان السويدي والهاشمي وجميل زادة لم يكونوا من رؤساء العشائر، كما يعرفون أن السويدي لم يكن من اصحاب الأراضي، وأن الهاشمي لم يكن يملك أي أرض في العهد التركي، وقد حاول أن يكون من اصحاب الأراضي في العهد الملكي ولكنه أخفق.

ويقول كوتلوف في موضع آخر من كتابه:

«وقد انخرط أبناء الشيوخ واقرباؤهم في الجندرمة المحلية (الشبانة) التي شُكّلت لكبت استياء وسخط الجماهير الشعبية. وكان هدف الإنكليز من تجنيد أبناء الشيوخ في سلك الجندرمة هو الاستعانة بهم في الإدارة وتنفيذ السياسة الاستعمارية في مناطقهم».[٣]

اننا أدركنا عهد الشبانة، وشاهدنا الكثيرين منهم. وكل ما نعرفه عنهم انهم كانوا

---

(١) – جريدة «صدىٰ الأحرار»، في عددها الصادر في ٢ آذار ١٩٥١.

(٢) – كوتلوف «المصدر السابق»، ص ٣٩.

(٣) – المصدر السابق، ص٧٦.

من أوطأ طبقات المجتمع، في الريف أو المدن. فقد كان سلك الشبانة محتقراً في نظر الناس ولم ينخرط فيه إلاّ اولئك الذين لم يجدوا عملاً أفضل منه. أما ابناء الشيوخ أو أقرباءهم فكانوا يستنكفون من الانخراط في هذا السلك، ويعدونه شائناً لهم حاطاً بمكانتهم الاجتماعية.

حدث في بعض الأحيان أن انخرط بعض اقرباء الشيوخ في سلك الشبانة، غير أنهم تولوا مراكز قيادية فيه، كعبد المحسن آل عباس الذي كان من اقرباء عمران الحاج سعدون شيخ بني حسن في منطقة طويريج فقد تولى عبدالمحسن قيادة «الشبانة» في تلك المنطقة، ولكنه سرعان ما انضم الى الثورة على أثر ايعاز وصله من عمران.

ومن الجدير بالذكر أن معظم أفراد الشبانة لم يثبتوا في القتال عندما امتدت الثورة الى مناطقهم، فقد رأيناهم يسرعون الى الفرار حين اشتد اطلاق الرصاص، وكثيراً ما كانوا يأخذون اسلحتهم معهم غنيمة لهم. انهم لم يجدوا المرتب القليل الذي يحصلون عليه من الإنكليز كافياً لأن يضحوا بأرواحهم في سبيل الإنكليز.

ويقول كوتلوف في صدد حديثه عن واقعة تلعفر:

«قامت فرق البدو التي تلق مساندة من الفلاحين اليزيديين في جبل سنجار بالتحرك الى مدينة تلعفر، واحتلت المدينة في الثالث من حزيران، ثم واصلت تحركها متوجهة الى الموصل...».[١]

ان الذي نعرفه عن اليزيدية أنهم كانوا يحبون الإنكليز وقد وقفوا الى جانبهم أثناء الثورة بشكل سافر. ولا لوم عليهم في ذلك لأنهم كانوا قد عانوا في العهد التركي من الظلم والاضطهاد قسطاً كبيراً، ولما جاء الاحتلال الإنكليزي اعتبروه بمثابة

---

(١) - المصدر السابق، ص ١٠٣.

الانقاذ لهم، وكان الإنكليز من جانبهم يراعونهم مراعاة خاصة ويعطفون عليهم. والواقع ان يزيدية سنجار قاموا بدور فعال في مساندة الإنكليز خلال أحداث تلعفر، فقد خرجوا برئاسة شيخهم حمو شرو لقطع الطريق على رتل جميل المدفعي، ولما لم يعثروا عليه ذهبوا الى تلعفر وشاركوا في نهبها، كما نهبوا بعض القرى القريبة وأحرقوا بيادرها.[١]

حول المصادر:

استند كوتلوف في كتابه على مصادر كثيرة روسية وألمانية وانكليزية وعربية. ويقول مترجم الكتاب الدكتور عبدالواحد كرم: ان كوتلوف استخدم تلك المصادر بمهارة فائقة.[٢] ولست أدري ماذا يعني المترجم بـ«المهارة الفائقة». فإني عند قراءة الكتاب وجدت كوتلوف غير دقيق في النقل عن بعض تلك المصادر، إذ كان يعمد الى شيء من المبالغة أو التحريف فيما ينقله لكي يجعله منسجماً مع الفرضية التي يدعو إليها. أذكر فيما يلي اربعة نماذج من ذلك.

أولاً: عندما يتطرق كوتلوف الى مظاهرات رمضان التي جرت قرب جامع الحيدرخانة في بغداد يقول:

«ان الجماهير المتظاهرة لم تتفرق إلاّ بعد أن اطلقت السيارات المصفحة نيرانها على المتظاهرين، واستشهد عدد منهم، وقد شيعت الجماهير ضحاياها في اليوم التالي في مظاهرة جديدة كبرى».[٣]

يستند كوتلوف في قوله هذا على مصدرين هما: كتاب أمين سعيد وكتاب

---

(١) - قحطان أحمد عبوش التلعفري «المصدر السابق»، ص٢١٧.

(٢) - كوتلوف (المصدر السابق)، ص٥.

(٣) - المصدر السابق، ص١٠١.

عبدالرزاق الحسني. وحين نرجع الى هذين المصدرين نجد أنهما يذكران الحادثة بشكل يختلف عما ذكره كوتلوف عنها. فإن أمين سعيد يقول عنها ما نصه:

«ما كاد الجمهور يفرغ من انتخابهم ـ أي انتخاب المندوبين ـ حتى ظهرت سيارتان مدرعتان في الشارع وأطلقتا النار، فأصيب أخرس ومات، فاحتفل الشعب احتفالاً عظيماً بتشييع جنازته وسماه فقيد الوطن...».(١)

أما الحسني فيقول عنها ما نصه:

«بينما الجموع المحتشدة في جامع الحيدرخانة تنتخب المندوبين الخمسة عشر ظهرت سيارتان مصفحتان في الشارع العام وأخذتا تطلقان النيران في الفضاء لارهاب المتظاهرين وتخويفهم. وأبت الصدفة أن ينتهي الحادث بسلام فاصيب رجل أخرس... بطلق ناري اصاب مقتلاً منه، وقيل دهسته احدى المصفحتين، فأكبر الأهلون موته وشيعوه الى مرقده في اليوم التالي بمظاهرة وطنية كبرى تحدوا فيها السلطة».(٢)

نلاحظ في المصدر الاول ان عدد القتلى في الحادثة كان واحداً فقط، ولم يكن كما أشار إليه كوتلوف بقوله «استشهد عدد منهم». أما المصدر الثاني فيقول أن اطلاق النيران كان في الفضاء، ولم يكن موجهاً على المتظاهرين على نحو ما ذكره كوتلوف. أما إصابة الأخرس فكانت نتيجة الصدفة ولم تكن مقصودة. والواقع ان التحقيق الذي قمت به في هذا الشأن دل على أن موت الأخرس كان من جراء الدهس ولم يكن من جراء اطلاق النار، وقد أجمع على ذلك معظم الشهود.

ثانياً: حين يستعرض كوتلوف المظالم التي عاناها الشعب العراقي في عهد

---

(١) ـ أمين سعيد «الثورة العربية الكبرى»، القاهرة، ج ٢، ق ٢، ص ٤١.

(٢) ـ عبدالرزاق الحسني «الثورة العراقية الكبرى»، صيدا ١٩٧٢، ص ٦٥.

الاحتلال يقول ما يلي:

«لم يعر المستعمرون الإنكليز اهتماماً للمشاعر القومية للمواطنين، بل تعمدوا الى اهانة كرامتهم. فقد عمد جنود الاحتلال بقسوة الى تحطيم الآثار الثقافية العريقة التي لاتُقدّر بثمن. ولم يتورع الضباط عن ضرب الشيوخ والاطفال من العرب والاكراد علىٰ حد سواء».[١]

استند كوتلوف في قوله هذا علىٰ كتاب محمد طاهر العمري، ولكن هذا الكتاب يذكر قصة تختلف كل الاختلاف عما نقله كوتلوف. وخلاصة القصة كما ذكرها العمري هي: أن الوطنيين في الموصل سمعوا في أواخر نيسان ١٩١٩ أن لجنة التحقيق الامريكية سوف تأتي الى العراق قريباً للاطلاع علىٰ رغبات الشعب العراقي، فقرروا اعداد الرأي العام في المطاليب التي يجب عرضها علىٰ اللجنة. وكان من جملة مقرراتهم أن يضع الأهالي ألوان العلم العربي الاربعة علىٰ صدورهم واكتافهم. وكان اول من فعل ذلك أحمد الجليلي وسعيد الجليلي وسيرت افندي، ثم اقتدى بهم الكثير من شبان الموصل. وقد انتشرت ألوان العلم علىٰ الصدور في الازقّة والشوارع. ولما سمع الحاكم السياسي البريطاني بالأمر غضب وأوعز الى الشرطة بالقاء القبض علىٰ أحمد الجليلي وصاحبيه. ثم ذهب ناظر المعارف الكابتن بيز الى المدرسة الخضرية وأمر التلاميذ بأن ينزعوا عن اكتافهم ألوان العلم العربي، فلم يطع التلاميذ أمره، فأمر بطرد عشرين منهم، ولكن المدرسة الاسلامية فتحت صفوفها لهم وآوتهم. واتفق أن احد الحكام البريطانيين شاهد في الطريق شاباً يحمل علىٰ صدره الوان العلم، فانتزع الألوان من صدره ورماها علىٰ الأرض، ثم ضرب الشاب علىٰ وجهه وهدده بالسجن. وفي اليوم التالي ذهب لفيف من أعيان الموصل الى الحاكم السياسي يرجون منه اطلاق سراح أحمد الجليلي وصاحبيه مع اعادة التلاميذ المطرودين الى مدرستهم. فاستجاب الحاكم

---

(١) – كوتلوف، «المصدر السابق»، ص ٧٩.

لرجائهم. وبقيت الوان العلم العربي على صدور الشبان بالرغم من تهديد السلطة لهم بالحبس أو النفي، حتى ان الشاب أحمد الملاح لم ينزع الألوان عن صدره بضعة أسابيع بالرغم من منع الشرطة ووعيدها.[١]

هذا هو ماذكره محمد طاهر العمري في كتابه، في الصفحة التي عينها كوتلوف، ولم نجد فيه شيئاً عن «تحطيم الآثار الثقافية العريقة التي لاتقدّر بثمن»، ولست أدري من أين جاء كوتلوف بهذه المعلومات ـ اللهم إلاّ إذا كانت ألوان العلم العراقي هي تلك الآثار العريقة في رأيه. وكذلك لم نجد في كتاب العمري عن ضرب الشيوخ والاطفال سوى صفعة واحدة قام بها ضابط بريطاني تجاه شاب موصلي.

ثالثاً: لم يكتف كوتلوف بما نقله عن العمري في وصف مظالم الإنكليز، بل نقل علاوة على ذلك عن مؤلف روسي اسمه «ايميليانوف» حيث يقول:

«ان القوزاق الروس الذين دخلوا العراق دهشوا من تصرفات الإنكليز تجاه المواطنين العراقيين، فقد كانت معاملتهم شرسة جداً بحيث كان الضباط يقتلون السكان الآمنين المسالمين بمجرد عدم وقوفهم عند قدوم أولئك الضباط».[٢]

اني لا أعرف عن كتاب ايميليانوف شيئاً، ولا أدري هل كان نقل كوتلوف عنه من نمط نقله عن الحسني والعمري، أم كان من نمط آخر. ولكني مع ذلك أستطيع أن أقول بأن ما ذكره كوتلوف في هذا الصدد بعيد عن الواقع. فإن جميع المؤلفين العراقيين الذين كتبوا عن ثورة العشرين لم يذكروا ان الضباط البريطانيين قتلوا أحداً من الناس لمجرد أنه لم يقف عند مرورهم. ولو كان مثل هذا الأمر قد وقع فعلاً لما تردد المؤلفون العراقيون عن تسجيله مع العلم أن فيهم من هو أكثر عداءاً للانكليز من كوتلوف أو

---

(١) - محمد طاهر العمري «مقدرات العراق السياسية» بغداد ١٩٢٥، ج٢، ص١٠٣ ـ ١٠٥.

(٢) - كوتلوف «المصدر السابق»، ص٧٩.

ايغليانوف. كل ما ذكره المؤلفون العراقيون في هذا الصدد هو أن بعض الضباط كانوا يطلبون من الناس القيام لهم عند مرورهم،ومن يتلكأ في ذلك يتلق سوطاً من أحد الجنود المرافقين لهم. وقد اشرنا الى حادثة من هذا النوع وقعت في النجف، كما أن هناك حادثة أخرى ذكرها طالب مشتاق في مذكراته حيث قال:

«كنت يوماً في قصبة دلتاوة أجلس في مقهى مع بعض الرفاق، وإذا بشرطي حامل بيده عصا غليظة ويسير بخطوات سريعة وهو يصيح بأعلىٰ صوته: قوموا.. قوموا.. فنهض الجالسون في المقهى جميعهم وقوفاً علىٰ ارجلهم ـ وانا من بينهم طبعاً ـ وإذا بضابط انكليزي يسير علىٰ قدميه ثم يرفع يده اليمنى يحيّي الواقفين بابتسامة ساخرة واستخفاف مقيت. وكنت آنذاك قد عدت من استانبول قبل زمن يسير ولم يسبق أن شهدت منظراً كهذا ولم أسمع بمثل هذا العمل السخيف المهين للكرامات».[١]

رابعاً: يقول كوتلوف عند حديثه عن الشطرة في أيام الثورة ما نصه:

«إستطاع بيرترام توماس الضابط السياسي في منطقة الشطرة اقامة علاقة وطيدة مع الكثيرين من الشيوخ والمرابين في المنطقة، حتىٰ أن الحاج ألماس أكبر تجار الشطرة في ذلك الحين، الذي كان يحتكر الضرائب لحساب الإنكليز، أصبح عميلاً سافراً لتوماس، وكان يحرص علىٰ تزويده بآخر الأنباء عن نشاطات الوطنيين في المنطقة. وقد حذا حذوه معظم الشيوخ البارزين لقبائل الشطرة، خاصه منهم الشيخ خيون العبيد...».[٢]

يستند كوتلوف في هذا علىٰ مذكرات توماس، وقد رجعت الى هذه المذكرات فوجدت فيها اختلافاً كثيراً عما نقله كوتلوف عنها. فإن الحاج ألماس لم يكن أكبر

---

(١) - طالب مشتاق «أوراق أيامي»، بيروت ١٩٦٨، ج١، ص٩٠.

(٢) - كوتلوف، «المصدر السابق»، ص١١٩.

تجار الشطرة بل كان رجلاً غير بارز فيها، وقد حاول في البداية رشوة توماس فقدم له ساعة جداريه مزخرفة بغية نيل الحظوة لديه، فرفض توماس قبول هديته. ولكن ألماس اصبح فيما بعد مقرّباً لتوماس وعيناً له على أهل الشطرة ينقل أخبارهم اليه.(١)

ويتضح من مذكرات توماس أنه في أيام الثورة لم يجد من يساعده من بين أهل الشطرة سوى رجلين هما: الماس وخيون العبيد. أما ما يقوله كوتلوف من أن معظم شيوخ الشطرة صاروا عملاء لتوماس فلم أجد له ذكراً في مذكرات توماس. سألتُ عن الحاج ألماس اثنين من أهل الشطرة، هما مكي السيّد جاسم والحاج حسين الشعرباف، وهما من الذين أدركوا ذلك العهد، فأكدوا لي ان الحاج ألماس كان رجلاً مبتذلاً يعمل في الجزارة، وكان الناس يسخرون منه ويسمونه «جنباز». وكان هو من جانبه شديد التعلق بالإنكليز معجباً بهم، وقد إعتاد أن يمشي في الأسواق رافعاً صوته بالبيت التالي:

أصبح الملك ثابت الأركان   بالبهاليل من بني البرطان

حول الاقطاع في العراق:

يعتقد كوتلوف، أن العراق كان في العهد التركي يعيش في ظل نظام الاقطاع، فهو يقول في ذلك: «لقد ساد العراق بأكمله نظام الاقطاع رغم الاختلافات الكبيرة بين المناطق المختلفة في البلاد. واقترن ثراء وبذخ الاقطاعيين بمنتهى البؤس والحرمان للمنتجين المباشرين للخيرات المادية».(٢)

وحين يأتي كوتلوف الى ذكر الاحتلال الإنكليزي للعراق يقول: «كانت سياسة المحتلين الاستعماريين تهدف الى استعباد الشعب العراقي والحفاظ على بقايا الاقطاع كما

---

(١) - Thomas (Alarms and Excursions In Arabia) - London 1931 p.105 - 106.

(٢) - كوتلوف، «المصدر السابق»، ص ٤٣.

كانت تعمل علىٰ إشاعة البؤس والفاقة في اوساط جماهير الشغيلة واهدار حقوقها. إلاّ إنه بالرغم من ذلك لم يكن بوسع تلك السياسة تلافي مقاومة الجماهير الشعبية في البلاد، وفي مقدمتها الفلاحون والبدو الذين يمثلون القوة الرئيسية للحركة الوطنية التحررية، ويقع علىٰ عاتقهم العبء الأكبر للظلم الإستعماري».[١]

الملاحظ ان كوتلوف بذل جهوداً كبيرة لكي يبرهن علىٰ صحة رأيه هذا، وقد استند في ذلك علىٰ اقوال بعض السياح الأجانب الذين زاروا العراق في العهد التركي وشاهدوا أحوال العشائر فيه. ويستند كوتلوف بصورة خاصة علىٰ ما ذكره السائح الروسي زاخاو الذي زار عشيرة شمر البدوية في عام ١٨٨٠، فهو يقول نقلاً عن هذا السائح: ان الملكية في قبيلة شمر مقدسة، وان الاقطاعيين انفردوا بالسلطة فيها واخضعوا الأفراد لرقابتهم، وان مركز الفرد ونفوذه في القبيلة يتناسب مع ما لديه من أموال، وان جريمة السرقة تؤدي الى فرض أقسى العقوبات وأشدها علىٰ الفرد.

وينقل كوتلوف عن سياح آخرين فيقول: ان شيخ القبيلة البدوية بوجه عام يملك صلاحية تحديد طرق انتقال القبيلة والأماكن التي تقف عندها ويكفي أن نذكر أن كل فرد في القبيلة يعرض نفسه لإلقاء القبض عليه من قبل حراس رئيس القبيلة المسلحين بمرجد أن يمس القطيع العائد للرئيس، حيث يضطر البدوي في الاحوال التي ينضب فيها العشب والماء، وتحت تأثير الفقر والجوع الى أن يعتدي علىٰ أموال أغنياء القبيلة. ولقد سلب شيخ القبيلة افرادها حق ملكية الأرض بل والغى مفهوم الملكية المشاعة للارض. وان معظم البدو يشكون الفقر المدقع حيث حرموا من أية وسيلة للبقاء، وتحول الكثيرين منهم الى رعاة للماشية العائدة للشيخ مما سبب زيادة موارده.

وعندما يتطرق كوتلوف الى العشائر الريفية يقول: ان شيوخ هذه العشائر

---

(١) - المصدر السابق، ص ٨٣.

سلكوا الاسلوب نفسه في استغلال افراد القبيلة وفي الاثراء على حسابهم، وهذا عدل أفراد القبيلة عن الدفاع عن حقوقها ولم يعد باستطاعتها حيازة ابسط الاسلحة التي كان يستعملها أجدادهم من قبل، واعتمدوا في الدفاع عن أنفسهم على الهراوات والفؤوس.(١)

تلك هي خلاصة ما ذكره كوتلوف في وصف العشائر العراقيه في العهد التركي، ولاحاجة بنا الى القول ان ما ذكره لاينسجم مع ما نعرفه من أحوال العشائر العراقية، فإن هذه العشائر مازالت موجودة بين أظهرنا، وقد ادركناها عندما كانت تعيش في ظل نظمها وتقاليدها القديمة قبل ان يطرأ عليها التغيير مؤخراً. ونحن لسنا في حاجة لأن ندرس هذه العشائر استناداً على أقوال سياح زاروا بلادنا زيارة عابرة ونظروا في أحوالها الاجتماعيه من خلال مفاهيمهم ومعاييرهم الثقافية.

أن الذي أفهمه من دراسة العشائر العراقية هو أنها كانت تعيش في نظام يمكن أن نسميه بـ«النظام العشائري»، وهو يختلف عن نظام الاقطاع من وجوه شتى، وسأحاول فيما يلي استعراض الفروق بين النظامين بايجاز.

حول النظام العشائري:

ان النظام الاقطاعي له شروط يجب أن تتوافر فيه لكي يصح أن يُطلق عليه اسم «الاقطاع». وقد اشار ماركس في كتاباته الى هذه الشروط، أهمها ان تكون الارض أهم وسيله للانتاج وأن لاتكون ملكاً للعاملين فيها ـ أي الفلاحين ـ بل هي ملك للسادة الاقطاعيين أو للدولة، فاذا بيعت الارض كان الفلاحون من ضمنها، ويُطلق عليهم اسم «الأقنان»، وهم لايملكون من الحقوق إلاّ بمقدار ما يعطف عليهم مالك الأرض من باب الشفقة والانسانية.

---

(١) ـ المصدر السابق، ص٢١ ـ ٢٥.

حين ندرس أحوال العشائر العراقية في العهد التركي نجد هذه الشروط غير متوفرة فيها. وأهم ما نلاحظه فيها هو أن علاقة شيخ العشيرة بأفرادها لم تكن من طراز علاقة السيّد الاقطاعي باقنانه. اضف الى ذلك ان علاقة الفلاحين بالارض لم تكن علاقة اقطاعية بل هي الى المشاعية اقرب. وقد لاحظ ذلك المستعرب السوفيتي لوتسكي حين قال: «أما في جنوب العراق فكانت تسود العلاقات البطريكية، وكانت الارض تعود الى القبائل العربية وتعتبر ملكاً جماعياً بينهم».[1]

كانت العشائر العراقية في العهد التركي صنفين رئيسيين: عشائر بدوية وتؤلف ٣٥ بالمائة من مجموع السكان، وعشائر ريفية وتؤلف ٤١ بالمائة منه. ومن الممكن القول ان العشائر البدوية كانت أكثر بعداً عن نظام الاقطاع من العشائر الريفية، للسبب التالي:

تتميز العشائر البدوية بوجه عام بانها دائمة الترحل في الصحراء لاتملك ارضاً ولاتحب أن تستقر في أرض محددة، وهي تميل الى الغزو والنهب وقطع الطريق وتفتخر بذلك إذ تعتبره دليلاً علىٰ الشجاعة والرجولية. ولما حاول مدحت باشا في عام ١٨٧٠ توطين عشيرة شمر وتشجيعها علىٰ احتراف الزراعة كان مصير محاولته الفشل. ولم تتوطن شمر إلاّ في عهد متأخر، ومازال البعض منها يعيش في مرحلة الانتقال.

ومن الواضح ان عدم الاستقرار في الارض افقد العشائر البدوية أهم شرط من شروط الاقطاع. أما ما ذكره كوتلوف من مظاهر القسوة والاستغلال لدىٰ شيخ شمر تجاه افراد عشيرته، نقلاً عن السائح زخاو، فهو أمر بعيد كل البعد عما نعرفه عن العشائر البدوية.

ان الشجاعة والكرم هما أهم العناصر التي تساهم في تكوين شخصية الشيخ

---

(١) - لوتسكي «تاريخ الأقطار العربية الحديث»، موسكو ١٩٧١، ص١٦.

البدوي. فالشيخ يجب أن يكون شجاعاً عند غزو العشائر الأخرى، وهو في الوقت نفسه يجب أن يكون كريماً يوزع ما يغنمه علىٰ افراد عشيرته ويحدثنا عبدالجبار الراوي ـ وهو رجل خبير بالبداوة لأنه كان مديراً لشرطة البادية مدة طويلة ـ فيقول: ان عجيل الياور قد نال المشيخة العامة علىٰ عشيرة شمر في حياة ابيه، لأنه كان يغزو العشائر الأخرى وينجح في غزواته، ثم يوزع ما يغنمه في بيوت شمر.(١)

لاتنكر أن نصيب الشيخ من الغنائم أكبر من نصيب غيره من افراد العشيرة الذين يساهمون معه في الغزوات، وذلك بحكم رئاسته لهم. ولهذا تكون أمواله، التي هي في الغالب مؤلفة من الابل والغنم، أكثر من أموال الآخرين. إنما هو لا يستطيع أن يكون مستغلاً لعشيرته أو مستبداً بأمرهم. فهو يعلم ان رئاسته للعشيرة طوعية وليست قهرية ـ أي أنها مستمدة من طاعة افراد العشيرة له واحترامهم لأمره. فاذا قسا عليهم أو استغلهم كرهوه وانفضوا من حوله، ثم التفوا حول أحد منافسيه من اخوته أو أبناء عمه فجعلوه رئيساً لهم بدلاً عنه. يقول عبدالجبار الراوي في ذلك ما نصه:

«والشيخ هو المطاع في العشيرة في كل الأمور، واليه يرجع افرادها في كل ما يهمهم، وهو الذي يامر بالرحيل والنزول، وهو الذي يامر بالعداوة والحرب...

وهو الذي يامر بالصلح وتنفيذ الأحكام وأخذ المغنم واعطاء المغرم. ومع هذا فالشيخ مجبر علىٰ استشارة اصحاب الرأي في العشيرة والأخذ بآرائهم وإلاّ نبذوه وتفرقوا عنه وخذلوه...».(٢)

ان بعض الشيوخ الكبار قد تساعدهم الظروف فيقتنون عدداً كبيراً من العبيد،

---

(١) – عبدالجبار الراوي، «البادية»، الطبعة الثالثة، ص٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(٢) – المصدر السابق، ص٢٦٧.

ويكون لهم رعاة كثيرون يرعون ابلهم وأغنامهم، كما يكون لهم أعوان من المقاتلين الاشداء الذين يدعمون مكانتهم ونفوذهم في العشيرة، ولكنهم بالرغم من ذلك لايستطيعون أن ينغمسوا في الترف أو يتطرفوا في الاستبداد على نحو ما يفعل السادة الاقطاعيون.

يجب أن لاننسى أنهم لايملكون قلاعاً ضخمة كسادة الاقطاع، كما أن أموالهم معرضة دائماً للغزو والنهب من قبل العشائر الأخرى. وهم إذن محتاجون الى معاونة عشيرتهم لهم في رد عدوان الغزاة، فاذا تعالوا على العشيرة واستبدوا بأمرها فسوف يأتيهم يوم يفقدون فيه أموالهم كما يفقدون رئاستهم.

حول العشائرية الريفية:

تتميز العشائر الريفية عن البدوية بكونها قد استقرت في الارض وأحترفت الزراعة. والسؤال الذي يواجهنا هنا: هل أن استقرار تلك العشائر في الارض أدى الى ظهور نظام الاقطاع فيها؟

لكي نجيب على هذا السؤال يجب أن نفهم قبل كل شيء أن الأراضي الزراعية لم تكن في العهد التركي محددة أو ممسوحة أو مسجلة في سجلات مضبوطة إلاّ في النادر. ولهذا فإن التصرف في الأراضي من قبل العشائر كان في معظم الأحيان خاضعاً لما نسميه بـ«الاستحواذ المسلّح»، ومعناه أن العشيرة تستحوذ على الارض بقوة سلاحها، وهي تظل مالكة للأرض مادامت قادرة على الدفاع عنها بسلاحها. فاذا ضعفت العشيرة جاز لعشيرة أخرى اقوى منها أن تطردها من الارض وتستحوذ عليها.

ان هذا هو الذي جعل المعارك العشائرية في العهد التركي مستمرة لايخمد لها أوار. فلم يكن هناك مرجع قانوني لحسم ما يمكن أن ينشأ من نزاع حول الأراضي بين العشائر، ولهذا فإن العشائر وجدت نفسها مضطرة الى نيل حقوقها بحد سيفها.

وقد كانت الحكومة من جانبها لاتبالي بذلك، أو لعلها كانت تشجع النزاع بين العشائر لكي يضعفوا جميعاً فلا يتحدوا ضدها.

ان هذا الوضع الاجتماعي من شأنه أن يجعل الشيخ الريفي قريب الشبه بالشيخ البدوي من حيث علاقته بأفراد عشيرته. فهو يعلم انه قد حصل علىٰ الارض بقوة عشيرته، وهو مضطر إذن الى مداراة العشيرة والنظر في مصالحها، وإذا اظهرت عليه بوادر الاستغلال والاستبداد نفرت منه عشيرته والتفت حول أحد منافسيه من اخوته أو بني عمه.

يمكن القول بوجه عام ان العلاقة بين الشيخ وافراد عشيرته في العهد التركي كانت تفاعلية اكثر منها اقطاعية او استغلالية. فالشيخ يؤثر في عشيرته ويتأثر بها في آن واحد. انه كان أكثر افراد عشيرته مالاً واقواهم نفوذاً. وهو يستطيع أن يتحكم في أمورها ضمن حد محدود، ولكنه إذا تجاوز في تحكمه ذلك الحد بدأ التذمّر يظهر بين افراد عشيرته وصاروا يتقاعسون عن نصرته ويقللون من ارتياد مضيفه...

من الجدير بالذكر ان شيوخ الريف لم يكونوا كلهم علىٰ وتيرة واحدة من حيث علاقتهم بافراد عشائرهم. ففي بعض المناطق ـ كمنطقة العمارة مثلاً ـ كانت سيطرة الحكومة قوية نسبياً، وكانت الأراضي تُعطى الى الشيوخ بالالتزام عن طريق المزايدة. وقد إعتاد الشيوخ هناك أن يكون لهم جلاوزة خاصين بهم يسمونهم «الحوشية»، وهم يفرضون أمرهم علىٰ افراد العشيرة بقوة هؤلاء الجلاوزة. ولهذا نجد بعض معالم الترف والاستغلال ظاهرة علىٰ شيوخ هذه المنطقة. وهنا يكمن السبب الذي جعل هذه المنطقة فيما بعد اكبر منبع للهجرة الى المدن، حيث خرج منها مئات الألوف من المهاجرين الذين نطلق عليهم اسم «الشروق» والذين تهافتوا علىٰ بغداد وغيرها من المدن الكبيرة. حين نقارن هذه المنطقة بمنطقة الفرات الأوسط التي تقع الى الغرب منها نجد بينهما فرقاً كبيراً. فالفرات الاوسط مرّت به في القرن التاسع عشر فترة كان الحكم

فيها للقوه العشائرية، وذلك علىٰ اثر الجفاف الذي حل بنهر الحلة. فاضطرت العشائر القاطنة علىٰ ضفافه الى البحث عن اراضي أخرى. وبذا بدأ صراع شديد علىٰ الاراضي وكثرت المعارك والمنازعات بين العشائر كما استفحلت الثارات والاحقاد. وكان هذا من العوامل المساعدة علىٰ قيام ثورة العشرين في هذه المنطقة كما ذكرناه في حينه.[١]

قد يواجهنا هنا سؤال: إذا كانت ثورة العشرين هي ثورة الفلاحين علىٰ مظالم الاقطاع كما قال كوتلوف، فلماذا قامت الثورة في منطقة الفرات الأوسط ولم تقع في منطقة دجلة مع العلم ان مظالم الاقطاع كانت أشد ظهوراً في دجلة منها في الفرات الأوسط؟

يجيب كوتلوف علىٰ هذا السؤال حيث يقول: «شاركت قبائل الفرات الأوسط بقسط وافر في الحركة التحررية في البلاد لما لهذه القبائل من خبرة غنية في النضال ضد محاولات الاقطاعيين والسلطات التركية من أجل الاستحواذ علىٰ اراضي الفلاحين. واتجهت تلك القبائل الى توحيد منظماتها العسكرية التي استُخدمت زمناً طويلاً في مصلحة رؤساء القبائل إلاّ أنها اصبحت مع ذلك مظهراً للتعبير عن مصالح افراد القبائل بشكل أو بآخر. ومما عمّق في الاتجاهات الثورية لقبائل هذه المنطقة محاولة السياسة البريطانية اخضاع تلك القبائل وتوطيد الاستغلال الاقطاعي والاستبداد في فرض الضرائب».[٢]

لا أكتم القاري، اني لم استطع أن افهم جواب كوتلوف أو اقتنع به. وارجو أن يكون العيب في ذهني وليس في جواب كوتلوف!

---

(١) – انظر القسم الأوّل من هذا الجزء، الفصل التاسع.

(٢) – كوتلوف، «المصدر السابق»، ص ٨٣.

الملحق الثالث

مناقشة الماركسية

ان مناقشة كوتلوف الآنفة الذكر لابد أن تجرنا الى مناقشة الماركسية بوجه عام فكوتلوف يمكن اعتباره نموذجاً للكثيرين من الكتاب الماركسيين، فهو في دراسته لثورة العشرين إنما كان يتبع أسس النظرية الماركسية حسب وجهة نظره.

وقد رأينا معظم الماركسيين في العراق يسيرون على طريقته في تفسير ظواهر المجتمع وأحداث التاريخ، وطالما حصل الجدال بيني وبينهم في هذا الشأن. واني أود أن انتهز هذه المناسبة لكي اناقش بعض المواضيع من الماركسية التي كانت موضع خلاف بيني وبينهم وفي ظني ان المناقشة في مثل هذه المواضيع أجدى للقاريء من تلك المواضيع العتيقة التي أكل الدهر عليها وشرب، كقضايا المتنبي وأبي تمام وأمثالها التي تدور في حلقة مفرغة فيخرج القاريء منها مثلما دخل فيها دون أن يجني منها ما يفيده في فهم دنياه شيئاً.

الماركسية في رأيي:

ان النظرية الماركسية نظرية عظيمة بلاشك، وقد أحدثت في العالم تغيراً هائلاً يندر أن نجد له نظيراً في تاريخ البشر، ولكنها مع ذلك لايمكن أن تكون كاملة خالية من العيوب تماماً. فهي مادامت من صنع البشر فلابد أن تكون معرضة للخطأ والنقص على وجه من الوجوه.

يجب أن لاننسى ان ماركس لم يأت بنظريته وحياً من السماء، بل هو استمدها من

المعلومات التي توفرت لديه في حياته، ولهذا رأيناه يغيّر بعض الجوانب من نظريته مرة بعد مرة عند عثوره على معلومات جديدة. ومن الممكن القول انه لو امتد به العمر فترة أطول، وعثر على معلومات أخرى، لربما كانت نظريته بغير الصورة التي تركها عند موته.

يعتقد بعض الماركسيين ـ ولاسيما المتعصبين منهم ـ ان النظرية الماركسية في أُسسها كاملة خالدة، وهم ينسبون إليها صفة «العلمية» ويعتقدون أنها مادامت كذلك فلابد أن تكون صحيحة تماماً لاعيب فيها ولايجوز أن يشك فيها أحد.

انهم ينسون أن العلم في تغير مستمر، وأنه لايزال في بداية الطريق، ولاندري ماذا يخبيء المستقبل لنا من أعاجيب، وربما صار الذي نعده اليوم صحيحاً غير صحيح غداً.

الواقع أني أجد في الماركسية جوانب مشرقة تجذبني اليها، وقد أتيح لي أن أزور بعض البلاد الاشتراكية، كروسيا والصين وجيكوسلوفاكيا وبولونيا، فلم أملك نفسي من الاعجاب بما شاهدت فيها من مزايا قلّما نجد لها مثيلاً في البلاد الرأسمالية. وأعترف اني عندما درست مؤخراً بعض معالم الاشتراكية في بولونيا هتفت من أعماق نفسي قائلاً: «هنا يكمن مستقبل العالم!». فاني لم أجد فيها تلك المناظر البشعة التي توجد عادة في البلاد الرأسمالية، فليس فيها جموع العاطلين الذين لايجدون عملاً، أو آلاف الفقراء الذين يسكنون في بيوت لاتليق بالبشر، أو حشود الواقفين الصابرين الذين ينتظرون وسائل النقل تحت وطأة الحر والبرد، أو المرضى الذين لايجدون من يداويهم، أو الاطفال الذين يعملون في الاعمال المضنية بدلاً من دخول المدارس، الخ...

ان الهدف الرئيسي للماركسية هو ازالة استغلال الانسان لأخيه الإنسان، وتوجيه الانتاج العام نحو مصلحة السواد الأعظم من المواطنين. واشهد ان الماركسية سارت في الطريق الى هذا الهدف خطوات واسعة. ولكن مشكلة الماركسية أنها لم تكتف

بالسعي نحو هذا الهدف الاعظم، بل رأيناها تتدخل في أمور هي في غنىً عنها، حيث أنكرت وجود الله، واستهانت بالأديان، وحاولت تفسير التاريخ والمجتمع وطبيعة الانسان حسب خطة ثابتة لايجوز الخروج عليها. وبذلك خلقت الماركسية لها اعداءاً كان من الممكن أن يكونوا أصدقاء لها.

عاش ماركس في جو فكري كان الاتجاه السائد فيه يميل الى تفسير جميع ما في الكون بنظرية واحدة حيث يشمل بها طبيعة الكون والانسان والتاريخ والمجتمع معاً. وقد جرى على ذلك الفيلسوف الكبير هيغل، ثم جاء ماركس من بعده فسار على سنته. ومن الجدير بالذكر أن ماركس كان في بداية أمره هيغلياً، وقد استمد أخيراً من هيغل نظريته في الديالكتيك غير أنه جرّدها من نزعتها المثالية وجعلها مادية.

قد يصح القول أن «الشمولية» في نظرية ماركس كانت من عناصر القوة لها في زمانها، إذ هي كانت تمثل التيار السائد آنذاك. ولو لم تكن نظرية ماركس شمولية لما كُتب لها النجاح والانتشار تجاه النظريات المنافسة لها. ولكن هذه الشمولية أصبحت فيما بعد من عناصر الضعف فيها. فإن اتباع الماركسية ـ وخاصة المتعصبين منهم ـ جعلوها عقيدة كالعقائد الدينية، واعتبروها مفتاحاً يفسرون بها كل شيء، ولايكادون يرون أحداً يخالفهم في راي حتى يسرعون الى توجيه شتى التهم اليه، كالرجعية والغيبية والبرجوازية والامبريالية وما اشبه، وتلك تشبه تهمة «الكفر» و«الزندقة» لدى المتعصبين من أهل الأديان.

اني بعد مشاهدتي للبلاد الاشتراكية وقراءتي لكتابات الماركسيين توصلت الى نتيجة هي: ان الماركسية في التطبيق تختلف اختلافاً كبيراً عنها في التنظير. فالماركسية في التطبيق تدعو الى الإعجاب حقاً ـ كما ذكرته آنفاً ـ أما الماركسية في التنظير فهي قد تدعو الى التقزز أحياناً لما فيها من نصوصية جامدة وقوالب فكرية تُكرّر مرة بعد مرة الى مالا نهاية له، كأنما المقصود بها هو التلقين والتحفيظ وليس التطلع الى حقائق

جديدة. كثيراً ماساءلت نفسي عن سبب هذا الفرق الكبير بين الماركسية في التطبيق والماركسية في التنظير. ويبدو لي أن قادة البلاد الاشتراكية مشغولون بمعالجة المشاكل العلمية التي تواجههم دائماً، وهم يسعون نحو حل تلك المشاكل بما ينفع الناس بغض النظر عما ورد في الكتب من نصوص جامدة. فانهم لو التزموا بالنصوص لفاتهم القطار، وهم مضطرون الى اتباع طريق التطوير والابداع لكي يتمكنوا من النجاح في خضم المعترك العالمي.

أذكر في هذه المناسبة ما حصل للزعيم الماركسي المعروف لنين، فقد أراد هذا الرجل تحقيق مرحلة الاشتراكية في روسيا عقب ثورة اكتوبر عام ١٩١٧، فعارضه في ذلك الكثير من الماركسيين إذ اعتبروا عمله مخالفاً للنص الماركسي الذي يقول بأن الاشتراكية لايمكن تحقيقها إلاّ في البلاد التي وصلت فيها الرأسمالية أقصى نموها، وقد اتهم هؤلاء لنين بأنه محرّف للماركسية او مارق عنها. فرد عليهم لنين حيث أخرج كتابه المشهور: «مرض الطفولة اليساري في الشيوعية». أنقل فيما يلي نبذة من الكتاب توضح موقف لنين من النصوصية الجامدة، حيث قال:

«قال ماركس وأنجلز ان نظريتنا ليست عقيدة جامدة، بل هي هادية للعمل. ان أعظم غلطة وأعظم جريمة ارتكبها الماركسيون (من الماركة المسجلة) أمثال كارل كاوتسكي، وأوتو باور، ومن في شاكلتهم، هو أن هؤلاء لم يفهموا هذا الأمر ولم يستطيعوا تطبيقه في اللحظات الفاصلة من ثورة البروليتاريا... ولقد دفع الثوريون الروس، من عهد تشير نيسفيسكي، ضحايا لاتحصى جزاء تجاهلهم أو نسيانهم هذه الحقيقة. ينبغي ان نسعى بأي ثمن كان لمنع الشيوعيين اليساريين والثوريين في أوربا الغربية وأمريكا، ممن كرسوا أنفسهم للطبقة العاملة، من أن يدفعوا لاستيعاب هذه الحقيقة مثل الثمن الباهظ الذي دفعه الروس المتأخرون».[1]

---

(١) – لنين «مرض الطفولة اليساري في الشيوعية»، بغداد، ص ٦٠.

من المؤسف أن هذه الصرخة من لنين لم يستفد منها سوى القليل من الماركسيين. فإن الذين كانوا يلتزمون نصوص ماركس وانجلز من قبل جاء بعدهم أناس ساروا على خطتهم غير أنهم أضافوا الى النصوص الاولى نصوصاً جديدة هي التي جاء بها لنين نفسه.

****

يمكن القول ان التنظير الماركسي في وضعه الحالي يحتوي على صنفين من الأخطاء، صنف وقع فيه مؤسسو الماركسية، أي ماركس وانجلز ولنين ومن في مستواهم، فهم بشر كغيرهم من الناس يصيبون ويخطئون. ونحن حين ننقد أخطاءهم لايعني ذلك أننا أعظم منهم تفكيراً. فإن المفكرين العظام قد يتورطون في اخطاء لايمكن اكتشافها إلاّ بمرور الزمن.

اما الصنف الثاني من الاخطاء فهو الذي يقع فيه أتباع الماركسية، إذ هم يخالفون ما جاء به المؤسسون أحياناً بينما هم يحسبون أنهم سائرون في طريقهم. وهذا أمر لاينحصر في أتباع الماركسية وحدهم، بل هو ظاهرة اجتماعية عامة نلاحظها لدى جميع الاتباع في كل زمان ومكان. وقد رأينا أمثلة واضحة عليها لدى المسلمين في عهودهم المتأخرة إذ هم يظنون انهم سائرون على سنة النبي واصحابه بينما هم في حقيقة أمرهم على النقيض منهم في كثير من الأمور.

سأحاول فيما يلي من هذا الملحق وفي الملاحق التالية مناقشة بعض الأخطاء الماركسية من كلا الصنفين حسب تصوري لها، أو بمقدار فهمي لها. ولست أدعي الصواب في ذلك، فربما كان فهمي لتلك الاخطاء مغلوطاً ـ أي ان الخطأ ربما كان في ذهني وليس في النظرية الماركسية. واني ارجو من المتفقهين في الماركسية أن ينوّروني عنها.

حول العامل الاقتصادي:

يُعزى الى ماركس فضل توجيه الفكر البشري لأول مرة في التاريخ الى أهمية العامل الإقتصادي في الحياة الاجتماعية. فقد كان المفكرون قبله لايعيرون هذا العامل الأهمية التي يستحقها، وجاء ماركس أخيراً فوجّه الأنظار إليه بشكل مركّز شديد بحيث جعله المحور الاساسي في المجتمع والمحرك الأول للتاريخ.

ان هذا التركيز من ماركس على أهمية العامل الاقتصادي قد أدى لدى بعض الاتباع الى التطرف فيه ـ كما هو شأن المتطرفين من الأتباع دائماً ـ وقد لاحظ أنجلز بوادر هذا التطرف لدى شبان الماركسيين في زمانه، فأعلن انتقاده له وشجبه. ان أنجلز يعزو قسطاً من مسؤولية هذا التطرف الى نفسه والى رفيقه ماركس، حيث يقول ما نصه:

«ماركس وأنا نحمل جزئياً مسؤولية كون الشبان يعطون الجانب الاقتصادي وزناً أكبر مما يجب. في مواجهتنا لخصومنا كان علينا ان نؤكد المبدأ الأساسي الذي ينكرونه، وفي هذه الحال لم نجد دائماً الوقت والموضع والظرف الذي يتيح لنا اعطاء العوامل الأخرى التي تشترك في الفعل المتبادل مكانها...».

وقد ذكر أنجلز كيف ان العوامل الأخرى لها أهميتها التي لاتنكر في تفسير الأحداث كعامل الحروب والسياسة والدين والأفكار وغيرها، وهو يقول في ذلك: «إذا ما قام أحد بتشويه هذا الموقف بمعنى أنه جعل العامل الاقتصادي العامل المقرر الوحيد، فانه بذلك يحوله الى جملة فارغة مجردة حمقاء...».

ويأتي أنجلز بأمثلة من تاريخ المانيا، كظهور الدولة البروسية، او كيف تشكلت الامارات الصغيرة التي كانت قائمة في المانيا حينذاك، او كيف انقسم الألمان في لهجاتهم تبعاً لمواقع سلاسل الجبال. فهذه أمور لايمكن تفسيرها في رأي أنجلز بالعامل

الاقتصادي وحده. بل لابد أن تكون هناك عوامل أخرى تعمل عملها.[١]

حول تطور المجتمع:

خلاصة رأي ماركس في المجتمع البشري أنه يقوم على اساس مادي اقتصادي، فالبشر حين يعملون في انتاج المواد الضرورية لحياتهم يدخلون في علاقات تنظم انتاجهم، وان مجموع هذه العلاقات يؤلف القاعدة التي يُبنى عليها المجتمع. ويقوم على هذه القاعدة مايسميه ماركس بـ «البناء الفوقي» وهو الذي يتكون من جميع مظاهر التراث الاجتماعي كالعادات والتقاليد والعقائد والقوانين وقواعد الاخلاق والفنون والفلسفة وما اشبه. ان البناء الفوقي يستمد جذوره من القاعدة التي يقوم عليها، وهو يتغير بتغيرها.

وفي رأي ماركس ان التاريخ البشري هو نتاج الصراع بين الطبقات. ويفسر ماركس هذا الصراع بأنه نتيجة التناقض الذي يحصل بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج. فالقوى المنتجة تتألف من البشر الذين يعملون في الانتاج مع أدواتهم، وهذه القوى تسير في سبيل التحسن والتطوّر بمرور الزمن. ولكن علاقات الانتاج لاتستطيع أن تماشي هذا التطور في القوى المنتجة، ومن هنا ينشأ التناقض بينهما حيث يظهر الصراع بين الطبقة المستغَلة (بفتح الغين) والطبقة المستغِلة (بكسر الغين) ـ مرة بعد مرة عبر التاريخ.

ويعتقد ماركس ان المجتمعات البشرية تمر في تاريخها بمراحل أو أنظمة خمسة هي: المشاعية البدائية، الرق، الاقطاع، الرأسمالية، الاشتراكية. فكل مرحلة من هذه المراحل تُعد تقدمية بالنسبة الى المرحلة السابقة لها، وذلك لحصول الانسجام فيها بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج. ولكن هذا الانسجام لايدوم الى الأبد، ولابد أن

(١) ـ الياس مرقص «الماركسية والشرق»، بيروت ١٩٦٨، ص ٥٧ ـ ٥٩.

يتضاءل بمرور الزمن ليحل محله التناقض. وبذا يبدأ الصراع وتنشب الثورات التي تؤدي في نهاية المطاف الى قيام مرحلة جديدة».(١)

سُميت هذه النظرية بـ«المادية التاريخية»، وهي كانت في الواقع أعظم نظرية اجتماعية في حينها. وقد لقيت رواجاً كبيراً في أوساط المثقفين التقدميين في أوربا، واعتبرها أنصارها صنواً لنظرية داروين ـ تلك لعلم الاحياء، وهذا لعلم الاجتماع.

مشكلة هذه النظرية تكمن في اتباعها وليست فيها. فقد أراد لها ماركس أن تكون مرشدة للعمل، ولكن اتباعها ـ أو بعضهم على الأقل ـ جعلوها عقيدة ثابتة لاتقبل الشك أو التغيير. لقد اصبحت فرضية المراحل الخمس التي جاء بها ماركس بمثابة «المسطرة» يلجأ إليها الاتباع كلما أرادوا دراسة مجتمع من المجتمعات أو دراسة تاريخه. فليس عليهم سوى وضع تلك «المسطرة» على المجتمع ليروا اية مرحلة هو فيها. ثم يبدأون بعدئذٍ بالبحث عن القرائن والأدلة التي تؤيدهم في ذلك.

ان هذا هو ما فعله كوتلوف في كتابه عن ثورة العشرين. فهو لكي يدرس تلك الثورة وجد من الضروري ان يضع «المسطرة» على المجتمع العراقي في زمن نشوب الثورة. وقد توصل كوتلوف الى نتيجة هي أن المجتمع العراقي كان حينذاك يعيش في مرحلة الاقطاع. ولهذا كانت ثورة العشرين في رأيه نتاج الصراع بين طبقة الجماهير الكادحة كالبدو والفلاحين والحرفيين من جهة، وطبقة الاسياد المستغلين لهم من الجهة الاخرى.

نحن لانتكر أهمية الصراع الطبقي في تفسير أحداث التاريخ، ولكننا مع ذلك لايجوز أن نحشره في كل حادثة ونفسر به كل شيء. فإن المجتمعات تختلف بعضها عن بعض في نوع الصراع القائم فيها، كما أن الأحداث التي تقع فيها تختلف واحدة عن

---

(١) ـ كيلله وكوفالسون «المادية التاريخية»، ترجمة الياس شاهين، موسكو ١٩٦٩، ص ٢٨٤.

الأخرى في طبيعة الدافع الرئيسي لها. خذ ثورة العشرين مثلاً، فهي إذا كانت نتاج الصراع الطبقي على نحو ماقال به كوتلوف فمعنى ذلك ان الصراع يجب أن يكون بين الشيوخ وافراد عشائرهم باعتبار ان الأفراد كانوا الاقنان الكادحين، وان الشيوخ كانوا المستغلين لهم. هذا ولكن الواقع الذي شهدناه كان على النقيض من ذلك.

حين ندرس العشائر التي شاركت في ثورة العشرين نرى كل واحدة منها إنما شاركت بالثورة ككتلة واحدة ـ أي بشيخها وافرادها معاً. ولم نجد في اية منطقة من مناطق الثورة انفصال الشيوخ عن افراد عشائرهم إلاّ نادراً.

كان هناك عدد كبير من الشيوخ وقفوا الى جانب السلطة في اثناء الثورة، أو هم لم يشاركوا في الثورة على الاقل، وقد تابعتهم عشائرهم في ذلك. فلم نسمع أن عشيرة في العراق ثارت بمعزل عن شيخها، أو ان شيخاً عارض عشيرته في الاشتراك في الثورة.

قرأت منذ سنتين مقالاً لأحد الماركسيين العراقيين نشره في جريدة «طريق الشعب» أنحى فيه باللوم على وزارة التربية العراقية لأن كتب التاريخ في مدارسنا متخلفة في رأيه لاتساعد على تطوير التفكير الصحيح لدى التلاميذ. ففي نظر هذا الكاتب أن كتب التاريخ في مدارسنا يجب أن تدرس تاريخ العرب في ضوء المراحل الخمس، وذكر ثلاثة منها باعتبارها المراحل التي مر بها المجتمع العربي في تاريخه، وهي: المشاعية البدائية والرق والاقطاع. وهو يقول ان القبائل البدوية التي عاشت قبل الاسلام كانت تمثل بقايا المشاعية البدائية. أما الدويلات اليمانية كالمعينية والسبأية فكانت تعيش في مرحلة الرق. انه لم يذكر عن ظهور الاسلام شيئاً، والمظنون أنه يعتبر حركة الاسلام من معالم مرحلة الرق. ولكنه حين يأتي الى

العهدين الأموي والعباسي يقول انهما يمثلان مرحلة الاقطاع.(١)

ان هذا في رأيي تعسف في تفسير التاريخ لا مبرر له. وإذا كان هذا النوع من التفسير هو الذي يعوّد التلاميذ على التفكير الصحيح في رأيه. فإني أرى العكس هو الصحيح. والغريب في هذا الكاتب وأمثاله أنهم يعتقدون أن القبائل البدوية في الجاهلية كانت تعيش في مرحلة المشاعية البدائية، أما القبائل البدوية التي كانت في العراق في القرن التاسع عشر وقبله فكانت تعيش في مرحلة الاقطاع، هذا مع العلم ان الفرق لم يكن كبيراً بين هذه القبائل وتلك.

حول طبيعة الانسان:

اختلف المفكرون منذ عهد الاغريق حول الصفة الرئيسية التي تميز الانسان عن الحيوان. فنهم من اعتبروا موهبة التفكير هي الصفة المميزة للانسان، ولهذا سموه بـ«الحيوان العاقل». ومنهم من اعتبروا مقدرته على النطق، ولهذا سموه بـ«الحيوان الناطق». ومنهم من اعتبروا طبيعته الاجتماعية، ولهذا سموه بـ«الحيوان الاجتماعي». وجاء الماركسيون أخيراً فاعتبروا الصفة المميزة للانسان هي مقدرته على صنع الأدوات، ولهذا سموه بـ«الحيوان الصانع» أو على حد تعبير بليخانوف: «حيوان يصنع أدوات».(٢)

ألف أنجلز في هذا الموضوع كتاباً صغيراً عنوانه: «دور العمل في تحول القرد الى انسان». وفحوى رأيه أن تطور الانسان من القرد استغرق زمناً طويلاً جداً، وكانت بداية هذا التطور قد حصلت في اليد إذ أن الانسان الاول الذي كان شبيهاً بالقرد، او هو القرد ذاته، قد استغنى عن الاستعانة بيده في المشي، وصار يخصص اليد

(١) - جريدة «طريق الشعب»، في عددها الصادر في ٣ شباط ١٩٧٦.

(٢) - بليخانوف «فلسفة التاريخ»، ترجمة الياس مرقص، دمشق، ص٤٩.

بالتدريج للعمل والانتاج، وعندما صنع الانسان أول سكين من الحجر تمت بذلك الخطوة الحاسمة في تطوره، حيث اصبحت يده متحررة وصار بوسعها اكتساب المهارات المتزايدة والمرونة المتنامية شيئاً فشيئاً.

وفي رأي انجلز ان هذه المقدرة الجديدة في الانسان الأول ـ أي مقدرة العمل والانتاج ـ أسهمت بالضرورة في تمتين الصلات بين أعضاء المجتمع، وذلك بأكثارها حالات المساعدة المتبادلة وبتوضيحها ادراك فائدة التعاون لكل فرد. ومنذ ذلك الحين اصبح افراد المجتمع في حاجة لأن يقول أحدهم للآخر شيئاً ما، فخلقت الحاجة عضوها، وبذا تحول الفم الى عضو للكلام، ولما تطور عضو الكلام بالإضافة الى عضو العمل كان ذلك حافزاً اساسياً لتطور الدماغ، وبذا تحول دماغ القرد شيئاً فشيئاً الى دماغ الانسان.[١]

خلاصة فرضية أنجلز في تطور الانسان هي أنه كان في بداية أمره قرداً، او شبيهاً بالقرد، ثم بدأت مقدرته اليدوية في صنع الادوات بالظهور أولاً، فأدى ذلك به الى التعاون الاجتماعي، وأدى التعاون بدوره الى نمو مقدرة النطق في الانسان، وادى ذلك أخيراً الى نمو مقدرة التفكير فيه.

ان الانتقاد الذي يُوجّه الى فرضية أنجلز هذه هو أنها نتيجة التأمل المجرد، فليس هناك قرائن أو أدلة علمية تدل على ان الانسان الأول مرّ في تطوره بمثل تلك المراحل التي ذكرها أنجلز. ومن الممكن تشبيه فرضية أنجلز بالنكتة التي تروى عن الملا نصرالدين، فهو قد وقف في مكان ما وأعلن للناس أنه يقف في منتصف الارض، وتحداهم أنهم إذا لم يصدقوا قوله فليذرعوا الأرض. وإنه كان موقناً أن الناس عاجزون عن ذرع الارض!

(١) - أنجلس «دور العمل في تحول القرد الى انسان»، موسكو، ص٣ ـ ٩.

الواقع ان الباحثين قد عثروا على كثير من الادوات البدائية التي صنعها الانسان في عصوره الاولى، والمتاحف مليئة بهذه الادوات، ولكنهم في الوقت نفسه لايعلمون هل أن مقدرة الانسان على صنع الادوات سبقت مقدراته الاخرى أم كانت مترادفة معها. تلك من القضايا التي لايمكن البت فيها، وهي اقرب الى طبيعة التخمين منها الى التثبت العلمي.

وهناك انتقاد آخر يُوجه الى أنجلز هو أنه عندما جاء بفرضيته لم يكن قد درس نظرية داروين دراسة وافية، وهي النظرية التي اصبحت الآن مقبولة في مختلف جامعات العالم ـ الرأسمالية منها والاشتراكية. فالمعروف عن داروين أنه لم يقل بأن الانسان قد تطور عن القرد، بل قال بأن الانسان والقرد تطورا عن جد واحد. وكذلك لم يقل داروين بأن العضو في الحيوان أو الانسان يتطور من جراء الاستعمال، بل قال ان التطور هو نتيجة ما سماه بـ«الانتخاب الطبيعي».

حدث لي في السنة الماضية أن دُعيت لالقاء محاضرة عامة حول طبيعة الانسان في أحدى المدن العراقية. وعندما بدأت بالقاء المحاضرة انبرى لي شاب غاضب متحمس، وأخذ يتكلم من غير استئذان منتقداً المحاضرة. فطلب منه المشرف على الاجتماع تأجيل الإنتقاد الى مابعد انتهاء المحاضرة، فلم يوافق واصر على الكلام، واتهم المحاضرة بأنها «تفسد العقول». وكان سبب غضبه أنه وجد في المحاضرة ما يخالف فرضية أنجلز في تحول الانسان من القرد. فهو يعتبر تلك الفرضية صحيحة تمام الصحة، وكل من يخالفها لابد أن يكون ذا غرض سيء.

النمط الآسيوي:

في عام ١٨٥٣ اطلع ماركس على دراسات جديدة حول بعض المجتمعات الشرقية، فلفت نظره أن هذه المجتمعات تعيش في نمط للانتاج يختلف عن أي نمط من الانماط التي تتميز بها المراحل الخمس. وقد اطلق ماركس عليه اسم: «النمط

الآسيوي للانتاج». ان النمط الآسيوي في رأي ماركس هو وسط بين المشاعية البدائية الخالية من الصراع الطبقي ومرحلة الرق التي يكون الصراع فيها شديداً. ويتميز هذا النمط بالخصائص التالية:

أولاً: انه مجتمع قروي يعيش على الزراعة والصناعات اليدوية العائلية في شبه اكتفاء ذاتي.

ثانياً: غياب الملكية الخاصة فيه.

ثالثاً: قلة ظهور التمايز الطبقي فيه وضعف الصراع الطبقي، وبالتالي ضعف التطور الاجتماعي فيه.

رابعاً: وقوعه تحت سيطرة حكومة مركزية قوية مستبدة تملك الارض وتشرف على نظام الري.

ويميز ماركس بين النمط الآسيوي ومرحلة الرق من حيث دور الرقيق فيه. ففي مرحلة الرق يؤلف الرقيق القسم الأكبر من السكان، وهو الذي يقوم بالانتاج في الغالب. أما في النمط الآسيوي فالرقيق يكون في الغالب جزءاً من العائلة وليس له أهمية كبيرة في الانتاج الزراعي أو المهني.

ومن الجدير بالذكر أن مقولة النمط الآسيوي التي جاء بها ماركس اختفت من الكتابات الماركسية في عهد ستالين، ولم يعد يذكرها أحد. واتجه تفكير الماركسيين في ذلك العهد الى التزام الخط الواحد ذي المراحل الخمس في تفسير التاريخ.

كان المفكر الماركسي المعروف سيغال قد اصدر كتاباً صغيراً بعنوان «تطور المجتمع منذ بدء التاريخ» عمد فيه الى تفسير تاريخ المجتمع البشري كله على أساس الخط الواحد. ثم اصدر ستالين بعدئذٍ كتاباً نحا فيه منحى سيغال، وكان بعنوان «المادية الديالكتيكية والتاريخية». وقد صار هذان الكتابان لدى الماركسيين بمثابة «الكتاب المقدس»، حيث اعتبروه الدستور الخالد الذي لايجوز الشك فيه.

وقد صدر في البلاد العربية في تلك الفترة كتاب لماركسي عربي اسمه «بندلي جوزي» التزم فيه الخط الواحد كذلك، حيث قال: «.. ان أمم الشرق قطعت في حياتها الطويلة وستقطع ذات المراحل أو الادوار الاجتماعية التي قطعتها الامم الغربية...».[١]

ظلت فرضية الخط الواحد مسيطرة على أذهان الماركسيين طيلة عهد ستالين. ولما زال ذلك العهد بدأت مقولة النمط الآسيوي تظهر في الكتابات الماركسية من جديد، وأخذ بعض الماركسيين يدرسون تاريخ البلاد الشرقية في ضوئها وخرجوا من ذلك بنتائج تختلف عما كانوا يستنتجونه من قبل.

يبدو لي على أي حال ان الماركسيين في دراستهم للمجتمعات الشرقية أصبحوا الآن فريقين: فريق من طراز كوتلوف مازال يلتزم الخط الواحد التزاماً حرفيا، وفريق يحاول دراسة تلك المجتمعات في ضوء ماجاء به ماركس حول النمط الآسيوي.

كنت أتوقع ان يظهر في الماركسيين فريق ثالث يحاول دراسة المجتمعات المختلفة حسبما تملي عليه الوقائع المحلية بغض النظر عما جاء به ماركس أو غيره. ولكن هذا الفريق لم يظهر بعد ـ مع الأسف الشديد! صدق ماركس حين قال: «إن ماركس ليس ماركسياً»!

بين الاشتراكية والشيوعية:

يقول الماركسيون: ان مرحلة الاشتراكية التي ستعقب مرحلة الرأسمالية لن تدوم الى الأبد، بل لابد أن تعقبها عاجلاً أو آجلاً مرحلة أكثر تقدمية منها هي مرحلة الشيوعية.

أوضح لنين في كتابه «الدولة والثورة» الفروق بين الاشتراكية والشيوعية، وكيف

---

(١) ـ بندلي جوزي «من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام»، بيروت، ص ١٥.

تتحول الاولى الى الثانية. ففي رأيه أن الاشتراكية تمثل مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية، ففيها تتحول وسائل الانتاج من الملكية الخاصه الى الملكية العامة حيث تصبح الدولة هي المالكة بالنيابة عن العمال، وبذلك يزول الاستغلال الطبقي الذي كان سائداً في النظام الرأسمالي. هذا ولكن المساواة التامة لايمكن تحقيقها في مرحلة الاشتراكية، لأن التفاوت يبقى بين الأفراد حيث تُعطى الاجور حسب كفاءة الفرد في عمله ومقدرته في الانتاج، فكلما كان الفرد اكثر كفاءة وانتاجاً ازداد بذلك اجره.

ان المساواة التامة لاتتوفر إلاّ في مرحلة الشيوعية، حيث تُعطى الأجور فيها حسب الحاجة، وليس حسب الكفاءة والمقدرة، وذلك طبقاً للمبدأ الشيوعي المعروف: «من كل حسب مقدرته، ولكل حسب حاجته». وبذا يزول الطمع والتكالب بين الناس، وتسود الطمأنينة بينهم، فكل فرد منهم سيكون واثقاً أنه سينال من المجتمع كل مايحتاج إليه من مسكن ومطعم وملبس ومركب وهو إذن ليس في حاجة الى اختزان الأموال أو التكالب على السلع كما هو الحال في النظام الرأسمالي.

ان الدولة ستزول كذلك في مرحلة الشيوعية. فالدولة حسب النظرية الماركسية هي اداة القمع الطبقي، فهي كانت في النظام الرأسمالي اداة في ايدي البرجوازيين لقمع العمال، وعندما تاتي الاشتراكية تصبح الدولة اداة في ايدي العمال لقمع البرجوازيين. ان الطبقة البرجوازية يجب أن تُسحق وتُفنىٰ، وتلك هي مهمة الدولة في مرحلة الاشتراكية، وبفناء هذه الطبقة لن يبقى في المجتمع صراع طبقي، ولاتبقىٰ فيه حاجة للقمع، وهذا هو ما يحصل في مرحلة الشيوعية. ان الناس في مرحلة الشيوعية سيكونون اخواناً بعضهم لبعض، وسوف يتعودون علىٰ احترام القواعد الاجتماعية من غير حاجة الى ردع أو عقوبة. وتختفي الجرائم، او تتضاءل الى الدرجة القصوى. ذلك لأن الجرائم هي في الغالب نتيجة الفقر والحرمان والاستغلال الطبقي، فاذا اختفت هذه

الأمور اختفت الجرائم معها.

ان المجتمع في مرحلة الشيوعية سيكون مؤلفاً كله من العمال، ولن يبق فيه من يستغل جهود الآخرين لنفسه، وبذا يصبح الانتاج كله للعمال، وعند هذا سيبذل العامل أقصى طاقاته لزيادة الانتاج، فيرتفع بذلك مستوى المعيشة للجميع، ويتوفر لدى الناس وقت فراغ كافي للتمتع بالمسرات الثقافية والمادية. وبذا يتوقف الديالكتيك عن عمله بين البشر، ويتحول الى مرتبة أعلى، حيث يكون الصراع بين البشر والطبيعة بعدما كان بين البشر أنفسهم.

يقول المفكر الماركسي المعروف شارل رابورا حول مرحلة الشيوعية ما نصه:

«إنما الشيوعية بالغائها السبب الاصلي للنضال والخصومات ـ أعني الملكية الاحتكارية ـ سوف تبني مجتمعاً جديداً مؤسساً على مبادىء التعاضد والمبادلة الاقتصادية المعقولة، سوف تمحو كل تبذير وكل عمل غير منتج، سوف تهدم الخلافات على المصالح، وتخفف السلطة الى اقل مايمكن بتشغيلها لا لفائدة طبقة واحدة بل في سبيل فائدة المجتمع كله... فالشيوعية إذن مرغوبة من كل وجه. وهي إذن ممكنة التحقيق لأنها تتعلق بمصلحة الكل، بالذوق السليم، وبالرغبة المشتركة في الرفاه لمصلحة الطبقة المنتجة التي تشكل الأكثرية الكبرى في البلاد... ولكن الشيوعية ليست مرغوبة وممكنة فحسب، بل أنها ضرورة تأريخية، هي النهاية اللازمة لكل تحول، اقتصادياً كان أو سياسياً، فكرياً كان أو اخلاقياً».[1]

تلك هي خلاصة رأي الماركسيين في مرحلة الشيوعية التي تأتي في آخر الزمان. وهو رأي ـ فيما أرى ـ أقرب الى الخيال الطوبائي منه الى التفكير العلمي. وقد يصح تشبيه الماركسيين في ذلك بالعاشق الولهان الذي يتصور أنه سينال السعادة المطلقة

---

(١) ـ شارل رابورا «ماهي الشيوعية»، بغداد ١٩٥٩، ص ١٤ ـ ١٥.

عندما يتزوج حبيبته، حتى إذا تزوجها أدرك أن السعادة التي تصورها بعيدة عنه وان حبيبته ليست بالملاك الذي بنى عليه الآمال.

ان من الصعب علينا ان تتصور البشر يتركون طبيعتهم في التنافس والتحاسد والطمع حالما يتم اشباع حاجاتهم المادية أو الثقافية. لقد جرّبنا البشر خلال آلاف السنين فلم نرهم قد تغيروا في طبيعتهم تغيراً جذرياً على الرغم من تغير ظروفهم أو مراحلهم الاجتماعية.

يقول الماركسيون ان الاستغلال الطبقي هو الذي افسد طبيعة الانسان وجعله حسوداً طماعاً متكالباً على الدنيا. ولكننا يجب أن لا ننسى في هذا الصدد ان الاستغلال الطبقي حديث النشأة في تاريخ البشر، فهو قد ظهر مع ظهور المدنية ـ أي قبل ستة آلاف سنة تقريباً. ونحن نعلم أن البشر عاشوا قبل ذلك آلاف السنين وهم في مرحلة المشاعية البدائية ـ على حد تعبير الماركسيين ـ وهي المرحلة التي تخلو من الطبقات والاستغلال الطبقي، ولكنهم كانوا مع ذلك لايختلفون عن المتمدنين إلاّ في المظاهر الشكلية. أما في أعماق طبيعتهم فهم متشابهون. وخير دليل على ذلك مانراه الآن في الاقوام البدائيه والقبائل البدوية التي مازالت تعيش في عصرنا، فإن الفرد فيها ربما كان اكثر تحاسداً وتكالباً من الفرد المتمدن.

ان من الفروق الرئيسية التي تميز الانسان عن الحيوان هو وجود الشعور بـ«الأنا» فيه، وهو الشعور الذي جعل الانسان حيواناً اجتماعياً. فالانسان يسعى دائماً نحو ارتفاع «الأنا» في نظر مجتمعه، وتراه لذلك يخدم مجتمعه لكي ينال منه التقدير والاعجاب والسمعة والجاه. فاذا وفرنا للانسان جميع حاجاته المادية والثقافية فانه لايكتفي بذلك. انه في دأب متواصل يريد التفوق على اقرانه.

وليس من الهيّن عليه ان يرى قريناً له يرتفع أكثر منه بينما هو باقٍ في مكانه الأول.

ان البشر مختلفون من حيث مواهبهم الطبيعية، ولابد أن يكون بينهم الناجح والفاشل في مختلف الامور. وليس في مقدور أي نظام اجتماعي أن يجعل الناس كلهم ناجحين متفوقين على درجة واحدة. وإذا حصل مثل هذا صار المجتمع اشبه بمجتمع النحل والنمل منه بمجتمع البشر.

ان المجتمع البشري في حاجة الى عمال مناجم كمثل ماهو في حاجة الى عباقرة ومخترعين ومدراء بارعين. وكيف يهون على عامل المنجم أن يرى قريناً له كان يدرس معه في مدرسة واحدة ثم وصل الى أعلى المراتب، بينما هو يكدح في الظلام تحت الأرض. يقول الماركسيون ان ذلك سيتم في مرحلة الشيوعية حيث يتعود الانسان منذ طفولته على القيام بالعمل الذي يُكلف به بغض النظر عن طبيعة ذلك العمل أو مشقته. والى القاريء نبذة مما كتبه شارل رابورا في هذا الصدد، فهو يقول:

«خصومنا يقولون باننا لسنا رجالاً عمليين، يجعلوننا حالمين واهمين من أرباب الخيال، ويعارضوننا بالطبيعة البشرية. يقول مناقضونا ـ علماء كانوا أم جهلاء ـ أنتم تريدون تغيير المجتمع وتأسيس السعادة والمساواة في الحقوق لجميع الناس ناسين يا مساكين الطبيعة البشرية.

الانسان شرير أناني لايحب إلا ذاته، ومن تقدرون على تغييره!؟ ان مثلكم الأعلى جميل ونواياكم حسنة، لكن جمال العروس كثير على هذا الرجل البشع».[1]

يرد رابورا على هذا الاعتراض بقوله: ان الطبيعة البشرية في تغيّر مستمر، كما أن كل شيء في الحياة والطبيعة يتغير. ويأتي رابورا بموضوع الرق وموضوع السيارة كمثال على ذلك، فقد كان الفلاسفة القدماء، كارسطو وافلاطون يدافعون عن وجود الرق بحجة أنه نابع من الطبيعة البشرية، وكذلك كان الناس منذ عهد قريب يعتقدون

---

(١) ـ المصدر السابق، ص ١٧.

باستحالة تحرك العربات بدون خيل، وها نحن اليوم نرى الرق ملغياً، ونرى السيارات تملأ الدنيا.[١]

نلاحظ هنا ان رابورا يعتقد بأن الطبيعة البشرية يمكن تغيرها علىٰ نحو ما تغير نظام الرق. وفي رأيي أن هناك فرقاً كبيراً بين الأمرين، فالرق من صنع الانسان أما الطبيعة البشرية فهي من صنع قوة اخرى، ولست اظن أن تلك القوة تخضع لمشيئة الانسان.

الشيوعية وزمان المهدي:

يحلو لي في هذه المناسبة أن اقارن بين ما كتبه الماركسيون في وصف مرحلة الشيوعية وما ورد في بعض الكتب الاسلامية عن وصف الحياة الاجتماعية عند ظهور المهدي.

ورد في كتاب «خريدة العجائب» عن النبي أنه قال في وصف أيام المهدي: «.. تذهب البغضاء والشحناء والتحاسد، وتعود الأرض الى هيئتها وبركاتها علىٰ عهد آدم، حتىٰ تُترك القلاص ـ أي الابل الجيدة ـ فلا يسعى إليها أحد، وترعى الغنم مع الذيب، وتلعب الصبيان مع الحيات فلا تضرهم، ويلقي اللّه العدل في الأرض في زمانه حتىٰ لاتقرض فارة جراباً».

و ورد في كتاب «بحار الانوار» عن عليّ بن ابي طالب قوله: «لو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها، وأخرجت الارض نباتها، حتىٰ تمشي المرأة من العراق الى الشام لاتضع قدمها إلاّ علىٰ النبات، وعلىٰ رأسها زنبيلها تمر به خالياً فلا تصل غايتها إلاّ وقد امتلأ من الخضر والثمار». وورد في كتاب «أعيان الشيعة» عن النبي قوله: «.. وتنعم أمتي نعمة لم ينعموا مثلها قط. تؤتي الأرض أكلها ولاتدخر منه شيئاً. والمال

---

(١) ـ المصدر السابق، ص ١٧ ـ ٢٠.

يومئذٍ كدوس، يأتيه الرجل فيقول: يامهدي اعطني. فيقول له: خذ ويحثي له الذهب في ثوبه ما استطاع أن يحمله».(١)

واني لأذكر من أيام طفولتي كيف كان الناس يتحدثون عن ظهور المهدي فيقولون ان النقود يبطل استعمالها آنذاك ويحل محلها الصلوات، فاذا أراد شخص شراء حاجة ساوم عليها بعدد من الصلوات، وهو يستطيع أن يحصل على الحاجة بعد أن يؤدي ثمنها بأن يصلي على محمد عدداً من المرات حسبما اتفق مع البائع. والبائع يكتفي بذلك لأنه بدوره يستطيع أن يشتري حاجاته بالصلوات كذلك.

ليس لنا أن ننتقد المسلمين على عقيدتهم هذه، فهم يعتقدون بأن مايجري في أيام المهدي إنما يتم بقدرة الله وان الله قادر على كل شيء، ومعنى ذلك ان الله قادر أن يغير طبيعة الانسان متى شاء. أما الماركسيون فهم يختلفون عن المسلمين في هذا الشأن، إذ هم يعتقدون بأن الله غير موجود وان الانسان ابن القرد، ولست ادري كيف يمكن أن يتحول ابن القرد في مرحلة الشيوعية الى انسان من نوع جديد.

---

(١) – محمد صالح البحراني، «حصائل الفكر في أحوال الإمام المنتظر»، بيروت، ص٣٣٨ ـ ٣٣٩.

الملحق الرابع

مناقشة الماركسية (تابع) حول المادية

ان النظرية الماركسية تقوم علىٰ ركنين أساسيين هما: المادّية والديالكتيكية. والمعروف عن ماركس أنه لم يكن له فضل في ابتداع هاتين الفلسفتين، بل كان فضله في التوفيق بينهما، ولذا سمّىٰ نظريته بـ«المادّية الديالكتيكية».

نشأ ماركس في عصر كانت فيه كل من المادّية والديالكتيكية ذات نفوذ ولها أنصارها الكثيرون. وكان بينهما تعارض لأن الديالكتيكية كانت ذات مضمون مثالي غير مادي، ولكن ماركس تمكن من التوفيق بينهما وقال في ذلك كلمته المشهورة: «كانت الديالكتيكية قائمة علىٰ رأسها فأقمتها علىٰ قدميها»، ومعنى ذلك أنها كانت في وضع مقلوب فأعادها الى وضعها الصحيح.

من الجدير بالذكر أن الفلسفة المادّية كانت في ذلك الحين سائدة في أوساط المثقفين التقدميين بوجه عام، وفي أوساط العمال بوجه خاص. ولم يكن في مقدور ماركس أو أي مفكر آخر أن ينشر آراءه في تلك الأوساط ما لم تكن قائمة علىٰ أساس الفلسفة المادّية. يقول لينين في هذا الصدد ما يلي:

«لقد دخل ماركس وأنجلز وديتزجن الى الميدان الفلسفي في عهد كانت تسيطر فيه المادية بين المثقفين المتقدمين عامة، وفي أوساط العمال خاصة. لقد وجّه ماركس وأنجلز إذن، بصورة طبيعية تماماً، انتباهاً متواصلاً ليس الى ترداد ما سبق أن قيل، بل الى التطوير النظري والجدي للمادّية والى تطبيقها علىٰ التاريخ، يعني الى إتمام بناء

الفلسفة المادية حتىٰ الذروة. ولقد كان من الطبيعي أن يقتصروا في مجال نظرية المعرفة علىٰ تصحيح أخطاء فيورباخ، والسخرية من تفاهات المادي دوهرنغ، ونقد أخطاء بوختر، والإشارة الى ما كان ينقص هؤلاء الكتاب الاكثر شعبية والمسموعي الكلمة أكثر من سواهم بين العمال، ألا وهو الجدلية ـ يقصد الدياكتيكية ـ...».[١]

مفهوم المادة:

كان للمادة في أيام ماركس مفهوم يختلف عنه في الوقت الحاضر، فهي كانت في تلك الأيام تعني هذه المادة التي نلمسها بأيدينا أو نحسّ بها بإحدىٰ حواسنا الأخرىٰ. وكان بعض العلماء يعرّفونها بأنها: «كل شيء يشغل حيزاً من الفراغ له وزن». وعرّفها آخرون بأنها: «كل شيء ثقيل قصوري صلد لايُخترق يملأ حيزاً من الفضاء».[٢]

لقد تغير هذا المفهوم تغيّراً جذريّاً علىٰ اثر المكتشفات الذرية التي ظهرت منذ أواخر القرن الماضي، فبعدما كانت المادة مؤلفة من ذرات غاية في الصغر اصبحت الذرات نفسها مؤلفة من الكترونات تدور حول نواة، وكلها مؤلفة من أمواج كهرطيسية ـ أي كهربائية مغناطيسية. وقد وقف العلماء حيارىٰ تجاه لغز تلك الأمواج، فهم لايستطيعون أن يعرفوا ماهية الكهرباء والمغناطيس من جهة، وهم من الجهة الأخرىٰ لايعرفون ماهية الوسط الذي يحدث فيه التموج. انهم ابتدعوا في بداية الأمر مصطلح «الأثير» باعتباره الوسط الذي يحدث فيه التموج الكهرطيسي، ثم تبيّن لهم بعدئذٍ أن «الأثير الذي تخيلوه لاوجود له.

وجاء اينشتاين أخيراً بمفهوم «الزمكان» ليحل محل «الاثير». وظهر أن ماهية

---

(١) ـ لينين «المادية والمذهب التجريبي النقدي»، بيروت ١٩٧١، ص ٢٤٢.

(٢) ـ محمد عبداللطيف مطلب «فلسفة الفيزياء»، بغداد ١٩٧٧، ص ١٨.

«الزمكان» أصعب على الفهم البشري من ماهية الكهرباء والمغناطيس. وقد لخص أحدهم مفهوم المادة في الوقت الحاضر بقوله: «إنها تتألف من شيء آخر تعجز الآن عن تكوين صورة له، ولو أننا نستطيع وضع المعادلات الرياضية لوصف حركته».(١)

ان ماركس وانجلز ماتا قبل ظهور تلك المكتشفات الذرية، فقد مات الأول منهما في عام ١٨٨٣، ومات الثاني في عام ١٨٩٥. ولهذا كان فهمهما للمادة والمادية متماشياً مع المفاهيم التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر. أما لينين فقد عاش ليشهد بداية تلك المكتشفات، ولهذا وجدناه يطور مفهوم المادة والمادية بشكل جعله منسجماً مع التطور العلمي. يقول نارسكي استاذ الفلسفة في جامعة موسكو: ان كل شيء يتغيّر ولهذا لم يكن غريباً ان يطرح لينين أفكاراً جديدة متعارضة مع بعض أفكار أنجلز. فمثلاً المادة عند أنجلز هي موضوع حسّي بينما هي عند لينين مقولة فلسفيّة تعني الواقع المادي خارج الذات...».(٢)

الملاحظ ان بعض الماركسيين مازالوا يعيشون في نفس الجو الفكري الذي كان سائداً في القرن الماضي، فهم لم يعرفوا التطور الذي أحدثه لينين في مفهوم المادية، أو لعلهم عرفوه ولم يفهموه. ولهذا تراهم يسرعون الى استنكار ومحاربة أي موضوع علمي يحسون أنه مخالف لمفهوم المادية القديم، حيث يوجهون إليه تهمة «الميتافيزيقية» ـ أي الغيبية أو اللامادية. والغريب أنهم قد يضطرون أحياناً الى الاعتراف بصحة ما كانوا قد حاربوه من قبل.

عندما ظهرت نظريّة النسبيّة لأينشتاين حاربها بعض الماركسيين والصقوا بها تهمة المثاليّة والميتافيزيقيّة، وكذلك فعلوا مع نظريّة مندل للوراثة، وغيرها. وآخر ما فعلوه في هذا الصدد هو تهجمهم على «السبرانيّة» وهي الأساس الذي تقوم عليه

---

(١) ـ المصدر السابق، ص ٧٣.

(٢) ـ مراد وهبة «محاورات فلسفيّة في موسكو»، القاهرة ١٩٧٤، ص ٢٠.

الآن العقول الالكترونيّة، إذ اعتبروها علماً برجوازياً. وقد أشار الى ذلك المفكر الماركسي الدكتور موجبان حيث قال:

«ان تلك ليست أخطاء الماركسيّة بل هي أخطاء ماركسيين فرادىٰ لم يكونوا قادرين علىٰ الفرز بين التأمل المثالي الصوفي المحيط بمسائل علم الوراثة والسبرانيّة والنظريّة النسبيّة ونظريّة الرنين وغيرها، وبين جوهر هذه الاكتشافات العلميّة الجديدة».[١]

البارالوجيا

ان البارالوجيا من جملة المواضيع العلميّة التي حاربها الماركسيون في البداية ثم اضطروا الى الاعتراف بصحتها أخيراً. وأقصد بالبارالوجيا ما يسمىٰ في اللغات الأوربية بـ«الباراسيكولوجيا»، وإنما سميته بذلك علىٰ سبيل التعريب، وهو علم جديد يدرس الظواهر الخارقة للنفس البشريّة كقراءة الأفكار، واصابة العين، والرؤية من وراء حاجز، والتنبؤ بالأحداث المقبلة، وما اشبه. وهذه أمور كانت تُعد في الماضي من قبيل السحر أو الشعوذة، ولكن بعض الباحثين الغربيين بدأوا يخضعونها للتحقيق العلمي منذ عام ١٨٨٢. وفي عام ١٩٣٠ دخلت هذه الأمور في نطاق الدراسات الجامعيّة علىٰ يد الاستاذ راين حيث أسس لها قسماً خاصاً بها في جامعة ديوك الامريكيّة. ثم بدأت الجامعات الأخرىٰ في أمريكا وأوربا الغربيّة تقتدي بها شيئاً فشيئاً.

استقبل الماركسيون هذا العلم باستنكار شديد واعتبروه قائماً علىٰ أساس غير مادي، واتخذت الحكومة السوفيتية في عهد ستالين موقفاً رسمياً ضده حيث منعت العلماء من دراسته أو النظر فيه. وقد ظل المنع سارياً حتىٰ عام ١٩٦٠ حينما بدلت

---

(١) ـ جريدة «طريق الشعب»، في عددها الصادر في ٢٠ أيار ١٩٧٤.

الحكومة السوفيتية موقفها منه، فتحولت من المنع الى التشجيع دفعة واحدة.

كان سبب هذا التحول الفجائي في موقف الحكومة السوفيتية هو وصول معلومات سرية إليها تفيد بأن البحرية الامريكية أخذت تستخدم بعض المواضيع البارالوجية في الأغراض العسكرية، وانها استخدمتها بوجه خاص في الغواصة الذرية «نوتيلوس». فذعرت الحكومة السوفيتية من هذا الخبر. والظاهر أنها خشيت أن تتفوق عليها أمريكا في أمر هي غافلة عنه. فاستدعت إليها الاستاذ فاسيليف، رئيس قسم الفسلجة في جامعة لينغراد، وطلبت منه التفرغ لدراسة هذا العلم، وأمدته بالأموال والأجهزة اللازمة.

من الجدير بالذكر ان فاسيليف كان يعمل في دراسة البارالوجيا سرّاً منذ عام ١٩٣٢، وكان يخشى أن يعلن عنه في عهد ستالين. فلما أوعزت إليه الحكومة بالتفرغ له في عام ١٩٦٠ انطلق في البحث بنشاط كبير. وقد أذاعت وكالة تاس في أوائل تشرين الأول ١٩٦١ أن فاسيليف ترأس ندوة عامة لمناقشة «التلبثة»، وهو من المواضيع البارالوجية، وقد اشترك في الندوة بعض أساتذة الجامعة. وذكرت الوكالة أن صحفياً من بين الحاضرين قام في ختام الندوة واعترض قائلاً: «اليست التلبثة نوعاً من الخداع والحيلة؟». فرد عليه فاسيليف قائلاً: «لقد مر زمن على الناس كانوا يعتقدون بأن التنويم المغناطيسي نوعاً من الخداع والحيلة، وها هو اليوم يُستعمل في علاج الأمراض»...[١]

مجادلة مع أحدهم:

من المصادفات العجيبة أن مجادلة جرت بيني وبين أحد الماركسيين العراقيين حول البارالوجيا في عام ١٩٦٠، وذلك قبل أن تصلنا الأنباء عن بداية اهتمام الحكومة

---

(١) - Link Magazine _ October 8, 1961.

السوفيتيّة بهذا العلم. سبب المجادلة أني كنت قد أصدرت قبل قليل كتاباً عنوانه «الأحلام بين العلم والعقيدة» تطرقت فيه الى موضوع التنبؤ في الأحلام والدراسات البارالوجيّة التي جرت حوله. فانبرى استاذ ماركسي لنقد الكتاب. فرددت عليه ورد عليّ، ثم رددت عليه مرّة أخرىٰ. وليس هنا مجال ذكر ما جرىٰ من مناقشة بيني وبينه، فهو أمر يطول. إنما اكتفي بذكر بعض النقاط التي لها صلة بموضوعنا الراهن.

أهم ما لفت نظري في نقد الناقد قوله ان موضوع التنبؤ في الاحلام من المواضيع الميتافيزيقيّة التي لم يتوصل العلم، ولن يتوصل، الى نتيجة فيها. وكذلك قوله: «إذا انتجت الخرافات أو الاساطير سؤالاً مثل هل تستطيع الأحلام التنبؤ بالمستقبل؟ فإننا نرفض الإجابة عليه لأننا نعلم ان الأسس التي أنشأ عليها السؤال أسطوريّة خرافيّة! فما اكتنف السؤال من خرافات وأساطير إذن ذو أهميّة علميّة بالنسبة للباحث».[١]

أنقل فيما يلي بعض ما ذكرته في الرد علىٰ الناقد حيث قلتُ:

«يبدو لي من بعض عبارات ـ الناقد ـ أنه يحدد تطور العلم ضمن نطاق الأسس الماديّة، أي ان كل شيء يقوم علىٰ أسس ميتافيزيقيّة غير مادية لايدخل في نطاق العلم ولايمكن للعلم أن يتوصل فيه الى شيء. إذا كان هذا هو رأي ـ الناقد ـ فإني أوافقه عليه. ولكني أود أن أساله: ما هو الحد الذي يفصل بين الأمور الميتافيزيقيّة والأمور الماديّة؟ وإذا كان مثل هذا الحد موجوداً فهل هو حد اعتباري موقت أم هو ثابت مطلق؟ يظهر أن ـ الناقد ـ يعتقد بالحد الثابت المطلق، وربما كان هذا هو السبب الذي جعله يحكم علىٰ موضوع تنبؤ الاحلام بأنه موضوع غير علمي وأنه يقوم علىٰ أسس ميتافيزيقيّة. أما انا فأعتقد بأن هذا الحد اعتباري يتغيّر بتغير المفاهيم العلميّة حيناً بعد حين. ان المادة نفسها قد تبدل مفهومها تبدلاً كبيراً في خلال سنوات

(١) ـ مجلّة «المثقف»، في عددها الصادر في أيار، حزيران ١٩٦٠.

معدودة. ولقد كان علماء القرن التاسع عشر لايصدقون بكثير من الأمور التي نصدق بها الآن إذ هم كانوا يعدونها خارج نطاق الأسس المادية التي يفهمونها، فهي في نظرهم من الأمور الميتافيزيقية. وتاريخ العلم مشحون بمثل هذه الحوادث كما لايخفى... والعجب من قوم يعيشون في القرن العشرين ويفكرون على نمط القرن التاسع عشر».

ثم ختمتُ ردّي بالفقرة التالية:

«خلاصة ما أريد أن أقول إن العلم لايعرف الجزم والقطع واليقين. شأن العلم أنه يشك ويظن، ولكنه لايقطع ولايجزم. فالجزم معناه الوقوف بالمعرفة عند حد لاتتعداه. والمعرفة البشرية عملية تطور لاتقف عند حد. وحالما ينتقل العلم من حالة الشك الى حالة اليقين فإنه يتحول من كونه علماً الى كونه عقيدة».[1]

والغريب أنه لم تمض على هذه المناقشة سوى مدّة قصيرة حتى جاءت الأنباء تفيد بأن الحكومة السوفيتية بدأت تهتم بدراسة البارالوجيا. ولست أدري ماهو موقف الناقد من تلك الأنباء، وهل بقي مصراً على رأيه السابق أم تحول عنه!؟

التلبثة والمادية:

كان عام ١٩٦٠ عام البداية لدراسة البارالوجيا في روسيا ـ كما أشرنا إليه آنفاً. وقد نمت هذه الدراسة فيما بعد بشكل سريع، ففي خلال خمس سنوات تأسست في روسيا ثمانية مراكز لها، وقد تنوع البحث فيها ليشمل مختلف الظواهر البارالوجية.

كان أوّل المواضيع البارالوجيّة التي درسها علماء روسيا هو «التلبثة»، وهو الذي ترجمه بعض الكتاب العرب الى «التخاطر» أو «قراءة الأفكار»، وهو يتمثل في مقدرة بعض الأفراد على معرفة ما يدور في ذهن الآخرين من أفكار. وقد كانت المشكلة التي واجهها علماء روسيا في هذا الصدد هي كيف يمكن تفسير التلبثة في ضوء الفلسفة

---

(١) ـ مجلة «المثقف»، في عددها الصادر في أيلول، تشرين الأوّل ١٩٦٠.

المادية التي يؤمنون بها!؟

اتجه فريق من أولئك العلماء الى الافتراض بأن التلبثة هو نتيجة نوع من الاشعاع أو الامواج الكهرطيسيّة التي تنتقل من مخ الى آخر. وقد صرّح بذلك الاستاذ فاسيليف في ندوته التي أشرنا إليها سابقاً حيث قال ما نصه:

«نعم، ليس لدينا تفسير علمي للظواهر البارالوجيّة، ولكن هذا لايعني بالضرورة أن تفسيرها غير موجود. فإن نشاط المخ ينتج نوعاً من الاشعاع، ولكن هذا الاشعاع ضعيف جداً بحيث لانستطيع إدراكه. فقد حدث في بعض الأحيان ما يبدو أنه تأثير مخ على آخر. وأين هو الأمر المستحيل في ذلك؟ فإن بحثاً علمياً دقيقاً سوف يحل هذه المشكلة في النهاية».[1]

أخذ العلماء يجرون التجارب العلميّة على الحيوانات، حيث اكتشفوا ان الحيوانات كثيرة الاعتماد على الامواج الكهرطيسيّة للتفاهم فيما بينها أو لدرء الخطر عنها. وكتب فاسيليف في مقالة له يقول: ان بعض الحيوانات يتصل بعضها ببعض عن طريق اشعاعات المخ. ثم ختم مقالته طالباً أن يكون هذا الموضوع علماً معترفاً به، فهما كانت نتائجه فهو يوسع أفق تفكيرنا.[2]

ونشرت مجلة «سبوتنك» الروسيّة مقابلة مع العالم الفيزياوي فتجاوناس حول التجارب التي أجريت على نوع من السمك وعلى النمل، ودلّت هذه التجارب على صحة ما ذكره فاسيليف. وقد أشار فتجاوناس الى الموهبة الخارقة الموجودة لدى بعض الأفراد والتي تمكنهم من اكتشاف ما في باطن الارض من مياه أو معادن أو كنوز، فهم يحملون في ايديهم عصا معدنية أو غصن صفصاف ويدورون به فوق سطح

---

(١) - Link Magazine _ October 8, 1961.

(٢) - Loc. cit.

الارض فيكتشفون ما في أعماقها. وذكر فتجاوناس عن أحدهم انه اكتشف مؤخراً كنزاً ثميناً في احدى ضواحي موسكو. وعلل فتجاوناس ذلك بأشعة تصدر من أيديهم، وقد اكتشفت أجهزة خاصة تلك الأشعة فيهم.[١]

ونشرت مجلة «تكنيك» الروسيّة عن رجل من أهل باكو اسمه «داداشيف» أنه يملك موهبة بارالوجيّة عجيبة، وقد أجرىٰ الباحثون عليه بعض التجارب وخرجوا منها بنتائج مذهلة، إذ هو يقرأ أفكار الآخرين بسهولة. وقد قرر المجلس الفني للعروض الفنية في موسكو السماح له بالظهور أمام الجمهور. وقد سئل هذا الرجل ذات مرة: «هل تستطيع قراءة أفكار شخص موجود في بناية أخرىٰ أو مدينة أخرىٰ؟» فأجاب قائلاً: «كلا، ان باستطاعتي قراءة افكار الأشخاص القريبين منّي. ان طول المسافة يؤثر علىٰ مقدرتي تلك. ويبلغ طول المسافة التي يمكنني خلالها معرفة أفكار الآخرين بضعة أمتار تقل حسب ضجيج القاعة، وكلما كان الشخص أقرب منّي كانت اشاراته أقوىٰ».[٢]

دراسة التعيّن:

انتشرت دراسة الظواهر البارالوجيّة الى مختلف البلاد الاشتراكيّة بالاضافة إلىٰ روسيا. ويبدو ان جيكوسلوفاكيا كان لها النصيب الأوفى من تلك الدراسة، فقد اهتم نفر من علمائها بموضوع معين من المواضيع البارالوجيّة، هو ما يُعرف في بلادنا بـ«اصابة العين»، وقد توصلوا فيه الى نتائج مذهلة.

ان موضوع اصابة العين، والذي يمكن أن نطلق عليه مصطلح «التعيّن»،[٣] يتمثل

---

(١) – جريدة «الجمهوريّة»، في عددها الصادر في ١٩ كانون الأوّل ١٩٧٧.

(٢) – مجلّة «ألف باء»، في عددها الصادر في ١٠ آذار ١٩٧٦.

(٣) – ورد في القاموس: «تعينه» بمعنى أصابه بالعين.

في مقدرة بعض الأفراد في التأثير على الأشياء بمجرد النظر إليها. وهو من الظواهر الخارقة التي يصعب تفسيرها في ضوء الفلسفة المادية، ولكن علماء جيكوسلوفاكيا أخذوا يدرسون هذا الموضوع بغض النظر عن تفسيره المادي، وحجتهم في ذلك ان العلم ربما تمكن في المستقبل من تفسيره.

في أواخر ١٩٦٥ زار مراسل جريدة «الصندي ميرور» أحد المختبرات التي تدرس موضوع «التعين» في جيكوسلوفاكيا. وقد أبدى المراسل اعجابه بما أنجزه العلماء الجيكيون في هذا الموضوع، وذكر أنهم تفوقوا فيه على الكثيرين الذين سبقوهم فيه في البلاد الأخرى.

ذكر المراسل أن العلماء الجيكيين اخترعوا لقياس مقدرة «التعيّن» في الانسان جهازاً يحتوي في داخله على بندول حساس جداً، فهذا البندول يتحرك بمجرد أن يركّز الانسان نظره عليه من خلال زجاج كثيف يفصل بينهما. ويقول المراسل ان هؤلاء العلماء يعتقدون ان القصص العجيبة التي يتداولها الناس عن تحويمات الاشباح حول البيوت، أو حركات الاشياء المادية من غير محرك ظاهر، وغيرها، يمكن اخضاعها للبحث العلمي. وقد صرّح أحد هؤلاء العلماء واسمه الدكتور ميلان ريزل قائلاً: «نحن كعلماء يجب أن نقبل كل الأساليب والاكتشافات العلميّة الجديدة مهما بدت صعبة أو غريبة».

مما يجدر ذكره في هذا الصدد ان العوام في بلادنا ـ وخاصة النساء منهم ـ بالغوا كثيراً حول اصابة العين، بحيث صارت المرأة تخشى من أي اعجاب تبديه امرأة أخرى نحو ابنها، وانتشرت الطلاسم والأدعيّة بين النساء لهذا السبب. هذا مع العلم ان مقدرة «التعيّن» نادرة جداً بين الناس لايملكها سوى واحد من مليون أو عدة ملايين. وإذا ظهر شخص يملك مثل هذه المقدرة عرفه الناس وخافوا منه وحاولوا استرضاءه. وقد بلغني أن شخصاً في العراق يملك هذه المقدرة، وهو يسكن في احدى المدن

العراقيّة، وعزمت ذات يوم على زيارته، ولكني ترددت في اللحظة الاخيرة مخافة أن يصيبني بالعين!

حول ظاهرة التنبؤ:

لاتنحصر ظاهرة التنبؤ في نطاق الاحلام فقط، بل قد تظهر أحياناً لدى بعض الأفراد في يقظتهم أيضاً. وقد تناقلت وكالات الأنباء مؤخراً قصةعجيبة في هذا الشأن خلاصتها: أن طالباً امريكياً أعلن في ٢١ آذار ١٩٧٧ نبوءة غريبة في محضر عدد من الاساتذة في جامعة ديوك الأمريكية حيث قال: «أتوقع أن أقرأ يوم الاثنين القادم على الصفحات الاولى من الصحف العنوان التالي: مصرع ٥٨٣ شخصاً في حادثة تصادم طائرتي بوينغ ٧٤٧ ـ أكبر كارثة فيتاريخ الطيران». وقد كتب الطالب هذه النبوءة في ورقة بحضور الاساتذة، ثم وُضعت الورقة في مظروف أحكم إلصاقه، وأودع رئيس الجامعة المظروف فيخزانة لايستطيع أحد غيره فتحها. والغريب أن نبوءة الطالب قد تحققت فعلاً بجميع تفاصيلها في حادثة الاصطدام المروع الذي وقع في جزيرة الكناري في المحيط الأطلسي.[١]

لاندري ماهو موقف علماء البلاد الاشتراكيّة من ظاهرة التنبؤ. أرجح الظن انهم بدأوا يدرسونها على نحو مادرسوا التلبثة والتعيّن، وربما توصلوا فيها الى نتائج ايجابيّة تشبه تلك التي توصل إليها علماء الغرب. ومهما يكن الحال فإن ظاهرة التنبؤ أصعب على الفهم وأكثر بعداً عن التفسير المادي من ظاهرتي التلبثة والتعيّن. ويخيل لي أننا على أبواب ثورة علميّة كبرى هي أعظم من الثورة التي حدثت في بداية القرن الحالي. ولعل الناس في القرن الحادي والعشرين سينظرون الى الكون من خلال مفاهيم تختلف كل الاختلاف عن مفاهيمنا!

---

(١) ـ جريدة «الجمهوريّة»، في عددها الصادر في ١ نيسان ١٩٧٧.

حول مقدرة العقل:

ان الابحاث البارالوجيّة لابد أن تجرنا الى مواجهة مشكلة فلسفيّة طالما راودت أذهان المفكرين قديماً وهي: هل أن العقل البشري قادر علىٰ فهم أسرار الكون، أم أن مقدرته في ذلك محدودة تقف عند حد معيّن فلا تتعداه؟

هناك مذهب فلسفي يطلق عليه اسم «اللا أدرية»، فحواه ان العقل البشري عاجز بطبيعته عن فهم أسرار الكون إنما هو قادر علىٰ فهم الظواهر فقط. والواقع ان هذا مذهب قديم وقد كثر أتباعه في القرن العشرين. ويدّعي أصحابه أن ما اكتشفه العلم الحديث مؤخراً من عجائب الذرة والفضاء والامواج الكهرطيسيّة وتركيب المادة الحيّة وغيرها يدل علىٰ عجز عقولنا. وان هذا العجز يزداد بمرور الزمن، فكلما اكتشف العلم مجهولاً واحداً من اسرار الكون ظهرت وراءه عدة مجاهيل. فالى أين ينتهي المطاف ياترى؟!

ومن الجدير بالذكر ان الماركسيّة تنظر الى اللا أدريّة بعين الاستنكار والإزدراء، وقد انتقدها لنين وثلبها. وقال عنها كلمته المأثورة «امسح وجه اللا أدري تجده مثالياً».

ان السبب الذي جعل الماركسيين يشجبون اللا أدريّة هو أنها صارت منطلقاً لنقد الفلسفة الماديّة، كما صارت ركيزة لمختلف الدعوات الدينيّة والصوفيّة والغيبيّة. فالفلسفة الماديّة تنكر مثلاً وجود الله والروح وغيرها من الأمور التي جاءت بها الأديان. أما اللا أدريّة فتقول: من يدري لعل في الكون من الأسرار ما لاتفهمه عقولنا، ولايجوز لنا أن نحكم بالنفي المطلق علىٰ أمور مجهولة لدينا بناءاً علىٰ ما توحي به عقولنا المحدودة.

ان الماركسيين يثقون ثقة مطلقة بمقدرة العقل علىٰ فهم اسرار الكون، وفي رأيهم ان العقل إذا عجز اليوم عن فهم تلك الاسرار فلابد أن يتمكن من فهمها غداً أو بعد

غد. وحين يواجه الماركسيون ظاهرة التطور العجيب في العلم، حيث نُسخت أمور كانت في الماضي تُعتبر حقائق ثابتة، كما صحت أمور كانت تُعتبر باطلة، يقولون ان الحقائق العلمية لايمكن أن تُنسخ نسخاً تاماً، بل هي خطوات نسبيّة يتلو بعضها بعضاً في سبيل الوصول الى الحقيقة المطلقة. يقول لنين في هذا الموضوع ما يلي:

ان كل حقيقة جاء بها العلم الآن لايمكن أن ينسخها العلم في المستقبل نسخاً تاماً بحيث يجعلها خطأ بحتاً. فكل مايمكن أن يفعله العلم في هذا الشأن هو أنه يضيق مجال تلك الحقيقة أو يوسعها. ان كل حقيقة يكتشفها العلم الآن هي خطوة تقدميّة نحو فهم الحقيقة المطلقة التي سيكتشفها العلم في المستقبل. فالعلم في تقدم مستمر نحو الحقيقة المطلقة، وكل حقيقة يكتشفها الآن يمكن اعتبارها نسبيّة بمعنى ان صحة تلك الحقيقة محدودة بحدود ما وصل إليه العلم الآن من تطوّر في وسائله وأدواته، ولابد للعلم في النهاية من أن يتوصل الى الحقيقة الموضوعيّة المطلقة على أي حال.[1]

ان اللا أدريين يردّون على كلام لنين هذا حيث يقولون: كيف جاز له أن يحكم حكماً قاطعاً بأن العلم سوف يتوصل في النهاية الى اكتشاف الحقيقة المطلقة؟ ومن الذي أخبره بذلك؟ ان المستقبل مجهول، ومادام العلم في تطوّر مستمر، فمتى يصل العلم الى الحقيقة المطلقة التي لاحقيقة أخرى وراءها. وربما جاء يوم ظن العلماء أنهم توصلوا الى الحقيقة المطلقة ثم اكتشفوا بعدئذٍ حقيقة أخرى نسخت تلك الحقيقة أو بدّلت فيها. ان قولنا بأن العلم في تطوّر مستمر معناه ان اليوم الذي يتوقعه لنين قد لايأتي، وربما أتى ونحن عنه غافلون، من يدري!!!

---

(١) – جورج بوليتزير «المادية والمثالية في الفلسفة»، ترجمة اسماعيل المهدوي، القاهرة ١٩٥٧، ص ٩٢، ٢٢٥، ٢٣٠.

الملحق الخامس

مناقشة الماركسية (تابع) حول الدين

لماركس رأي معروف في الدين حيث وصفه بأنه «افيون الشعوب»، وقد تابعه أنجلز في هذا الرأي، ثم جاء لنين بعدئذٍ فأوضحه وزاد عليه. وسأحاول في هذا الملحق مناقشة هذا الرأي من الناحية الإجتماعيّة.

حول ظاهرة التديّن:

ان ظاهرة التديّن في المجتمع البشري ليست بمثل هذه البساطة بحيث يمكن الحكم عليها بأنها «افيون الشعب» ونكتفي به. انها في الواقع أكثر عمقاً من ذلك.

عاش ماركس في بيئة ثقافيّة كانت نزعة التديّن ضعيفة فيها، فأدى ذلك به الى التصور ان الدين أمره هيّن وان في مقدور البشر الاستغناء عنه. انه غفل عن حقيقة اجتماعيّة كبرى هي أن التديّن ليس أمراً طارئاً على الطبيعة البشريّة بل ينبع من حاجة عميقة فيها وربما صح القول ان النفس البشريّة تحتاج الى التديّن في بعض الأحيان كمثل مايحتاج البدن الى الغذاء.

ان التديّن ظاهرة اجتماعية عامة موجودة في جميع الشعوب حتى أشدها بدائيّة، ولم يجد الباحثون في ايّة بقعة من بقاع الأرض شعباً ليس له دين على وجه من الوجوه. ويُعزى سبب ذلك الى أن الانسان مهدد بالأخطار ومحاط بالمشاكل دائماً، وهو إذن في حاجة الى عقائد وطقوس دينيّة تساعده على مواجهة تلك الأخطار والمشاكل وتبعث في نفسه الطمأنينة تجاهها.

ان الحيوان ليس في حاجة الى التديّن لأنه يعيش في لحظته الحاضرة، وليس له قدرة على التفكير فيما تأتي به الأيام من خطر أو مصيبة. فالخروف حين يرى زملاءه الخرفان يُذبحون أمامه لايبالي بذلك لأنه لايدري أن دوره سيأتي بعد قليل. أما الانسان فهو يختلف عن الخروف من هذه الناحية اختلافاً كلياً. انه يملك القدرة على التفكير والاستنتاج. فإذا رأى الناس كلهم يموتون واحداً بعد الآخر استنتج من ذلك أنه لابد أن يموت مثلهم عاجلاً أو آجلاً.وهو إذن يحتاج الى عقيدة وطقوس دينية تساعده على مواجهة هذا الخطر الأكبر، وتعطيه الأمل بحياة أخرى تأتي بعد الموت.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن الانسان حين يواجه مختلف المشاكل والأخطار في حياته. فهو لايستطيع أن يبقى قابعاً في لحظته الحاضرة تجاهها. انه يفكر قبل كل شيء في الطريقة التي تنقذه منها. فإذا شعر بالعجز عن ذلك لجأ الى العقائد والطقوس الدينيّة من أجل الحصول على العزاء والسلوى، أو الصبر والتحمل وقوة العزيمة.

إذا جاز لنا أن نقول عن الدين بأنه أفيون الشعوب على نحو ما قال ماركس، جاز لنا أن نقول أيضاً إنه أفيون ضروري لايمكن أن تستغني الشعوب عنه. فإذا منعنا الشعوب عنه لجأت هي الى مخدر من نوع آخر للاستعانة به على مواجهة الحياة وأخطارها.

قد يعترض معترض فيقول: ان المفكرين الكبار من البشر لايستطيعون أن يستمدوا العزاء والسلوى من الدين لأنهم لايشعرون بالثقة والطمأنينة مما جاءت به الأديان من طقوس وعقائد لايستسيغها العقل.

ان هذا اعتراض وجيه، ولكننا يجب أن لاننسى ان المفكرين الكبار من هذا الطراز قليلون جداً، وهم لايؤلفون من مجموع البشر سوى نسبة ضئيلة جداً. نحن لاننكر ان هذه النسبة تزداد بتقدم الحضارة، إنما هي لايمكن أن تكون كبيرة في أي حال من الأحوال. ان أكثر الناس عاميون في تفكيرهم، وسيظلون عاميين الى ما شاء

اللّه. ومعنى ذلك أنهم سيبقون في حاجة الى التديّن على وجه من الوجوه.

هناك اعتراض آخر قد نواجهه في هذا الصدد، هو أن البشر ربّما تمكنوا في المستقبل من حل جميع مشاكلهم، ودرء جميع الأخطار التي تهددهم، وهم إذن لن يكونوا في حاجة الى التديّن. الواقع إننا نتمنى أن يصل البشر الى هذه المرحلة «السعيدة» في المستقبل،ولكن القرائن تشير الى أن هذه المرحلة بعيدة جداً، أو هي لن تأتي أبداً.

ان البشر ربما تمكنوا في المستقبل من انشاء نظام يسد جميع حاجاتهم الماديّة، على نحو ما تنبأ به الماركسيون، ولكن هذا النظام غير قادر على أي حال أن ينقذ الانسان من مشاكل الأمراض والعاهات، أو مشاكل الخيبة في الحب أو الطموح. وهو قبل كل شيء لايستطيع انقاذ الانسان من مخالب الخطر الأعظم الذي يهدده دائماً. وهو الموت!

نلاحظ أن المتدينين حين يتقدم بهم العمر، ويقتربون من الموت، يلجأون إلى

اللّـه بلهفة يسألونـه أن يغفر لهم ذنوبهم الكثيرة التي اقترفوها في أيام شبابهم،وتراهم يصلون ويحجون ويزورون، ويقرأون الادعيّة، ويكثرون من التسبيح، وهم واثقون أن القصور الرائعة تُبنى لهم في الجنة وهي مليئة بالحور العين والولدان المخلدين وأنهار الخمر والعسل،وانهم سينتقلون إليها بعد موتهم مباشرة.

حين تقارن هؤلاء المتدينين بالملحدين الذين يشعرون بأنهم يقتربون من الفناء يوماً بعد يوم تدرك الفرق الكبير بينهم. فهؤلاء سعداء وأولئك أشقياء. وقد صدق سلامة موسى حين قال: «إني أحسد المؤمنين!».

لنين والدّين:

كان موقف لنين من الدين أوضح من موقف ماركس وأشد تأكيداً،وقد بلغ به الأمر الى درجة انه شجع الماركسيين على الدعوة الى الالحاد ومكافحة الاتجاهات

الدينيّة بين الناس. فهو يقول في ذلك ما نصه:

«ان برنامجنا قائم كلياً على الفلسفة العلميّة المادّيّة الصارمة، ولكي نشرح برنامجنا يتحتم علينا أن نشرح الجذور الحقيقية، التاريخيّة والإقتصاديّة للضباب الديني. ان دعايتنا يجب أن تكون بالضرورة مشتملة على الدعاية للالحاد. وتحقيقاً لهذه الغاية فإن نشر الأدبيات العلميّة التي منعها ولاحقها بقسوة الى اليوم النظام الاوتوقراطي الاقطاعي يجب أن يصبح الآن مهمة من مهمات حزبنا. وربما كان علينا أن نطبق النصيحة التي أسداها أنجلز يوماً للاشتراكيين الألمان: ترجموا وانشروا بين الجماهير أدب القرن الثامن عشر الفرنسي الملحد والمضاد للتضليل».[1]

وقال لنين أيضاً:

«..ان الأساس الفلسفي للماركسيّة، كما أعلنه ماركس وانجلز مراراً، هو المادّيّة الديالكتيكيّة التي تبنّت تماماً التقاليد التاريخيّة لمادّيّة القرن الثامن عشر في فرنسا، ومادّيّة فيورباخ في ألمانيا، وهي مادّيّة بلا جدال، ملحدة ومناهضة باصرار لجميع الأديان.. ان الدين أفيون الشعوب ـ هذا القول المأثور لماركس ـ هو حجر الزاوية لمجمل وجهة النظر الماركسيّة حول الدين. لقد نظرت الماركسيّة دائماً الى الأديان والكنائس وجميع المنظمات الدينيّة كأدوات بيد الرجعيّة البرجوازيّة للدفاع عن الاستغلال ولتسميم عقل الطبقة العاملة».[2]

اني أعتقد ان هذا الموقف المعادي الذي اتخذته الماركسيّة تجاه الدين قد أضرّ بها ضرراً كبيراً حيث اتخذ خصومها ذلك سلاحاً بأيديهم حاربوا الماركسيّة به دون أن تجني هي منه نفعاً يوازي هذا الضرر. ويبدو أن لنين فطن الى ذلك، ولهذا رأيناه ينصح

---

(١) ـ لنين «نصوص حول الموقف من الدين»، بيروت ١٩٧٢، ص٨٧.

(٢) ـ المصدر السابق، ص٩٩.

الماركسيين بأن يتبعوا في دعايتهم الالحاديّة طريق الحكمة. إنه يقول:

«يجب أن نكون حريصين للغاية في نضالنا ضد الأوهام الدينيّة، إذ أن بعض الناس يسبب اذى كبيراً في هذا النضال عندما يسيء الى المشاعر الدينيّة... ان الجذر الأعمق للوهم الديني هو البؤس والجهل، وذلك هو الشر الذي يجب أن نحاربه».(١)

ويأتي لنين بمثل على ذلك حيث يصوّر لنا منطقة صناعيّة تضم فئتين من العمال احداهما متدينة والأخرى ملحدة. فإذا حدث اضراب في تلك المنطقة وجب على الماركسي أن يكرس جهده لانجاح حركة الإضراب، وأن لايتعرض للدين بشيء. يقول لنين: ان الدعاية الالحاديّة في مثل هذه الظروف يمكن أن تكون مؤذية وغير ضروريّة لأنها تشق صفوف العمال وتقدم للبرجوازيين ورجال الدين سلاحاً يستخدمونه في مناوئة الحركة. ثم يضيف لنين الى ذلك قائلاً ما نصه:

«ان الماركسي يجب أن يكون مادياً، أي عدواً للدين، ولكن يجب أن يكون مادياً ديالكتيكياً، أي ناظراً الى النضال ضد الدين ليس بطريقة تأمليّة، أي ليس على أساس الدعاية المجردة النظريّة المحظة الثابتة ابداً، وإنما بطريقة ملموسة على أساس الصراع الطبقي الدائر فعلياً الذي يثقف الجماهير أكثر وأفضل من أي شيء آخر...».(٢)

الواقع ان قول لنين هذا يثير فينا الاستغراب، فهو يوصي الماركسيين بأن يتجنبوا الاساءة الى المشاعر الدينيّة في وقت الاضراب، وقد كان الأحرى به أن يوصي الماركسيين بأن يتجنبوا الإساءة الى المشاعر الدينيّة في كل زمان ومكان. نراه يركز اهتمامه لانجاح حركة الاضراب في منطقة صناعيّة محدودة ويغفل عن نجاح الحركة الشيوعيّة في العالم كله. ان السواد الاعظم في العالم متدينون وهم أولى برعاية المشاعر

---

(١) - المصدر السابق، ص١٣٩.

(٢) - المصدر السابق، ص١٠٥ ـ ١٠٦.

طبعاً من تلك الفئة الصغيرة من العمال.

الملاحظ ان الحكومات الاشتراكيّة أخذت تتبع تجاه الدين طريقة أخرىٰ غير التي قال بها لنين، فهي اليوم تراعي المعابد وتحترم الطقوس الدينيّة. وحين تزور الوفود الأجنبيّة بعض البلاد الاشتراكيّة يذهبون بها لمشاهدة المعابد والمساجد لكي يدرأوا عن أنفسهم تهمة الالحاد ولسان حالهم يقول: «انظروا إلينا كيف نحترم الأديان!».

لقد كان الأحرىٰ بالماركسيّة أن تتبع هذه الطريقة منذ بداية أمرها، ولو كانت قد فعلت ذلك لكسبت من الأنصار أضعاف ما كسبته حتىٰ الآن.

هل هو مخدر:

يمكن ان نحصر الاسباب التي دفعت الماركسية الى محاربة الدين في سببين اثنين هما كما يلي:

أولاً: ان الفلسفة الماركسيّة ـ كما ذكرنا سابقاً ـ تقوم علىٰ أساس الفلسفة المادّيّة التي تؤمن بالمادة وحدها وتنكر ما عداها، بينما الدين قائم علىٰ أساس الاعتقاد بقوى غير مادّيّة كالله والروح والملائكة والوحي وما أشبه.

ثانياً: ان الماركسيّة تنظر الى الدين نظرتها الى شيء مخدّر يضعف عزيمة الطبقات الكادحة في الثورة علىٰ مستغليها.

لا أريد مناقشة الماركسية حول السبب الأوّل، وهو موضوع فلسفي ليس هنا مجاله. وأكتفي بمناقشة السبب الثاني.

الواقع أننا حين ندرس تاريخ الأديان دراسة دقيقة نجد أنها لم تكن دائماً مخدّرة للشعوب. وقد يصح أن نقول إن كثيراً من الحركات الدينيّة كانت في بداية أمرها ثورة علىٰ النظام القائم. وقد دل التأريخ أن كل نبيّ يظهر لابد أن يقاومه سلاطين زمانه أو

المتنفذون في مجتمعه. وقد فطن أنجلز ولنين الى ذلك حيث لاحظا أن المسيحيّة في طورها الأوّل كانت ذات طابع ثوري ولهذا قاومتها الدولة الرومانيّة واضطهدت أتباعها.(١)

يتّضح الطابع الثوري للدين في الإسلام بوجه خاص، إذ ان الإسلام كان في بدايّة أمره ثورة على طبقة المترفين المرابين، وقد قاومته تلك الطبقة مقاومة شديدة كما هو معروف. وحين نقرأ القرآن نجد الطابع الثوري واضحاً في الكثير من آياته. يكفي ان نذكر هنا واحدة منها هي: «وما أرسلنا في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنّا بما أرسلتم به كافرون».(٢)

لاننكر أن الدين يفقد بمرور الزمن طبيعته الثوريّة الأولى، فينجرف مع الدنيا تحت تأثير السلاطين من جهة، وتأثير العامة من الجهة الأخرى. ولهذا يصبح رجل الدين مضطراً أن يجاري السلاطين في ترفهم وتعسفهم، أو يجاري العامة في خرافاتهم. ولكن هذا لايمنع من قيام حركات دينيّة جديدة بين حين وآخر تحاول العودة الى ثوريّة الدين من حيث محاربة الظلم أو الخرافات.

ان انحراف الدين عن طبيعته الثوريّة الأولى ليس عيب الدين، بل هو عيب رجال الدين، يجب أن لاننسى أن رجل الدين بشر كسائر الناس، وهو قد اتخذ الدين مهنة يرتزق منها على نحو ما اتخذ غيره مهناً أخرى. وهو مضطر إذن الى مداراة مصدر رزقه، سواء أكان ذلك من الحكام أو العوام. ونحن نظلم رجل الدين حين نطلب منه أن يكون كالنبيّ ثائراً، فمعنى ذلك أننا نطلب منه القيام بعمل ينفّر زبائنه منه.

---

(١) – غارودي «ماركسيّة القرن العشرين»، ترجمة نزيه الحكيم، بيروت ١٩٦٧، ص١٤٧.

(٢) – القرآن الكريم، سورة سبأ، الآية ٣٤.

ان رجل الدين قد يكون ثائراً حين يجد تشجيعاً على الثورة من مصدر رزقه، ويحدث ذلك في الغالب عندما يثور الرعايا على حكامهم، فيثور رجل الدين معهم. فإذا تقاعس عن ذلك هبطت منزلته بين الناس وباء بالخسران.

كان الجدير بالماركسيين أن يفهموا هذه الحقيقة الإجتماعيّة، فلايتورطوا في خطأ محاربة الدين، لقد كان في مقدورهم أن يجتذبوا الى صفوفهم رجال الدين بدلاً من تنفيرهم عنها.

رأينا في التاريخ سلاطين بلغوا في الدناءة والظلم والترف الدرجة القصوى، ولكنهم استطاعوا بالرغم من ذلك اجتذاب رجال الدين الى جانبهم. وكذلك رأينا بعض العوام بلغوا الدرجة القصوى في الانهماك بالسخافات والخرافات، وقد أيّدهم رجال الدين عليها، أو سكتوا عنها. ومعنى هذا ان الماركسيين كان في مقدورهم اجتذاب رجال الدين الى جانبهم على نحو مافعل السلاطين والعوام.

يقول لنين:

«لقد نظرت الماركسيّة دائماً الى الأديان والكنائس وجميع المنظمات الدينيّة كأدوات بيد الرجعيّة البرجوازيّة للدفاع عن الاستغلال ولتسميم عقل الطبقة العاملة».[1] لقد فات لنين ان الماركسيّة قادرة على اتخاذ المنظمات الدينيّة أدوات بيدها في مكافحة الاستغلال بدلاً من تركها أدوات في يد الرجعيّة البرجوازيّة. فالقضيّة هي قضيّة من يداري أكثر أو يدفع أكثر. ولو كانت الماركسيّة قد فعلت ذلك لوجدنا كثيراً من رجال الدين يقفون في الصفوف الأماميّة للحركة الماركسيّة ويؤيدونها بأدلتهم «العقليّة» والنقليّة».

---

(١) - لنين «المصدر السابق»، ص٩٩.

الملحق السادس

مناقشة الماركسية (تابع) حول الموضوعية

أصبحت «الموضوعيّة» مصطلحاً شائعاً في الكتابات الاجتماعيّة الحديثة. وهي ترجمة كلمة «Objectivity» الانكليزيّة أو ما يمثلها في اللغات الاوربيّة الأخرى. وقد ترجمها بعضهم الى «الشيئيّة». والمقصود بها أن الباحث عند بحثه لموضوع من المواضيع، أو شيء من الأشياء، يجب أن لايتأثر بأي دافع من الدوافع الذاتيّة كالعاطفة أو المصلحة أو العقيدة أو ما أشبه، بل يركز نظره على الموضوع كما هو في حقيقته. ومعنى ذلك أن الباحث يجب أن يكون محايداً غير متحيّز أو متحزب في نظرته الى الأمور.

كان هذا هو معنى «الموضوعيّة» عند بداية استعمالها في الكتابات الحديثة، وظلت على ذلك زمناً طويلاً. ولكن الماركسيّة عند ظهورها أعطت للموضوعيّة معنى جديداً يختلف عن معناها الأصلي، وهذا هو ما نريد أن نناقشه في هذا الملحق.

رأي الماركسية:

في رأي الماركسية أن الموضوعيّة التي يُقصد بها عدم التحيّز ليست سوى تعبير برجوازي، وهي تسميها بـ«الموضوعانيّة». أما الموضوعيّة الحقيقيّة في نظر الماركسيّة فهي مرادفة للتحيّز أو التحزب بشرط أن يكون التحيز الى جانب الطبقة الكادحة ضد خصومها.

ان التاريخ البشري في نظر الماركسيّة عبارة عن صراع بين فريقين من البشر

أحدهما كادح مستغَل (بفتح الغين) والآخر جائر مستغِل (بكسر الغين). ولهذا وجب على الباحث الاجتماعي أن يقف دائماً الى جانب الطبقات الكادحة ضد أعدائها المستغلين، وتلك هي الموضوعيّة الحقيقية في نظر الماركسيّة. أما إذا وقف الباحث موقف الحياد وعدم التحيّز بين هذين الفريقين المتصارعين كان كالذي يقف محايداً بين السارق والمسروق، أو بين الظالم والمظلوم، وهو بذلك يساهم في عرقلة التقدم البشري، بدلاً من المساهمة في مماشاة التقدم وتأييده.

انقل فيما يلي نبذة مما ورد في أحد الكتب الماركسيّة حول هذا الموضوع وهذا نصها:

«ان الاعتراف بالصلة بين النظرية الاجتماعيّة ومصالح هذه الفئة الاجتماعيّة أو تلك، هذه الطبقة أو تلك، يسمىٰ مبدأ الحزبيّة. ان العلم الاجتماعي الماركسي يربط نفسه علىٰ المكشوف بمصالح الطبقة العاملة، بالنضال من أجل تحرير الكادحين من الاستثمار، بتحرك المجتمع نحو الاشتراكيّة والشيوعيّة. وفي هذا تقوم حزبيته. ولكنه لايوجد بالنسبة له غير أسلوب واحد للاسهام في نضال الجماهير الكادحة الجاري فعلاً، هو أن يرسم بصورة موضوعيّة لوحة عن الواقع، ونسبة القوى، والتناقضات القائمة، واتجاهات التطور...

«ينبغي التمييز بين الموضوعيّة والموضوعانيّة. فالتعبير الأوّل يستخدم لوصف المعرفة العلميّة، والثاني لوصف موقف النظري، أي علىٰ وجه الضبط موقف «اللاتحيز» في معرفة الحياة الاجتماعيّة، موقف المراقب غير المتحيّز الموضوعي المزعوم للعمليات الاجتماعيّة. وقد انتقد لنين الموضوعانيّة انتقاداً حاداً واعتبرها شكلاً مستوراً ومقنعاً للتعبير عن الحزبيّة. فليس من مصلحة ايديولوجيي البرجوازيّة أن يبدوا حزبيتهم علىٰ المكشوف، وأن يكشفوا الصلة بين اختلافاتهم النظريّة وبين المصالح الانانيّة للطبقة السائدة. وفي هذه الحال، يناسبهم جداً موقف الموضوعانيّة

بصرف النظر عما إذا كان هذا الموقف واعياً أم لا. «فليس موقف المراقب الحيادي موقف اللامبالاة وعدم الاكتراث، بل الاشتراك الفعال في الحياة الاجتماعيّة الى جانب القوى التقدميّة، هو الذي يكشف امام الإنسان السبيل الى فهم الجوانب الجوهريّة من الظاهرات والعمليات الاجتماعية فهماً موضوعياً...».(١)

مناقشة الرأي:

ان رأي الماركسيّة في الموضوعية مستمد من رأيها في طبيعة العقل البشري، فالعقل في نظر الماركسيّة لابد أن يكون متحيزاً عندما يكون الصراع ناشباً في المجتمع. وقد أوضح لنين ذلك بقوله: ان الحياد في البحوث الاجتماعيّة وهم ناشيء من خداع الذات لدى المفكرين البرجوازيين، فهم في الواقع متحزبون من حيث لايشعرون بينما هم يحسبون أنهم محايدون، أما الماركسيون فهم متحزبون ويعرفون أنهم متحزبون، وهذا هو الفرق بينهم وبين المفكرين البرجوازيين.(٢)

اني أتفق مع الماركسيّة في هذا الرأي من ناحية وأختلف عنها من ناحية أخرى. فإني اتفق معها في أن العقل البشري متحيّز بطبيعته، وهذا هو ماكررته مراراً في كتبي. ولكن ناحية الاختلاف بيني وبين الماركسيّة هو أني أعتقد بأن تحيّز العقل مرتبط في الغالب بما لدى الإنسان من مصلحة أو عاطفة نحو أمر من الأمور، أما إذا وقف الإنسان تجاه أمر لاعلاقة له بمصلحته أو عاطفته فإن في مقدوره أن يكون محايداً في النظر إليه. وهذا هو ما يقع عادة لقضاة المحاكم حين ينظرون في قضايا غير مرتبطة بمصالحهم الشخصية أو عقائدهم الدينيّة أو قيمهم الاجتماعيّة أو ما أشبه، فهم قادرون

---

(١) – كيلله وكوفالسون «المادية التاريخيّة»، ترجمة الياس شاهين، موسكو، ص٢٧ ـ ٢٨.

(٢) – لنين «المادية والنقد التجريبي»، نقلاً عن جريدة «الفكر الجديد» في عددها الصادر في ١٤ أيار ١٩٧٧.

أن يحكموا في القضايا دون تحيّز الى هذا الجانب أو ذلك.

لاأنكر أن الحياد التام غير ممكن في البشر، لأن الإنسان ليس ملاكاً بل هو بشر يخطيء ويصيب، وهو قد يظلم من حيث يظن أنه عادل. ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول ان الحياد موجود في الناس علىٰ درجات ونسب مختلفة حسب اختلاف تكوين الشخصيّة في كل فرد منهم.

يعتقد الماركسيون أن الصراع الطبقي القائم في المجتمع ليس من طراز القضايا الصغيرة التي تُعرض في المحاكم، لأن هذا الصراع مرتبط بصميم مصلحة الباحث وبعقائده وقيمه، والباحث إذن لايستطيع أن يكون محايداً ازاءه. وكثيراً ما يكون التحيّز فيه من حيث لايريده الإنسان لنفسه أو من حيث لايشعر به. يقول لنين: «من لم يكن معنا كان ضدنا». ومعنى ذلك ان الباحث لايمكن أن يقف في الوسط في أثناء الصراع القائم بين البشر، وهو لابد أن ينحاز الى هذا الجانب أو ذلك.

يبدو لي أن لنين لم يقل هذه الكلمة من أجل تبيان الحقيقة الواقعيّة بل قالها من أجل تعبئة الأنصار لحزبه. وفي الواقع أننا نعرف كثيراً من المفكرين الذين تمكنوا من أن يقفوا موقف الحياد بين الماركسيّة وخصومها. فهم متحررون لاتربطهم بالنظام الرأسمالي ايّة رابطة مصلحيّة أو عاطفيّة، ولعلهم في أعماق أنفسهم يودّون انتصار الماركسيّة علىٰ أعدائها، ولكنهم في الوقت نفسه لايوافقون علىٰ كل ماجاءت به الماركسيّة من آراء ومقولات، بل يؤيدون قسماً منها ويعارضون القسم الآخر. انهم بعبارة أخرىٰ قادرون علىٰ تفهم مساويء النظام الرأسمالي ومساويء النظريّة الماركسيّة في آن واحد.

مشكلة النظريّة الماركسيّة ـ كما اشرنا إليه من قبل ـ أنها لاتكتفي بالنضال ضد الاستغلال الطبقي، بل هي تحاول أن تتدخل في كثير من الأمور التي هي في غنى عنها، كتفسير التاريخ والكون، وطبيعة الإنسان والمجتمع، وغير ذلك. وتلك أمور

لايستسيغها كثير من المفكرين المتحررين. وإذا اتبعنا مقولة لينين في نبذ كل من لايوافق على هذه الأمور جميعاً فمعنى ذلك إننا نجعل كثيراً من المفكرين خصوماً للماركسيّة مع العلم أنهم في الواقع ليسوا خصوماً لها.

فرضيّة الانتماء الصارم:

ان الإنسان في نظر الماركسيّة لابد أن يكون منتمياً الى طبقة من الطبقات المتصارعة في المجتمع، وهو لابد أن يتأثر بالموقف الفكري الذي تلتزمه تلك الطبقة. أنقل فيما يلي ما ذكره أحد الماركسيين العراقيين في محاضرة له ألقاها منذ عهد قريب في موضوع «الانتماء والالتزام في الأدب»، فهو يقول:

«ان الناس جميعاً منتمون شاؤوا أم أبوا، لأن الموقف الفكري والايديولوجيّة هما نتاج محيط الفرد: عائلته ومجتمعه وما يتلقاه بشكل مباشر أو غير مباشر عن طريق التعليم العائلي أو المدرسي، والعادات والمواقف المعيّنة من الحياة وأحداثها...».[١]

ان هذا الرأي الذي جاء به صاحبنا الماركسي قد يصح في المجتمع المحلي الضيق حيث ينشأ الفرد في تقاليد وعقائد وقوالب فكرية ثابتة نسبيّاً، وهو يقع تحت تأثير تلك القوالب، ويتبناها، وينظر الى الدنيا من خلالها من حيث لايشعر. اما في المجتمع المفتوح الواسع الذي تتصارع فيه مختلف الأفكار والمبادىء، فإن الفرد يخرج من قوقعته الذهنيّة التي نشأ عليها في بيئته الأولى، وهو عند ذلك يستطيع أن يقتبس من الأفكار المتصارعة ما يلائمه، وكثيراً ما تكون تلك الافكار مناقضة لتلك التي نشأ عليها.

ان هذا يصدق على الكثيرين منّا. فالفرد منّا نشأ في طفولته في محلة أو بلدة أو قرية ذات عقائد وقوالب فكريه معيّنة، وقد آمن بصحة تلك العقائد والقوالب ايماناً

---

(١) – جريدة «طريق الشعب»، في عددها الصادر في ١٠ كانون الثاني ١٩٧٨.

أعمى كما هو شأن الفرد المحلي دائماً. ولكنه عندما انتقل الى المجتمع المفتوح وأخذ يقرأ شتى النشرات والكتب، وسافر الى مختلف أنحاء الأرض، وجد نفسه في خضم من الأفكار المتنوعة التي لاحصر لها. وهو قد يميل الى هذا الجانب من الأفكار أو ذاك حسب ما يملي عليه مزاجه الذهني أو تركيبه النفسي أو مصلحته وعاطفته أو ما أشبه.

ان المجتمع المفتوح ليس من طبيعته أن ينتج قوالب فكرية ثابتة في الأفراد. وهذا أمر يتضح بشكل خاص في أيامنا حين اصبحت المجتمعات مفتوحة بعضها على بعض عن طريق المواصلات اللاسلكية ووسائل النقل السريعة. ولم يبق في مقدور مجتمع من المجتمعات البشرية أن يصب أفكار افراده في قوالب معينة. فهو إذا منع الافكار الجديدة من الدخول إليه عن طريق الابواب، دخلت إليه عن طريق الشبابيك.

هناك أشخاص نشأوا في طفولتهم في طبقة وبيئة معينة، ولكنهم عندما كبروا اتخذوا مواقف فكرية تختلف كل الاختلاف عن موقف بيئتهم وطبقتهم. ان أوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد مؤسسو الماركسية أنفسهم ـ أي ماركس وأنجلز ولنين وأمثالهم ـ فهم جميعاً لم ينشأوا في بيئة عمالية، والواقع أن بعضهم كانوا من أبناء البرجوازيين الكبار، ولكنهم صاروا فيما بعد أعظم دعاة الايديولوجية العمالية. وهناك على العكس من ذلك رجال آخرون نشأوا من طبقة عمالية، ثم صاروا بعدئذٍ من دعاة الايديولوجية البرجوازية أو الاقطاعية.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الاحزاب الشيوعية في العالم لم يؤسسها أو يقم بالدور الاساسي فيها سوى المثقفين، ومعظمهم من أصول برجوازية صغيرة أو كبيرة. أما العمال فليس لهم في ذلك سوى دور ثانوي، وهم في الغالب لاينضمون الى الاحزاب الشيوعية إلاّ بعد نموها. ويصدق هذا على الحزب الشيوعي السوفيتي بشكل خاص، إذ ان المثقفين كانوا عماد الحزب في بداية أمره، ثم انضم إليه العمال بعدئذٍ تدريجاً. ولايؤلف العمال الآن سوى ٤٢ بالمائة من أعضاء الحزب، أما الباقون

فمعظمهم من المثقفين واصحاب المهن، وقليل منهم فلاحون.

معنى هذا إننا لانستطيع أن نحكم علىٰ الإنسان من حيث انتمائه الفكري حسب طبقته أو بيئته التي نشأ فيها. الواقع ان عوامل شتى تلعب دورها في هذا المجال. ان تكوين الشخصيّة البشريّة لايزال لغزاً من بعض نواحيه،وليس من الصحيح أن نصنّف الشخصية تصنيفاً حاداً لا استثناء فيه حسب المبدأ القائل: «من لم يكن معنا كان ضدّنا». ان هذا المبدأ قد ينفع في تعبئة الجماهير في سبيل عقيدة من العقائد، ولكنه لاينفع في تصوير واقع الطبيعة البشريّة.

نظريّة مانهايم:

لابد لنا في هذه المناسبة من أن نتطرق الى نظريّة مانهايم، وهي نظريّة تعطينا وجهة نظر أخرىٰ تختلف عن وجهة نظر الماركسيّة في الانتماء والموضوعيّة.

ان مانهايم كان في بداية أمره ماركسياً ثم خرج علىٰ الماركسيّة وجاء بنظريّة تختلف عنها من بعض النواحي. ومن أهم ما تتميز به نظريته عن الماركسيّة ناحيتان، احداهما فيما يخص الصراع الطبقي، والثانية فيما يخص الانتماء.

ان مانهايم يستبدل مصطلح «الجماعة» بمصطلح «الطبقة» التي جاء بها ماركس. فالمجتمع في نظر مانهايم ينقسم الى جماعات مختلفة، وليست الطبقة سوى واحدة من تلك الجماعات. فهناك مثلاً الجماعات القائمة علىٰ أساس النسب كالقبائل البدوية، والجماعات القائمة علىٰ الدين كالطوائف الدينيّة، والجماعات القائمة علىٰ اللغة والشعور الواحد كالقوميات، والجماعات القائمة علىٰ المسكن كالمحلات والبلدان، الخ...

ويرى مانهايم أن ماركس قد أخطأ حين جعل التاريخ البشري كله نتاج الصراع الطبقي وحده، فالتاريخ في نظر مانهايم مليء بالصراعات من أنواع شتى، كالصراع بين القبائل، أو بين الطوائف، أو بين القوميات، أو بين الدول، أو بين المدن، أو غير ذلك. أما تفسير ماركس بأن هذه الصراعات كلها يمكن ارجاعها الى الصراع الطبقي وحده

فهو تعسف لامبرر له. وحين يأتي مانهايم الى موضوع التحيّز الفكري يقول بأن الحقيقة الخارجيّة هي بالنسبة للإنسان كالهرم ذي الجوانب المتعددة، فالإنسان بحكم انتمائه الى جماعة من الجماعات المتصارعة لايستطيع أن يرى جوانب الحقيقة كلها، ولابد له من أن يركز نظره على جانب واحد منها هو ذلك الجانب الذي تتجه جماعته نحوه. فإذا كان الجانب ذا لون أخضر مثلاً تصوّر هو أن الحقيقة كلها خضراء، وهو يتعجب حين يجد شخصاً آخر يتصور الحقيقة حمراء. انه لايدري أن ذلك الشخص ينظر الى الحقيقة من جانب آخر لونه أحمر، وهو لايدري كذلك ان ذلك الشخص يتعجب منه على نحو ما يتعجب هو منه.

ليس من السهل على الجماعات المختلفة أن تنظر الى الحقيقة من جانب واحد، فإن اختلاف المصالح والعقائد والتقاليد والقيم لابد أن تؤدي بكل جماعة منهم الى النظر الى الحقيقة من جانب يختلف عن جوانب الجماعات الأخرى.

وهذا بدوره يؤدي بكل جماعة الى الاعتقاد الجازم بأن الحق معها وأن الباطل مع خصومها. ومن هنا ينشأ الخلاف بين البشر، ثم ينمو الخلاف ويتعقد بمرور الأيام.

ولكن مانهايم يستدرك على ذلك فيقول: ان البشر ليسوا كلهم على وتيرة واحدة من حيث انتمائهم الجماعي وتحيّزهم الفكري. فهناك أفراد من البشر قادرون أن يتحرروا من روابط الانتماء الجماعي قليلاً أو كثيراً. ويتمثل هؤلاء في بعض المفكرين الكبار الذين يرتفعون فوق مستوى محيطهم الضيّق، وهم قادرون إذن على النظر الى الحقيقة من مختلف جوانبها. وهم لابد أن يلقوا مقاومة أو نبذاً من جماعتهم، لأنهم انحرفوا عن القوالب الذهنيّة السائدة فيها. ويعتقد مانهايم ان هؤلاء اللامنتمين هم وحدهم الذين يستطيعون أن يكونوا موضوعيين في تفكيرهم، أما غيرهم فهم متحيزون غير موضوعيين.

لاحاجة بنا الى القول ان هذه النظريّة المانهايميّة لم تلق قبولاً من الماركسيين، فقد

انتقدوها بشدة وشجبوها. وقد وصفها أحد الماركسيين العراقيين بقوله: انها ذات مضمون امبريالي رجعي، وانها تنتهي الى المصير الطبيعي الذي انتهت إليه جميع نظريات السبيل الثالث أو الفلسفة الوسطى، أي خدمة الرجعيّة الامبرياليّة بأساليب مبرقعة مع نقد بعض أعراضها الثانويّة بأدوات مسروق أكثرها في وضح النهار من الاشتراكيّة العلميّة نفسها.(١)

وهنا يجب أن نذكر أن كتاباً لمانهايم عنوانه «الايديولوجيّة والطوبائيّة» قد ترجم الى العربيّة في عام ١٩٦٨ بقلم الدكتور عبدالجليل الطاهر، وقد كتب المترجم في اهداء الكتاب قائلاً: «الى أولئك المثقفين الذين التزموا بالموضوعيّة وناضلوا من أجل شرف الكلمة والقلم والضمير دفاعاً عن الحقيقة».(٢)

العراق ونظريّة مانهايم:

إني أعتقد أن نظريّة مانهايم اكثر انطباقاً على واقع مجتمعنا من نظريّة ماركس. فنحن حين ندرس المجتمع العراقي في العهد التركي ـ وهو العهد الذي دام أربعة قرون تقريباً ـ لانجد للصراع الطبقي اثراً ملحوظاً فيه، بل نجد بدلاً عنه صراعاً جماعياً يتمثل في النزاع العشائري من جهة، وفي النزاع الطائفي من الجهة الأخرى.

كان العراقيون في ذلك العهد ـ ولايزال الكثيرون منهم حتى يومنا هذا ـ ينظرون الى النظام الطبقي نظرتهم الى أمر قدّره الله عليهم، فكل شيء عندهم قسمة ونصيب، وان الله يعطي لكل انسان ما يرى المصلحة له فيه، ويجب على الإنسان أن يصبر على ما كتبه الله عليه. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه النظرة القدريّة السكونيّة سائدة بينهم تجاه النظام الطبقي كانت نظرتهم نحو النظام العشائري والطائفي حركيّة مشحونة

---

(١) ـ جورج لوكاس «أزمة الفلسفة البرجوازيّة»، تعريب وتعليق ابراهيم كبة، بغداد ١٩٥٣، ص ٧٣ ـ ٧٤ (حاشية).

(٢) ـ مانهايم «الايديولوجيّة والطوبائيّة»، ترجمة عبدالجليل الطاهر، بغداد، ١٩٦٨، ص ٥.

بالعداء. لاحاجة بنا الى الاسهاب في شرح ذلك، فقد اشبعناه بحثاً في الاجزاء الاولى من هذا الكتاب. يكفي أن نقول ان الصراع العشائري والطائفي هو الذي كان مسيطراً على الاذهان آنذاك، وكان الفرد ينال تقديراً من الناس بمقدار ما يبدي شجاعة في نصر جماعته وفي حرب خصومها. وقد بلغ الأمر بأهل المدن أنهم كانوا يحترمون «الشقي» الذي يحترف القتل والسطو على البيوت وقطع الطرق بشرط أن يفعل ذلك خارج محلته، أما في محلته فيجب أن يكون حامي الحمى. وكذلك بلغ الأمر ببعض سكان بغداد الى تقديس المدفع التركي المعروف باسم «ابوخزامة»، فهم يعتبرونه قد جيء به لانقاذهم، وليس لاحتلال بلادهم، ولو أن الايرانيين كانوا قد تركوا وراءهم مدفعاً لقدّسه الآخرون من سكان بغداد طبعاً.

ان الطفل إذ ينشأ في هذا الجو الفكري يتشبع ذهنه بما يسمعه فيه من مفاخرات ومنابزات، وهو يصبح كمن يقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي، فلا يستطيع أن ينظر في الأمور إلاّ من خلال تلك المفاخرات والمنابزات التي نشأ عليها. ومشكلة هذا الطفل في العهد التركي أنه يظل في كبره قابعاً في بيئته المحليّة التي نشأ فيها. لأن بيئته في كبره لاتختلف كثيراً عن بيئته في صغره. ولهذا فإن المعايير العشائريّة والطائفيّة تبقى قويّة التأثير فيه حتى آخر حياته.

ان الانفتاح الاجتماعي الذي حصل في العراق عقب الحرب العالميّة الأولى، حيث كثرت المدارس، وانتشرت الصحف والكتب، وتنوعت الاذاعات، وشاع السفر، ادى الى انفتاح الذهن لدى بعض الأفراد، وصار التعصب العشائري والطائفي يتضاءل في الناس شيئاً فشيئاً. وحلت محله النظرة المتسعة التي تسمو فوق النزاعات المحليّة.

الواقع ان الانفتاح الاجتماعي لم يكن تأثيره في الأفراد على درجة واحدة، فهناك عوامل متنوعة تلعب دورها في هذا المجال كالذكاء، والثقافة والمزاج العاطفي وقابليّة الايحاء والتربية البيتيّة وما أشبه. فقد تجتمع هذه العوامل كلها أو معظمها في شخص

فتجعله متفتح الذهن واسع الأفق يحاول النظر الى الحقيقة من مختلف جوانبها، وهناك علىٰ الطرف الآخر من هو علىٰ العكس من ذلك حيث نراه باقياً علىٰ انغلاقه الذهني القديم إنما هو يتحول به من جهة الى أخرىٰ تبعاً للايحاءات التي تُسلّط عليه مرة بعد مرة. انه ينعق مع كل ناعق ويميل مع كل ريح ـ علىٰ حد تعبير الامام عليّ بن أبي طالب.

بعض نقادنا:

اني عندما درست تاريخ العراق الحديث في هذا الجزء والاجزاء السابقة له حاولت أن أكون موضوعياً علىٰ طريقة مانهايم. ولست أدعي اني كنت موضوعياً بكل معنى الكلمة، بل كنت أحاول أن أكون كذلك بمقدار جهدي. ولكن هذه الدراسة لم تنل رضا الكثيرين من القرّاء. وقد استاء البعض منها وانتقدوها انتقاداً شديداً. وكان الجزء الخامس الذي يبحث في ثورة العشرين أكثر الاجزاء اثارة للاستياء والإنتقاد.

ليس هنا مجال مناقشة النقاد الذين نقدوا القسم الأوّل من هذا الجزء، وهم كثيرون، بل اكتفي بالإشارة الى واحد منهم هو عزيز السيّد جاسم، فهو قد كتب في انتقاد ذلك القسم مقالاً طويلاً نشرته جريدة «الجمهوريّة» في عددين متتاليين. انقل فيما يلي نبذة من المقال، حيث قال ما نصه:

«... حقيقة ثورة العشرين تتصل بالشعب والحركة الوطنيّة، ومن غير المنطق أن الجانب العربي والجانب البريطاني متعادلان في الأمر، أي أمر! فثورة العشرين تخصّ الشعب والوطن. أما بريطانيا فقد كانت هي المستعمرة والمحتلة والناهبة. ان الموضوعيّة لاتضع (المجرم) و(الضحيّة) علىٰ سقف واحد، وعلم الاجتماع لم ينطق بذلك أبداً. لقد وقع الدكتور الوردي في الفهم الميكانيكي (والتطبيق الميكانيكي أيضاً) لبعض مفاهيم علم الاجتماع، فكأن ما حصل في ثورة العشرين هو اصطدام كرات تجب

مراقبته وتأثيره، ومن هنا نشأت الحيادية. ولكن الحيادية تؤول بالنتيجة الى نتيجة ما غير حيادية قطعاً...».[1]

يبدو مما كتبه هذا الناقد أنه يريد مني أن أكون متحيزاً لكي أكون موضوعياً. فهو يطلب مني أن اكون في دراسة الثورة متحيزاً الى جانب العراقيين، وهذا طلب وجيه طبعاً لاأخالفه فيه. ولكن المشكلة التي نواجهها في هذا الشأن هي: الى أي حد يجوز لنا أن نتحيّز في الدراسة؟ فنحن نعرف أن التحيّز يؤدي أحياناً الى تحريف الوقائع، وقد رأينا ذلك واضحاً في كتاب صاحبنا كوتلوف، حيث وجدناه يصور ثورة العشرين كأنها غير الثورة التي نعرفها، وكأن البلاد التي حدثت فيها غير البلاد التي نعيش فيها. يجب أن لاننسى ان دراسة من هذا الطراز تحجب عنا واقع الحياة وتجعلنا نعيش في عالم غير عالم البشر.

كنتُ ذات يوم في مجلس، وقد جرىٰ الحديث فيه حول ثورة العشرين، وجرّ ذلك الى ما وقع فيها من نهب في بعقوبة. وكان أحد الحاضرين في المجلس من الذين شهدوا النهب ولكنه أنكر وقوعه، فانبرىٰ له بعض الحاضرين يعارضه ويؤكد علىٰ صحة وقوع النهب. وعند هذا تراجع الرجل وقال: نعم ان النهب حصل في بعقوبة فعلاً ولكني لا أحب ذكره مخافة أن يُنشر فيسيء الى سمعة الثورة.

ان موقف هذا الرجل يشبه موقف عزيز السيّد جاسم، كما يشبه معظم الذين كتبوا حول ثورة العشرين. ولست أشك في أن مقصد هؤلاء الكتّاب حسن إذ هم يريدون اظهار الجانب المضيء من تاريخنا لكي يجعلوا ذلك مبعث الفخار والاعتزاز لجماهيرنا ومحفزاً لحماسها الوطني. وهنا أود أن أعيد ما ذكرته في مناسبات سابقة وهو أن الحماس القائم علىٰ ذكر جانب واحد من الحقائق مع اغفال الجانب الآخر

---

(١) - جريدة «الجمهوريّة»، في عددها الصادر في ٣٠ آب ١٩٧٧.

منها قد يضر أكثر مما ينفع، فهو حماس يلتهب بشدة غير أنه سرعان ما يخمد حين يواجه الحقائق كاملة، وعند هذا يبدأ المتحمسون بالتلاوم فيما بينهم ـ كل منهم يحاول القاء اللوم على عاتق غيره ويبريء نفسه منه!

ان جماهيرنا في حاجة الى تبصير كمثل ماهم في حاجة الى تحميس. وقد شاهدنا عياناً ما فعله التحميس المطلق في جماهيرنا في بعض العهود الماضيّة، حيث رأيناهم يقترفون المنكرات والفظائع وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً!

خاتمة المناقشة

التقيت يوماً بماركسي أوروبي، فجرت بيني وبينه محاورة طويلة. قد جذبني إليه ما وجدت فيه من عمق ذهني ونضوج، فهو يفهم الماركسية باعتبارها مرشدة للعمل وليست نصوصاً جامدة. وقد فتح لي في فهم الماركسيّة آفاقاً لم أكن أعرفها من قبل. ولعل من المناسب أن أنقل هنا خلاصة لحديث هذا الرجل، وهو حديث جدير بأن يفهمه الكثيرون منّا!

عرضت على الرجل في بداية المحاورة نماذج من النصوصيّة الجامدة التي يتصف بها بعض الماركسيين في بلادنا، وقلت له أن هؤلاء يسيئون الى الماركسيّة أكثر مما ينفعونها. فأجابني الرجل بأن هذا هو ديدن الكثير من الاتباع في مختلف المذاهب السياسيّة أو الدينيّة، وهو أمر لامناص منه. ثم عطف الرجل الى الماركسية فقال انها ليست نظريّة كسائر النظريات الاجتماعيّة، إذ ليس المقصود منها تفسير العالم فقط بل تغييره أيضاً. انها بعبارة أخرى نظريّة وعقيدة في آن واحد. وهنا منشأ المشكلة فيها. فإن النظريّة تختلف بطبيعتها عن العقيدة، وان الجمع بينهما لابد أن يؤدي الى ظهور التعصب لدى بعض الاتباع.

ان الماركسيّة ـ حسب قول الرجل ـ تريد قبل كل شيء جمع الأنصار من أجل تبديل النظام الاجتماعي الذي هو هدفها الأكبر، وهؤلاء الانصار ليسوا على مستوى

واحد من حيث الكفاءة الذهنيّة والثقافة. ان معظمهم من العامة من الأميّين وأشباه الأميّين، وهم ينظرون الى النظرية الماركسيّة كمثل ما ينظر المتديّنون الى عقائدهم الدينيّة. فهم يريدون أن يحصلوا منها على اليقين الذي لاشك فيه، لا أن يجعلوها باباً للجدل والقيل والقال. وهذا هو السبب الذي جعل مؤسسي الماركسيّة يحاربون الأديان، فهم لايريدون أن تكون هناك عقيدة أخرى تنافس الماركسيّة في اجتذاب الانصار.

وأضاف الرجل الى ذلك قائلاً: إننا حين نرى مؤسسي الماركسيّة يشجبون الموضوعيّة الحياديّة، واللا أدريّة، وغيرهما من المناهج التي تدعو الى الشك، يجب أن لانلومهم في ذلك. ان اللا أدريّة مثلاً قد تكون صحيحة من الناحيّة المنطقيّة المجرّدة، ولكنها من الناحيّة العمليّة قد تضر أكثر مما تنفع. فمن شأن هذه الفلسفة أنها تجعل الإنسان حائراً متردداً شعاره أن يقول: «لا أدري». بينما المطلوب من الأنصار أن يكونوا من ذوي العقيدة الجازمة التي لاشك فيها ولاتردد، والتي تجعلهم يرمون بأنفسهم الى الموت وهم واثقون من نيل النصر النهائي حتماً. ان اللا أدريّة حرفة الفلاسفة القابعين في ابراجهم العاجية وهي لاتلائم جماهير الناس الذين هم في الواقع وقود التاريخ.

واستدرك الرجل عند هذا قائلاً: ان اللا أدريين والموضوعيين غير المتحيّزين قد أنتجوا بلا مراء أفكاراً عظيمة ساهمت في تقدم البشريّة، ومن الممكن أن نعد ماركس نفسه منهم، فهو قبل أن ينتج نظريته الكبرى لابد أنه مرّ بمرحلة الشك وعدم الإلتزام، إذ لو كان في بداية أمره ملتزماً متحيزاً لما تمكن من ابداع نظريته.

ان نظريته جديدة بالقياس الى النظريات السابقة لها، أو هي بعبارة أخرى تركيب وتوفيق من تلك النظريات، كما هو شأن جميع النظريات الابداعيّة الجديدة.

وانتهى الرجل أخيراً الى القول بأن الماركسيّة لاتبخس المفكرين المبدعين

قيمتهم، إنما هي لاتحب أن تجعل طريقة تفكيرهم طريقة عامة يتبناها الجمهور. فهي طريقة تصلح لنفر محدود من البشر، ولكنها لايمكن أن يفهمها سواد الناس أو ينتفعوا بها. ان المفكر المتحرر قد يتقزز مما يجد في الكتابات الماركسيّة من نصوصيّة جامدة وعبارات مكرّرة، ولكنه لايدري أن هذه النصوصيّة لها وظيفة نفسيّة واجتماعيّة كبيرة، إذ هي ترسّخ الثقة في قلوب الجماهير وتجعلهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بأنهم سيغيّرون العالم ولابد أن يغيروه عاجلاً أو آجلاً.

اعترضت علىٰ هذا الكلام قائلاً: إذا كانت الماركسيّة في الماضي في حاجة الى ذلك من أجل اجتذاب الانصار، فانها الآن ليست في حاجة إليه. ان الانجازات الرائعة التي أنجزتها الماركسيّة في الاقطار الاشتراكيّة هي خير دعاية لها وخير شاهد علىٰ عظمتها. يكفي للماركسيين أن يقولوا للناس: تعالوا انظروا الى الاشتراكيّة في التطبيق واحكموا. ولا داعي للماركسيين إذن أن يتدخلوا في بعض المواضيع الفلسفيّة والعملية كتفسير الكون والتاريخ وطبيعة الانسان. آن لهم أن يتركوا هذه المواضيع للمختصين فيها من الفلاسفة والعلماء، أما هم فينبغي أن يهتموا بمعالجة المشاكل التي تكتنف تطبيق الاشتراكيّة ونجاحها. فهذا هو الطريق الذي يصل بهم الى النصر الأكبر في الأمد البعيد.

همّ الرجل بالجواب علىٰ اعتراضي هذا، غير أن طارئاً طرأ جعله يعتذر عن إتمام الحديث، ووعدني أن يتمه في فرصة أخرىٰ. ويؤسفني أن الفرصة لم تسنح بعد.

محتويات الكتاب